

النفسير الوعظي لسورة النساء

تأليف
د. محمد محمود الطرايرة

قدم له
أ.د. أحمد خالد شكري

النَّفْسِ الْوَعِظِيَّةِ
لِسُورَةِ النِّسَاءِ

التفسير الوعظي لسورة النساء

الدكتور محمد محمود الطرايرة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٥١٤٥ / ١٢ / ٢٠٢٠)

رقم التصنيف : ٢٢١،٥٤

الواصفات : / سور القرآن // تفسير القرآن // الوعظ والإرشاد
// القرآن الكريم

الطبعة الأولى ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للتواصل مع المؤلف

☎ +962 79 617 69 69

✉ m-Tarira@hotmail.com

📌 د-محمد الطرايرة

عمان - الأردن

التفسير الوعظي لسورة النساء

تأليف:

د. محمد محمود الطرايرة

قدم له:

أ.د. أحمد خالد شكري

راجع آياته ودققها:

فضيلة الشيخ عبد الكريم يونس

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب التفسير الوعظي لسورة النساء

الحمد لله الذي أنزل الكتاب، هدى وتبصرة لأولي الألباب، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآل والأصحاب، ومن سار على دربهم بلا ارتياب، وثبت على الحق إلى يوم الحساب، وبعد.

فقد أنزل الله تعالى كتابه الحكيم ليكون هدى ورحمة وموعظة للمتقين، ومن أجل استخراج ما فيه من معاني وتوجيهات وأوامر بذل المفسرون على مرّ العصور جهوداً كريمة، وسلكوا مسالك متعددة، فمنهم المقتصر على التفسير بالأثر، أو اللغة، أو الاستنباط والتأويل، أو الجامع بينها، ومنهم المتوسع في عرضه، أو الموجز فيه، ومنهم المقتصر على بيان المعنى، أو المضيف إليه ما يراه مناسباً من مباحث النحو والبلاغة والفقه وغيرها، أو من اللطائف والفوائد والدروس والعبر.

وقد يعجب بعض الناس من كثرة كتب التفسير ويتساءل: لم هذه الكثرة، وهذا الإقبال على التأليف في التفسير، ألا يكفي ما كتبه المتقدمون أو بعضهم في توضيح معاني الآيات، فلم التكرار والاجترار والإعادة، وقد يحق لغير المتخصصين أن يقع في نفوسهم هذا السؤال والإنكار ولكنهم حين يعلمون أن كتب التفسير كالحديقة الغناء ذات الأشجار المتنوعة في أحجامها وثمارها وأوراقها، وذات الأزهار المتنوعة في روائحها الطيبة وألوانها الجذابة، وأنه لا يكاد يتفق اثنان من هذه التفاسير الكثيرة في محتوياتهما، فكل مفسر له بصمته وشخصيته وترجيحه ورأيه وتميزه عن غيره.

ومن أسباب الإقبال على التأليف في التفسير ما فيه من خدمة لكتاب الله تعالى، وتقريب لمعانيه، ولذا لا نعجب من كثرة ما أُلّف فيه، وقد أحصيت مع مجموعة من طلبتي كتب التفسير الكاملة باللغة العربية في المئة سنة الأخيرة فوجدناها تزيد عن مئة وسبعين، وهذا العدد الكبير

يمثل ثروة معرفية كبيرة، ومجالاً خصباً للبحث في معاني الكتاب الكريم، وهي متنوعة جداً في مناهجها وأساليبها.

وممن سار في درب التفسير وسلك سبيله بسلسلة من الكتب تصدر تباعاً، الأخ الفاضل، والداعية المتميز، والمربي الكبير، صاحب الأسلوب المشوّق في كتابته ووعظه وحديثه، وباذل الجهد الكبير في خدمة الكتاب الحكيم تعليمًا وتحفيظًا وفهمًا وتدبرًا، والمبدع في إدارة المشاريع العلمية في هذا الميدان، والمستمر في متابعتها دون ملل ولا كلل، ولا فتور ولا تقصير، ولا يعرف للراحة طعمًا إلا في ميدان خدمة القرآن، الدكتور محمود الطرايرة، وكنت قد عرفته طالبًا مجتهدًا بين أقرانه، ثم عالمًا متميزًا في عطائه وارتقائه، ومن جوانب التميز عنده الشروع في هذا التفسير، وقد أحسن إذ سمّاه: التفسير الوعظي، حيث اعتنى فيه بإبراز هذا الجانب اعتناءً ظاهرًا، وقد طالعت هذا الجزء منه المخصص لتفسير سورة النساء، فوجدت فيه من اللفات الجميلة والوقفات العميقة والتنبيهات السديدة والترجيحات الموفقة والفوائد العديدة، وروعة الأسلوب، وجودة الاختيار ما يجعله حريًا بالمطالعة وتبويّ موقع بارز بين كتب التفسير الحديثة، وأدعو فضيلة الدكتور إلى مواصلة السير على هذا المنهج لإتمام ما بدأه، ليحظى بشرف الانضمام إلى ديوان المفسرين، فيذكر مع الأئمة الكبار: كالطبري، والقرطبي، وابن عطية، والفخر الرازي، والبغوي، والبيضاوي، وأبي حيان، وابن عادل، وابن كثير، وأبي السعود، والشوكاني، والآلوسي، وسيد قطب، وابن عاشور، والشعراوي، وفضل حسن عباس، وعبد القادر العاني، ومحمد علي الصابوني، وأمثالهم ممن خلّد ذكرهم خدمتهم لكتاب ربهم، وإنه لذكر طيب مبارك، وحصوله نعمة عظمى ومنّة كبرى.

أ.د. أحمد خالد شكري

مدرّس علوم القرآن والتفسير في الجامعة الأردنية وجامعة قطر

الدوحة في ٢٢/٤/١٤٤٢هـ

الموافق ٧/١٢/٢٠٢٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحَمْدُ لله الذي أكرمنا بالإسلام، وشرح صدورنا لتلاوة القرآن وفهمه، وأعدَّ لمن صدقه في ذلك الدرجاتِ العُلا في الجنان.

أحمدُه على نِعَمِهِ التي لا تنقطع، وآلائه التي لا تنقضي.

سُبْحانَه؛ ما يفتح للناس من رحمةٍ فلا مُمسك لها.

وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ على الرَّحْمَةِ المهداة، سيدِّ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، البشيرِ النذير، الذي اصْطَفاهُ رَبُّنا مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، وجعله رسولاً للناس أجمعين، صَلَواتُ رَبِّي عليه وعلى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطاهرين، وعلى أَصْحابِهِ حَمَلَةِ الشرع ومصابيحِ الهدى، وقُدَواتِ المؤمنين الصالحين، وبعدُ:

فَهذا تفسيرٌ لسورة النَّساء، قصَّدْتُ مِنْهُ تَقريبَ عباراتِ أهلِ العلم في معاني الآيات وأحكامها مِنْ عُمومِ النَّاسِ، لا سِيَّما أَنَّ عددًا من كُتُبِ التفسير فيها لغةٌ عاليةٌ وصعبةٌ على أهلِ الزمان، فكانت طريقة التصنيف قائمةً على انتقاءِ العباراتِ القريبةِ من الأفهام، والاهتمامِ ببيانِ المعنى بأكثر من مُفردةٍ وعبارَةٍ. وهذا التفسيرُ يَنْتَفِعُ به كذلك صِنْفٌ من طلبةِ العلم والدُّعاةِ إلى اللهِ تعالى، مِمَّنْ تصدَّرَ لمجالسِ الوعظِ والإرشادِ في مُختلفِ مُؤَسَّساتِهِ.

وفكرته كذلك تقتصرُ على تقديمِ آياتِ كتابِ اللهِ تعالى على هَيْئَةٍ مواعظ، تَنْفَعُ قارئها وحافظها، عن طريق توضيح المقصودِ منها وبيانِ السياق الذي جاءت فيه، وذكرِ سببِ نزولها إن وُجد، ثُمَّ محاولةِ ربطها بالواقع الذي نعيشه دون تكلفٍ أو إسهاب.

وقد أَسَمَيْتُهُ وَوَسَمَّيْتُهِ بِـ "التفسيرِ الوَعْظِيّ"، مُسْتَمِدًّا ذلك من عددٍ من آياتِ القرآن العظيم التي بَيَّنَتْ أَنَّ الله تعالى أنزلَ كتابه، وذكر فيه ما ذَكَرَ، ليكونَ موعظةً للناس وتذكراً لعلَّهم يَهْتَدُونَ، وذلك كقولِ الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقوله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله: ﴿طه﴾ ١ ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ٢ ﴿إِلَّا نَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه: ١-٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا نَذْكِرَةٌ﴾ ١١ ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ١٢ ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ ١٣ ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ ١٤ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ ١٥ ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أَنَّ القرآن موعظةٌ وتذكرةٌ لِمَن كان له قلبٌ، أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ وَالذُّنُوبِ، مِمَّنْ غَفَلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ تَسْتَقِمَّ جَوَارِحُهُمْ، وَجَدَ أَنَّ وُصُولَ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ لَهُمْ مِفْتَاحٌ مِنْ مِفَاتِيحِ هِدَايَتِهِمْ وَرَجُوعِهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْهُدَى، ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى وَيُحِبُّ سَمَاعَ كَلَامِهِ، وَعِنْدَهُ شَغَفٌ وَشَوْقٌ عَجِيبٌ لِلْعِيشِ مَعَ مَعَانِي الْآيَاتِ وَظِلَالِهَا، بِأَسْلُوبٍ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْهُ وَمِنْ قُورَانِهِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الْخَوْضِ فِي هَذَا الْعِلْمِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ وَاعِظًا لِلنَّفْسِ أَجْوَدَ وَأَقْرَبَ وَأَحْلَى مِنْ كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ فِي عُلَاهِ. وَقَدْ حَرَضْتُ عَلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، وَذَكَرْتُ الْأَحَادِيثَ الْخَادِمَةَ لِفَهْمِ الْآيَةِ، وَأَخَذْتُ الْمَوْعِظَةَ مِنْهَا، وَالْمُرُورَ عَلَى مُجْمَلِ أَقْوَالِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالْفَقْهِ إِنْ لَزِمَ.

وَكَانَ مِنْ مَنْهَجِي فِي ذِكْرِ الْأَحَادِيثِ أَلَّا أَذْكَرَ حَدِيثًا إِلَّا رَاجَعْتُ كَلَامَ أَهْلِ التَّخْصُّصِ فِيهِ تَصْحِيحًا وَتَضْعِيفًا، ثُمَّ حَرَضْتُ عَلَى ذِكْرِ الصَّحِيحِ مِنْهَا غَالِبًا، مُشِيرًا إِلَى الْأَحَادِيثِ الَّتِي حَصَلَ فِيهَا خِلَافٌ أَوْ كَانَتْ ضَعِيفَةً، حَالِ ذِكْرُهَا.

وَجُلُّ هَذَا التَّفْسِيرِ قَائِمٌ عَلَى مَرَاجِعٍ ثَابِتَةٍ لَا أُخْرِجُ عَنْهَا إِلَّا إِذَا احْتَجَجْتُ، وَهِيَ: كِتَابُ "جَامِعِ الْبَيَانِ عَنْ تَأْوِيلِ آيِ الْقُرْآنِ" لِلْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرِ الطَّبْرِيِّ، وَكِتَابُ "تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ" لِلْإِمَامِ ابْنِ كَثِيرٍ، وَتَفْسِيرُ "الْمَنَارِ" لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ رَشِيدِ رِضَا، وَتَفْسِيرُ "تَيْسِيرِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ" لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ، وَتَفْسِيرُ "التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ" لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الطَّاهِرِ ابْنِ عَاشُورٍ، وَتَفْسِيرُ "أَضْوَاءِ الْبَيَانِ" لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا.

وَلَا يَفُوتُنِي أَنْ أَشِيرَ إِلَى أَنَّ فِكْرَةَ التَّفْسِيرِ الْوَعَظِي لَيْسَتْ بِدَعَا مِنْ الْقَوْلِ، فَإِنَّ اسْتِنْبَاطَ الْمَوَاعِظِ وَذِكْرَهَا دَأْبُ غَالِبِ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِهِمْ، وَهُوَ جُزْءٌ مِنَ التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ لِلْمُتَخَصِّصِينَ فِي هَذَا الشَّانِ.

بَلْ إِنَّ عِدَدًا مِنْ أُمَّةِ التَّفْسِيرِ قَدْ خَصُّوا مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ بِتَفْسِيرٍ مُسْتَقِلٍّ، فَكَانَتْ فِكْرَةُ هَذَا الْكِتَابِ وَهَذَا الْعُنْوَانِ مُسَبَّوْقَةً بِجَهْدٍ هَوَّلَاءِ الْأَعْلَامِ.

وَمِنْ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ كِتَابُ "تَنْبِيهِ الْأَفْهَامِ إِلَى تَدْبِيرِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ وَتَعْرِفِ الْآيَاتِ وَالنَّبَأِ الْعَظِيمِ" لِابْنِ بَرَّجَانَ، وَهُوَ الْإِمَامُ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ اللَّخْمِيِّ الْإِفْرِيقِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٣٦ هِجْرًا.

وَمِنْ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ كَذَلِكَ كِتَابُ "رُوحِ الْبَيَانِ" لِلشَّيْخِ إِسْمَاعِيلِ الْبُرُوسِيِّ، وَاسْمُهُ إِسْمَاعِيلُ حَقِّي بْنِ الشَّيْخِ مُصْطَفَى الْإِسْتَنْبُولِيِّ الْإِيدُوسِيِّ الْحَنْفِيِّ أَبُو الْفِدَاءِ، وَقَدْ اخْتَصَرَهُ الشَّيْخُ الصَّابُونِيُّ وَسَمَّى الْمُخْتَصَرَ: "تَنْوِيرَ الْأَذْهَانِ مِنْ تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ لِلْبُرُوسِيِّ".

وَلَا يَفُوتُنِي قَبْلَ أَنْ أَتْرُكَكُمْ وَمَوَاعِظَ آيَاتِ سُورَةِ النِّسَاءِ، أَنْ أَشْكُرَ كُلَّ مَنْ أَعَانَ عَلَى إِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ، سَائِلًا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ وَيَكْرِمَهُمْ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، حَرِيصًا عَلَى عَدَمِ ذِكْرِ أَسْمَائِهِمْ؛ فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى يَكْفِيهِمْ.

سُورَةُ النِّسَاءِ

سُورَةُ النِّسَاءِ مَدَنِيَّةٌ، وَفِيهَا آيَاتٌ أَبَكَتْ نَبِيَّنَا ﷺ لَمَّا سَمِعَهَا مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ؟ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ».

وسورة النساء من السور التي قرأها ﷺ في قيام ليله، كما دلَّ على ذلك ما أخرجه الترمذي والنسائي عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَاسْتَفْتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَقَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ لَمْ يَرَكَ، فَمَضَى قُلْتُ: يَخْتِمُهَا فِي الرَّكَعَتَيْنِ، فَمَضَى قُلْتُ: يَخْتِمُهَا ثُمَّ يَرَكَ، فَمَضَى حَتَّى قَرَأَ سُورَةَ النِّسَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» وَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» لَا يَمُرُّ بِآيَةٍ تَخْوِيفٍ أَوْ تَعْظِيمٍ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَّا ذَكَرَهُ.

وقد سُمِّيتْ سُورَةُ النِّسَاءِ بهذا الاسم لما فيها من أحكام تخص المرأة وبيتها وأسرتها، وتحفظ عليها حقوقها التي كان أهل الجاهلية يعبثون بها، وتُبَيِّنُ أحكام ميراثها ومهرها المُضِيِّينَ عند كثير من الناس، وكذا تعطيها حقها في الكسب والتملك، وغير ذلك مما سيأتي معنا.

وفي السورة عناية ملحوظة بنظام الأمة الاجتماعي، وتنظيمٌ عجيبٌ لعلاقة أفرادها ببعضهم وبغيرهم في مختلف جوانب الحياة، وفيها معالم تشريعية راقية مما لا يستطيعه بشر ولن يستطيعوه.

والسورة فيها من تعظيم الله ما فيها، وفيها من العناية بحقوق الأيتام ما فيها، وفيها من بيان العقائد وتصحيحها ما فيها.

وفي كلام الصحابي الجليل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يُنبِّئُكَ عن خبر هذه السورة، فقد قال كما أخرج الدَّارِمِيُّ فِي سُنَنِهِ: «مَنْ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ فَهُوَ غَنِيٌّ، وَالنِّسَاءَ مُحَبَّرَةٌ». أَي: مُزَيَّنَةٌ، وَفِيهَا الرِّضَا وَالسُّرُورُ وَالْإِحْكَامُ، كَمَا هُوَ حَالُ كُلِّ الْقُرْآنِ.

قلت: فكما أن المرأة الصالحة زينة الحياة الدنيا وخير متاعها، وفي القرب منها من الأنس والسرور ما لا يعلمه إلا الله، فكذلك كانت سورة النساء زينة للقرآن وسبباً لسرور من قرأها وفهمها وحفظها.

ومن روعة هذه السورة وروعة آياتها ما عاشه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك فيما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بسند حسنه بعض أهل العلم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ لَحَمْسَ آيَاتٍ مَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

والم تأمل للآيات التي أدخلت السرور على قلب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يجد أنها تدور حول الرجاء وحسن الظن بما عند الله، وتفتح أبواب الرحمة للعاصين والمذنبين. ومن كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كذلك فيها، ما أخرجه البخاري من قوله: «نَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ الْقُصْرَى بَعْدَ الطُّوْلِ». يقصد بالقصرى سورة الطلاق، وبالطولى سورة النساء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١)

تتميز هذه السورة بكثرة النداء فيها، والنداء هنا مختلف لأنه من رب العزة، وهذا يعني الكثير للمؤمن، فإنه يعلم أن الله تعالى يريد به الخير، وأنه بعد كل نداء يحمل له ما فيه تكريم وعون وهداية، ودلالة على طريق الاستقامة.

الخطاب في الآية جاء لكل الناس وليس لمن آمن منهم فقط، وذلك ليشمل أهل الإسلام وغيرهم ممن يعيش في زمن نزول القرآن وممن سيأتي بعدهم، فإن المعاني التي حملتها الآية وما بعدها لا تستغني عنها أمة أرادت فلاح الدنيا فقط، أو أرادت فلاح الدارين.

وأهل التقوى هم الذي تنفعهم الموعظة والتذكرة، ويعيشون بجوانحهم وجوارحهم مع ما جاءت به السورة من عقائد وأحكام، فكانت وصية الناس بتقوى الله في أول السورة نافعة لهم ليتعظوا ويتذكروا.

نداءً من الله تعالى في مطلع السورة للناس جميعاً، بأن يتقوا ما يُسخط ربهم وخالقهم ومُدبّر أمرهم، وأن يجتنبوا غضبه، وأن يوحّدوه ويؤدّوا حقوق عبوديتهم له وينزهوه عن الشركاء، وأن يتأملوا معالم قدرته وعظمته في أنفسهم وفيما حولهم، فقد خلقهم من نفس واحدة، وَهِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وَهِيَ حَوَاءُ، عَلَيْهَا السَّلَامُ، خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ، فَأَنَسَ إِلَيْهَا وَأَنَسَتْ إِلَيْهِ. أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ (أحد عظام الصدر)، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ».

ما أجمله من استفتاح للسورة يحمل امتناناً على الذّكرانِ بِخَلْقِ النِّسَاءِ لَهُمْ، وامتناناً على النِّسَاءِ بِخَلْقِ الرِّجَالِ لَهُنَّ، ليتحقّق السكن والرحمة وما لا بد منه.

وفيه الإشارة إلى آية من آيات الله في الخلق مما يدل على عظمته وعلمه وحكمته، كيف أخرج سبحانه من نفس واحدة كلّ هذا التنوع والاختلاف بين البشر، فلا إله إلا هو.

ومما يدل على روعة هذا الاستفتاح وجماله استعمال النبي ﷺ لهذه الآية في خطبه وتوجيهاته التي كان يعظ أصحابه فيها، كما في خطبة الحاجة التي أخرجها أحمد والنسائي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَفْرَأُ ثَلَاثَ آيَاتٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]».

وأخرج مسلم عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حِفَاءُ عَرَاءُ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ (يعني لابسين ثيابا قليلة كأنهم عراة)، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ فَتَمَعَرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ (يعني: تغير وجهه حزناً لما هم فيه من الفقر والحاجة)، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَا فَاذَنْ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء]، وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر] «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصُرَّةٍ (ربطة دراهم أو دنانير) كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجُزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ (كلون ماء الذهب من فرحه)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

ولعل مناسبة قراءة النبي ﷺ لهذه الآية في هذا الموضع، تذكيرهم بأن أصل خلقهم كان مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ؛ لعل بعضهم يعطف على بعضٍ، ولعل القوي يرأف بالضعيف، وكذا الغني بالفقير، وكذا المحسن بالمسيء، فكان ذكرها لفائدة نفيسة فتأملوا.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أَي: وخلق من آدم وحواء كل هذا الخلق من الرجال والنساء، ونشرهم وفرّقهم في هذه الدنيا ليُحسنوا عمارتها بالكامل ويتنفعوا بجميع خيراتها، وهذه آية من آيات الله في الأرض التي تدل على عظمة الخالق جل وعلا.

ولكم أن تُبصروا تنوعَ هذا الخلق، واختلافَ أَصْنَافِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، فكل ما في ذلك يدل على أنه الله.

جاء التذكير هنا بنعمة النسل الذين تكون بهم ديمومة نِعَمِ الدنيا وتزداد جمالاً وبهاءً، وذلك بعد أن أشارت الآية إلى نعمة إكمال كل من الزوجين نقص الآخر.

ولقائل أن يقول: لم وصف الرجال بالكثرة هنا ولم توصف النساء؟ والجواب أن تقدير الآية: وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً كثيرات، لكن لفظة الكثرة مع النساء حذفت لدلالة ما قبلها عليها، وهذا ما يسمى عند أهل اللغة: الإيجاز بالحذف.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ تأكيد على طريق الفوز بجنة ربنا، القائم على تحقيق خشيته في السر والعلن، والإحسان في التوحيد والعبودية.

يا من تتساءلون بالله إذا أراد واحدكم أن يتعاقد على شيء ويتعهده عليه مع الآخر، ويا من تنطلق ألسنتكم بسؤال الطرف الآخر بالله ليمتنع عن فعل كذا وكذا أو يُقبل عليه، ويا من يجري في كلامه الحلفُ بالعظيم والإقسامُ به وإن كان ظاهر حاله البعدُ عن الله ودينه، تقول الآية لكل

هؤلاء: اتقوا الله وراقبوه، واجتنبوا الحرام واهجروه، وأقبلوا على الطاعات واجتهدوا فيها لعلكم تكتبون في ديوان السماء من المقبولين، أيّ تهيج هذا للإقبال على العظيم جلّ وعلا!

وكذلك توجهنا الآيات لأمر يحمل دلالة على تمام التقوى وحسن العبودية، ألا وهو صلة الرحم، فالآية تقول لنا: اتقوا الله الذي تتعاهدون باسمه ورقابته، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، أو أن تتساهلوا في حقوقها، وَلَكِنْ بَرُّوْهَا وَصَلُّوْهَا، وهذا المعنى يأتي على قراءة من جعل الأرحام معطوفة على لفظ الجلالة (الله)، وهذه قراءة الجمهور.

وهناك قراءة صحيح ومتواترة جاءت بكسر الميم في لفظة ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾، فتكون معطوفة على الضمير المجرور في كملة (به)، فيصبح تقدير الآية: اتقوا الله الذي تسألون به واتقوا الرحم التي تسألون بها، ويصبح في المعنى إشارة إلى ما كانت العرب تفعله فيما بينها من التساؤل بحق الرحم كما كانت تتساءل بالله، فتقول: أسألك برحمتك أن تفعل كذا وكذا.

وكانت العرب في الجاهلية تقول: «نَاشَدْتُكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ»، وأخرج البخاري في قصة صلح الحديبية وما جرى بعدها، أن قريشا أَرْسَلَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ جَاءِهِ مُسْلِمًا بَعْدَ أَنْ كَانَ الشَّرْطُ أَنْ يَرَدَّهُ.

وتساؤلهم فيما بينهم بالأرحام يدل على تعظيمهم إياها، فناشدهم الخطاب الرباني أن لا يُهْمِلُوا حُقُوقَ قَرَابَتِهِمْ، وَلَا يَعْتَدُوا عَلَى الْإِيْتَامِ مِنْ إِخْوَتِهِمْ وَأَبْنَاءِ أَعْمَامِهِمْ، وَلَا تُنَاقِضَ أَفْعَالُهُمْ أَقْوَالَهُمْ، وَلَا يَقْطَعُوا أَرْحَامَهُمْ بِكُفْرِهِمْ، فإن محمدا ﷺ رحم لهم وكذا أكثر أصحابه الذين

آمنوا معه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]

والسياق القرآني هنا يجعلنا ندرك قيمة قرابتنا في حياتنا، وعظم حقوقهم علينا، وضرورة مجاهدة أنفسنا في الإحسان إلى من أساء منهم، وصلة من قطع منهم، والعفو عن ظلم منهم، ودعوتهم إلى الله والسعي في هداية من ضلّ منهم، فإن الرحم واقفة لأصحابها على الصراط، وقد تعهد الله تعالى بأن يصل من وصلها.

وفي ديننا: سؤال الآخر برحمه ليست نوعاً من أنواع الحلف ولا صيغة من صيغه على قول أكثر أهل العلم، لأن الحلف يكون بالله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته فقط، ولكن السؤال بالرحم نوع توسل واستعطاف يقوله البعض قاصداً به: أسألك بحق الرحم ومكانتها وحرمتها أن تفعل كذا وكذا.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قد أحاط الله بجميع أحوالكم ونياتكم وأقوالكم وأعمالكم، وهو شهيد عليها.

والمطلوب: راقبوه فيها، فإن زلتم فالزموا باب التوبة واقرعوه واثبتوا حتى تلقوا ربكم.

﴿وَأَتُوا اللَّيْنَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

يأتي التذكير بحقوق الأيتام بعد التذكير بتقوى الله وحقوق الأرحام، وهذا يدل على عظم مكانة حقوق الأيتام في منظومة الشريعة.

ثم إن في عطف إيتاء الأيتام أموالهم على اتقاء الأرحام من القطع إشارة إلى أن غالب الأولياء الذين يتصرفون في أموال الأيتام يكونون من الرحم والقربة، فلزم تذكيرهم بحسن مراقبة الله ومراعاة أواصر هذه العلاقة وعدم الاعتداء عليها.

جاءت آيات متعددة في سورة النساء وغيرها في حفظ حق اليتيم وضرورة الإحسان إليه، فضلاً عن كنوز السنة النبوية في ذلك، فاليتيم ذكراً كان أم أنثى، انكسر قلبه بفقد أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وهو ضعيف لا يجيد الاعتماد على نفسه، ويحتاج إلى ولاية على ماله ونفسه إلى أن يشتد عوده ويبلغ، ويكون رشيداً في قوله وفعله.

تأمر الآية الولي على مال اليتيم أن يدفع ماله إليه، ويعطيه إياه إذا تحقق بلوغه وحصل رشده كما سيأتي بيانه في الآية السادسة.

﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ الآية تحمل تحذيراً لكل من سوّلت له نفسه أن يعتدي على مال يتيم مستغلاً ولايته عليه، ومستغلاً صغر هذا اليتيم وجهله، وهذا الاعتداء قد يكون بمنعه حقه من الميراث، أو بالتقصير في حفظ ماله والاعتناء به، أو قد يعجبهُ شيء من مال اليتيم فيأخذه أو يستبدله بالرديء من ماله، أو يستغله بوجه ما لمصالحه الشخصية.

يا أيها الولي، إياك أن تمتد يدك إلى مال اليتيم لتنتفع به، فإن ذلك من أخبث الأعمال وأبغضها إلى الله، واعلم أن ما أخذته من مال اليتيم بغير حق مأل خبيث لا يحل لك، فلا تبدل هذا بما أباحه الله من أوجه تحصيل الرزق الطيب الحلال من طرائق التجارة والإجارة والشركة ونحو ذلك.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ لفظة «إلى» هنا بمعنى «مع»، يعني: يا أيها الأوصياء على أموال اليتامى: لا تضموا أموالهم إلى أموالكم، وتخلطوها وتأكلوها جميعاً كأنها لكم.

ولفظة الأكل هنا عجيبة في دلالتها على بشاعة ما يفعله المعتدي على مال اليتيم، فكأنها تشير إلى أنه استهلك المال وَلَا مَطْمَعَ فِي إِرْجَاعِهِ، كما يحصل مع الطعام الذي نأكله.

وسأتي في الآية السادسة بيان المنفعة التي أباحها الشرع للولي من مال اليتيم.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ الحوب هو الإثم. وختام الآية يدل على أن الاعتداء على مال هذا الضعيف فيه إثم عظيم، فليحذر من وَلِيٍّ شَيْئًا من ذلك، وليحرص على أداء الأمانة فإنه خيرٌ له عند ربه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنًى وَتِلْكَ وَرُبُعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (٣)

نزلت الآية فيمن كان ولياً على يتيمة وكانت تحت وصايته، وكانت هذه اليتيمة ممن يباح له الزواج منها كابنة عمه أو ابنة عمته أو غير ذلك، فرغب أن ينكحها، وخشي ألا يعطيها مهرها الذي تستحقه كمثيلاثها من النساء، أو أن يستغل ولايته لِيُسْقِطَ حقوقها عنه ولا يؤديها، فإلى هذا الصنف من الناس جاء الأمر الرباني في حقه: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا وتعدلوا في الزواج من اليتيمات وألا تعطوهن حقوقهن من المهر والنفقة، فاتركوا الزواج منهن، واعدلوا إلى نكاح غير اليتيمة من النساء اللواتي أباح الله لكم نكاحهن، زوجة واحدة تقتصرون عليها، أو تجمعون مع شرط العدل بين اثنتين أو ثلاث أو أربع.

أخرج البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَدَقٌ (أي: نخلة). وَكَانَ يُمَسِّكُهَا عَلَيْهِ (يتنفع هو بهذا النخل)، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ (يعني: لم يعاملها معاملة الأزواج ويعطيها حقوقها) فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾.

وأخرج البخاري عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] ، قَالَتْ: هِيَ الْيَتِيمَةُ فِي حَجَرٍ وَلِهَا، فَيَرْغَبُ فِي جَمَالِهَا وَمَالِهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِأَدْنَىٰ مِنْ سُنَّةِ نِسَائِهَا (أي: في المهر)، فَتُهَوِّا عَنْ نِكَاحِهَا إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ (أي: المهر)، وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتَى النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] ، قَالَتْ: «فَبَيْنَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْيَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا، وَلَمْ يُلْحِقُوهَا بِسُنَّتِهَا بِإِكْمَالِ الصَّدَاقِ، فَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ تَرَكَوْهَا وَالتَّمَسُّوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ».

والمقصود من كلام أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ تُحَرِّمُ ظِلْمَ الْيَتِيمَةِ مِنْ قَبْلِ وَلِيهَا إِذَا أَرَادَ الزَّوْاجَ مِنْهَا، وَتَمْنَعُهُ مِنَ التَّضْيِيقِ عَلَيْهَا وَاسْتِغْلَالِ وَلَايَتِهِ بِمَا لَا يَرْضِي اللَّهُ تَعَالَى، وَأَنَّ الصَّحَابَةَ سَأَلُوا رَسُولَنَا ﷺ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ حُكْمِ نِكَاحِ الْيَتِيمَاتِ وَمَا كَانَ مِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي حَقِّ الْيَتِيمَةِ، فَقَدْ كَانَ وَاحِدُهُمْ يَتَزَوَّجُ الْيَتِيمَةَ دُونَ أَنْ يُعْطِيَهَا مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ مَهْرٍ إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ جَمِيلَةً تَرَكَ الزَّوْاجَ مِنْهَا وَمَنْعَهَا مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِهِ لِيَبْقَى مَالُهَا قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَمَرْتُهُمُ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ بِالْعَدْلِ مَعَهُنَّ بِإِعْطَائِهِنَّ أَعْلَىٰ مَهْرٍ تَسْتَحِقُّهُ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ إِذَا أَرَادَ الزَّوْاجَ مِنْهَا، وَأَمَرْتُ بِإِدَاءِ حَقِّهَا كَامِلَةً غَيْرَ مَنقُوصَةٍ، أَوْ أَنْ يَأْذَنَ لَهَا بِالزَّوْاجِ مِمَّنْ هُوَ كَفءٌ لَهَا، وَيَتَزَوَّجَ هُوَ غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ مَنْ شَاءَ. وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي بَيَّنَّتْهُ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تَوْفُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

وَلَا يُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ حُكْمَ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ خَاصٌّ بِمَنْ كَانَ تَحْتَ وَلَايَتِهِ يَتِيمَةً وَخَشِيَ ظِلْمَهَا كَمَا أَلْمَحَ إِلَىٰ ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ كَلَامَ اللَّهِ وَأَصُولَ تَفْسِيرِهِ، فَالْآيَةُ إِنَّمَا وَصَفَتْ حَالَةَ كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُهَا، ثُمَّ أَعْطَتْ حُكْمًا شَرْعِيًّا عَامًّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُعَدِّدَ فِي النِّكَاحِ سِوَاءَ أَكَّانَ وَلِيًّا عَلَى يَتِيمَةٍ أَمْ لَمْ يَكُنْ وَلِيًّا.

وَالْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ يَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ مَنْ كَانَتْ عِنْدَ يَتِيمَةٍ وَتَزَوَّجَهَا وَأَعْطَاهَا كَامِلَ حَقِّهَا، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا فَلَهُ ذَلِكَ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ﴾، قَالَتْ: «الْيَتِيمَةُ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ وَهُوَ وَلِيُّهَا، فَيَتَزَوَّجُهَا عَلَىٰ مَالِهَا، وَيُسِيءُ صُحْبَتَهَا، وَلَا يَعْدِلُ فِي مَالِهَا، فَلْيَتَزَوَّجْ مَا طَابَ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا، مِثْلِي وَمِثْلِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعًا».

وقول الله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أي: ما أحببتم مما أباحه الله لكم.

وهذه الآية التي شرعت تعدد الزوجات في الإسلام، حاول عدد من المُغرضين وأصحاب القلوب المريضة إسقاط دلالتها على هذا الحكم الشرعي الذي أجمع المسلمون عليه، وفعله ﷺ والصحابة الكرام، ولا زال المسلمون يتوارثونه ويفعلونه إلى أيامنا هذه، أقول: هؤلاء أرادوا إسقاط مشروعية التعدد بإسقاط دلالة الآية تارة، وبإلصاق الظلم بالتعدد تارة، وبالتركيز على سلوك بعض المعددين تارة، ولهم في ذلك عبارات فتنت قلوب عدد لا بأس به من أبناء هذه الأمة وبناتها، وفي ذلك أقول مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه:

١- ليست الآية هنا هي الدليل الشرعي الوحيد في إثبات إباحة التعدد، بل جاءت نصوص حديثة كثيرة في ذلك، وأجمع أهل العلم على هذه المسألة بلا خلاف، وما تطاول من تطاول على شرع الله، وما غمز من غمز إلا لشيء في نفسه يحمله على دين الإسلام وأهله وإلى الله المشتكى، قال الله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. أي: وفيكم من يتأثر بكلام المنافقين ويقبل قولهم ويطيعهم.

أخرج أبو داود وابن ماجه عن قيس بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي ثَمَانِ نِسْوَةٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «اخْتَرِ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا».

وأخرج أحمد وابن ماجه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَسْلَمَ غِيلَانُ بْنُ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَحْنُهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «خُذْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا».

٢- التعدد شريعة قائمة في الأمم قبل بعثة النبي ﷺ، وقد جاءت المصادر الدينية والتاريخية بقصص كثير من أنبياء الله وقادة هذا الأمم ممن كان يكثر من الزواج ويعدد، بل إن أهل الجاهلية كانوا قد توارثوا هذا الأمر وتفننوا فيه حتى كان واحد منهم يجمع بين عشر نسوة وأكثر، وكان تعدد الزوجات عندهم مطلقاً بلا أحكام تضمن حقوق الزوجات، ولا فقه يضبط طلاقها وحسن معاشرتها ومعاملتها.

٣- هاجمت طوائف متعددة مسألة التعدد في شريعتنا، ونسبت إليها ما ليس فيها، وجعلتها سبباً من أسباب انتقاص كرامة المرأة وظلمها، وسبباً من أسباب ضياع حقوق النساء والاعتداء عليهن.

والغريب في الأمر أنهم يهاجمون التعدد في شريعتنا دون أن يتأملوا في فقهه وتفصيله، بل تجددهم لا يعلمون من ضوابط التعدد وشروطه إلا القليل، ولا يدركون قيمة المرأة

في شريعتنا أمّا وزوجة وبتّاً وأختاً، فالإسلام أنزل سورة كاملة في القرآن باسم سورة النساء، ورفع قدر أمّنا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بسورة تخصّها، ورفع قدر أمّهات المؤمنين وغيرهن، وأوصى بهن وبالإحسان إليهن في الكتاب والسنة بنصوص كثيرة لا يسع المقام لحصرها والاستطراد فيها.

وفي خصوص التعدد منع من الجَمْع بين أكثر من أربع، واشترط موافقة الزوجة ووليّها على أيّ عقد زواج، وأوجب المهر والنفقة، وكلف بالقوامة التي هي أمانة عظيمة تحتاج إلى الكثير، وأثبت النسب والحقوق والواجبات، وغير ذلك.

ومما نراه في زماننا في عدد من الأمم حولنا أنهم يُقبلون على الزنا والخيانات الزوجية، ويتاجرون بالمرأة حتى أصبحت تجارة الدعارة من أكبر تجارات العالم من حيث الاستثمارات والأرباح، ثم لا نرى لهؤلاء صوتاً يعلو لينقذ المرأة مما هي فيه.

ولا يفوتكم أن هذا الزنا ليس فيه مهر ولا نفقة ولا إثبات نسب ولا حقوق، ولا يفوتكم أن الإحصائيات الواردة من عند القوم مذهلة ومخيفة فيما يتعلق بضرب النساء وتعنيفهن واستغلالهن.

٤- تعدد الزوجات الذي شرعه دين الله تعالى فيه مصالح عظمى تعود على الرجال والنساء والأمة:

أما على الرجال: ففيه إعانة لهم على غض البصر وحفظ الفرج، والنجاة من الوقوع في حبال الشيطان وطرائقه، وإغلاق باب اتخاذ العشيقات، ورؤية المشاهد المحرمة والخلوة بها.

ولا يظن الرجال أن عدم اكتفائهم بزوجة واحدة يعد مسوغاً معتبراً لفعل الحرام والاقتراب منه، وسبب مقبول في مجتمعنا ليخوضوا ذات اليمين وذات الشمال مع أعراض الناس، فالشريعة لا ترتضي لهم ذلك، ولكنها ترتضي لهم أن يقبلوا على إعفاف أنفسهم بزوجة ثانية إذا تحققت فيهم شروط ذلك، أو أن يعتصموا بالله وبالصوم وبالصدقة وبكثرة العبادة.

وليس صحيحاً ما تفعله بعض النساء من السكوت عن سلوك زوجها طرائق الحرام ثم التسخط عليه إذا أراد الزواج، ولا أظن أن لحظة من متعة يقضيها العبد في طاعة الرحمن تقارن بتلك التي تكون في طاعة الشيطان وشركه. أخرج مسلم عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ سئل: أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ (يعني: يجامع زوجته) وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».

وأما مصلحة التعدد على النساء ففيه نفع لمن لم تتذوق حلاوة الزواج وإنشاء البيوت، وفيه تحقيق لنداء الفطرة، أعني فطرة الأمومة التي تسعى النساء لإروائها، وفيه إشباع للعاطفة التي تقوم طبيعة الأنثى عليها بشكل عجيب، وفيه حفظ للمرأة من الوقوع في الزلات، والاستسلام للصوص الأعراض ومتبعي الشهوات.

وفيه كذلك مراعاة لما يعتري الزوجات من أحوال تحول بينها وبين القيام على حاجات زوجها، من كبر السن أو فترات الحيض والنفاس، أو غير ذلك مما لا تملكه، مع العلم بأن الرجل يزيد عن المرأة في فترة الإخصاب بعشرين سنة أو أكثر.

صحيح أن هناك ضرراً يلحق بالزوجة الأولى، لكنه لا يقارن بالضرر اللاحق بمن لم تتزوج، أو بالضرر اللاحق بالزوج حال حاجته لزوجة ثانية لسبب ما، أو بالضرر الذي يلحق بالأسرة إذا انغمس الزوج باتخاذ الخليلات والعشيقات والزانيات، جنبكم ربي الفتن وحفظ عليكم أنفسكم وأهلكم.

وأما مصلحة التعدد بالنسبة للأمة ففيه تكثير لنسلها، وتقوية لها بين الأمم، وسعة في الطاقات والمواهب القائمة على عمارة الأرض وفقاً لشرع الله ومنهجه، ومعلوم لدى العقلاء أن زيادة عدد السكان، ورفع كفاءة الأيدي العاملة سبب عظيم من أسباب قوة الأمة، وهيمنة اقتصادها لو أحسن القادة تدبير أمور الدولة والانتفاع من مواردها كما ينبغي.

والتعدد فيه حل لمشكلة زيادة عدد النساء على الرجال ممن يصلح للزواج، بمعنى: ليس كل الرجال قادرين على الزواج وإنشاء البيوت، ومنهم من يهاجر إلى خارج البلاد ويتزوج من غير المسلمات، وهذا ما لا يكون في النساء.

ومن هنا لو رجعتم إلى النسب الرسمية في عدد من لم يسبق لهن الزواج وقد تقدم بهن السن لوجدتموه مرتفعاً وينذر بشر حال وسوء منقلب، هذا فضلاً عن أعداد المطلقات والأرامل حفظ الله الجميع.

٥- كثير من الأحكام الشرعية ظلمها أصحابها إذا ما أقبلوا عليها، والتعدد واحد منها، فقد وجدنا عدداً من الأزواج الذين قامت حاجتهم لزوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة يبدأ بسلوكات تقوم على التضيق على زوجته وعياله، فهو دائم الضجر مانع للنفقة مؤذٍ لهم، حتى تسوء

العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة، وهذا ما يريده ليرر لهم ولغيرهم سبب زواجه الثاني، وهذا مما لا يرضاه الشرع ومما لم يرشد إليه أو يأمر به، والعقل هو الذي إذا قامت حاجته لزواج ثان أحسن إلى الجميع ولم يظلم أحداً.

ومن أنواع الظلم كذلك أن عدداً منهم يعمد إلى إكرام أبناء إحدى زوجاته وتخصيصهم بكثير من الهبات والعطايا والأموال بدون مسوغ صحيح وسبب معتبر، فتحدث الشحناء والبغضاء، وقد يهجر الأولى وأبناءها ويقسو قلبه عليهم، ويقع هو في ظلم لا يعلم به إلا الله، وهذا النوع من الظلم اختصه الشرع بعقوبة في أرض المحشر لا تكون لغيره، وذلك فيما أخرجه الترمذي وأبو داود واللفظ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشَقُّهُ مَائِلٌ».

ومن أنواع الظلم كذلك ما يعمد إليه الزوج من دوام تهديده للزوجة الأولى بأن يتزوج عليها، وقد يأذن لأهله أن يفعلوا ذلك، وهذا له دلالاته التي لا تليق بأهل الآخرة.

٦- هنا همسة في آذان الأبناء والبنات ممن أراد والدهم أن يفتح بيتاً جديداً، أقول فيه: حاولوا أن تعملوا عقولكم وتتنصروا على عواطفكم ومشاعرهم، وتكونوا وقَّافين مع ما أباحه الشرع، واعلموا أن أباكم له من البر والطاعة كما لأمكم، فلا تشرقوا أو تغربوا في أقوالكم وأفعالكم، واستعينوا بذوي الرأي والعلم على ما ينفعكم في هذا المقام.

٧- أما حديث منع النبي ﷺ علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الزواج على فاطمة في حياتها، والذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، فإنه قد بين ﷺ في خطبته حول ذلك أنه لا يحرم حلالاً ولا يحل حراماً، وأن في ذلك إيذاءً لها، وإيذاؤها إيذاء لمقام النبوة، فخشي ﷺ على ابن عمه وزوج ابنته من الوقوع في ذلك.

ثم إن علياً أراد الزواج من ابنة أبي جهل، فأبى النبي ﷺ أن يجمع بين بنت رسول الله وبنت عدو الله.

وقد تزوج عليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعدد في زواجه بعد وفاة فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ هذا شرط من شروط جواز التعدد في الإسلام، أجمع عليه أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وهو ألا يجمع المعدد بين أكثر من أربع، يعني: لا يتزوج بعد الأربع إلا إذا طلق واحدة من زوجاته أو ماتت، إلا ما خص به ربنا نبيه ﷺ من الجمع بين أكثر من ذلك.

والمقام هنا مقام امتنان، فلو كان الجمع بين أكثر من أربع مباحاً لذكرته الآية وبيّنته.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هذا شرط آخر من شروط التعدد في الإسلام، وهو القدرة على العدل بين الزوجات، والعدل يكون في المبيت والنفقة والمعاملة الظاهرة، وهو واجب في الشريعة ويؤثم من تركه.

والآية توجه إلى الاقتصار على زوجة واحدة إذا خشي الوقوع في الظلم ولم يقدر على العدل لاعتبارات هو يعلمها، أو يستمتع بما عنده من إماء وجوارٍ، فإن العدل بينهما مندوب إليه وليس واجباً، ولا يشترط الاقتصار فيه على أربع، وسيأتي في الآيتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين مزيد حديث عن نكاح الإماء ومسألة الاستمتاع بهن.

وهذا العدل لا ينبغي للأزواج أن يستهينوا به، فإن تضييعه في الأسرة يشتها ويضيعها، ويعصف بقلوب أفرادها، وينشأ بسببه العقوق، ويكثر الأذى.

وننبه هنا إلى أن العدل بين الزوجات والأبناء له فقهه، وله أحكامه التي بينها الفقهاء وفصلوا فيها في كتبهم، والمتبع للأحكام الخاصة في ذلك يجد أن الجهل فيها كبير، وأن عدداً من الخصومات تقوم لقلة معرفة أصحابها بما لهم وما عليهم، وهذه وظيفة طلبة العلم والدعاة إلى الله، وظيفتهم أن يضبطوا هذه الأحكام ويحسنوا بيان بعضها ابتداءً، ويكون البعض الآخر عند الحاجة إليه، ويجدر بمن رغب في التعدد أن يقبل على ضبط أحكام العدل وفهمها ودراستها قبل زواجه، سدد الله الجميع.

وهنا مسألة تخص فقه العدل، وهي مسألة العدل في الحب وميل القلب بين الزوجات، فإن هذا العدل مما لا يملكه أحد من الناس ولا يستطيعه، حتى بين عياله وإخوانه وأخواته وأصحابه، وهو عدل لم يأمر به الشرع، وهذا المعنى هو المقصود بقول الله تعالى: ﴿وَكُنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]، وهو الذي جاء فيه الحديث الذي أخرجه أحمد وأصحاب السنن بسند فيه كلام، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ». والمقصود: فلا تلمني في الميل القلبي الذي هو بيدك يا خالقي، فلا يظن ظان أن الآيات متعارضة وأنه وجد ضالته بهذه الآية ليمنع شرع الله.

وهنا مسألة أخرى يذكرها أهل العلم في بيان أحكام الآية، وهي حكم التعدد هل هو واجب أومندوب، أو أن المندوب هو الاقتصار على واحدة؟ والرأي الأخير ذهب إليه فقهاء الشافعية والحنابلة فقالوا: الأفضل أن يقتصر على واحدة إذا كانت تعفه لثلا يتعرض إلى الوقوع في المحذور إذا لم يحقق العدل بين زوجاته.

ومنهم من ذهب إلى أنه تعثره الأحكام المختلفة بحسب حال الرجل وحاجته، وبحسب قدرته على مراعاة فقهه وشروطه.

﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ كل هذه الأحكام النفيسة التي جاءت في الآية هنا، إنما قصدت حصولَ العدل، وإعطاء كل ذي حق حقه بما يحقق مقاصد هذه الشريعة الربانية العظيمة، ومن جعل أوامر الشريعة نصب عينيه كان أقرب إلى تقوى الله، وأبعدَ عن العول، وهو هنا بمعنى الظلم والجور.

الرجل إن خاف الظلم اقتصر على واحدة، وإن تحققت فيه شروط التعدد فله ذلك، والأمر فيه سعة من الشرع فلا تضيق واسعًا.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾

المهر هو الصدقة التي أمر الله تعالى الزوج بأن يؤديها لزوجته في هذه الآية، وهو ليس شرطاً في عقد الزواج ولا ركناً من أركانه، لكنه ثمرة من ثمراته، أوجبه الله تعالى للمرأة حقاً خالصاً لها، وليس لواحد من أهلها أو غيرهم أن يتنازل عنه أو يسقطه، ومن هنا نهى الإسلام عن نكاح الشغار الذي لا يُدفع فيه مهر، بل يقتصر على مبادلة واحدة بأخرى.

وعقد الزواج الذي لا يكون فيه ذكر للمهر عقد صحيح، والواجب في مثل هذه الحالة أن يُفرض للزوجة مهر مثيلاتها من النساء القريبات.

والمهر مظهر من مظاهر تكريم المرأة في الإسلام، وهو علامة من علامات التفريق بين الزواج والزنا، وهو علامة كذلك على صدق الخاطب في الارتباط بهذه المرأة، وقدرته على رعاية أمرها وتلبية حاجاتها، وأهليته للقوامة على بيته.

ومعلوم أن المهر سبب من أسباب فرح الزوجة، ومعين لها لتجهز لبيتها الجديد على خير حال، ولعله مفتاحٌ إلى قلبها ليتربع فيه زوجها الذي هو طريقها إلى جنة الله تعالى.

وهو نِحْلَة من الزوج للزوجة، أي: عطية واجبة، يعطيها بطيب نفس مستحضرًا إدخال السرور على من ستكون أقرب الناس له.

ولفظه الصدقات مشتقة من الصَّدَق، وقد استعمل القرآن هذا المصطلح لما يحمله المهر من معاني وفاء الزوج لزوجته، وصِدَقه معها في وعده بأن يتزوجها، ويقوم على شأنها خير قيام.

حفظت الآية السابقة على اليتيم حقه في نفسه وماله، وسيأتي مزيد حفظ لذلك، ثم جاءت الآية هنا لتحفظ على المرأة حقها في مالها، وتغير نمطاً كان سائداً في الجاهلية يقوم على أكل حقوقها والتضييق عليها في نفسها ومالها، فقد كان من عادات أهل الجاهلية أخذ الأب مال ابنته وعدم إعطائها شيئاً منه، بل أزعج أن هذا التضييق لا زال موجوداً في زماننا عند شرائح من المجتمع لا يستهان بها.

﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيَّةً﴾ حراسة قرآنية لِدَمَتِهَا المالية وخصوصيتها في التصرفات، وأمر من الله للزوج بأن يؤدِّي إليها مهرها بالكامل غير منقوص، وهذا يفهم منه أنه ليس للولي أباً كان أو غيره أن تمتد يده إلى مالها إلا بإذنها وطيب نفس منها.

صحيح أن الشرع أرشدها إلى طلب رضا الزوج، وجعله جنتها ونارها في الدنيا والآخرة، وصحيح أن المرأة في غالب حالها تلبس ثوب الحياء والضعف، وصحيح أنها تشوف إلى أن تكون زوجة وأمّاً، لكن هذا كله لا يبيح للزوج أو لغيره أن يعتدي على مهرها وملكيته، له، أو أن يحاول التضييق عليها بطرائق معلومة لتتركه، أو أن يلزمها بأن تتصرف في مهرها بما لا تحب، فإن المال مالها.

ولكن لو طابت نفسها ورضيت أن تعطي زوجها شيئاً من مهرها فالأمر إليها، ولزوجها أن يأخذ ما طاب خاطرهما به ويستعمله ويتنفع به هنيئاً له مستلذاً به، مريئاً حلالاً طيباً لا إثم فيه.

والزوجة التي تعين زوجها من مالها، وتقف معه إذا احتاج، لها أجرها عند الله، وهو علامة خير فيها، بل هو علامة وفاء ودفع علاقة يجدر بالزوج أن يقدرها ولا ينساها.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا

لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا

السفيه عنده اضطراب في طريقة تفكيره، وهو خفيف العقل، وخفة عقله هذه تجعله يسرف في إنفاق ماله، ويضيعه بلا فائدة وعلى خلاف مقتضى العقل والشرع.

والسفه يكون بسبب الصغر في السن، وقد يكون مع الكبير بسبب اختلال في التصرف والأداء. والسفه سبب من أسباب الحجر على التصرفات المالية لصاحبه، وذلك عند جمهور الفقهاء خلافاً لأبي حنيفة، فالسفيه المحجور عليه يُمنع من البيع والشراء والإجارة والهبة والرهن وغير ذلك من أنواع المعاملات، ولا بد من صدور حكم من القاضي ليحجر عليه.

والحجر على تصرفاته المالية فيه حفظ لماله من عبث العابثين، واعتداء المعتدين، وفيه ضبط لسلوكه الذي لا يعود عليه وعلى المجتمع بنفع.

الآية فيها خطاب للناس يقضي بعدم تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، والحجر عليهم إن كان عندهم مال.

ويقوم على حفظ مال هذا السفية وليه من أب أو جد، وقد يقوم عليه وصي من قبل القاضي أو من قبل الأب قبل وفاته، ولهذه الولاية والوصاية أحكام مبثوثة في كلام الفقهاء فلتراجع.

وهذا التوجيه النفيس المتعلق بالمال هنا يدل على عناية الإسلام بما فيه قوام عيش الناس وقيام حياتهم على أحسن حال، كما وصفته الآية هنا من جعله قياماً لنا.

وتأملوا بلاغة لفظة ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ مع أن المال للسفيه وليس للناس، قال أهل العلم: في ذلك لفظة بديعة تظهر أن حقيقة نفع المال إنما يعود على الأمة جميعاً وليس على مالكة فحسب، ولذلك ضبط الشرع أسباب التملك وطرائق الإنفاق، وتدخل في سلوك السفيه وأعطى صلاحية الحجر عليه للنائب عن الأمة وهو القاضي.

وقد وجدت في أقوال بعض المفسرين من يجعل النساء من السفهاء مطلقاً، ويوصي الزوج بعدم تسليم المال إليها، ولكن هذا القول رد عليه غير واحد من أهل التفسير ويبنوا أن السفه قد يكون في الرجال كما يكون في النساء، بل قد تفوق بعض النساء في تديرها بعض الرجال.

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ لا تركوا السفهاء أحرار التصرف في أموالهم فإن تديرهم فاسد فيها، ولكن أنفقوا عليهم من أموالهم قدر حاجتهم من كسوة ومطعم ومشرب ومسكن ونحو ذلك.

ولا تؤذوهم بكلامكم إن طلبوا ما لا ينبغي لهم، أو سمعتم منهم ما تكرهون، ولا تعيروهم بسفهمهم وطيشهم، واحرصوا على مداراتهم بالكلام الطيب المعروف الذي يحفظ المودة وحسن الصلة وينفع في هذا المقام.

ومن أهل العلم من ألمح إلى أن قول الله جاء: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ وليس: وارزقوهم منها، ليرشد القائمين على أموال السفهاء إلى أن يحرصوا على تنميتها وإعمالها في التجارة ونحوها ليكون حفظ المال على أحسن حال.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾

لما أمر الله تعالى في الآيات السابقة بإعطاء اليتامى أموالهم، بين هنا شروط هذا الإعطاء وكيفيته وما يلزم ليؤتي ثمرته المرجوة في الشرع.

تذكرون أن اليتيم هو من مات أبوه ولم يبلغ الحلم، وهذا اليتيم قد يكون صاحب مال ورثه من أبيه أو أمه أو غيرهما، أو وُهب له أو جاءه بطريق ما، ومثله لم يعطه الشرع حرية تصرفه في ماله لأنه صغير غير راشد، ولا ندفع له ماله ليستقل في التصرف فيه دون الولي أو الوصي إلا بحصول ابتلائهم واختبارهم في أمرين اثنين دلت عليهما الآية هنا:

الأول: أن يبلغ النكاح، أي: أن يكون قادرًا على الزواج، وهذا لا يكون إلا عند البلوغ، فالمقصود ببلوغ النكاح هنا البلوغ الذي يكون صاحبه أقوى وأقرب إلى تمام العقل وكماله.

وهو إما أن يحصل بعلاماته عند الذكر والأنثى من احتلام وإنبات شعر، وحيض عند الأنثى خصوصًا، وإما أن يكون بالسن والعمر إذا لم تظهر علامات البلوغ، وهو خمسة عشرة سنة للذكر والأنثى عند جمهور الفقهاء من الشافعية والحنابلة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن من الحنفية، وهو ثماني عشرة سنة عند المالكية للذكر والأنثى، وأما قول أبي حنيفة في رواية عنه فهو ثماني عشرة سنة للذكر وسبع عشرة للأنثى.

والمقصود أن اليتيم إذا بلغ فقد سقط عنه وصف اليتيم وتحقق الشرط الأول لدفع ماله إليه. أخرج أبو داود وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «لَا يُتَمُّ بَعْدَ اخْتِلَامٍ» الحديث.

الثاني: أن يكون راشدًا، ونستأنس منه ذلك كما وصفت الآية بقولها: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أن يحسن تدبير ماله ورعايته والقيام عليه، ونعرف ذلك بتجربته في أمر البيع والشراء وغيرهما من معاملات المال أكثر من مرة، حتى يغلب على الظن قدرته على حسن التصرف فيه، وطريقة الاختبار تختلف بحسب أحوال الناس وبيئتهم التي نشؤوا فيها.

والمقصود: إذا حصل البلوغ، وأنسنا الرشد وعَلِمناه وأبصرناه، دفعنا إليه ماله وسلمناه إليه، ولا بد من حصول كلا الأمرين ولا يكتفى بواحد منهما، والحكم يشمل الذكور والإناث على حد سواء.

وهنا لفظة تخص اعتبار الشرع بلوغ الصبي سبباً لدفع ماله إليه، فهذا يدل على حرص الشريعة على تربيته على الثقة بنفسه والاعتماد عليها، وأن يدرك أنه أصبح مسؤولاً عن أقواله وأفعاله، وأنه بلغ مبلغ الكبار.

وهنا إشارة إلى أنه من حق اليتيم على وليه أن يدربه ويعلمه كيف يتعامل بالمال تصرفاً وبيعاً وشراءً

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ هذا توجيه لولي مال اليتيم أو الوصي، بأن لا يقترب من مال اليتيم بالإسراف، وألا يأكله ويعتدي عليه، وأن يكون تصرفه فيه بحسب الضرورة أو الحاجة.

والآية تنهاه أن يأكله بداراً أن يكبروا، أي: أن يبادر إلى أكله قبل أن يكبر اليتيم ويبلغ، وقبل أن يرشد ويأخذ ماله.

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ إذا كان الولي مكتفياً بماله، فلا يأخذ من مال اليتيم شيئاً وإن قل، وليحرص على إعفاف نفسه عن الأكل منه أو الميل إليه.

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قد يكون الولي على مال اليتيم فقيراً، أو يكون مُحْتَسِباً على رعاية مال اليتيم ولا وقت عنده ليعمل ويكفي نفسه وعياله، فهنا أجاز الشرع لهذا الولي وأباح له أن يأكل من مال هذا اليتيم عند وجود الحاجة، بشرط أن يكون بالمعروف، أي: بما عرف بين الناس وبقدر حاجته ولا يتجاوز، ولا يلزمه عند جمهور أهل العلم إرجاع هذا المال لليتيم إن أيسر بعد ذلك.

وفي هذا المعنى جاء قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُمُ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم وفقاً لما عرف بين الناس، فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، ومخالطتهم تقتضي حسن عشرتهم ورعايتهم ومعاملتهم كالإخوة الذين هم من أقرب الناس للواحد منا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإشراء: ٣٤] أي: لا تقربوه إلا لمصلحة له، وإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف. أخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه رضي الله عنه، أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيّم. قال: فقال: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ، وَلَا مُبَادِرٍ، وَلَا مُتَأَثِّلٍ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَ مَالَكَ بِمَالِهِ». ولفظة متأثّل أي: تأخذه لتجعله رأس مال لك، وتبدأ به مشروعاً خاصاً بك في التجارة ونحوها.

وفي أيامنا قامت مؤسسات كاملة على رعاية أموال اليتامى في عدد من الدول، والعاملون فيها إن كانت الدولة تكفيهم برواتب منها فلا ينبغي لهم أن تمتد أيديهم إلى أموال اليتامى، بخلاف ما لو كانوا محتسبين على ذلك ولا رزق لهم من الدولة فلهم أجره مثلهم ولا يتجاوزون. والتعامل مع مال اليتيم يحتاج إلى فقه ودراية، ولا بد أن يقوم عليه الصادق الأمين القادر على حسن إدارته واستثماره إن لزم الأمر.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ إذا بلغ اليتيم وأنسنا منه الرشد والسداد في التصرف بماله، أوجبنا على ولي ماله أن يعطيه ماله وأن يسلمه إليه، وأن يُشهد على ذلك اجتناباً لأي خصومة محتملة من إنكار وجحود وتهمة ونحو ذلك.

وعند بعض الفقهاء: لا بد أن يقوم الوصي بإثبات رشده أمام القاضي احتياطاً لهذا اليتيم وحرصاً على ماله. وحكم الإشهاد هنا على خلاف عند الفقهاء بين الوجوب والندب.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ الأصل أن يكون هذا الولي مؤتمناً ومعروفاً بالقوة والتقوى، وأن يعلم أن الله تعالى مراقبه في عمله ومحاسبه عليه، وكفى بالله عليمًا بحال هذا الولي إن كان أدنى الأمانة أو خان فيها واعتدى.

والله مطلع على سرائركم وضمائركم، يعلم من قصده ونيتة في تصرفه إفساد مال اليتيم وتضييعه، ممن نيتة إصلاحه وتنميته وحفظه، وهذا يعني أن ثواب من أحسن إلى اليتيم ثواب عظيم عند الله، وأن عقوبة من اعتدى على ماله وتجاوز حدود الشرع عقوبة أليمة.

ومن أجل ثقل أمانة حفظ مال اليتيم جاء حديث أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ، قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمَرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ».

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧)

آية من الآيات التي تُظهر عدل الإسلام، وحرصه على إعطاء كل ذي حق حقه، وإن بدا للغير أنه ضعيف، فقد كان من العرب قبل مجيء الإسلام من يستضعف النساء والأطفال، ويمنعهم حقوقهم فيما يتركه أهلهم من ميراث، وكانوا يقتصرون في توزيع مال الميت على الذكور أو الأخ الكبير منهم فقط، وليس للبنات شيء لأنهن لا يحملن السيف ولا يقاتلن، بل كانوا يتوارثون نساء آبائهم ولا يعطونهن شيئاً من حقوقهن.

جاءت الآية هنا تبين أن الجميع في حكم الله سواء، وأن الميراث ليس للأقوياء فقط كما كانوا يفعلون، وأن المرأة ترث كما يرث الرجل، وأن الصغير يرث كما يرث الكبير، فالذكر له نصيب مقدر بينته النصوص الشرعية من كتاب أو سنة، سواء كان زوجاً أو قريباً، والأنثى لها نصيب مقدر من الميراث بينته النصوص الشرعية من كتاب أو سنة، سواء كانت زوجة أو قريبة، وسواء كان مال الإرث قليلاً أو كان كثيراً، فالحكم المفروض من عند الله واحد عند الله، ولا يجوز التساهل فيه أو الظلم.

أخرج أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ، وَالْمَرْأَةِ».

وأخرج البخاري ومسلم عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ».

ما أجمله من سياق قرآني تشدُّ عنايته بفئات المجتمع التي يظن الآخرون ضعفها، فبعد أن حفظت الآيات السابقة على اليتامى أموالهم، تأتي هنا لتقوية المرأة وإثبات حقها في التملك والإرث والتصرفات المالية على حد سواء مع الذكور.

ومثل هذه النصوص لا بد أن تلامس قلوب أولئك الذين يتساهلون في أكل مال الإرث بالحرام، ولا يعطون أصحاب الحقوق من النساء والصغار حقوقهم لأعذار واهية غير معتبرة شرعاً، وسيأتي في السياق القرآني مزيد توجيه لهم لعلهم يتوبون ويرجعون.

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: ليس راجعاً إلى أعراف الناس وأمزجتهم وأهوائهم، بل هو شرع مفروض مُقدَّر من عند الحكيم الخبير كما سيأتي بيانه وتفصيله.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٨)

إرشاد من الشرع للورثة الذين ترك لهم موروّثهم مالا يقتسمونه، وهذا التوجيه الرباني يبين مقدار حرص الشرع على تحقيق التكافل بين فئات المجتمع، ويشير إلى الأبعاد النفسية التي تحيط بقلوب قرابة الميت الذي ترك مالا، فإن نظرهم إلى مال قريبهم موفور على الغالب، وتراهم ينتظرون من الورثة التفتاة لهم ولحالهم، وكذا اليتامى والمساكين بنص الآية.

وتأملوا كيف ذكرت الآية من حضر، وهو لفظ يدل على حضورهم القسمة بأبدانهم، أو علمهم بها وهم قريب من أصحابها.

والآية هنا تتكلم عن القرابة التي لا ترث، كإخوة الميت وأعمامه حال وجود الأب أو الولد الذكر، وكالأحفاد حال وجود الأبناء الذكور، فهؤلاء ندب الشرع إلى أن يجعل الورثة لهم شيئا من التركة والميراث إن كانوا بحاجة إلى ذلك، فإن إعطاءهم يعينهم على صعوبة الحياة ويدفع ما في نفوسهم ويكفيهم شرورها، ويجبر خاطرهم ويحدث الألفة والمحبة بين القرابة، وهو أمر قصده الشرع وأراد.

والأمر هنا محمول على الاستحباب لا الوجوب لثلا يكون كالإرث، ومن أهل التفسير من ذهب إلى وجوب ذلك.

ثم إن الشرع استطرد في تشريع ما يحفظ على الناس ماء وجههم، فأوصى مع العطية من الميراث أن يقول الورثة لقرابتهم قولا معروفاً في مثل هذا الموطن، أي: يقولوا لهم كلمة طيبة لا تأفف فيها ولا أذى، ولا إهانة ولا عتاب، ولا تثاقل من حضورهم إن قُدّر ذلك، وكذا الحكم في حق اليتامى والمساكين.

والقول المعروف يحتاجه كذلك الورثة إن كان المال قليلاً، أو كانت القرابة فاسدة التدبير في المال، فلا يردونهم بالقول الغليظ، بل يعتذرون لهم ويقولون في ذلك قولا حسناً تعارفه الناس حال امتناعهم عن العطية، وليحرصوا على الصبر على ردة فعلهم في ذلك إن كانت غير مناسبة.

ومن أهل العلم من استنبط معنى لطيفاً من هذه الآية، وهو أنه إذا حضر بين يديك شيء وأنعم الله عليك بنعمة، وكان بالقرب منك من له تطلع وتشوف إليها، فأعطه ما تيسر لتدفع ما في نفسه.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (١)

هذه الآية فيها تفسيرات متعددة عند أهل العلم أختار منها اثنين:

الأول: أنها جاءت في حق من حضر مجلساً، وسمع فيه وصية لأحدهم ممن حضرته الوفاة أو خشي اقترابها، وكان في هذه الوصية ظلم كأن يوصي بأكثر من ثلث ماله، أو يذكر ديناً لفلان وليس عليه دين وإنما ذكره ليحرم الورثة أو بعضهم.

الآية توصي من حضر ألا يسكت عن قول كلمة طيبة نافعة لهذا الموصي، وأن يحرص على تذكيره بالألّا يجور في وصيته أو يظلم.

الآية تخاطب من حضر الوصية وتثير فيه حرصاً على التواصي بالحق، عن طريق تذكيره بأولاده وذريته الضعفاء، فكما أنه يخاف عليهم ويحرص على صلاح حالهم، فليتنق الله وليذكر هذا الموصي بذريته وأولاده الذين سيتركهم خلفه.

والثاني: أنها جاءت في حق الأولياء على مال الأيتام، فكما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذرياتهم إذا كنت ولياً على مالهم، وكما تخشى الولي الفاسق على أيتامك فلا تكن أنت خائناً في ولايتك على أولاد غيرك، كما أشار إلى ذلك معنى الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

ولفظه ﴿وَلْيَخْشَ﴾ فيها موعظة وتذكير بخشية الله تعالى والخوف منه، ولا حظوا أن الآية لم تذكر ما يخشاه من عصى الله، فأصبح السؤال الذي يطرح نفسه: وليخش ماذا؟ والجواب أن المفعول به لم يذكر لتكون الخشية من كل عقوبة قد تصيب العاصي في نفسه أو ماله أو أهله، أو في دينه وآخرته.

ولفظه ﴿ضِعَفًا﴾ فيها تنبيه على أن المعتدي عليهم خلق ضعاف لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم، وعبرة ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في أموال الناس، وعبرة ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: يحسنوا في القول ولا يسكتوا عن الظلم ولا يؤذوا غيرهم.

والآية بالجملة فيها إشارة إلى صعوبة الموت، وأنه لا رجعة للموصي بعده ليستدرك ما فات، وأن الظلم في الوصية وإلحاق الضرر بالورثة ليس من الشرع، وأن شعار أهل التقوى والإيمان حراسة مال اليتيم، والغضب له من الظلم وأهله، والأخذ على يد أولياء السوء.

ولو أجال الواحد منا فكره في أبعاد هذه الآية لوجد فيها تذكراً نفيسة لكل من سولت له نفسه بأن يعتدي على مال كان تحت إدارته وسلطته، وبطريقة أخرى: إذا كان هذا السياق القرآني الذي حمل وعيداً قد جاء في حق فرد اعتدى على مال فرد آخر، فكيف يمن يعتدي على أموال الناس جميعاً، وكيف بمن يتهاون بسرقة المال العام!

واستطراداً في بيان مسألة الزيادة على الثلث في الوصية، أقول: الفقهاء باستقراءهم الأدلة التي جاءت في ذلك، أرشدوا من كان ماله كثيراً أن يوصي بثلث ماله، وأبطلوها فيما زاد على ذلك، بخلاف ما لو كان ماله قليلاً فلا يصل إلى الثلث، ولكن يحرص على أن تكون أقل من ذلك لترك ورثته على خير حال متعفين لا يسألون الناس، ولا تنكسر نفوسهم لغيرهم.

أخرج البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَّغْنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: «لَا، الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتُ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أَجَزْتَ بِهَا، حَتَّى اللَّفْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» الحديث.

ولذلك كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرشد من أحب أن يوصي أن يكون ذلك بمقدار ربع ماله ولا يصل إلى الثلث، وقوفاً مع النصوص الشرعية في ذلك. أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَوْ غَضَّ النَّاسُ إِلَى الرَّبْعِ، لَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ أَوْ كَثِيرٌ».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

تحذيرٌ من الله تعالى ووعد لكل من سولت له نفسه أن يعتدي على مال اليتيم فاعتدى، وتذكيرٌ للقائمين على أموال اليتامى بأنهم موقوفون بين يدي خالقهم، وأنهم محاسبون عما استراحهم الله.

والآية هنا واحدة من النصوص المتعددة في حفظ مصالح الأيتام والنظر في أمورهم وشؤونهم.

اليتيم هو من مات أبوه ولم يبلغ كما مر معنا سابقاً، وهو الذي منعت الآيات السابقة إعطائه ماله حتى يبلغ ويتحقق رشدُه في إدارة ماله، وهو الذي خاطبت الآية هنا وليَّه الذي يشرف على إدارة ماله بأن يجتنبه ويتحرز من الاعتداء عليه.

والآية أخبرت أن نار الآخرة تنتظر آكل مال اليتيم ظلماً لتملاً بطنه؛ ذاك أنه فعل كبيرة من كبائر هذا الدين، واستعمل مال اليتيم ظلماً بدون حق أو سبب معتبر شرعاً.

وقد جاء في التحذير كذلك حديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسُّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

ولفظه سعيراً في الآية من سَعَرَتِ النَّارَ وَسَعَّرْتُهَا إذا أشعلتها، وهذا يشير إلى أن حرق النار الذي ينتظرهم شديد، وهو ما عبرت عنه الآية بلفظة «وسيصلى»، أي: سيدخل ناراً هائلة موقدة ويقاسي حرَّها.

وقد بلغت هذه الآية مبلغها في قلوب أصحاب النبي ﷺ، وكان لها أثر في تعاملهم مع الأيتام الذين كانوا تحت ولايتهم، وذلك من شِدَّةِ حرصهم على ما يحبه ربُّهم ويرضاه، ومن شِدَّةِ تحرُّجهم من الوقوع في الإثم، حتى قام كل منهم بالفصل التام بين ماله وبين مال اليتيم، وجاء كل منهم نبيناً ﷺ يسأل عن ذلك، كما أخرج أبو داود واللفظ له، والنسائي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾؛ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يُفْضِلُ مِنْ طَعَامِهِ (أي: اليتيم) فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا فِي خَوَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ».

فآية سورة البقرة يَسَّرت على أولياء الأيتام كما يسرت الآيات السابقة هنا في السورة في أكل الولي الفقير من مال اليتيم بالمعروف، ولذلك جاء قيد ﴿ظُلْمًا﴾ هنا في الآية ليخرج الأكل الذي أذن فيه الشرع وسمح.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

ثلاث آيات جاءت في كتاب الله تعالى تُفَصِّلُ أحكام الميراث: اثنتان جاءتا في هذا السياق، وواحدة خُتِمت بها سورة النساء، أما الأحاديث الصحيحة فهي متعددة في ذلك.

وكثير من مسائل الميراث هي محل إجماع بين فقهاء المسلمين، وقد عقد أهل الفقه أبواباً مستقلة في متونهم وشروحهم يَبَيِّنُونَا فيها أحكام الميراث بدقائقه وتفصيله.

وهذه الأحكام جزء من نظام الإسلام الاقتصادي كما هو حال الزكاة والغنائم والفيء والوقف والبيوع وغيرها، وهذا النظام جاءت معالمه من عند الحكيم الخبير، ولا تكاد تمر في حكم من أحكام الميراث إلا وتلمس فيه حكمة إلهية تتعلق بتوزيع المال الذي هو ضروري من ضروريات الحياة.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ شروع في بيان أنصبة الورثة كما حددها الشرع وأرادها، وفي سبب نزول هذه الآية أخرج أبو داود والدارقطني والبيهقي واللفظ لأبي داود بسند حسن عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْأَسْوَاقِ، فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ بِابْنَيْنِ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ بِنْتَا ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ (الصحيح أنهما ابنتا سعد بن الربيع)، وَقَدْ اسْتَفَاءَ عَنْهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثُهُمَا كُلَّهُ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا إِلَّا أَخَذَهُ، فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ لَا تُنْكَحَانِ أَبَدًا إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ»، قَالَ: وَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ادْعُوا لِي الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا» فَقَالَ لِعَمَّهَ: «أَعْطِيهِمَا الثُّلَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمْنَ، وَمَا بَقِيَ فَلَكَ».

وأخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلَمَةَ يَمْشِيَانِ، فَوَجَدَنِي لَا أَعْقِلُ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ مِنْهُ، فَأَفْقْتُ، فَقُلْتُ: «كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَزَلْتُ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾».

والوصية هنا في الآية بمعنى: ألزمتكم وأمرتكم وبين لكم، والولد اسم للابن يطلق على الذكر والأنثى.

فالآية فيها أمر من الله عَزَّوَجَلَّ بإعطاء الابن الذكر مثل حظ الأنثيين في قسمة الميراث، أي: إن نصيب البنت على النصف من نصيب الابن، سواء كانا منفردَيْن أو كان معهم وارثون آخرون.

ولكم أيها الأولاد ذكورا وإناثا أن تتأملوا رحمة الله بكم، كيف كانت أعظم من رحمة آبائكم بكم، فقد جعل لكم بقوة الشرع ميراثا تستعينون به في قضاء حوائجكم، وربما لو ترك الأمر بلا شرع، لتحكمت أهواء الوالدَيْن بتوزيع هذا المال، ولمنعوا ورثة وأعطوا آخرين.

وفي فهم تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث أقول مستعينا بالله:

الإسلام جعل القوامة في الأسرة للرجل، وألزمه بمفاتيح هذه القوامة من أداء المهر والإنفاق على البيت والسعي لذلك، ثم جعل له ما يعينه على حمله، ومن ذلك مضاعفة نصيبه في الميراث عن الأنثى في حالات متعددة.

ثم إن الإسلام ساوى بين الذكر والأنثى في حالات أخرى، كميراث الأب والأم حال وجود الفرع الوارث المذكر، وكالإخوة لأم فإنهم يعطون بالتساوي ذكورا وإناثا كما سيأتي بيانه في الآية التالية.

بل أخذت الأنثى في كثير من المسائل أكثر مما يأخذه الذكر، كما في البنت المنفردة مع والد المتوفى وأمه فإن لها النصف، وكما في الأختين مع الأعمام فإن لهما الثلثين والباقي للأعمام، وغير ذلك من المسائل التي يدركها من تناول مسائل الميراث تفصيلاً.

ويكيفك أن تعلم أن أصحاب الفروض من النساء اللواتي جاء ذكر نصيبهن في الكتاب والسنة والإجماع ثمانية أصناف، هن: الأم والجدة والزوجة والبنت وبنت الابن والأخت الشقيقة والأخت لأب والأخت لأم، بخلاف أصحاب الفروض من الذكور فإنهم أربعة، هم: الأب والجد والزوج والأخ لأم.

فواعجباً ممن يغمز ويلمز في أحكام ميراث شريعتنا، ولقد تتبعنا أنظمة الغرب والشرق في توزيع الميراث فما وجدنا نظاماً يحاكي العقل الذي يزعمون، بل كلها تدل على ضعف عقل الإنسان، ونقصان بشريته، بخلاف من أنزل من عنده هذا الشرع.

﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ الآية

هنا جاءت في حق البنات الوارثات من الميت إذا كانتا اثنتين فأكثر، فيكون نصيبهن الثلثين من التركة، وذلك إذا لم يكن معهن إخوة لهن، فإنه إذا كان معهن إخوة فللذكر مثل حظ الأنثيين كما تقدم.

وهذا الحكم يشمل البنات الصليات، ويشمل كذلك بنات ابن الميت (أي: الحفيدات) إذا لم يكن معهن إخوة لهن، وإذا لم يكن معهن من يمنع ميراثهن كوجود الأبناء الذكور أو البنين الصليبيين فأكثر.

صحيح أن الآية هنا قيدت الثلثين للبنات إذا كن أكثر من ثنتين، لكن هذا الحكم يسري على البنتين كذلك، وهو ما فهمه جماهير أهل العلم من سياق الآية.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ إذا انفردت البنت ولم يكن لها أخ يعصبها فإنها تأخذ نصف التركة.

وكذلك بنت الابن إذا لم يكن لها أخ يعصبها، وليس هناك من يحجبها، فإن نصف تركة الميت لها.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ إذا كان للميت فرع ذكر

وارث كالابن وابن الابن، فسدس التركة للأب وسدس آخر للأم، وليس لهما غير ذلك.

وإن كان للميت فرع أنثى وارث كالبنت وبنت الابن، فالأم لها السدس، والأب له السدس كذلك، ويأخذ الباقي بحكم كونه أقرب العصبات بعد إعطاء أصحاب الفروض فروضهم.

والعصبات مصطلح في الميراث يدل على قرابة الميت من جهة الذكور، وهم الآباء وإن علو، والأبناء وإن نزلوا، والإخوة الأشقاء وأبنائهم، والإخوة لأب وأبنائهم، وكذلك الأعمام وأبنائهم، وهؤلاء يرثون بعد أن يأخذ أصحاب الفروض فروضهم.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ وإن لم يكن للميت أولاد، وإنما كان له أب وأم، فللأم الثلث، والباقي للأب، وكذلك لو اجتمع معهما أحد الزوجين، فنعطي الزوج حصته، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي بعد إعطاء الزوج حصته، ويأخذ الأب ثلثي الباقي، كما نصّ جماهير الفقهاء.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ وإن كان للميت اثنان فأكثر من الإخوة والأخوات، فيُفَرِّضُ لِلْأُمِّ مَعَ وُجُودِهِمُ السُّدُسُ، سواء كانوا إخوة أشقاء للميت، أو من أبيه فقط أو من أمه فقط.

أما الأخ الواحد فقط، فلا يحجب الأم إلى السدس، بل تأخذ مع وجوده الثلث.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ إذا ترك الميت وراءه مالاً، فإنّ تجهيزه لدفنه مقدم على كل شيء، ثم نبدأ بسداد ما عليه من دين، سواء كان الدين لله كالزكاة والكفارات والنذور والحج عنه، أو كان للناس، ثم نشرع بتنفيذ الوصايا إن كان قد أوصى، وذلك بحدود ثلث ما ترك، ثم نبدأ بتوزيع الميراث الذي بينت الآية هنا أنه يكون بعد تنفيذ الوصايا وسداد الديون.

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ لا أحد منا يعلم من أين يأتيه النفع الدنيوي والأخروي من قبل أصوله وفروعه، ولذلك تولّى الله سبحانه قسمة الميراث لئلا يضل الناس في ذلك، ولو ردّ تقدير الإرث إلى عقول الناس واختيارها لحصل من الضرر ما الله به عليم، فإن العقول قاصرة لا تدرك الأنفع في جميع الزمان والمكان.

أعطى الله الذكور والإناث، والكبار والصغار، والأصول والفروع والعصابات، وأعطى ذوي الأرحام عند بعض العلماء، وما ذاك إلا لأن انتفاع الإنسان متوقع ومرجو من جهة جميع من ذكرنا، وقد فرض الشرع لهم، وبين تفاصيل ذلك دلالة على علم صاحب الشريعة وحكمته لا إله إلا هو.

﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نفّذوا هذه الوصية المفروضة كما علمكم الله، ولا تحاولوا أن تفضلوا أحداً على أحد، ولا أن تحتكموا إلى غير دين الله، ولا تستبدلوا شرائع أهل الكفر وطرائقهم بشريعة رب العزة الذي أحكم كل شيء سبحانه، فإن الوارثين هم آباؤكم وأبناؤكم، ولا تدرّون أيهم أقرب لكم نفعاً في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ الله تعالى هو القاسم والمعطي، وهو العليم بخلقه وبما يصلحهم وينفعهم، وهو الحكيم في تدبيره لشؤونهم فيضع سبحانه كل شيء في محله، ويعطي كل وارث ما يستحقه، فليفوّض الأمر إليه، وليرضّ بقسمته فإنها قسمة عليم حكيم.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

الزوجية سبب من أسباب التوارث في الإسلام، كالقربة التي بينت الآية السابقة بعض أحكامها. والزوج والزوجة من أصحاب الفروض الذين ثبت نصيبهم في الميراث بهذه الآية، وهم ممن لا يُحجبون حجب حرمان من الميراث، ولكن نصيبهم يقل بوجود الفرع الوارث ذكراً كان أو أنثى.

والآية هنا بينت أنه إذا كانت الزوجة هي المتوفاة، فلزوجها نصف ما تركت إن لم يكن لها أولاد أو أحفاد وارثون حين وفاتها.

أما إذا كان لها أولاد أو أحفاد وارثون، سواء كانوا من زوجها أو من زوج سابق لها، فيكون نصيب الزوج من تركتها الربع.

وذكرنا هنا كلمة وارثين، لأن الفرع قد يكون موجوداً ولكنه غير وارث كأن يكون مُتَّبِعاً لدين آخر، وقد يكون الأحفاد موجودين لكنهم لا يرثون كأولاد البنات وإن نزلوا، فوجود هؤلاء لا يؤثر في نصيب أحد الزوجين في التركة.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ لا يأخذ الرجل حقه من ميراث زوجته إلا بعد قضاء دينها إن وُجد، وبعد تنفيذ وصاياها إن وُجدت وفقاً لأحكام الوصية.

وهذا الموضع دليل على جواز تصرف المرأة في مالها بكافة أنواع التعامل المباح، ولها الحق أن توصي، بخلاف ما كان عليه أمرها في الجاهلية قبل الإسلام.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمُ إِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمُ﴾

أما إذا كان المُتوفى هو الزوج، فلزوجه الربع إن لم يكن له فرع وارث، أما إن كان للمتوفى فرع وارث، سواء كان من زوجته أو من زوجة أخرى، فلزوجه الثمن، وإذا كان للميت أكثر من زوجة فيشتركن في الثمن.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ تأكيد على أن توزيع الميراث لا يكون إلا بعد سداد دين الميت وتنفيذ وصاياه، وهو أمر مجمع عليه، وهذا التأكيد دليل على أهمية سداد الدين وإنفاذ الوصايا.

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ الكلاله لفظة يراد منها الميت الذي ترك مالا وليس له والد ولا ولد، يعني: قد يكون له إخوة وأخوات وأعمام وأولاد أعمام، ولكن ليس له أب ولا جد وإن علوا، وليس له ابن ولا بنت ولا ابن ابن ولا بنت ابن وإن نزلوا.

والأخ والأخت في هذه الآية هم من جهة الأم فقط بإجماع أهل العلم، يعني كانت هذه الأم متزوجة من رجل ثم طلقها أو مات عنها، وأنجبت منه أولادًا، ثم تزوجت من رجل آخر وأنجبت منه أولادًا، فيكون هؤلاء الأولاد من الزوجين إخوة وأخوات من جهة الأم.

وقد أبطل الإسلام بتوريثهم ما كان عليه الأمر قبل الإسلام من تضعيف جانب الأم وعدم توريث الإخوة والأخوات من جهتها مطلقًا.

الآية هنا تدل على أن الأخ أو الأخت من أم إذا انفرد الواحد منهم فإنه يأخذ سدس تركه أخيه الميت، أما إذا تعددوا وكانوا اثنين فأكثر، فإنهم يشتركون في ثلث المال بالسوية، يعني: يأخذ الذكور والإناث بالتساوي، ولا يكون للذكر مثل حظ الأنثيين.

وهنا ثلاث مسائل:

١ - أنه حال وجود الأب أو الفرع الذكر للميت، فإن إخوانه وأخواته جميعًا لا يرثون، وهذا ينطبق على الإخوة والأخوات من أم.

وحصل خلاف في توريث الجد مع الإخوة، فعند الحنفية لا يرث الإخوة والأخوات مع وجود الجد، والجمهور يورثونهم جميعًا على تفصيل في ذلك.

وممن يحجب الإخوة والأخوات لأم كذلك الفرع الوارث الأنثى، فمع وجود البنت الوارثة أو بنات الابن لا يرث الإخوة والأخوات من أم.

بخلاف ما لو كان للميت أم، فإنها لا تحجب أولادها الذين هم إخوان وأخوات الميت منها، وإنما يرث الجميع بحسب فرضه في الميراث وحصته.

وبخلاف ما لو وُجد للميت إخوة وأخوات أشقاء أو لأب، فإنهم لا يحجبون إخوانهم من أمهم، وقد جاء ذكر ميراث الإخوة والأخوات هؤلاء في آخر آية من سورة النساء، والتي جاء فيها كذلك زيادة بيان في الكلالة.

٢- لاحظوا أن نصيب الإخوة والأخوات لأم في الميراث يشابه نصيب الأم، فهم إما أن يأخذوا السدس أو الثلث، وكذلك الأم في حالتها.

ولاحظوا كذلك أن الأم لا تحجب أولادها من ميراث أخيهم أو أختهم، مع أن القاعدة أن كل من أدلى للميت بواسطة فإنه لا يرث مع وجود هذه الوسطة، فجاء المُتوفى لا يرث مع وجود الأب، والحفيد لا يرث مع وجود الابن، وهكذا.

٣- لعل سؤالاً يطرح نفسه هنا عن سبب إعطاء الإخوة والأخوات لأم بالتساوي، وعدم إعمال قاعدة «للذكر مثل حظ الأنثيين».

وقد أجاب بعض أهل العلم عن ذلك، بأن توريثهم هنا كان بسبب الأم، يعني من طريق الرحم لا من طريق العصباء الذكور كما في غالب أحوال الميراث، فالعصبية في الشرع يرتبط نسب الإنسان بها، وذكرها يحملون في دية القتل مع القاتل كما هو مذهب عدد من العلماء، وكذا الحال في باب النفقة فناسب تفضيل الرجال بسبب العصبية.

ولذلك أعطى الشرع الأنثى نصف حظ الذكر في الحالات التي جاءت عن طريق الأب، كالأولاد والبنات، والإخوة والأخوات الأشقاء، والإخوة والأخوات لأب، بخلاف مسألتنا هذه التي كانت الأم هي سبب توريث الإخوة والأخوات.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ كذلك لا نعطي الإخوة والأخوة لأم ميراثهم إلا بعد سداد الدين وتنفيذ الوصايا.

ولكن تأملوا في هذه الآية كيف قرنت الوصية بشرط عدم إضرار صاحبها فيها، وقد تقدم معنا أنه قد يعمد إلى الإيذاء بسداد دين ليس عليه بقصد إضرار الورثة أو بعضهم، أو قد يوصي بحرمان بعضهم من الإرث وهي وصية باطلة، أو قد يتجاوز الثلث في وصيته، فهذا الفعل من الجور والعدول عن الحق الذي لا يرضاه الله تعالى ولا يحبه.

﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ هذه الأحكام الشرعية النفيسة جاءتكم وصية من عند من أراد صلاحكم وهدايتكم، وقد أوجب عليكم تنفيذها والالتزام بما فيها، لتكون حياتكم طيبة على أحسن حال.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ما أجملها من لفظة جاء بها ختام الآية، أيها المسلمون: إنما نزلت هذه الأحكام من عند ربِّ عظيم، عالم بكم وبنياتكم وبما يسعدكم وينفعكم، عليم بمن يستحقُّ أَنْ يُعْطَى مِنْ ميراث الميت من أقربائه وأنسابه ومقدار ما يستحق، فاتركوا ما كنتم عليه من أحكام جاهليتكم ولا تتبعوا غير شرع الله، ولا تغرنكم شرائع أهل الأرض وما يزعمون.

وهو حلیم بكم، ومن حلمه أنه شرع لكم لثلاث تفضلوا في ذلك، ولثلاث تكون الشحناء والبغضاء وفساد القلوب والأحوال.

ومن حلمه أنه لَمْ يَسْمَحْ لَكُمْ بِحِرْمَانِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ مِنَ الْإِرْثِ، ولم يعاجلكم بالعقوبة على اعتدائكم على حقوق الضعفاء، بل أمهلکم لتتوبوا وتراجعوا الحق إلى أصحابه قبل فوات الأوان.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

كتاب الله تعالى ينادي أصحاب القلوب الطيبة والفطر السليمة، ويَعُدُّ خطاهم نحو جنة يتقلب فيها أهلها في النعيم المقيم، وينعم أصحابها في القصور والأشجار التي تجري بين طرقها أنهارٌ متنوعة ومتلونة، وهناك: لا تعبٌ ولا شقاء ولا نكد ولا مرض، وإنما هو الأنس ونضرة الوجوه وسعادة القلب، والفوز العظيم بلقاء الأحبة ورؤية وجه الكريم، والخلود الذي لا يعقبه موت.

نادت الآية أهل الجنة وأحبائهم، وذكرتهم بمفتاحها، وهو التزام حدود الله وشرعه وأمره، وهو نداء يحمل في ثناياه ضرورة التغلب على أمراض النفوس، وعدم طاعة شياطين الإنس والجن في إفسادهم وإغرائهم.

يَا مَنْ تُحِبُّونَ جَنَّةَ اللَّهِ: أعطوا الميراث لأهله ولا تظلموا، وأدوا حقوق الناس إليهم، والتزموا حدود الشرع في ذلك، واعلموا أن ما عند الله تعالى خير وأبقى.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ، يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٤)

هذا جزاء من لم يرتضِ حكمَ الله تعالى وأمره ونهيّه، ولكن تعلق قلبه بشرائع أهل الأرض من الذين شهدت قوانينهم تخبطاً واتباعاً للهوى ومناقضةً للدين، فهؤلاء عصوا الله تعالى بما اعتقدوا وفعلوا، وتجاوزوا حدودهم مع الكتاب والسنة، فأعدَّ لهم ناراً تستعُرُّ، وسيجزيهم بالخلود فيها أذلاءً صاغرين، ولن يخرجوا منها أبداً.

زعم أهل الكفر في زماننا أنهم قدّموا شرائع في الميراث وغيره، تضمن للمرأة حقوقها كما هو حال الرجل، وقدّموا ذلك في قوالبٍ براقَةٍ اغترَّ بها كثيرٌ من المسلمين، مع أن المتأمل في تفاصيل ما قدموه يعلم حق العلم أن دين الله تعالى هو الضامن الوحيد لسعادة الرجل والمرأة لا غير، ويكفي أنه من عند حكيم خبير، ولذلك رأينا أهل الإيمان الحق لا يحادون الله تعالى في حكمه وسُرعته، ولا يحتكمون إلى غير الإسلام، ولكنهم يرضون بدين الله حباً وكرامةً، ويعملون له.

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّعُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (١٥)

هذا حكم يتعلق بجريمة الزنا إذا اقترفتها المرأة، وهو حكمٌ كان في ابتداء الإسلام قبل أن تنزل آيات سورة النور التي بينت حد الزنا لغير المحصن، وقبل أن يأتي حدُّ الرجم للمحصن والمحصنة في السنة النبوية الصحيحة الصريحة.

الآية تبين أن حكم المرأة التي ثبت زناها، أن تحبس في بيت وتُمنع من الخروج منه إلى أن تموت، سواء كانت بكرًا أم ثيبًا، ويكون إثبات ذلك عليها بشهادة أربعة رجال، أو أن تعترف بذلك فإن الإقرار أقوى البينات.

وقول الله تعالى في ختام الآية ﴿أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ معناه: طريقاً ومخرجاً عن هذا الحبس وحُكماً آخر، وكان الآية تشير إلى أن إمساكهنَّ في البيوت حكم شرعي مؤقت، سيَعقبُهُ حُكْمٌ آخر يعطي هذا الجُرم عقوبة أخرى.

وقد جاء هذا السبيل في حديث النبي ﷺ، وهو مثال على نسخ السنة الصحيحة للقرآن، وهذا الحديث هو ما أخرجه مسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ».

ولعلكم لاحظتم أن السبيل كان بالاختصار على جلد البكر مائة جلدة ونفيها سنة، والبكر هي التي لم يسبق لها الزواج، بخلاف الثيب التي بين الحديث أنها تُجلد وتُرجم حتى الموت.

وزيادة في البيان الفقهي والوعظي لهذه الآية أقول:

١- أجمع أهل العلم على أن الرجل أو المرأة إذا اقترفا جريمة الزنا وكانا غير مُحَصَّنِينَ، يعني: غير متزوجين من قبل، أن عقوبتهما أن يجلد كل واحد منهما مائة جلدة، للآيات التي جاءت في أول سورة النور.

واختلفوا في النفي المذكور في الحديث، وهو ما يسميه الفقهاء بالتغريب، فالحنفية على عدم وجوب التغريب، والمالكية يغرب الزاني دون الزانية، والشافعية والحنابلة يجمعون في العقوبة بين التغريب والجلد لظاهر الحديث، وللمسألة أحكام تراجع في مظانها.

٢- واتفق أهل العلم على أن الزاني والزانية إذا كانا مُحَصَّنِينَ فإن عقوبتهما الرجم، واختلفوا في الجلد الذي جاء مع الرجم هنا في حديث صحيح مسلم المذكور آنفًا، فذهب جمهور الفقهاء إلى أن العقوبة هي الرجم فقط، ولا نجمع إليه الجلد، لأن النبي ﷺ لما رَجِمَ مَاعِزًا وَالْغَامِذِيَّةَ وَالْيَهُودِيَّيْنِ لم يجلدهم، فدل على أن الجلد ليس واجبًا، بل هو منسوخ.

٣- فائدة لطيفة في اشتراط أن يكون الشهود أربعة رجال لإثبات الزنا وإقامة العقوبة، وكأن الإسلام باشتراطه أربعة يحتاط للأعراض كثيرًا، ولذلك لا أعرف في التاريخ الإسلامي عقوبة زنا أقيمت بالشهادة، بل أقيمت جميعها فيما أعلم بإقرار الزاني أو الزانية.

ولكم أن تتأملوا في اشتراط الذكورة في الشهادة وعدم قبولها من النساء، وما ذاك إلا لحرص هذه الشريعة على إبعاد المرأة عن ساحات هذا النوع من الإجرام وما يتعلق به من تفاصيل الشهادة، وما يتعلق به من عقوبات مشددة، فإن في هذا حفظًا لطبيعة أنوثتها ورقتها وحياتها، ولعل في غفلتها عن مثل هذه المواطن خيرًا عظيمًا لها ولمجتمعها.

٤- الزنا أن يوطأ الرجل غير زوجته ويجمعها، وهو رذيلة من الرذائل التي يأنف منها الشرع، وتأنفها الطباع السليمة والنفوس السويّة، وهو كبيرة من كبائر هذا الدين، وتحريمه والتنفير منه معروف في الشرائع السماوية كلّها.

وقد نص كثير من أهل العلم على أن الشريعة تدرجت في عقوبة من يفعل هذه الفاحشة العظيمة، فكان إيذاء الزناة وحبسهم، ثم نزلت عقوبة الجلد أو الرجم.

وتأملوا كيف سمى الله تعالى الزنا فاحشة، فالفاحشة من الفُحْشِ، وهو الأمرُ الشَّدِيدُ الكَرَاهِيَّةُ وَالذَّمُّ، وتطلق اللفظة على من تجاوز الحد في شيء ما، والزاني والزانية مفسدون متجاوزون للكثير من القيم والمبادئ، بل متجاوزون لما ربّاهم عليه الشرع وأرشدهم إلى فعله.

٥- ومن أجل حرمة الزنا أمر الشرع بغض البصر للرجال وللنساء، ومنَعَ الخلوة بالأجنبية، وهي التي يجوز الزواج منها في يوم من الأيام، وحذّر الرجال من الدخول على النساء دون وجود محرّم ودون أمنٍ للفتنة، وأوجب اللباس الشرعي على المرأة، ومنَعَهَا أَنْ تخرج مستعطرة أو كاشفة لشعرها وبدنها، وحرّم عليها الضَرْبَ بالأرجل بقصد إظهار الزينة للرجال، وأرشد معاشر الشباب إلى الزواج، وأوصى العاجز منهم بالعفة، والاستعانة بالصيام، ومدح أهل الحياء، وحرّم النكاح من الزاني والزانية، وأخبر أن الطيبين للطيبات، وغير ذلك من الأحكام التي يُفهم منها أننا نعيش في مجتمع واحد نتعاون فيه على البر، ونغلّق أبواب الشرور والآثام.

٦- العقوبة الشرعية التي أوجبها الشرع على الزناة في الدنيا تدل على عظم هذا الجُرم، فالرجم للمُحْصَن ليس هيئناً ولا الجلد لغير المحصن كذلك، والشرع أوجب في إقامة عقوبة الزناة شهود الناس ليحصل الخزي للفاعل، ويرتدّع غيره.

٧- من غريب حال أمتنا في هذا الزمان أننا لا نجد عناية لائقة من القائمين على أمرنا بإغلاق أبواب الزنا على أصحاب الهوى، ولا نجد التربية الكافية لصرف قلوب أبناء هذا الجيل وبناته عن سوء الأخلاق ومنكراتها.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ قال في خطبة الكسوف: «يَا أُمَّة مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّة مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» الحديث.

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فلم يعتنوا بتطبيق أحكام الشريعة فيما يخص الاختلاط والتبرج وغيرهما، ولم يطبقوا العقوبات الشرعية المتعلقة بحفظ الأعراض كحدِّ الزنا وحدِّ القذف، فالزاني لا تتجاوز عقوبته في عدد من بلاد المسلمين ثلاث سنوات في السجن، وقد تُخَفَّفُ في عدد من الظروف والأحوال إلى ستة أشهر، وقد تسقط بإسقاط صاحب الدعوى دعواه وشكواه.

٨- وفي التنفير من فاحشة الزنا خاطبنا ربنا جل وعلا وقال لنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. وصدق ربي لما أخبرنا بأن الزنا ساء سبيلاً وطريقاً، وإياكم أن تظنوا أن هذا السوء يقتصر على الحياة الدنيا، بل هو ممتد إلى ما بعدها، وإليكم البيان:

أما في الدنيا فاعلموا أنه من الطامات التي يُحدثها أهل الزنا في أنفسهم وفي مجتمعاتهم أنهم ينتهكون حرمة البيوت، ويخلطون الأنساب، ويُفسدون غيرتهم على أعراضهم، ويُلحقون العار الذي ما بعده عار بالأهل والزوج، وينشرون الفاحشة في المجتمع، ويُسهّلون على الغير وقوعهم في الذنب، ويضيعُ أهلهم على الغالب بحصول الطلاق أو بالخصومة والشحناء أو بفساد الأبناء.

وقد استقرأ عدد من علماء الوعظ والإرشاد ما يُحدثه هذا الذنب في قلب صاحبه وحياته، فذكروا أنه يورث الفقر ويُقصّر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه واثوب المقت بين الناس، وأنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يُمتّه، ويجلب الهمَّ والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من المَلِكِ ويقربه من الشيطان، ويُخشى على فاعله من سوء الخاتمة.

أخرج أحمد والطبراني عن أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزَّيْنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «اِذْنُهُ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا». قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِابْنَاتِهِمْ». قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأَخِيكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ». قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَمِثُ إِلَى شَيْءٍ.

وأخرج ابن ماجه والبخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَصَّتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا» الحديث.

وأخرج الطبراني والحاكم بسند حسن عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا ظَهَرَ الزَّنا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ».

٩- وفيما يخص عذاب الزناة في البرزخ، أي: في حياتهم بعد الموت وقبل البعث، أخرج البخاري عن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديثاً يتكلم عن رؤيا رآها النبي ﷺ، ورؤياه حق كما تعلمون، وفيها يقول: «فَانْطَلَقْنَا (أي: النبي عليه الصلاة والسلام والملكين)، فَاتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ (هو الذي تكون فيه نار ويخبز فيه) فَإِذَا فِيهِ لَعَطٌ وَأَصْوَاتٌ» قَالَ: «فَاطْلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءُ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضُوءًا» (يعني: ارتفعت أصواتهم) قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلَاءِ؟» يعني: سأل نبينا ﷺ الملكين: «من هؤلاء؟»، قيل: «وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاءُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمْ الرِّجَالُ وَالزَّوْجَانِ» الحديث.

وفي أرض المحشر أخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ: شَيْخُ زَانٍ (وهو الكبير في السن)، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ (والعائل هو الفقير)». وفي رواية: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وأخرج البخاري في مسنده عن سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْإِمَامُ الْكَذَّابُ، وَالْعَائِلُ الْمَرْهُو». أي: الفقير المتكبر.

١٠- وجاء في خصوص من يستغلون غيبة الأزواج عن زوجاتهم بسبب السفر للتجارة والعلاج ونحوهما، أو يستغلون طول غيابهم في سعيهم للرزق، أو يستغلون سوء العلاقة وبرودها بين الزوجين فينفثون مكرهم وسمومهم للتغريب بالزوجة وإيقاعها في المحذور، أقول جاء في خصوصهم الحديث الضعيف الذي أخرجه أحمد وغيره عن أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَعَدَ عَلَى فِرَاشٍ مُغِيبَةٍ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُغَبَّاءً». والمغيبة هي التي غاب عنها زوجها.

وفي خصوص حفظ أعراض أهل الجهاد جاء ما أخرجه مسلم عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيُخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟». وفي رواية عند النسائي: «ثُمَّ التَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا ظَنُّكُمْ تَرَوْنَ يَدْعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئًا؟».

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٦)

﴿وَالَّذَانِ﴾ لفظة تشمل الزاني والزانية، وقد جاءت اللفظة بصيغة التذكير على وجه التغليب كما هو حال كثير من آيات كتاب الله.

و﴿يَأْتِيَنِهَا﴾ أي: يأتيان الفاحشة التي هي الزنا.

والآية تأمر بإيذائهما على ما فعلوا، والأذية إنما تكون بالشتم والفضح والضرب.

وهذا يعني أن النساء كان لهنَّ عقوبتان على فعل الفاحشة: الأولى: ما ورد في الآية السابقة من الحبس في البيوت، والثانية: الإيذاء الذي ورد في الآية هنا.

ولا يقولن قائل: ولم تعددت عقوبة الزانية بخلاف الزاني، فإنه من المعلوم لديكم أن الزنا في حق المرأة أشد وأصعب وهو أكثر عارًا، ومعلوم كذلك أن هيبه المرأة في قلب الرجل عظيمة، ولا يقترب منها غالبًا حتى تفتنه بلباسها وكلامها وحرركاتها، وكأن تعدد العقوبة عليها إنما جاء لزيادة حفظها وتحذيرها من التساهل بأحكام الشرع في ذلك، ومن هنا كان تقديمها في الذكر على الزاني في آية سورة النور التي نَسَخَتْ الحكم هنا، ومعلوم لديكم أن آية سورة النور سَوَتْ في العقوبة بين الزاني والزانية غير المحصنين بجلدهما مائة جلدة، ولم تفرق بينهما كما كان الأمر أول تشريع العقوبة، عافانا الله جميعًا. قال الله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢٢]

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: توقفوا عن أذيتهما وشتمهما وضربهما والحديث عنهما وعن فعلتهما إذا ظهر صلاحُهما، وصلحت أعمالهما واستقاما، فإن الله تعالى يقبل توبة العبد إذا صدق فيها، وأحسن العمل، وأصلح الحال.

والآية تشير إلى أن التوبة تُسقط عقوبة الإيذاء، بخلاف عقوبة حبس الزانية الممتدة إلى الموت. أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا زَنَتْ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ، فَتَبَيَّنَ زَنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا» الحديث. أَي: لا يوبخها ولا يُعَيَّرُهَا بِمَا فعلت، فقد أقيم عليها الحد الذي هو كفارة لها.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ يحب ربنا إقبال العبد عليه، ويقبل منه رجعته وأوبته وندمه واستغفاره، وهو تَوَّاب، أي: يقبل توبة العبد كلما أذنب ورجع، وإن كثر منه ذلك، وإن وقع في كبائر المعاصي.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧)

التوبة إلى الله تعالى شعار من شعارات الصالحين، لا تنفك عنهم ولا تقر لهم عين إلا بها. آية تدل على معلم من معالم التوبة المقبولة عند الله تعالى، والتي يُحِبُّ أصحابها ويتجاوز عنهم ويكرمهم بجنته، هؤلاء عملوا السوء بجهالة ثم سارعوا في توبتهم الصادقة وهو المطلوب والمرجو.

والسوء هو الحرام والمعصية، وُسْمِي بذلك لأنه يشير إلى القول أو الفعل الذي يسوء صاحبه إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس، وكذلك يسوء النَّاسَ ويضرُّهم ويؤذيهم في دينهم وأهلهم وأنفسهم وأموالهم، وكذلك يُوجب لفاعله كتابة السيئات عليه في صحائف أعماله.

الذين يتوب الله عليهم عملوا السوء بجهالة، والجهالة هنا لا تعني عدم العلم بحرمة هذا الفعل، أو غياب العقل عن الفهم، ولكنه جهلٌ بعظمة العظيم حال فعل المعصية، وجهلٌ بالإقبال على لذة محرمة تزول ويبقى ضررها وإثمها، وجهلٌ بفعل الفاحشة دون رَوِيَّةٍ وتفكير صحيح ونظرٍ في المآلات.

والجهل وصف لازم لكل من أكبَّ على الذنوب وأسرف فيها، فهو جاهل ما دام مصراً عليها، وجاهل حال تلذذه بها وغفلته عما ينتظره بعدها، وأحياناً يأتي جهله من حيث ظن النفع بفعل المعصية، يعني: أقبل على الحرام ليرتاح ويطمئن، ولكنه الشقاء وربى.

لكنهم مع فعلهم السوء بجهالة تابوا من قريب، أي: لم يصروا على ذنبهم، بل بادروا في توبتهم كلما أذنبوا، وسارعوا فيها يبتغون رضوان الله وجنته، ويخافون سخطه وعذابه، ويحرصون على دوام توبتهم قبل أن يفجأهم الموت وتبلغ الروح الترقوة وهم على شر حال، وكأني بقلب هذا العاصي يتألم حُرقة على ما فعل، وكأني به قد امتلأ بعظمة الله تعالى ولم يستخف بنظره إليه؛ هؤلاء هم الذين يتوب الله عليهم، ويسعدهم في الدارين.

والتوبة إلى الله تعالى أصل من أصول العبودية التي تنفع صاحبها، ومن معالمها أن تكون صافية نقيّة، يهجر صاحبها ذنبه، ويندم على فعلته، ويعزم على عدم الرجوع إلى الحرام، ويردّ المظالم إلى أهلها إن كان في معصيته اعتداءً على حقوق غيره.

أخرج أحمد والترمذي بسند حسن عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ». يعني: ما لم تبلغ روحه الترقوة عند الرقبة لتخرج، فلا تقنط من رحمة الله ولا تيأس منه.

واعلم أن من علامة الإيمان الحرص على اجتناب الذنوب، والابتعاد عن مواطن الفتن، والمسارة إلى التوبة إذا حصل البلاء بذنب يُسخط الربّ جل وعلا.

ومن علامات أهل التقوى عدم اغترارهم بستر الله، وعدم اغترارهم بشبابهم أو صحتهم أو تتابع نعم الله عليهم مع إقامتهم على المعاصي، هم يعلمون أن الموت قد يفجأ صاحبه ويحول بينه وبين التوبة.

والآيات والأحاديث التي جاءت في قبول توبة التائبين وسعة رحمة الله لهم، تفتح أبواب الرجوع إليه عند من شرح الله صدورهم لمراقبته، ولا تفتح عليهم أبواب التجرئ على المعاصي، يعني: من الغرور بالله أن تتفنّن بالمعاصي تحت شعار: لي رب يغفر، ومن الغرور أن تستخف بسخط الله وعقوبته حال إقبالك على المعصية، فالمؤمن يجري حاله بين الخوف من العقوبة ورجاء الرحمة والمغفرة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وأخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ». والمقصود أن توبة العبد مقبولة متى كانت الحياة مأمولة.

واعلموا يرحمكم الله أن التائبين لهم أحوال مع خالقهم يعجز البيان عن وصفها، ولعل ما تحمله قلوبهم من خير هو سرٌّ تركهم للذنوب المُحِبَّة، وثباتهم على الطريق مع صعوبة السير فيها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فمن علمه أنه يعلم ضعف الواحد منا وحصول الذنب منه، ولذلك فتح له باب التوبة.

ومن علمه أنه يعلم مَنْ صدق في توبته ممن كذب فيها، ويعلم قدر عظمتة سبحانه في قلوب خلقه، وهو مُطَّلِع على السرائر.

وهو حكيم فيمن اصطفاه للتوبة، ووفقه إليها وَيَسِّرْ له طرائقها، وأعانه على الطاعة حتى ختم له بخاتمة أهل التقوى. اللهم اجعلنا منهم.

﴿وَلَيْسَتِ التُّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨)

صنفان ذكَّرتهما الآية هنا لا يقبل الله تعالى منهما توبة:

الأول: مَنْ عصى الله تعالى ولم يبادر إلى الرجوع إليه، ولكنه بقي مصرًّا على الحرام ويتقلب فيه حتى بلغت روحه مبلغها لتخرج وحضره الموت، فبادر إلى التوبة لَمَّا يئس من بقائه على هذه الدار وأصبح في حكم أهل الآخرة، فكانت توبته في هذا الموطن توبة المضطرين الذين تركوها واستخفوا بها حال السعة والاختيار، ولذلك لا يقبلها الله ولا يرضى عن صاحبها.

ومثله يبقى في مشيئة الله تعالى في عقيدتنا ما لم يصدر منه كفر وخروج عن الدين، والمقصود بمشيئة الله تعالى أنه سبحانه إذا شاء عذبه ثم أدخله الجنة، وإذا شاء عفا عنه، بخلاف من يموت على توبة صحيحة مقبولة وطيب حال فإنه من أهل الجنة فيما نحسبه والله حسيبه.

الثاني: من كفر بالله أو بملائكته أو بكتابه من كتبه أو برسول من رسله أو لم يؤمن باليوم الآخر أو بالقدر، ثم لما أدركه عذاب الله وبأسه أقبل على التوحيد والإيمان، ولكن يوم لا ينفعه. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿[غافر ٨٤-٨٥].

ولكم أن تتأملوا في ذلك ما قال فرعون لما أدركه الغرق وأيقن الهلاك، قال الله تعالى عن عدو الله: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكُهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

ومن أهل الكفر من يعرض توبته في أرض المحشر ظاناً أن ذلك نافعه، وأن ندمه على ما فات سيُنْجيه، ولكن هيهات فإن الله تعالى قدَّرَ ألا تُقبل توبةٌ بعد موت العبد وقيامته لليوم الآخر، فإنه يوم الحساب لا يوم العمل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال الله تعالى فيهم: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنْتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ومن عجيب بلاغة القرآن وبيانه، أنه ذكر كلمة السوء مفردة في الآية السابقة بخلاف جمعها في هذه الآية، قال أهل العلم: لأن أهل الإيمان يتبعون مغفرة الذنوب في حياتهم ويسارعون للتوبة منها، ولا يقع منهم ذنب إلا متباعدًا عن الآخر فذكر السوء في حقهم مُفْرَدًا، بخلاف صاحب السيئات الذي أكبَّ على الحرام وتعلق قلبه فيه ولا يكاد ينفك عنه.

﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ نزل هذين الفريقين ومأواهم جهنم التي فيها عذاب موجه مؤلم مهين، كل ذلك بما كسبت أيديهم.

أمَّا أهل الكفر فخالدون فيها، وأمَّا العصاة من المسلمين فلا يخلدون فيها إذا عاملهم الله بعذله وعذبهم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ اتِّتِمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

سورة النساء فيها تشريعات كثيرة تحفظ حق المرأة وقدرها، وفيها من المواعظ ما يكفي لإكرامها وإنزالها المنزلة التي أراد الله.

كان أهل الجاهلية يتوارثون النساء فيما بينهم، فإن مات زوج ورث أولياؤه زوجته، وتصرفوا بها كما يشاؤون، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قول الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ: «كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِأَمْرَاتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزْوِجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوَّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ».

وقد روى غير واحد من أهل التفسير بأسانيدهم، أن أهل الجاهلية كانوا إذا توفي عن المرأة زوجها، جاء أحد أوليائه وورثته فألقى عليها ثوباً فَمَنَعَهَا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَقَّ بِهَا، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً تَزَوَّجَهَا وَإِنْ كَانَتْ زَوْجَةً أَبْيَه، أَوْ رُبَّمَا يُزَوَّجَهَا لغيره، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ جَمِيلَةً حَسَبَهَا حَتَّى تَمُوتَ فِيرِثَهَا، أَوْ أَنَّهَا تَفْتَدِي نَفْسَهَا بِدَفْعِ مَالٍ لَهُ لِتَتَزَوَّجَ مِنْ تَرِيدٍ.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآءِ اتِّتِمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ العضل هو منع المرأة من ممارسة حقها في الزواج والاستقرار، وهذا العضل قد يكون من الولي بمنعها من الزواج من الكُفء من الرجال لحرصه على بقاء انتفاعه بمالها مثلاً، أو أن تكون يتيمة لها مال وهو وليها، فيأبى تزويجها ليتزوجها هو ويأخذ مالها.

وقد يكون العضل من زوجها، وهو الذي وُجِّه الخطاب له هنا في الآية، وعضل الزوج لزوجته يكون بتعمُّد الإساءة لها في معاملتها والتضييق عليها، وربما صَرَبَهَا وَشَتَمَهَا، وَقَدْ يَمْنَعُهَا النِّفَقَةَ وَحَقُّوقَ الْفَرَّاشِ، وَيَأْبَى طَلَاقَهَا حَتَّى تُرْجِعَ لَهُ الْمَهْرَ وَمَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا، فَلَا هُوَ يَرِيدُهَا وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَطْلُقَهَا وَيُعْطِيَهَا حَقُّوقَهَا الشَّرْعِيَّةَ، فَتَرَاهُ يَفْعَلُ كُلَّ ذَلِكَ لِيَذْهَبَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَالِ الَّذِي أَنْفَقَ عَلَيْهَا أَوْ دَفَعَهُ لَهَا مَهْرًا.

جاءت الآية هنا تنهاه عن ذلك، وتبين حرمة فعلته واعتدائه على حقوقها، صحيح أن الإسلام جعل له القوامة، وجعل رضاه سبباً لدخولها الجنة، لكن الإسلام يأبى الظلم والظفر والاضطهاد، ولا يرضى بانتقاصها وتكليفها ما لا تطيق، فإما أن يمسكها بالمعروف أو يطلقها بالمعروف. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١].

إلا أن الشرع أجاز للرجل أن يمنع المرأة شيئاً من حقوقها في المهر والنفقة، وأن يأخذ ما آتاها وقدمه لها لتكون زوجة له ومربيةً لعياله، وذلك إذا أتت بالفاحشة.

والفاحشة عند جمهور المفسرين هي خيانتها لزوجها واقترافها جرم الزنا، فإن تحقق من فعلها ذلك ومن تسببها في فساد بيت الزوجية، فله أن يضيّق عليها، ولا يطلقها حتى تفتدي نفسها منه بإرجاع المهر له أو جزء منه أو غير ذلك.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن المقصود بالفاحشة هنا نشوز المرأة وبذاءة لسانها مع زوجها، وعصيانها والخروج عن طاعته وتمرداها عليه، وليس زناها، ولا تعارض بين الأمرين، ففي كلا الحالتين للزوج أن يفعل ذلك، كما رجّحه جمع من المفسرين.

وهنا همسة في آذان الأزواج: إياكم أن تفتروا على نساءكم في ذلك شيئاً، واحذروا من خفة دينكم وأمانتكم لتحصلوا على ما قدمتم من مال، ولا تفعلوا كما يفعل غيركم إذا نفر من زوجته لسبب ما، ثم بدأ بنسج قصص موهومة ليصل إلى ما يريد، فهذا من الظلم الذي يخشى على صاحبه، نعوذ بالله من الفتن.

وقد دلت نصوص شرعية أخرى على أن نفقة الزوجة لو أرادت أن تعطي زوجها وتهبه شيئاً عن طيب نفسٍ منها ورضا، فله أن يأخذ من مالها كما مر معنا في أوائل السورة.

وكذلك لو أبغضت المرأة زوجها لسببٍ معتبرٍ، وعلمت أنها لن تقوم بحقه من شدة بغضها له، وأنها لا تقدر على معاشرته بالمعروف، ولا تستطيع أن تطيع الله تعالى فيه، فبذلت شيئاً له من مهرها ليطلقها، فلا حرج في قبول ذلك ولا إثم عليه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالمعروف أي: وفقاً لأعرافِ النَّاسِ وما عهدوه بينهم، فالزَّوْجَةُ لها من الحقوق مثل الذي عليها من الواجبات وفقاً لما تقتضيه أعرافُ من حولها، أي: إن الزوجة لها من التَّكْرِيمِ والعناية وحُسنِ المُعاملَةِ، كما يجبُ عليها أن تَبْذُلَ من ذلك لزوجها، وهي تحب من زوجها الكلمة الطيبة، والفعل الحسن، والمظهر الجميل كما يحبه منها، فليُعْطِ كُلُّ منهما الآخر بحسب قدرته وما يملك.

والمقصود هنا أن حقوق المرأة وواجباتها لا تخضع لتحكم الرجل ولا لمزاجيته، ولا يقبل فيها التهاون، بل هي مبنية على ما أمرت به النصوص، وعلى عرف الناس الذي أحال إليه الشرع ليتحقق التكامل المنشود في الأسرة والتواصي بالحق.

والإحالة على العرف هنا يلزم منها ضرورة اعتبار الزمان والمكان والبيئة وحال الأزواج وأهلهم في معرفة كُلِّ من الزوجين ما له وما عليه.

أخرج مسلمٌ عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ إِلَّا يُوطِئَنَّ فَرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُ، فَإِنْ فَعَلَنْ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» الحديث.

وأخرج أحمدٌ وأبو داودَ وابنُ ماجه، عن حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقُسَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ».

وقد كان ﷺ يَضْحَكُ نِسَاءَهُ، ويتلطف بأهل بيته، ويسابق عائشة، ويقول عن خديجة: «إني قد رُزِقتُ حُبَّهَا»، ويضع ركبته لصفية لتركب على الدابة، وتجتمع نساؤه كل ليلة في بيت من سيبت عندها، وكان يصبر عليهن ويعظُهن ويكرمهن. وهو القائل ﷺ، كما أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي».

فرضي الله عن أمهات المؤمنين وصلى الله على نبينا وسلّم تسليمًا كثيرًا، وبارك الله في كل زوجين سارا على طريقهم وهدّاهم فاستقامت حياتهم وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ما أجمله من ختام لهذه الآية، فإن فيه قاعدةً نافعةً في حياة الأزواج تعمل على فتح آفاق التفكير عندهم، وجعل الإيجابية هي العنوان الأسمى في التعامل مع الآخر.

وبيان ذلك يكون بأن يدرك الزوج الذي أعطاه الإسلام القوامة وحقَّ الطلاق، أن قيادته لأسرته وقيامه على شؤونها يحتاج إلى صبر وحكمة وحلم، ويحتاج إلى تغاضٍ عن الأخطاء والزلات، ولا يستقيم حال أسرة بدون ذلك، فإن كرهه في أهل بيته صفاتٍ وأراد أن يُعَجِّل بالطلاق فليستحضر بركة هذه الزوجة وخلالها الطيبة الكثيرة، ولا يتَّبِع ما يسوؤه فإن سنة الحياة أن ترى في نصفك الآخر بعض المساوئ، فلا تبالغ في تعاطيك معها وأدائك نحوها.

أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَفْرُكُ (يعني: لا يُبْغِضُ) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

وللتذكير: فإنَّ الخير موفور في زوجاتنا، وقد لا يفتن له كثير من الأزواج، فَمِنْ بركة الزوجة على زوجها أن يرزقه الله منها الولد، وأن تعينه على غض بصره وحفظ نفسه، وأن تقوم على تربية عياله ورعاية شؤون بيته، وأن تشبع حاجاته النفسية والعاطفية على الوجه المرصّي.

كل هذا ولم أتكلّم عن صلاحها ودينها وحفظها لسيرة زوجها وماله وأهله، ولم أتكلّم عن كثير من الحالات انقلبت فيها العداوة إلى محبة، والبغضاء إلى مودة ولو بعد حين من الزمن، فإله الله بالصبر وإغلاق حيل شياطين الإنس والجن، فإنها السعادة وربّي.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾

صنف من الرجال يغلب على ظنه أنه غير قادر على معاشرة زوجته بالمعروف، وتقوم عنده أسباب يودُّ لأجلها أن يطلق زوجته ويتزوج بأخرى، وهي لم تأت بفاحشة مبينة، ولم تطلب الطلاق.

مشكلة هذا الزوج أنه طمع في المهر الذي أعطاه إياها، فجعل يبذل الحيل ويضيق عليها ليأخذ ما دفعه إليها أو يأخذ جزءاً منه.

الآية تخاطبه هنا: إياك أن تمتد يدك إلى مهرها الذي هو حق لها فإنه مألها، وكيفيك ما أدخلته عليها من وحشة الطلاق.

والقنطار هو المال الكثير، والمقصود به هنا المهر الذي يلزم الزوج، وأهل العلم استنبطوا من هذه الآية جواز أن يكون مهر الزوجة عالياً وكثيراً، لأن القرآن ذكر لفظة القنطار في معرض الإقرار لا الإنكار.

وجواز المغالاة في المهر لا يعني استحبابه أو أن الشرع حث عليه وأرشد إليه، بل المتبع لنصوص الشرع يعلم أن التيسير في الزواج علامة خير وصلاح في أبناء المجتمع الواحد، وفيه من جلب المنافع ودفع المضار الكثير مما تعلمونه.

أخرج ابن حبان عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ النِّكَاحِ أَيْسَرُهُ»، وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم بسند حسن عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُمْنُ الْمَرْأَةِ تَيْسِيرُ خَطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرُ صَدَاقِهَا (أي: مهرها)».

﴿أَتَاخَذُونَهُ بِهَتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ لا تظلم نفسك بالتعرض لمهر زوجتك بالباطل، واحذر أن تكون من أهل البهتان، والبهتان هو شدة الكذب الذي يُبْهَتُ المكذوب عليه، ويُحَيَّرُ ويُسَكَّتُهُ، وهذا فيه إشارة إلى ما يفعله الأزواج في مثل هذه الحال من رمي الزوجة بسوء العشرة والمعاملة، واتهامها بما ليس فيها، أو بالمبالغة بصفة نقص فيها ليخيفها من سوء السمعة، وَيَضْطَرُّهَا إلى التنازل عن حقها في مهرها، فكان أكله لهذا المال مبنياً على البهتان الذي هو شدة الكذب.

نداءً من الله للزوج: لا تعرض نفسك للإثم البين الواضح وإن تظاهرت بما تظاهرت به، وتكلمت بما تكلمت به؛ فإن الشرع منع أخذ المال منها إلا بطيب نفس ورضا.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١١)

أسلوب قرآني يحمل تشنيعاً وإنكاراً شديداً على من يفعل ذلك ويقول له: كيف تسيء معاملتها وتبدي لها جفاء وكرهاً، وتضطرها إلى سلوكات تصدر عنها ليست معتادة عليها؟ تريد أن تُكرهها على إرجاع المهر وأنت من يريد الطلاق وليست هي، فلا تفعل ذلك واحرص على رُقيِّ الرجال الذين أدركوا قيمة الزواج وقدره.

كيف تأخذ المهر ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؟ أي: قَدَّمْتَ لك وَقَدَّمْتُ لها ما لا يكون إلا بين الزوجين من الجماع وكشف العورات، ومعرفة دقائق تفاصيل الحياة بعدما كنتم غرباء عن بعضكم قبل الزواج.

ومعلوم لديكم أن الزوج الذي يريد طلاق زوجته يجب عليه أن يدفع كامل المهر لها إذا حصل بينهما الجماع أو الخلوة الصحيحة التي هي مظنة الجماع، بخلاف ما لو كان الطلاق قبل الدخول والجماع، وقبل الخلوة الصحيحة فالواجب فيه نصف المهر.

وقد حصلت زمن النبي ﷺ ملاعنة بين زوجين قذف فيها الرجل زوجته بالزنا وأتھمها بفعل الفاحشة، فلما حلفا أيّمان اللّعان وقضى ﷺ بالتفريق بينهما طلب الرجل المهر الذي دفعه إليها، وهنا أسوق إليكم الحديث بنصه لتنظروا ماذا أجابه ﷺ، فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال لهلال بن أمية وزوجته بعد أن تلاعنا: «حِسَابُكُمَا عَلَى اللَّهِ، أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ، لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا» (يعني: لم تعد زوجتك) قَالَ: مَالِي؟ قَالَ: «لَا مَالَ لَكَ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَذَاكَ أَبْعَدُ لَكَ» (يعني: فالمهر بعيد عنك وهو لها).

﴿وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وصف قرآني عجيب لعقد الزواج الذي يكون بين الزوجين، تأملوا كيف سماه ميثاقاً غليظاً، والميثاق هو العهد الذي لزمه من أداء حقوقها والإحسان إليها لما اختارها زوجة له وعقدَ عليها.

والقرآن سماه غليظاً، أي: شديداً قوياً مُحْكَمًا، والمقصود بالميثاق الغليظ هنا عقد الزواج. يعني: كيف تأخذ المهر وقد عقدت عليها عقدًا هو من أغلظ العقود وأرفعها قدرًا عند الله؟

أراد الشرع أن يحتاط للمرأة التي سلمت نفسها لزوجها ومَلَكَتْ أمرها إليه، وتركت أهلها وما اعتادته في حياتها من أجله.

ومن هنا نفهم سبب إحاطة الشرع لعقد الزواج بما لا تجدونه في عقد آخر: أرشد إلى كيفية الاختيار، وشرع الخطبة والنظر إلى المخطوبة، ويبيّن حقوق الزوجين وواجباتهما، وجعل الإحسان بين الزوجين باباً من أبواب العبادة والطاعة، وفَصَّلَ في الأحكام المتعلقة بالخصومة، وفي أحكام الطلاق والنفقة والحضانة والتوارث وغير ذلك.

أخرج مسلم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة حجة الوداع، قول النبي ﷺ فيها: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ» الحديث. والمقصود ب (كلمة الله) في الحديث عَقْدُ النِّكَاحِ الذي أباحه الله، وأباح به الجماع بينهما، وشرع له الكثير من الأحكام والفضائل.

ومن جميل ما يُظْهِرُ عظمة هذا العقد في ديننا ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِتَعْبُدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْخِذُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى اللَّهِ هُرُوءًا﴾ [البقرة: ٢٣١]. يعني: لا تلعبوا وتستهزئوا بأوامر الله تعالى فيما يتعلّق بطلاق المرأة وارتجاعها، ولا تستهزئوا بأحكام الشرع التي جاءت تُضَبِّطُ علاقتكم مع أزواجكم وبُيُوتِكُمْ، والتي جاءت تُحَقِّقُ مَصَالِحَكُمْ.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢)

لزوجة الأب تَكْرِمَةٌ تخصها في شرع الله، ولها قدرٌ كبير واحترام لا ينفك عن بر الأب والإحسان إليه في حياته وبعد مماته، وقد كان أهل الجاهلية لا يلتفتون إلى مكانتها، فيتحكم الورثة في أمرها بعد وفاة الزوج، وقد يتزوجها أحد الورثة وإن كانت زوجة أبيه.

حرم الله تعالى نكاحها على الابن بمجرد حصول العقد بينها وبين أبيه، حتى لو لم يكن هناك دخول وجماع، فالعقد الشرعي يحرم على ابن الرجل نكاح من عقد عليها أبوه تحريمًا مُؤَبَّدًا، وكذلك من عقد عليها جدُّه وإن علا، وهذا مما أجمع عليه أهل العلم في ديننا.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَقُوبَةٌ فِيمَا قَدْ سَلَفَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وفيما أقبلتم عليه قبل التحريم، وجميع ما كان من ذلك تترتب عليه أحكامه من ثبوت النسب وحقوق المهر والإرث، وإن وجب عليكم إنهاء كل علاقة محرمة بعد نزول هذا النَّهْيِ.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الفاحشة هي الزنا، وهذا يدل على أن العقد الذي يكون بين الرجل وزوجة أبيه عقد باطل لا وجود له، والله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وَقَالَ سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٢].

والمقت هو أشد البغض والكره، أي: إن الله تعالى يمقت ذلك ويبغضه.

وزواج الابن من زوجة أبيه ساء سيلاً، يعني: بئس هذا الطريق الذي لا يستجلب إلا سخط الرب وعقوبته في الدنيا والآخرة. أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ بِي خَالِي أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَّارٍ وَمَعَهُ لِيَوَاءُ (أي: راية وعلم)، فَقُلْتُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً أَبِيهِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ وَأَخْذَ مَالَهُ».

فهذا الرجل علم تحريم ذلك، ثم تجرأ على شرع الله واستحلَّ معلوماً من الدين بالضرورة، فكان حكمه حكم المرتد عن دين الله، ولذلك أمر ﷺ بقطع عنقه وأخذ ماله، ومن المعلوم لديكم أن مال المرتد يكون فيئاً لبيت مال المسلمين ولا يأخذه الورثة فإنه لا توارث بين المسلم والكافر.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي
فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا
دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ
أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢٣)

سياق قرآني ممتد في بيان الأحكام الشرعية التي تنظم أمور الناس، فيما يتعلق بنظام حياتهم الاجتماعي مما يحتاجونه في طيب عيشهم وسعادتهم.

هنا أصناف من النساء يحرم على الرجال نكاحهن والعقد عليهن: محرمات بسبب النسب والقرابة، ومحرمات بسبب المصاهرة والزواج من الغير، ومحرمات بسبب الرضاع.

وَلَمَّا تَمَلَّ أَنْ يَدْرِكَ حِكْمَةَ الشَّرْعِ فِي تَحْرِيمِ الزَّوْجِ مِمَّنْ ذَكَرْتَهُمُ الْآيَةَ، فَهَذِهِ أَصْنَافٌ تَشْتَدُّ قَرَابَتُهَا وَيَحْتَاجُ كُلُّ مِنْهُمْ لِلْخُلُطَةِ بِالْآخِرِ، يَعْنِي: لَيْسَ سَهْلًا أَنْ تَمْنَعَ بِنْتُ الزَّوْجَةِ مِنَ الدَّخُولِ عَلَى الزَّوْجِ، أَوْ تَمْنَعَ دُخُولَ الْوَلَدِ عَلَى زَوْجَةِ أَبِيهِ وَهَكَذَا.

وتحريم الزواج منهن منسجم تمامًا مع إباحة الخلوة بهن، وإباحة مصافحتهن، وكشف زينتهن المعتادة، واتخاذهن الرجال المذكورين محارم في السفر، وغير ذلك من الأحكام.

وفيما يأتي بيان هذه الأصناف وما يتعلق بها من مسائل:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ﴾ هذه محرمات بسبب النسب: الأم والجدة وإن علون، والبنات وبناتها وإن نزلن، والأخت وبناتها وإن نزلن، وكذا بنات الأخ وإن نزلن، وحرمة كذلك العمّة والخالة، ويلحق بهما عمّة الأب وخالته وإن علون، وعمّة الأم وخالتها وإن علون.

﴿ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ ﴾ هذه محرمات بسبب الرضاع: الأم التي أرضعت لا يجوز لها الزواج ممن أرضعته، وكذا بناتها لا يتزوجن من أرضعته هذه الأم، فإنهن أخواته من الرضاعة.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ»، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ».

وفكرة تحريم الرضاعة تدور حول إدخال الرضيع في عائلة من رضع منها، فنَعُدُّه واحدًا منهم، فإن كان هذا الرضيع ذكرًا فالتّي أَرْضَعْتَهُ هي أمّه من الرضاعة، ويكون زوجها أباه من الرضاع، ويكون أبنّاؤها وبناتها إخوانه وأخواته من الرضاعة، وتكون أخوات المرضعة خالاته، ويكون إخوانها أخوالًا لمن أَرْضَعَتْ، ويكون إخوان زوج المرضعة وأخواتها أعمامًا وعمات من الرضاع، وهكذا إن كانت التي رَضَعَتْ أنثى.

وانتبهوا هنا إلى أن الرضيع فقط هو من يدخل في عائلة المرضعة، أما أبوه وأمّه التي ولدته وإخوانه وأخواته من النسب فلا يدخلون.

وذهب العلماء من الحنفية والمالكية إلى أن قليل الرضاع يُحَرِّمُ وإن كان مصّة واحدة ما دام اللبن قد وصل إلى جوف الطفل، أما الشافعية والحنابلة فقد اشترطوا حصول خمس رضعات متفرقات مشبعات ليكون ابنًا لها أو تكون بنتًا لها من الرضاع.

وجمهور الفقهاء على أن الرضاع الذي يُحَرِّمُ يكون في أول سنتين من عمر الطفل لا بعده.

﴿وَأُمَّهَتْ نِسَاءَكُمْ﴾ هنا بدأ ذكر المحرمات بسبب المصاهرة، أي: بسبب الزواج من آخر، أي: يحرم نكاح أم الزوجة وجَدَّتِهَا وإن علت، وتحريمها يكون بمجرد العقد، فلو عقد رجل على امرأة فإن أمها محرمة عليه مؤبّدًا بمجرد العقد ولو لم يحصل الدخول والجماع.

﴿وَرَبَّيْبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الرّبيبة هي بنت الزوجة، والمقصود: لا يحل للرجل أن يتزوج من بنات زوجته من رجل آخر، بمعنى أن الزوجة كانت متزوجة من رجل وأنجبت منه بنتًا أو أكثر، ثم طلقها أو مات عنها، فهذه البنت محرمة على كل رجل تتزوجه أمّها، سواء كان زوجًا سابقًا أم لاحقًا.

ومما بيّنته الآية أن هذه الرّبيبة لا تحرم على زوج أمها بمجرد العقد، ولكن الحرمة تنتشر وتبدأ من حصول الدخول والجماع، ولذلك جاء في الآية: ﴿مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فلو طلق الرجل الزوجة قبل الدخول فإنه يجوز له الزواج من ابنتها بخلاف ما لو طلقها بعد الدخول.

وقد استخلص الفقهاء من الأحكام المذكورة في الآية ضابطاً فقهيّاً نفيساً قالوا فيه: «العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول في الأمهات يحرم البنات».

والمأمل في الآية كذلك يجد قيّداً آخر ذكرته الآية في حكم التحريم، ولكن هذا القيد أكثرى خرج مخرج الغالب، أعني قول الله تعالى هنا: ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾، فغالب الربيبات يتربين في بيوت أزواج أمهاتهن وفي كفالتهم وحضانتهم، ولا يفهم من الآية هنا أن الربيبة لو كانت تربيتها حصلت في بيت آخر أن الزواج منها مباح، بل يحرم سواء كانت ربيبة في بيت زوج أمها أم في غيره.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وكذلك يحرم على الرجل أن يتزوج زوجة ابنه إذا مات الابن أو طلق زوجته، سواء كان هذا الولد من صلبه أو كان ابناً له من الرضاع، والتحريم يكون بمجرد حصول العقد، والولد المعتبر في ذلك هو الذي يكون من صلب الرجل ونسبه وإن نزل كما بينت الآية.

وتقييد الأبناء هنا بأن يكونوا من أصلابهم فيه احتراز عن تحريم زوجات الأبناء بالتبني، والذي كان الناس يفعلونه وينسبون فيه الأبناء إلى غير آبائهم قبل تحريمه في الإسلام وإبطاله. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقد أوحى ربنا إلى نبيه ﷺ ليتزوج من زينب التي كانت زوجة زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان ﷺ قد تبناه قبل ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْراً زَوَّجْنَاهَا لِيَكِيَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْراً﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وتحريم زوجة الابن لا يلزم منه تحريم أم زوجة الابن وَبِتَّهَا، فلأب أن ينكح أم زوجة ولده أو ابنتها من رجل آخر.

ولعلكم لاحظتم أن زوجة الأب وزوجة الابن وأم الزوجة يكون تحريم الزواج منهم بمجرد حصول العقد، بخلاف بنت الزوجة التي لا تحرم إلا بحصول الدخول والجماع.

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً لا يجوز الجمع بين أختين في الزواج، لا في عقد واحد ولا بعقدين منفصلين، والرجل لا يتزوج أخت زوجته إلا إذا ماتت أو حصل الطلاق.

وهنا لفتان تربويتان وعظمتان أذكر بهما:

١ - يظهر من هذا التحريم حرص الإسلام على بقاء المودة والرحمة والمحبة بين الأخوات، وإغلاق أبواب الشرور بين القرابة الشديدة، ومنع الخصومة وقطع الرحم.

وقد جاءت السنة النبوية كذلك بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، كما أخرج ذلك البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا»، ولعل الحكمة في ذلك واحدة.

٢ - أخت الزوجة لها كل الاحترام والتقدير، وإكرامها من إكرام الزوجة، ولكنها تبقى غريبة عن زوج أختها فلا تخلُ به، ولا تخضع في القول أمامه، ولتحرص في لباسها وجلسها كما هو الحال مع جميع الرجال الأجانب والغرباء عنها.

وقد أشار إلى هذا المعنى الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ: «الْحَمُو الْمَوْتُ».

يعني: لا يدخل الرجل على امرأة في بيتها إلا بوجود محرم أو نساء ثقات تندفع بهن الفتنة، فلما سأله عن الحمو، وهو قريب الزوج من إخوانه وأعمامه وأخواله، حذَّره منه وعلمهم أن الحكم واحد في جميع هؤلاء، بل جعله كالموت لتساهل الناس بدخول هؤلاء على نسائهم، وهو مدعاة لفتح أبواب شرورٍ حذَّره منها شرعُ الله.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠١﴾ أي: إلا ما كان منكم في جاهليتكم قبل مجيء الإسلام، فهذا مما عفا عنه الشرع، وغفر الله لأصحابه الذين تابوا واستجابوا لأمر الله وشرعه.

ولا يفهم من هذا الاستثناء أنَّ من كان متزوجاً من أختين حال نزول الآية أنه يجوز أن تبقيا على ذمته معاً، بل الواجب عليه أن يطلق إحداهما كما دلَّ على ذلك ما أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما بسند حسن عن الصَّحَّاحِ بْنِ قَيْرُوزَ الدَّيْلَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي امْرَأَتَانِ أُخْتَانِ، فَأَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَطْلُقَ إِحْدَاهُمَا».

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

عطف على الآية السابقة فيما يحرم في باب النكاح، والمُحَرَّم هنا اشتراك رجلين فأكثر في عِصْمَةِ امْرَأَةٍ، يعني: لا يجوز للرجل أن يتزوج المرأة المحصنة، وهي المتزوجة من رجل آخر ولا زالت في عصمته، سواء كانت مسلمة أم كانت كتابية متزوجة من كتابي.

والآية فيها إشارة إلى ما كان عليه الأمر في الجاهلية من تساهل بعض الرجال بإدخال رجل آخر على زوجاتهم، كما وصفت ذلك أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فيما أخرجه البخاري عن عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ (أنواع)، وذكرت من ذلك ما يقوله الرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهَّرَتْ مِنْ طَمَثِهَا (حَيْضِهَا): أَرْسِلِي إِلَى فُلَانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ (اطلبي أن يجامعك)، وَيَعْتَزِّلُهَا زَوْجَهَا وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ (جامعها)، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ (يرسلونها لجماع رئيس أو شجاع ليكون الولد كذلك)، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الْإِسْتِبْضَاعِ.

وَنِكَاحٌ آخَرٌ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشْرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا (يجامعها)، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيْالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانٌ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ «الحديث».

وهنا همسة وعظية في أذن من يفسدون حياة الزوجات، ويفتحون أبواب الشرور بقصص العشق والغرام، ويسعون بطرائق معروفة للوصول إلى الزنا والفاحشة، أقول لهم: هذا إجماع لا يليق بكم وبأهليكم، وفعل الكبائر في شرعنا يُعَرِّضُ صاحبه لسخط الله وغضبه، فلا تجرؤوا على حدود الله ومحارمه، وأغلقوا طرائق الشياطين، وتوبوا إلى الله واسألوه الستر والرحمة، فقد أخرج أحمد وأبو داود واللفظ له، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَبَبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا (أي: أفسد)، أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ».

بل أخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ (أي: زوجته)».

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ لا يجوز نكاح المرأة المتزوجة إلا أن تكون ملك يمين، وملك اليمين هو السَّبْيُ الذي يقوم الإمام بتوزيعه على المجاهدين بعد نصرهم على عدوهم من غير المسلمين، وقد كانت عادة الأمم قديماً أن يَهْدَمَ سَبْيُ النساءِ زواجهنَّ ويُلغيه، فمن سُبِّتَ ينقطع نكاحها من زوجها وتصبح ملكاً لمن سباهها، وله أن يجامعها وينجب منها الأولاد بعد استبرائها بحيضة أو أكثر للتأكد من خلو رحمها من الحمل.

وقد خالف أبو حنيفة في مسألة ما لو سُبِّت مع زوجها، فلم يقل ببطلان زواجها منه، خلافاً لجمهور الفقهاء.

واعلموا أن استرقاق هؤلاء إنما كان بعد دعوتهم للإسلام، وامتناعهم عن أداء الجزية للمسلمين، وبعد أن وقفوا بين الإسلام وبين الشعوب فشوهوا صورته وصدّوا عن دين الله، ومعلوم لديكم أن الله تعالى كتب العداوة بين أهل الحق وأهل الباطل، فإذا وقف أهل الحق مكانهم تقدم نحوهم أهل الباطل وفتنهم في دينهم.

ولا يقولن قائل: أليس هذا من انتقاص حقوقها وتكليفها ما لا تطيق؟ لأن هذا الأمر كان عُرفاً عالمياً مُستَقَرّاً بين الأمم جميعها في ذلك الزمن، ولم نجد ممن سبق من غمز ولمز في الإسلام بسبب ذلك.

والإسلام أقر هذا النظام مع إحاطته بعدد من الأحكام الشرعية التي تحفظ للعبيد والإماء مكانتهم، بل قد يكون الخير في استرقاقهن بعد أن مات أزواجهن في القتال أو فرّوا، وقيام أسيادهن على شأنهن وأمرهن يحفظ عليهن كرامتهن وعِفَّتَهُنَّ، ويقربهن ومن معهن من العبيد من دين التوحيد، وهذا ما يفسر لكم دخول الإماء والعبيد في الإسلام أفواجاً أفواجاً حتى كان منهم العلماء وقادة الجيوش وناشرو الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

أخرج مسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسَ (مكان عند الطائف)، فَلَقُوا عَدُوًّا، فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا،

فَكَانَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غَشْيَانِهِنَّ (جماعهن ووطئن) مِنْ أَجْلِ
أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَنُكُمْ﴾، أَي: فَهُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ.

﴿كِتَابُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ كتاب الله، أي: هذا ما كتبه الله عليكم وفرضه، وجعله الشرع
المرضي الذي يستجلب محبته ويدفع سخطه، فالزموه واتبعوه فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِيهِ.

﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾

بعد هذا البيان والتفصيل الذي جاء في ذكر المحرمات من النساء، يأذن الله تعالى للمقبل
على النكاح أن يتزوج من أراد كاتبة العم وابنة الخال وغيرهما من القرابة ومن غير القرابة.

وهنا قاعدة مهمة ذكرها أهل العلم، وهي أن الأصل في غير من ذكرت الآيات هنا الإباحة
ما لم يرد دليل آخر بالتحريم، وقد جاءت نصوص أخرى تدل على تحريم نكاح المشركات،
وقرابة الرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، والجمع بين أكثر من أربع زوجات،
والمنع من زواج المرأة في عدتها من طلاق أو وفاة، أو زواج مُطْلَقَتِهِ ثلاثاً قبل نكاحها غيره،
ويبقى غير ذلك على الجواز والإباحة.

﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ محصنين هنا، أي: قاصدين الزواج
وإعفاف النفس بما أحل الله، والمطلوب: ادفعوا إلى من ارتضيتموها زوجة لكم مهرها قاصدين
إقامة بيت مطمئن، يتحصن فيه كلا الزوجين من الوقوع في الحرام، ومن ضياع الفكر والقلب.
وغير مسافحين، أي: مجتنبين الوقوع في الزنا، واللعب بأعراض الناس وتعرض النفس
لما لا يسرها.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إذا حصل الدخول بين الزوجين
وجب كامل المهر وجوباً مؤكداً من عند الله تعالى، ولا يقبل في ذلك تفریط أو تغافل أو عبث
أو خصومة بالباطل. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فالمقصود بالأجرة هنا المهر، وقد عهدنا في كتاب الله عَزَّجَلَّ إطلاقه لفظة الأجرة على
المهر، كما في قول الله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥]، أَي:
مُهِوْرَهُنَّ بِلاَ زِنَاعٍ، وقول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]. أَي: مُهِوْرَهُنَّ.

والمقصود بلفظة الفريضة، أي: ما فُرِضَ لهن وتمّ التوافق عليه، فأداء ذلك هو ما افترضه الله عليكم.

والآية فيها لفظة بنى عليها أهل العلم أحكامًا متعددة، وهي أن حق المرأة في المهر إنما وجب لها مقابل تمكينها نفسها من زوجها، وإعانتها على تمتّعه بالحلال كما هو الحال لها.

واعلموا أنه لا يصح أن يخلو النكاح من المهر، فإنه بشروطه وفقهه علامة فارقة عن الزنا، ولذلك أوجب أهل العلم مهر المثل لمن لم يذكر مهرها في العقد وقد حصل الدخول.

بل نص أهل العلم على جواز امتناع المرأة من الذهاب لزوجها وتسليم نفسها إليه إذا لم يدفع المهر المعجل لها.

وعند هذه الآية يبحث أهل العلم في مسألة نكاح المتعة المعروف عند الشيعة، وهو نكاح يقوم على قول الرجل للمرأة: متعيني بنفسك مدة يوم أو أسبوع أو غير ذلك مقابل مبلغ من المال، فهو نكاح لأجل محدد ثم يُخلّى سبيلها، وهذا النكاح لا يكون فيه مهر ولا نفقة، ولا يثبت به التوارث بين الزوجين، ولا يقيد العدد فيه بل للرجل أن يتمتع بأكثر من أربع في آن واحد، ولا يحتاج إلى طلاق، بل ينتهي بانتهاء الزمن المتفق عليه.

ومعلوم لديكم إجماع العلماء عند أهل السنة والجماعة على عدم جواز تأقيت عقد النكاح وتحديده بمدة، وعلى أن عقد النكاح الصحيح يثبت به التوارث وكافة الحقوق الزوجية، وغير ذلك من الأحكام.

ونكاح المتعة كان معروفًا في الجاهلية، ولم يأت نسخه أول التشريع، بل كان مأذونًا به حتى جاء تحريره والنهي عنه في عام خيبر أو عام فتح مكة، كحال عدد من الأحكام الشرعية التي لم يأت تحريرها ومنعها أول الأمر.

وحقيقة نكاح المتعة أنه استتجار، وليس نكاحًا مبنياً على الاستقرار والسكن والمودة والرحمة، وإنجاب الأولاد والقيام على شؤونهم، ولذلك نص أهل العلم على أنه نكاح لا يتحقق به الإحصان.

أخرج مسلم عن الربيع بن سبرة الجُهَنِيِّ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذْنُتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عَنْدهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخْلُ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا (أي: من المال)».

وأخرج البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، «أن رسول الله ﷺ نهى عن مُتعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُرِ الإنسيَّة».

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ إذا طابت نفس الزوجة بالتنازل عن شيء من المهر أو عن المهر كله لعسر حال زوجها أو إكرامًا له، فلا حرج في ذلك ولا إثم عليها أو على زوجها، فإنما هو حق لها يسقط بإسقاطها ورضاها، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

ولا جناح عليكم إن زدتم لهن وأعطيتموهن مزيدًا من المال لحاجتهن أو لإكرامهن.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بعد هذا التشريع الممتد في بيان ما أحل الله وما حرم من أمر الزواج، جاءت الفاصلة القرآنية هنا لتذكّر من قرأ هذه الأحكام وتأمّلها، بأنها أنزلت من عند عليم بحال خلقه وبما يصلحهم ويسعدهم، وهو حكيم يضع كل حكم في موضعه اللائق به، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَخَدَّاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أوجب الله تعالى على الرجل أن يبذل المهر للزوجة الحرة، وأن ينفق عليها إذا أراد أن يتزوجها، إلا أن كثيرًا من الرجال لا يملك مهرها، ولا يقدر على أداء حقوقها المالية، ويصعب عليه القيام على شؤونها وحاجاتها، فتلحقه مشقة شديدة لعدم قدرته على الزواج، ويقع في الحرج.

جاءت الآية بحكم شرعي ينفع المعسر إذا لم يقدر على نكاح الحرة، وقالت له: إذا لم تستطع أن تتزوج امرأة حرة مما أباح الله لك، فقد أذن لك الشرع أن تتزوج أمة مؤمنة.

وهنا فوائد إيكموها:

١- لفظة «الطَّوْل» تعني: السَّعة والقدرة.

٢- ستأتي لفظة الإحصان ومشتقاتها في هذه الآية في أكثر من موضع، ولكل موضع دلالة تخصُّبه، والمقصود بالمحصنات هنا النساء الحرائر، والحرائر جمع حُرَّة، وهي التي وُلِدَت لأبوين حُرَّين، أو كانت أمةً فأعتقها من يملكها.

٣- فيما يخص نكاح العبيد للحرائر، بمعنى أن يكون الزوج من العبيد والزوجة من الحرائر، أقول: اتفق العلماء على تحريم زواج العبد من سيده الحرة وبطلان العقد، ولا يحل لها أن تُمكَّنه من جماعها والتمتع بها، فإذا أرادت الزواج منه فلا بد أن يكون حراً ليتحقق شرط الكفاءة.

أما زواجه من غير سيده فكذلك لا يجوز لعبد أن يتزوج من حُرَّة مُطلقاً، وعقده عليها باطل لا يترتب عليه أثر.

ولكن إذا تزوجت أمة من عبد مثلاً، ثم أصبحت حرة وبقي هو على عبوديته، فقد أجمع الفقهاء على أن لها الخيار، إن شاءت بقيت معه وإن شاءت فسخت النكاح، وقد حصل في زمن النبي ﷺ أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اشترت أمة اسمها بَرِيرَةٌ، وكانت متزوجة من عبد اسمه مُغيث، ثم أعتقت أمنا عائشة بَريرة فخير النبي ﷺ بَريرة بين فسخ نكاحها منه أو البقاء معه، وقد كان مغيث يُحبها جداً، فاخترت الفسخ.

أخرج البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بَغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَأَيْتَهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرْنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ.

٤- فيما يخص نكاح الإماء والزواج منهن، بمعنى أن يكون الزوج حراً وتكون الزوجة أمة، أقول: اتفق العلماء على أنه لا يجوز للسيد أن يتزوج أمة لأنه يملكها، وعقد المِلِك أقوى من عقد الزوجية، ويفيد ما يفيد عقد الزوجية من إباحة الجماع والتمتع، ولكن إذا أراد الزواج منها فليعتقها لتكون حرة ثم يتزوجها، بل مثل هذا الصنف له أجران على ما فعل، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ فَعَالَهَا (يعني: فأنفق عليها)، فَأَحْسَنَ إِلَيْهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا كَانَ لَهُ أَجْرَانِ».

ويجوز للحر من الرجال، أن يتزوج أمةً غيره إذا توافرت الشروط التي جاءت بها الآية، وسيأتي ذكرها.

وانتهوا إلى أنه إذا أراد الزواج من أمة غيره فإنه يجب استبْرأؤها بحِصْنة للتأكد من خلوّ رحمها من الجنين، ثم إنه يحرم على سيدها أن يطأها بعد زواجها أو أن يستمتع بها.

فإن قال قائل: لماذا يجوز للحر أن ينكح أمة غيره، ولا يجوز ذلك للحرّة؟ قلنا: الكفاءة شرط معتبر في ذلك عند جميع الفقهاء، وهو شرط للمرأة لا للرجل، بمعنى أن يكون الرجل في وضع مادي واجتماعي يناسب المرأة، وبطريقة أخرى: يُقبل أن تكون زوجته أنقص منه ولا يقبل أن يكون زوجها أنقص منها.

ثم إن الحرّة لو نكحت عبداً، فكيف يؤدي مهرها وكيف تكون له القوامة عليها، وكيف تقوم بحقوق الزوجية معه وهو أدنى منها مرتبة، هذا ما يُحدث خللاً في صورة الأسرة المسلمة ومقاصدها في دين الله تعالى.

٥- اشترط جمهور الفقهاء ثلاثة شروط لجواز نكاح الأمة المؤمنة، هي:

الأول: عدم القدرة على نكاح الحرّة، وهو الذي نبينه هنا في بداية الآية الكريمة.

الثاني: أن تكون الأمة مؤمنة، فلا يحل نكاحها إن كانت كتابية أو مشركة، وسيأتي مزيد بيان لهذا الشرط في تفسير الآية.

والثالث: خوف الوقوع في العنت المذكور في آخر الآية، وهو الحرج والمشقة وخشية فعل الفاحشة.

وذهب الأحناف إلى جواز نكاح الأمة بدون هذه الشروط، فيجوز عندهم نكاح الأمة وإن كانت كتابية، كان الرجل قادراً على نكاح الحرّة ولم يخش على نفسه الزنا، لكنهم اشترطوا لجواز نكاح الإماء ألا يكون الرجل متزوجاً من حرّة.

ولكل أدلته في ذلك محلها مبسوطات كتب أهل الفقه حفظ الله علماءنا، ورحمهم رحمة واسعة.

٦- ذكر لفظة المؤمنات هنا بعد لفظة المحصنات هو من باب التغليب، يعني: أن غالب أهل الإيمان لا يتزوجون إلا من امرأة مؤمنة بالله ورسوله، ولذلك ذكر أهل العلم أن لفظة المؤمنات هنا ليست شرطاً ولا قيداً، وذلك لأدلة أخرى بينت تمام المسألة.

وبطريقة أخرى: إذا كان الرجل الحرّ قادراً على نكاح حرّة غير مؤمنة، كأن تكون كتابية فلا يجوز له أن ينكح أمة مسلمة، والكتابية هي اليهودية أو النصرانية.

وسبب تقديم الحرة الكتابية على الأمة المؤمنة هو عدم تعريض أولاد هذه الأمة للرق والعبودية، وكيفية ذلك أن الأمة تكون مملوكة لشخص آخر، فلما يتزوجها وينجب منها يكون ولدها ملكاً لسيدها الذي يملكها لا لزوجها، بخلاف نكاح الكتابية فإنها حرةٌ وولدها يكون حراً.

ولفظه الإيمان هنا فيها لفظة لا تفوتكم، وهي أن الأصل في المؤمن أن يختار امرأة عفيفة طاهرة مؤمنة لزواجه والقيام على شأنه وعياله. قال الله تعالى: ﴿الْمَخِيثَتُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِ وَالْطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

٧- الإسلام كما عهدناه ضيق مجاري الرق والعبودية وإن لم يوجب القضاء عليهما، فمن ذلك أنه أوجب تحرير رقبة في كفارة القتل الخطأ، وكذا الأمر في كفارة الظهار، وفي كفارة اليمين المنعقدة، وفي كفارة من جامع أهله في نهار رمضان، وغير ذلك من الأحكام التي تدل على ما ذكرت.

والشرع لم يلغ العبودية بالكامل ولم يستعجل في القضاء عليها لاعتبارات مهمة جداً ليس هنا محل الاستطراد بذكرها، ثم إنه أعطى العبيد والإماء حقوقاً عظيمة لم تعرف البشرية مثلها، حتى كان منهم علماء في أمتنا، وكان فيهم قادة حملوا راية الفتوحات الإسلامية على أكتافهم كما أشرنا من قبل، فالحمد لله على هذا الدين، وبارك الله فيها من شريعة ما أرقاها.

انظروا كيف رغب الإسلام في عتقهم، ودفع المال لأسيادهم في ذلك، وتأملوا كيف كان لهم مصرف من مصارف الزكاة، وهو مصرف «وفي الرقاب».

وقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّىٰ فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ».

٨- لفظة فتياكم معناها الإماء، ووصفها بالفتوة يدل على أن الغالب أن باغي الزواج إنما يبحث عن أمة فتية شابة لا كبيرة في السن.

٩- أما لفظة المؤمنات التي جاءت بعد لفظة الفتيات، فهذه قيد في إباحة نكاح الإماء، وهو الشرط الثاني لذلك، أي: إذا تزوجت من أمة فلا بد أن تكون مؤمنة، ولا يجوز نكاح الإماء غير المؤمنات لئلا يجتمع على الولد الرق وخشية الكفر، وهذا قول جماهير فقهاء الأمة خلافاً للأحناف الذين أباحوا نكاح الأمة مطلقاً، سواء أكانت مسلمة أم كتيبة.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ لما ذكرت الآية وصف الإيمان مرتين في معرض حديثها عن إباحة نكاح الإماء، جاء النص هنا ليشير إلى أن الإيمان شيء وقر في القلب وصدقه العمل، ووجوده في القلب وصدقه ودرجته لا يعلمها إلا الله الذي يعلم ما في السرائر والضمائر، وكأن الآية تريد منا الصدق في ذلك، وتريد منا عدم الاغترار بظاهر حال الواحد منا.

والآية تعطينا فائدة تقوم على فضل الإيمان الذي أباح الشرع بسببه نكاح الأمة المؤمنة، وفيه إرشاد إلى عدم التساهل في اختيار الزوجة، وضرورة مراعاة ما أمر به الشرع في ذلك، فإنه أعلم سبحانه بما تضره نفوسنا.

﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ الأحرار والعبيد كلهم من بني آدم، وإقرار بعض الأحكام الخاصة بالعبيد إنما هو من تنظيم شؤون الحياة والدولة المسلمة، أما عند الله تعالى فالأصل والفصل هو تقوى الله وتامم التذلل والعبودية له.

وقد كان أهل الجاهلية يمتنعون من نكاح الإماء، وقد يُكره السيد أُمته على فعل البغاء لتحصيل المال، فلما جاء دين الله تعالى أذن بنكاح الأمة بشروط، وجعل إيمانها سبباً في رفعتها، بل قد تكون خيراً عند الله تعالى من ألف رجل وامرأة من الأحرار.

﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ من شروط عقد نكاح الأمة أن يأذن وليها بذلك، وهو سيدها ومالكها، وهو المقصود بأهلها في الآية، كما أن العبد ليس له أن يتزوج إلا بإذن وليه الذي هو سيده ومالكه.

فَإِنْ كَانَ مَالِكُ الْأُمَةِ امْرَأَةً، فهل يجوز لها تزويجها؟

جمهور أهل العلم يشترطون الذكورة في الولي على النكاح، ولذلك يقولون في مثل هذه المسألة: يزوج الأمة من يزوج مالكتها من والد أو أخ أو غيره.

ولفظة أهلها هنا توحى بدفء العلاقة بين الأسياد والعبيد، وتدل على عمق الصلة بينهم وقيامها على التراحم والتعاطف الذي يشتد بين الأهل.

﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ لا يعني كونهن مملوكات أن يسقط مهرهن وتضييع حقوقهن، بل يجب على من يريد الزواج من الأمة أن يؤدي إليها مهرها عن طيب نفس بالمعروف، أي: بما عُرف بينكم من القدر وطريقة الأداء، ومن أهل العلم من ذهب إلى أن سيدها أحق بمهرها.

وهذا الحكم نافع لمن أراد أن يدرك شيئاً من حقوق العبيد والإماء في الإسلام، وأراد أن يعلم أن دين الله تعالى يحفظ كرامة الخلق جميعاً، ويعطي كل ذي حق حقه، ولا يظلم الناس شيئاً.

في دين الله: التقوى أساس الرفعة والكرامة عند الله، وأحكام الشريعة التي نظمت علاقة السيد بالعبد إنما هي حاجة من الحاجات التي لا نستغني عنها، ولا يستقيم أمرنا إلا بأن يكون هداها من عند من جعل الناس في الدنيا درجات بعضهم فوق بعضهم.

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ﴾ أَي: لا تقتربوا في اختياركم وزواجكم من الزانيات اللواتي لا يمتنعن عن فعل الفاحشة، بل ابحثوا عن بنت الإيمان والعفة والطهر وإن كانت أمة، فلفظة المحصنة هنا تعني: العفيفة الطاهرة. والمسافحات هنّ الزانيات، جنبكم ربي الفتن.

﴿وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ واجتنبوا أيها المقبلون على الزواج من الإماء صنفاً منهن يتخذ الرجال أخلاء وأصدقاء، ويكون للواحدة منهن من لا تأنس إلا به، فمثلها لا يطمئن إليه القلب، ولا تصلح على الغالب لتربية الأبناء ورعايتهم.

والتوجيه الرباني وإن كان في معرض الحديث عن الإماء، لكنه منسجم مع غيره من النصوص الشرعية التي جاءت ترشد إلى اختيار ذات الدين من النساء.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾

أبين ما يتعلق بهذا الموضع من الآية بمسائل:

١ - بتتبع نصوص الشرع جاءت لفظة (الإحصان) بمعان ثلاثة:

الأول: المحصن والمحصنة هم المتزوجون، ومنه قول الله تعالى هنا في الآية: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾، أَي: فَإِذَا تَزَوَّجَ.

الثاني: المرأة المحصنة هي الحرة التي ليست أمة، ومنه ما ورد في صدر الآية هنا، وكذلك قول الله تعالى هنا في الآية: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

الثالث: المرأة المحصنة هي المرأة العفيفة التي لا تزني، والرجل المحصن هو الرجل العفيف الذي لا يزني، ومنه ما جاء اشتراطه في الأمة في الآية في قول الله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ﴾، ومنه كذلك قول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

٢- تدلُّ الآية على أن الأمة المتزوجة إذا جاءت بالفاحشة واقترفت كبيرة الزنا، فإن عقوبتها تكون على النصف من عقوبة الحرة إذا فعلت الفاحشة.

وقد أجمع أهل العلم على أن العذاب المقصود هنا في الآية هو قول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢٠]، فيكون حد الأمة على النصف وهو خمسون جلدة، سواءً كانت مُسْلِمَةً أو كَافِرَةً، مُزَوَّجَةً أو بَكْرًا، وذلك باتفاق أهل العلم.

وأجمع العلماء كذلك على أن الأمة إذا فعلت الفاحشة فلا تقام عليها عقوبة الرجم، لأن عقوبة الرجم لا يمكن تنصيفها، فعرّفنا أن مراد الشارع العقوبة المذكورة في حق الزاني البكر.

٣- حكم العبد في ذلك كحكم الأمة لا يختلف، وذلك بالإجماع.

٤- الآية هنا أثبتت عقوبة الأمة المحصنة، أي: المتزوجة، أما عقوبة الأمة غير المحصنة فقد فهمها أهل العلم من أحاديث وآثار متعددة جاءت عن نبينا ﷺ وصحابته، أختار منها:

- أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سُئِلَ عَنِ الْأَمَةِ إِذَا زَنَتْ وَلَمْ تُحْصِنْ (لم تتزوج)، قَالَ: «إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَيَبِعُوهَا وَلَوْ بِصَفِيرٍ (حبل من شعر أو غيره منسوج أو مفتول)».

والمقصود: تخلصوا منها ولو بثمن قليل.

- وأخرج مسلم عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: خَطَبَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَقِيمُوا عَلَى أَرْقَائِكُمُ الْحَدَّ، مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يُحْصِنْ، فَإِنَّ أُمَّةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَنَتْ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَجْلِدَهَا، فَإِذَا هِيَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِنَفَاسٍ، فَخَشِيتُ إِنْ أَنَا جَلَدْتُهَا أَنْ أَقْتُلَهَا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْسَنْتَ أَتْرُكُهَا حَتَّى تَمَائَلَ (يعني: حتى تشفى وتحتمل إقامة الحد عليها)».

٥- لا تغريب على العبد والأمة عند الحنفية والمالكية والحنابلة لئلا يتضرر السيد وسدًا لذريعة زيادة فسادها، بخلاف الشافعية الذين أوجبوا التغريب مدة ستة أشهر على النصف من الحر والحررة.

٦- للسيد أن يقيم عقوبة الجلد على عبده وأمته عند جمهور الفقهاء، وذهب الحنفية إلى أن ذلك للحاكم وليس للسيد.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ هذا هو الشرط الثالث في إباحة نكاح الإماء، وهو خشية الرجل من العنت، أي: وقوعه في حرج شديد لحاجته إلى الزواج، وخشيته من الوقوع في الزنا.

وهذا العنت قد يلحق الأعزب من الرجال، وقد يلحق من عنده زوجة واحدة أو اثنتين من الحرائر، والحكم واحد في حقهم جميعاً، يعني: يجوز لمن هو متزوج من حرة ويحتاج إلى ثانية ولا قدرة له على الزواج من حرة ثانية، أقول: يجوز له نكاح الأمة. وعند الأحناف: مَنْ كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَلَا يُبَاحُ لَهُ تَزَوُّجُ الْإِمَاءِ.

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مجاهدة النفس والصبر عن الزواج خيرٌ من نكاح الأمة مع أنه مباح، ولكنه يُعرض الأبناء لأن يكونوا أرقاء وعبيداً تبعاً لأهمهم التي يملكها سيد آخر، بل قد يُعرض الزوجة الأمة لتصرف سيدها بما لا يحبه الزوج، والزواج من الإماء فيه العدول عن الحرائر وإيقاعهن في الحرج والمشقة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله يغفر إثمكم ومخالفتكم فيما شرع إذا تبتم إليه وأنبتُمْ، وهو رحيم بكم، ومن رحمته ما شرع لكم من أحكام تعينكم في دنياكم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ثلاث آيات هذه أولاهن، تعطيكُم روح شريعتنا وأصلها الذي قامت عليه، وتُظهر لكم شيئاً من جمالها وروعها ورقيها.

الله شرع لنا هذه الأحكام، وبيّن لنا ما أحل وما حرم لتكون على بصيرة من أمرنا، ولئلا نتبع طرائق أهل الجاهلية في معاملة النساء الحرائر والإماء.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أوامر ونواهي تضيء لنا طريق من سبقنا من الأمم من الصالحين والعابدين، وتجعلنا على شريعة من الأمر مما يحبه الله ويرضاه.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا سرُّ فرح المؤمنين وإقبالهم على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولذلك بشرهم ربنا هنا بأن توبته عليهم قريبة منهم، بل هي غاية من غايات ما شرع لهم، فليتمسوها وليتبتّعوا أسبابها وليفرحوا بآثارها وثمراتها.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ سبحانه، عليم بما يصلح العباد ويسعدهم، حكيم في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧)

هذا من لطف الله بعباده المستسلمين لأمره المنقادين لشرعه، الذين يتتبعون أوامره ليرضى عنهم، اسمعوا أيها المخلصون لدين الله في حلكم وترحالكم: الله أراد بما شرعه لكم من أحكام وأرشدكم إليه من الحكمة، أن يُطَهَّرَ قلوبكم ويزكي نفوسكم، ويغفر زلاتكم، ويتوب عليكم ويرضى عنكم ويرضيكُم، وأراد أن يفتح لكم طرائق الخير والهدى والطمأنينة والسعادة في الدارين.

واحدروا في معرض استحضاركم لكرم الله عليكم، وفي معرض طريقكم الذي اخترتموه وسألتكم الله الثبات عليه، أقول: احذروا مفاتيح الشر في الأرض ومتبعي الشهوات، فإنهم يسعون لإضلالكم وميلكم عن الحق إلى الباطل، ويحولون بينكم وبين نفعكم ونجاتكم.

وقادة الشهوات في الحياة الدنيا أصناف:

١- منهم اليهود والنصارى الذين حرفوا كلام الله في كتبهم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ويسعون صباحهم ومساءهم ليصدوا المسلمين عن طريق الجادة.

٢- وآخرون يمحرون الليل والنهار ليتاجروا بأعراض الناس وشهواتهم، يثنون المقاطع الخبيثة والصور الدنيئة، ويغرقون الأجيال بقصص الحب والغرام والخيانة والديانة، هؤلاء يغفلون عن عاقبة ما يفعلون، ونظرتهم قاصرة على متع الدنيا ولذائدها وكفى.

٣- وصنف من أبناء المسلمين يُلبس عليهم دينهم، فتارة يدعو للاكتفاء بالقرآن دون السنة، وتارة يغمز بالصحابة كأبي هريرة ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أو يغمز بكتب أهل الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما، وتارة يهاجم نصوص الشريعة ليسقطها ويسقط دلالته.

٤- وأخطرهم فيما أظن: أولئك الذين ملكوا حياة الناس في أبواب السياسة والتربية والاقتصاد، وملكوا مفاتيح التشريعات في باب الحياة الاجتماعية والتعليم والإعلام، مصيبتهم: انبطاحهم أمام تشريعات أهل الكفر، وعدم انطلاقتهم فيما أوثمنوا عليه من ثوابت الشريعة الإسلامية، ولا من مصدرَيْهَا اللَّذَيْنِ هما أصلنا وفصلنا، أعني: القرآن والسنة.

دعاة الكفر والانغماس في الحرام موجودون في كل زمان ومكان، وتجدون صنفًا منهم لا يكاد يمل في نصرته للباطل، ويتفنن في زخرفته وتقريبه من الناس، هذه تجارته وهذه حياته، ولو تتبعتم حال بعضهم لوجدتم أنه يتمنى لو كان كل الناس مثله حتى لا يكون شاذًا في مجتمعه.

والمطلوب: قارنوا ما أَرَادَهُ اللهُ مِنْكُمْ بما أَرَادَهُ هَؤُلَاءِ، وانتبهوا إلى طرائقهم وحيلهم في إضلالكم، واعلموا أن قيام المؤمنين على دينهم يعكر عليهم نهجهم الباطل، فدافعوهم واصبروا على ذلك فإنها أمانة الله إليكم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨)

هذا ما يعرفه أبناء الإسلام جيدًا، ويعيشونه في شريعة رب العالمين وأوامره ونواهيه وما يُقَدِّرُهُ لهم، ولا يكاد الناظر منهم يمر على باب من أبواب العلم إلا ويرى فيه تيسير هذه الشريعة وواقعيتها التي جعلتها مُصلحة الزمان والمكان في جميع الأوقات والأعمار.

ربنا خَفَّفَ عن عباده فيما افترضه عليهم من أمر الصلاة وغيرها، وخفف عنهم في أمر الزواج ونكاح الإماء، وخفف عنهم حال مرضهم وسفرهم، وحال جهلهم ونسيانهم، وحال إكراههم واضطرارهم، ويسر لهم طرائق الخير وكثرها، وضاعف لهم في حسناتهم، وفتح لهم أبواب التوبة ما كانت الروح تسري في أجسادهم.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وأخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» (يعني: إلا رده إلى الاعتدال)، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ. (يعني: استعينوا على مداومة العبادة بفعلها بأوقات النشاط كأول النهار وبعد الزوال ووقت الدلجة وهو آخر الليل).

ومن هنا نفهم تيسير الشريعة في عدد من الأحكام على من خشي على نفسه فواتها، أو خشي على عضو من أعضائه التلف، فَأَكُلْ لحم الخنزير للمضطر واجب بقدر حاجته، وواجب كذلك شرب الخمر لمن به غُصَّةٌ مُهلكة لا تزول إلا بذلك، وحفظ النفس من المسكرات والمخدرات وما يضر واجب شرعي يتقرب به العبد إلى سيده ومولاه، وتأملوا مقاصد الشريعة من مشروعية التيمم لمن يضره استعمال الماء، ومشروعية المسح على الجبيرة والخفين في بعض الأحوال، وهكذا.

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ولذلك ناسبه تخفيف الشريعة عنه وتيسيرها أبواب العبودية له.

ضَعُفْنَا هذا نعرفه ونقر به في قرارة أنفسنا وإن كابر كثير منا، وهذا الضعف تتنوع صوره في حياتنا، فمن قلة صبر، إلى ضعف عزيمة وإيمان، إلى فتور همّة، إلى مرض مُفْعَد، وهَرَم مُزْمَن، وجُلوس على فراش الموت توقفت معه كل الأمنيات، نسأل الله العفو والعافية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾

أكل المال بالباطل له صور متعددة في شريعة رب العالمين، منها على سبيل التمثيل لا الحصر: التعامل بالربا، وتحصيل المال عن طريق القمار، والتطفيف في الميزان والغش والكذب والرشوة، ومن ذلك الاعتداء على مال اليتيم ومهور الزوجات، والأخذ من الغنيمة في القتال قبل توزيعها، وهو ما يعرف بالغلول، وأكل مال الإرث، وغير ذلك.

الآية تنهى المؤمنين عن أكل المال الحرام، وقد تعددت نصوص الوحي في التحذير منه، وفي بيان ضرره وعاقبته، ويكفي أن أكل المال الحرام لا يقبل الله صدقته من المال حرام، ويكفي أن الله توعده بالنار، ومنع استجابة دعائه بسبب فعله.

والآيات والأحاديث في النهي عن ذلك والتنفير منه كثيرة، أختار منها:

● ما أخرجه مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طَهُورٍ وَلَا صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ». والغلول هو السرقة من الغنيمة قبل توزيعها.

● وأخرج ابن حبان والحاكم والبيهقي في السنن الكبرى، بسند حسنه بعض أهل العلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَدَيْتَ زَكَاةَ مَالِكَ فَقَدْ قَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ فِيهِ، وَمَنْ جَمَعَ مَالًا حَرَامًا، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ، وَكَانَ إِضْرُهُ عَلَيْهِ».

● وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مما أوصاه به قوله: «يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ (مال حرام)، النَّارُ أَوْلَى بِهِ. يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، النَّاسُ عَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ

فَمُوبِقُهَا». (المقصود: هناك صنف من الناس يحرص على المال الحلال ويعتق نفسه من النار، وصنف آخر يبيع نفسه للشهوات وأكل المال الحرام فيوبق نفسه ويهلكها في النار).

● وأخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبَّ، يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟».

● وأخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالُ، أَمْ مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ».

وتأملوا بلاغة لفظة ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ في الآية الكريمة، فالأصل أن يكون النهي عن أكل أموال غيركم لا أموالكم، ولكنها جاءت بهذه الصيغة للدلالة على أن استباحة مال واحد من أبناء الأمة بالباطل هو اعتداء على مال الأمة كلها، وجاءت للدلالة على أهمية أن يبذل الواحد من ماله لمن يستحق الزكاة والنفقة وغير ذلك، فإن المال مال الله وقد استخلفنا فيه جميعًا.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ أنواع التجارة مباحة ومشروعة، والأصل هو الحل في أحكامها إلا ما دل الدليل على تحريمه منها، والمال الذي يجنيه أصحابها حلال طيب ما كان التراضي فيه، وما ابتعدوا عن الكذب والغش والغرر والخداع.

والشرع أباح البيع والشراء والإجارة والشركة وغير ذلك، وشرع لها الأحكام التي تُحقق مقاصدها، وتعين أصحابها على الانتفاع منها كأحكام الكفالة والرهن والتوثيق وغير ذلك.

والمطلوب: اجتنبوا تحصيل رزقكم بالحرام، واحرصوا على الرزق الحلال الطيب، ولا تكونوا من أهل الطمع والجشع، هذا خير لكم في دينكم ودنياكم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمة الله بعباده أنه نهاهم عن قتل بعضهم بعضًا، وجعل ذلك من الكبائر، وعلمهم أن النفس أمانة لا يُقبل التفريط فيها، وأخبرهم أنه من يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم، وأنه من قتل نفسًا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا، وأن القضاء بين الناس يوم القيامة يكون أول ما يكون في الدماء، بل أخرج ابن ماجه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ».

والتعبير بلفظة ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ يوحي بوحدة هذه الأمة وقوة ارتباط أبنائها فيما بينهم، فالقاتل إنما يقتل غيره لا نفسه، ولكن بلاغة اللفظة جاءت وفقاً للقاعدة الأم في علاقة المسلم بالمسلم القائمة على الأخوة والتناصر والتناصح ووحدة البنيان والجسد، فكان القاتل لغيره قاتل لنفسه.

والآية يُفهم منها كذلك حرمة الانتحار وفعل الأخطار المفضية إلى التلف، وتعريض النفس للهلاك. أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا (أي: يطعن ويضرب) فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».

وأخرج البخاري ومسلم عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزَعَ (لم يصبر على الألم)، فَأَخَذَ سَكِينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ (قطعها)، فَمَا رَقَا الدَّمُ (لم ينقطع) حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادِرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ (استعجل الموت)، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته أن حفظ عليكم دماءكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود والعقوبات فتراحموا فيما بينكم، واغرسوا لآخرتكم.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَصَنَفَيْنِ خَالِفَا أَمْرَ شَرِيعَةِ اللَّهِ:

أولهما: من استهان بأخذ أموال الناس بغير حق فكان ممن ظلم نفسه بتعريضها لسخط الله وعقوبته.

وثانيهما: من استهان بحرمة الدماء، أو فر من هموم دنياه وغمومها بالتخلص من حياته.

أيها المؤمنون: لا تسعوا على رزقكم ورزق عيالكم بالحرام، واحفظوا أنفسكم مما يضر بها وإن كان مُحِبًّا إِلَيْهَا، فإنكم إذا فعلتم ذلك كتب الله لكم البراءة من ناره وكنتم من الفائزين.

وتأملوا كيف ترتب الوعيد على من فعل ذلك عدواناً وظلماً، بمعنى أن ثمة حالاتٍ يَأْكُل الإنسان فيها مال غيره بوجه حق كأن يسترد منه ماله المغصوب، وثمة حالاتٍ يصدر منه القتل بحق لا بظلم كما يفعل الإمام مع الزاني المحصن، والقاتل المتعمد، والمترد.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا تغتروا بستر الله على من أكل مالاً حراماً أو قتل نفساً بغير حق، ولا تظنوا أن إمهال الله له وحلمه عليه سِينَجِيهِ من عذاب الآخرة، واعلموا أن بأس الله وعذابه قريب منه، وهو يسير على الله.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٣١)

دليل شرعي على أن الذنوب صغائر وكبائر، وأن فعل الصغائر أيسر من فعل الكبائر، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يغفر الصغائر ما دام أصحابها مجتنبين لكبائر الذنوب وعظامها، وفي ذلك ترغيب عجيب لهجر الكبائر وعدم الاقتراب منها. قال الله تعالى في صفات من أعد لهم جنّاته: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

ولا يفهم العبد من ذلك أن إقباله على فعل الصغائر مقبول ولا ضرر فيه، فإنها إذا اجتمعت اتَّعَبَتْ، والعبد الموفق حريص على اجتناب صغائر الذنوب وكبائرها لأنه يستحضر عظمة من يعبد على الدوام.

الصغائر تُغْفَرُ بالدوام على الطاعات، فصيام عاشوراء يكفر سنة، وصيام عرفة سنتين، والصلوات الخمس، وصلاة الجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة، تكفر ما بينها ما اجتنب الكبائر، وهناك عدد من الأذكار يغفر الله تعالى بقولها اللَّمَمَ، كقول: «سبحان الله وبحمده» مائة مرة، والتسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين مرة لكل واحد منها بعد صلاة الفريضة، ثم ختمها بكلمة التوحيد، وغير ذلك.

وغفران الصغائر يكون كذلك بتعرض العبد للبلاء في نفسه وأهله وماله وصبره على ذلك واحتسابه ورضاه، هذا الصبر فيه تكفير للخطايا، ومحو للذنوب، وتعرضٌ لرحمات الرب ورفعة الدرجات.

فدوام العبد على الطاعات المذكورة وتعرضه للبلاء يغفر صغائر الذنوب إن صادفها وكانت موجودة، وإلا رفعت صاحبها الدرجات العلا عند ذي الجبروت والملكوت.

وقد أخبرت الآية أن الله تعالى يكرم صاحب النفس التي عاهدت ربها على اجتناب الكبائر، وأغلقت كل أبوابها، وفرت منها كما تفر من الأسد رغبة فيما عند الله من الثواب، ورهبة مما عنده من العقاب، أقول: يكرم الله من اجتنبها بدار لا يشقى فيها ولا يأس، ويتقلب فيها في النعيم والسعادة والجمال، إنها الجنة المُدخل الكريم الموعود به هنا في الآية.

أما كبائر الذنوب، ففي الحديث عنها مسائل:

١- الآية فيها تحذير لمن ابتلي بالكبائر ووقع في شركها، وفيها إخبار من الله بأن اجتناب الكبائر شرط لمغفرة الصغائر، فضلاً عما هو معلوم من ضررها على الطاعات بالحرمان منها ومن لذتها وثوابها، وبإبطالها كما في كبيرة المن والأذى في الصدقة.

وفي ذلك أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

وأخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَطُ مُخْلِصًا، إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ، مَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

وجاء ما أخرجه أحمد والنسائي عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَاءَ يَعْبُدُ اللَّهَ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ كَانَ لَهُ الْجَنَّةُ» الحديث.

٢- ذكر النبي ﷺ سبعا من الكبائر وحذر منها، وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ (يعني: المهلكات الموجبات لدخول النار)» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

وهذه السبع المذكورة ليست على سبيل الحصر، فقد جاءت أحاديث تصف غير المذكورة هنا بأنها من الكبائر، منها:

ما أخرجه البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ».

وأخرج البخاري عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ».

وفي رواية: «وَالْبَيْعُ الْغَمُوسُ».

وأخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعْظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

فهذه الأحاديث تدل على أن الكبائر أكثر من سبعة، وأنها تتفاوت في العظم والدرجة، وقد يؤثر في تفاوتها كثرة مفاسدها، وما يحمله قلب صاحبها.

وقد اجتهد أهل العلم في وضع ضابط نعرف به الكبائر من الصغائر وتعددت أقوالهم في ذلك، فمنهم من قصر الكبائر على كل معصية جاء فيها عقوبة الحد من الشرع كالزنا والسرقة وغيرهما، ومنهم من قال: هي الْمَعْصِيَةُ الَّتِي يَلْحَقُ صَاحِبُهَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ بِنَصِّ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، ومنهم من قال: الْكِبَائِرُ كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ لَعْنَةٍ أَوْ عَذَابٍ.

والقول الأخير مال إليه عدد من محققي المسألة، فشملت الكبائر معصية شُرْبِ الْخَمْرِ، وَالسَّرِقَةِ، وَأَخْذِ الْمَالِ غَضَبًا، وَالْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ بِلا عُدْرٍ، وَقَطْعِ الرَّحِمِ، وَالْخِيَانَةِ فِي الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ، وتأخير الصلاة عَنْ وَقْتِهَا بِلا عُدْرٍ، وَالْكَذِبِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عَمْدًا، وَسَبِّ الصَّحَابَةِ، وَمَنْعِ الزَّكَاةِ، وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَنَسْيَانِ الْقُرْآنِ بَعْدَ تَعَلُّمِهِ، وَامْتِنَاعِ الْمَرْأَةِ مِنْ زَوْجِهَا بِلا سَبَبٍ، وخروج المرأة متبرجة، وَالْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وغير ذلك.

واعلموا يرحمكم الله أن ضبط الفرق بين الكبيرة والصغيرة تترتب عليه أحكام متعددة في منظومة هذه الشريعة، ومن ذلك: ما يتعلق بعدالة القاضي والشاهد، وما يتعلق بفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسألة هجر مرتكب الكبيرة المجاهر بها، وبهذا الضبط نردُّ على بعض الفرق الضالة التي ذهبت إلى أن فاعل الكبيرة كافر غير مسلم كالخوارج، أو التي جعلته بين الإسلام والكفر كالمعتزلة.

وقد بلغ من عناية أهل العلم بما يخص الكبائر من أحكام ومسائل علمية، أن صَنَّفَ عدد منهم كتبًا مختصة في ذلك، ككتاب «الكبائر» للإمام الذهبي، وكتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» لابن حجر الهيتمي.

ومن عبارات أهل العلم التي تنفع في المقام قولهم: «لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ»، وقولهم: «الكبائر كل معصية يستهين فاعلها برقابة الله عليه فيها»، وقولهم: «فَالْكَبِيرَةُ مَا عَظُمَتْ مَفْسَدَتُهَا، وَالصَّغِيرَةُ مَا قَلَّتْ مَفْسَدَتُهَا».

٣- أجمع أهل السنة والجماعة على أن مرتكب الكبيرة مسلم وليس كافرًا، وأنه إن مات على معصيته فإنه يكون تحت مشيئة الرب جل وعلا: إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

وبطريقة أخرى: مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار وإن عُدَّبَ فيها، ويكون مآله إلى الجنات كباقي من مات على التوحيد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

٤- كيف تُغفر الكبائر؟ هذا سؤال يراود كل من ابتلي بها وأراد التوبة منها بعد أن استحضر عظمة الله، وعادت إليه روح العبودية، وتذكر غاية خلقه ووجوده، واعتصر قلبه ألمًا على ما فعل.

والجواب: اتفق أهل العلم على أن الكبائر لها التوبة الصادقة التي استجمعت شروطها وأحكامها، من مفارقة الذنب، وحصول الندم، والعزم على عدم الرجوع، ورد المظالم إلى أصحابها إن وُجدت.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأخرج أحمد والترمذي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَا تَيْنُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

ومعلوم لديكم قصة الذي قتل مائة نفس، ثم صدق الله في توبته فتاب الله عليه، وقبضت روحه ملائكة الرحمة.

واختلف أهل العلم في مسألتين:

الأولى: هل إقامة العقوبة التي أمر بها الشرع في الدنيا تكفر الذنب، وذلك فيما لو كانت الكبيرة لها عقوبة شرعية كالعقاص من القاتل المتعمد، وقطع يد السارق، ورجم الزاني أو جلده، وغير ذلك من الحدود؟

جمهورهم على أنه لا بد من توبة مرتكب الكبيرة مع إقامة العقوبة لتكون كفارة له، ومنهم من ذهب إلى أن إقامتها يسقط عقوبة الآخرة وإن لم يكن ثمة توبة.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِيدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّبَخَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بَبْهَتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ».

الثانية: هل تُغفر الكبائر بالحج؟ القولان موجودان عند أهل العلم، فمنهم من ذهب إلى الغفران لأن الحاج الذي أدى حَجَّه كما يحب الله ويرضى يرجع من حجه كيوم ولدته أمه، ومنهم من اشترط مع ذلك توبته الصادقة من فعل الكبيرة.

٥- هنا لفظة نفيسة تعيننا في طريق دعوتنا وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وهي أن وجود الصغائر لا تخلو منه حياة الناس، والداعية إلى الله يحرص على دعوتهم إلى اجتنابها، ويفتح لهم أبواب التوبة منها، ويذكرهم بمكفراتها.

أما أصحاب الكبائر فنذكرهم بأن يستروا على أنفسهم ولا يفضحوها، وأن يجاهدوا أنفسهم ويغلقوا أبوابها وطرائقها، وأن يتذكروا وقوفهم بين يدي الرب جل وعلا.

ومن الضرورة التي لا تخفى عليكم أنهم أحوج ما يكونون إلى إحسان الظن بالله ليُحسنوا في أوبتهم ورجعتهم، ومما يفتح لهم أبواب حسن الظن ما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ مِنْ أُمَّتِي».

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اَكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾

خلق الله الرجل مُكَمَّلًا للمرأة وخلق المرأة مُكَمَّلَةً للرجل، وساوى بينهما في كثير من الأحكام، ثم اختص الرجل بحقوق وواجبات، وكذلك اختص المرأة بحقوق وواجبات، وهذا من تمام حكمته وعلمه سبحانه.

الرجل مأمور بالجهاد في سبيل الله، وله ضعف نصيب المرأة من الميراث في مسائل متعددة، ونسب أولاده له، والقوامة له، وشهادته ضعف شهادة المرأة في مسائل متعددة، وغير ذلك من الأحكام.

والمرأة نفقتها على زوجها، ومهرها على زوجها، ولها حق الحضانة، وجهادها الحج والعمرة، وتفضل الرجل في عدد من المسائل في الميراث.

وقد أوصى الشرع بالأم ثلاثاً وبالأب مرة، وجعل البنات طريق الوالد إلى الجنات، وجعل الأخوات طريق الإخوة إلى الجنات، وغير ذلك.

وهذا التفصيل إنما هو في أحكام الدنيا، أما في الآخرة فالتقوى هي سبب الرفعة في الجنات، وهي مفتاح القبول عند الله، قال الله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَكُمْ مِّنْكُمْ مَّنْ ذَكَرَ وَأُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۚ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والخطاب الرباني هنا يعين القابضين على دينهم في هذا الزمن على الثبات في وجه أولئك الذين يطعنون في شرع الله، ويزعمون أنه ظلم المرأة وانتقص من قدرها، ويحاولون إقناع الأمم من حولهم أن العلاقة بين الذكر والأنثى هي علاقة تضاد وتنافر، ويدعون إلى المساواة المطلقة بينهما زاعمين بأن أي اختلاف في الأحكام بينهما يعد تمييزاً ضد الأنثى، ما أجهلهم وما أجهل من ينعق بأفكارهم وكلامهم.

ولا تُنكر أن طائفة من أبناء الأمة تأثرت بما يقولون، وحاولت أن تسقط دلالة نصوص شرعية أجمع أهل العلم على فهمها، نعوذ بالله من الفتن ونسأل الله الثبات حتى الممات، ونذكر دومًا أنفسنا وغيرنا أنا رضيينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

أخرج أحمد والترمذي بسند فيه كلام عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو، وَلَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

تأملوا كيف نهى الشرع عن تمني ما فضل الله به بعضنا على بعض، فالتفضيل ليس مقصورًا على ما اختص الله به الرجال أو ما اختص به الإناث، بل وجدنا التفضيل في النبوة وفي العلم وفي الجمال والرزق وفي المنصب وغير ذلك.

والمذموم من ذلك هو ما يدفع صاحبه إلى كثرة مراقبة الناس وإلى الحسد، وإلى القعود عن العمل واليأس والقنوط، وإلى اضطراب النفس وَعَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ وَالشَّكَّ فِي حِكْمَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وهذا بخلاف من تمنى زيادة فضل الله عليه وعمل بالأسباب، وكان صاحب همة وعزيمة قوية، ورضي بقدر الله أيًّا كان.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ في موقف الحساب سيأخذ الرجال والنساء جزاءهم بحسب ما قدموا وعملوا، فهذا يوم لا فضل فيه لذكر على أنثى ولا فضل لأنثى على ذكر.

﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ المؤمن يعدل عن مراقبة غيره وتمني ما اختصه الله به، إلى أن يسأل الله تعالى من فضله، فهو يدرك أن التمني لا يجدي ولا ينفع، ويدرك أن الله تعالى إذا فتح له رحمة فلا ممسك لها، فإنه الوهاب الكريم سبحانه.

وكثير منا قد يظن الخير في أمر ما فيتمناه، فيمنعه الله عنه، ويفتح له من أبواب الفضل غير ما تمناه ليعلم أن الله تعالى ما منعه عنه إلا ليبدله خيرًا منه، وهذا يعلمه أهل العبودية جيدًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ هُوَ عَلِيمٌ بما يصلح حال الخلق، فيخص الرجال بما ينفعهم وينفع من حولهم، وكذلك الحال مع النساء، وهو سبحانه عليم بكل شيء فيقدر من أحوال الرزق والصحة والجمال والعلم ما ينفع صاحبه، فهلا حمدنا الله على ما أنعم وأكرم، وهلا رضيينا بقسمته لنذوق حلاوة الإيمان به، والارتقاء في حبه وقربه. قال الله تعالى: ﴿وَلِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ
أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

المقصود بكلمة الموالى هنا الورثة من قرابة الميت، فيكون معنى الآية: إن الله تعالى قد جعل أنصبة بيّنة وظاهرة لورثة الأب والأم والقرابة جميعًا، فأعطوا كل صاحب حق حقه كما أمر الله تعالى ولا تبخسوه شيئًا.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ كان التوارث في بداية التشريع للإسلام مشروعًا بين أي شخصين يتحالفان فيما بينهما وإن كانوا غرباء عن بعضهم، وهذه صورة من صور التوارث بالولاء، يقول أحدهم للآخر: أنت ترثني وأنا أرثك، يقصدان بذلك أن يتناصرا ويكون كل منهما عونًا للآخر، وهذا ما حصل بين الصحابة المهاجرين من مكة إلى المدينة وبين الأنصار الذي استقبلوهم وأنشؤوا معهم عهدًا بالتوارث.

ثم إن هذا النوع من التوارث نسخ، وبين القرآن أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، وهو قول جمهور الفقهاء، خلافًا لمذهب الأحناف الذين يرون بقاء التوارث بالحلف وعدم نسخه لأدلة عندهم.

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾، قال: ورثة. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾: «كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ؛ لِأُخُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَهُمْ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نُسِخَتْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالرَّفَادَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ، وَيُوصِي لَهُ.

فمذهب الصحابي ابن عباس هنا أن الآية تعني: التزموا مع من عاهدتموهم في السابق وانصروهم وتناصحوا معهم، ولكن لا يرث كل منكم الآخر، فالتوارث ذكر الشرع أحكامه وبينها، وليس منها ما كنتم عليه.

أخرج مسلم عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَإَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً».

والمقصود من الحديث أنه لا حلف على التوارث وعلى الغارات والنهب، وأيما حلف كان على الطاعة ونصر المظلوم وصلته الأرحام فالإسلام يزيده قوة.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا تأكلوا ميراث بعضكم، ولا يحملنكم الطمع على الظلم ومخالفة الشرع، فإن الله تعالى رقيب عليكم عالم بكل ما تصنعون.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا
 أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا
 حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ۖ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ
 وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعَنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
 كَبِيرًا﴾

لا أبالغ إن قلت: إن الأسرة أعظم بناء في هذه الحياة، تزداد الحياة بجمالها جمالاً، وتكاد تضيق على أهلها بغير ذلك، بل إن الأسرة في الإسلام مفتاح من مفاتيح قوته وريادته، ولذلك أعطاهما الشرع من الأحكام الكثير، وأرشد إلى أدق التفاصيل قاصداً سعادتها وارتقاءها.

والقوامة في أي بناء في حياتنا أمر اتفق عليه العقلاء، وضرورته في الأسرة لا تخفى على أفهامكم، وقد أعطاهما الشرع للرجل وكلفه بها، وهي لفظة تدل على أن إدارة الأسرة بيد الرجل لا بيد المرأة، وأن الرجل هو رئيس البيت وكبيره والحاكم عليه والمؤدب فيه، وأن الأمر والنهي له كما هو الحال في قيام الحاكم على رعيته. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ولذلك ألزمها الشرع باستئذان زوجها في خروجها وسفرها وعملها وأدائها لنوافل الطاعات، وجعل طاعته واجبةً في المعروف من ذلك، ولكم أن تتأملوا هذا الأصل لتبنوا عليه ما سيأتي بعده من أحكام وتشريعات تخص الأسرة في الإسلام وتخص العلاقة بين الزوجين.

قوامه شرعية للرجل لها أبعاد علمية وفكرية تستحق الوقوف عندها:

١- القوامة وفقاً لمنظور الشرع منصبٌ تكليف، أي: كلف الله الرجل بها وحَمَلَهُ أمانتها الثقيلة ليقوم عليها خير قيام، ولم يعطها له لياهى بها ويتفاخر، ولا ليظلم ويستبدّ.

وقولنا: هي منصب تكليف، يلزم منه أن الله تعالى سائله يوم القيامة عما استرعاه، وسيحاسبه على كل ما فعل في هذا الأمر؛ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ودليل كونها منصب تكليف ما جاء في تنمة الآية من بيان سبب جعل القوامة له كما سيأتي، ولذلك كان من الضرورة أن يفقه الرجال تبعات هذه القوامة ويقوموا بها على أحسن حال، من إقامة أوامر الله في بيوتهم وإصلاحها، وإنفاقهم على أهلهم بحسب قدرتهم، وسعيهم لتحصيل الرزق وعدم الاتكاء على الغير، وحمايتهم مما يضرهم، وصبرهم على رعيتهن والقيام على احتياجاتهن الروحية والعقلية والنفسية والبدنية، وغير ذلك.

ومما يتفطر له القلب في واقعنا أن ترى رجالًا لا يفقهون القوامة على صورتها الشرعية، ولا يملؤون مكانتهم في أسرتهن، بل قد يكون الواحد منهم عالة عليها بلا مسوغ معتبر، والله المستعان.

بل وجدنا صنفًا منهم يسخر قوامته في ظلم زوجته والتعدي على حقوقها، فيجبرها على دفع مهرها له، ويحببها عن أهلها بدون مسوغ، ويقتحم كل خصوصياتها، ولا يقبل مشورتها ولا يستمع لنصيحها، وغير ذلك من أوجه التعدي.

٢- بينت الآية هنا أن جعل القوامة للرجل له سببان: الأول جاء في قوله سبحانه: ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لِأَنَّ الرِّجَالَ فَضَّلَهُمْ رَبُّنَا بِبَعْضِ الْخَصَائِصِ الَّتِي تَجْعَلُ قَوَامَتَهُمْ لِأَسْرَتِهِمْ أَقْرَبَ إِلَى نَفْعِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا، والقوامة قيادة تحتاج إلى قدرة بدنية وقوة على الكسب وصبر وجلّد، وتحتاج إلى مزيد رويّة وتفكير، وهو ما وهبه الله للرجل أكثر من المرأة، أما هي فقد أودع فيها غلبة العاطفة وسرعة الانفعال لتكمل النقص الحاصل عند الرجل في ذلك، وغلبة العاطفة هذه تحتاجها البيوت لبثّ الأمل ودوام الطمأنينة فيها، لكنها لا تكفي لقيادة أي محل في هذا العالم، ولا يمكن الاعتماد عليها وحدها لتكون مسيرة البيت على خير حال.

ومن هنا نفهم التفاوت الحاصل في عدد من التكاليف والواجبات بين الرجل والمرأة في شريعتنا الطيبة، ونفهم اختصاص الرجل بالولاية والنبوة والرسالة، وبجهاد الفتح وصلاة الجمعة وغير ذلك من الأحكام.

وهذا التفضيل الذي أشارت إليه الآية ثبت في كلام العقلاء عبر الأزمان، وطارت به أبحاث العلماء المختصين بعلوم هذه النفس وعلوم التربية، حتى من غير المسلمين، ولا ينكر هذا التفضيل إلا خفيف عقل أو معاند.

٣- السبب الثاني المذكور لتكليف الرجل بالقوامة شرعاً هو قوله سبحانه: ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: بسبب ما أوجبه الله عليهم من أداء المهر وما ألزمهم به من نفقة المسكن والملبس والمأكل ونحو ذلك، فكان الحق الذي أعطاه الشرع للرجل مناسباً للواجب الذي كلفه به.

ولعل المهر الذي يدفعه الرجل تكريماً لزوجته ورفعاً لقدرها، ولعل دوام إنفاقه عليها وبذلك ما يبذل، هو ما يعينه على أن ينضبط في تفكيره، ويتوازن في سلوكه وأدائه، ويكون على قدر المسؤولية فإنه يشعر بما لا تشعر هي به.

ولقائل أن يقول: نعيش في زمن تعددت فيه البيوت التي تعمل فيها النساء وتنفق على بيتها، سواء كان بإذن الرجل لإعانتته على النفقة، أو أن البيت يعتمد عليها بالتمام لغياب الرجل أو لمرضه أو لسبب ما، فهل نجعل لها القوامة في مثل هذه الحالات؟ والجواب أن سبب القوامة ليس فقط الإنفاق، بل له سبب آخر تقدم ذكره.

ثم إن حال المرأة في زماننا وما فرضه النظام العالمي عليها مخالف لتصور الشريعة الإسلامية لها، فالنظام العالمي يدعوها لترك بيتها وخروجها منه بلا ضوابط، والاعتماد على نفسها واستغنائها عن الرجل وتحررها من قوامته، ولا ينظرون في ذلك إلى حاجة أسرتها وأبنائها، بل حاجتها هي إلى ذلك، وإنما ينطلقون من مبدأ المساواة المطلقة مع الرجل في الحقوق والواجبات، وهذا أمر فيه مخالفة للشرع والعلم والعقل والواقع، يعني: هم لا يعدونها مكملة للرجل ولكن يعدونها منافسة له ومزاحمة في كل شيء، وهذا ما أعانهم عليه بعض أبناء جلدتنا حتى صاروا يطالبون بإسقاط قوامة الرجل عليها، ومساواتها مع الرجل في الميراث والدية والشهادة لأنها تنفق كالرجل تماماً.

ولعلمهم نجحوا في شيء من ذلك بعدما قدّموه في قوالب مبهرة، وألفاظٍ وعبارات برّاقة، كالمساواة وحقوق المرأة والتمكين للمرأة وتحقيق الذات وغير ذلك.

أما في شريعة الله، فالمرأة مَلَكة أوجب الإسلام لها النفقة أمّاً وبتّاً وأختاً وزوجةً، والزوجة وإن كانت غنية فنفتقتها في مال زوجها، وكل ما تقدمه لأسرتها من عمل ونفقة إنما هو من إحسانها وبذلها الذي لا يلزمها، وإن كان بعض أهل العلم يجيز للرجل إلزامها بدفع شيء من كسبها مقابل موافقته على عملها وإسقاطه شيئاً من حقه في رعاية بيته، حفظ الله نساءنا وجعلهن تيجاناً على رؤوس من حولهنّ.

٤- هنا لفتة لا أود أن تفوتكم، وهي أن قوامه الرجل على المرأة موافقة لما جبلت عليه من حبها لأن يكون الرجل في حياتها مُهتَمًّا بها، وبإذلاً لحاجاتها، وموافقةً لنفورها من الرجل الذي لا يصلح للقوامه، يعني: هي لا تحب أن تكون هي القوامه على البيت، بحيث يستأذنها الرجل للخروج وللعمل وللسفر، ويقوم هو على أعمال البيت، فإن هذا يسبب لها شقاء ما بعده شقاء، ويسقط أموراً عدة في حياتهما.

وشدة رغبة المرأة في أن يكون ثمة رجل في حياتها يقوم على أمرها ويعتني بشأنها هو ما يفسر لكم ما نراه من عدد من الحالات وإن كانت قليلة، تقوم فيها المرأة على إعانة الرجل في مهرها، بل قد تعطيه إياه بالكامل ليدفعه لها ويكون قوَّامًا عليها، كلاهما يريد إشباع رغبة فطرهما الله عليها فلا يُجلد ظهرهما في ذلك كثيرًا، والأمر على السعة إن شاء الله.

٥- حاول البعض أن يسرق مفهوم القوامه إلى العنف والتسلط والقهر والتضييق، وقدموا هذا المفهوم على أنه صورة من صور امتهان كرامة المرأة والتعدي على إنسانيتها، وأوهموا من حولهم من ساذجي المسلمين بأن ديننا لا يحترم عقل المرأة ولا يؤمن بقدراتها.

وهؤلاء مشكلتهم عميقة مع دين الله تعالى، فإنه من تأمل دين الإسلام علم قيمة المرأة فيه، ورأى ألوانًا من الرفعة والتقدير لها، ولن أناقشهم في كلامهم كثيرًا، ولكني أدعوهم للنظر في واقع أمهاتنا وزوجاتنا وبناتنا، كيف نبذل الغالي والنفيس ونتابع الليل بالنهار لتحيا الواحدة منهن حياة الكرام، وهل علمنا ذلك أحد، أو هو نتاج تربيتنا على كلام الله تعالى وكلام نبيه ﷺ؟!

٦- ومن أوجه فهم قوامه الرجل في بيته، عدم صلاحية تعدد من يقوم على أمر البيت أو أي مؤسسة أخرى، فهل رأيتم في أي مشروع ناجح أكثر من مدير فيه، يُرجع إليه في المهمات والمهمات وتكون الكلمة الأخيرة له، وهكذا الأسرة لا بد لها من مرجعية واحدة يكون بها تحقيق إرادة الشرع مما شرع.

أقول: ما أسعد المرأة إذا انشغلت بأنوثتها وهي آمنة في بيتها وقد كفيت حاجاتها، وما أرقاه من رجل اعتدل في أدائه، وفهم قوامته على بيته، وأدأها على الوجه المرضي.

٧- ختامًا: سيادة المرأة على بيتها لا تخفى على أمثالكم، والإسلام أعطاها هذه السيادة وجمع إليها قوامه الرجل التي تشير إلى السيادة العامة القائمة على ما تقدم ذكره وبيانها. أخرج ابن السني عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ نَفْسٍ مِنْ بَنِي آدَمَ سَيِّدٌ، فَالرَّجُلُ سَيِّدُ أَهْلِهِ، وَالْمَرْأَةُ سَيِّدَةُ بَيْتِهَا».

ولكم أن تتأملوا لفظة القرآن في السيادة العامة لما قال عن زوجة عزيز مصر: ﴿وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، وكذلك لفظة السنة لما قال ﷺ في وصيته للأزواج: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ» أي: هي عند زوجها كالأسيرة فلا تخرج إلا بإذنه، وترجع إليه في عدد من شؤونها.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنَاطُتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ ما أجملها من صفات للزوجة التي عمّر حبُّ الآخرة قلبها، وما أجملها من إشارة تنفع كل مقبل على الزواج، وتنفع الأزواج في قوامتهم ورعايتهم لأسرتهم، بل تنفع كل من سألت عن طريقها إلى الجنات.

هذا الموضوع من الآية يذكر خصال المرأة الصالحة التي يرضى الله عنها ويكرمها، ويذكر الخصال الصالحة التي تدعو الزوج لأن يعصّ بنواجذه على من وجدت فيها وإن كره فيها أمورًا أخرى.

الصالحات قانتات، أي: مطيعات لله ومطيعات لأزواجهن، وهن يعلمن أن طاعة الزوج من طاعة الله تعالى، والسياق جاء في معرض الحديث عن القوامة، وكأن الآية تشير إلى من فهمت مراد ربها منها، ولم تُصغ للناعقين الذين يدعونها إلى النشوز والتمرد على طاعة الزوج.

أخرج أحمد بسند حسن عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ».

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه، واللفظ لأبي داود، عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَغَيْرِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أُنَّ يَسْجُدُ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ»، وفي رواية ابن ماجه زيادة: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا» الحديث.

وهن حافظات للغيب، أي: تحفظ كل ما يخص الزوجين من أحوال وأسرار، وتحفظ نفسها في غيبة زوجها، وتحفظ ماله وعياله وكل ما ائتمنها عليه كما لو كان حاضراً وموجوداً، وليست من صنف النساء اللواتي يبدو منهن ما لا يفعلنه بحضور أزواجهن، مما يعلمن كراهتهم له.

﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: تحفظ الغيب وفقاً لأمر الله تعالى ووصيته في ذلك، فنجدها لا تخرج عن طاعته إلا بمسوغ شرعي معتبر كما لو أمرها بمعصية، أو كلفها ما لا تطيق، أو غير ذلك.

ولعلي في هذا المقام أطلب من كل زوجين أو من كل مقبل ومقبلة على الزواج أن يطلعوا على ما لهم وما عليهم من حقوق وواجبات في الحياة الزوجية، ويضعوها في قالب المودة والرحمة والسكينة حتى يفقهوا أمر الله في ذلك.

﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ ۖ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوا ۚ فَإِنَّ أَطْعَمَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۚ﴾ الحياة الزوجية لها حقيقة لا بد أن يتعرف عليها الرجال والنساء، حتى يكونوا أقدر على إدارة حياتهم وفهم ما يحصل فيها.

نعلم بيوتًا مطمئنة لم تحصل فيها خصومة تُذكر بين الزوجين، ويعيشان حياة طيبة كل منهما يعرف فيها واجباته فيقوم بها، ويصبر على الطرف الآخر حال تقصيره ولا يؤذيه، وقد يغطي النقص الذي حصل بطريقة ما.

ولكن ثمة أزواج اضطربت حياتهم الزوجية لسبب ما، وحصل فيها نشوز من أحد الزوجين، وهذا النشوز قد يكون من الزوج وقد يكون من الزوجة، وفي نشوز الزوج قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: ١٢٨]، وسيأتي معنا فقه الآية ومعناها.

أما هنا فقد بينت الآية ما يتعلق بنشوز المرأة، والذي يكون بإعراض الزوجة عن زوجها وعدم أداء حقوقه إليه، وترك طاعته فيما أمرها الله أن تطيعه فيه، كخروجها بدون إذنه، وإدخالها بيته من لا يحب، وتقصيرها في واجباتها اتجاه بيته وعياله، وغير ذلك.

هذه الزوجة خرجت عن طاعة زوجها بدون مسوغ شرعي معتبر، إما بسبب بغضها له، أو بسبب تأثير خارجي، أو لسوء خلقها، أو لغاية في نفسها، أو غير ذلك.

وخوف النشوز هنا بمعنى أنه غلب على ظن الزوج أن زوجته ستبقى مُصرّة على عصيانها، وأن نيتها اتجاه زوجها بدأت تفسد، وأن ضررًا ما بدأ يقترب من أسرته بسببها لا بسببه.

أقول هذا لأن صنفًا من الرجال يسارع لتطبيق ما في هذه الآية كلما غاضبته زوجته، وهذا من قلة فهمه، بل وجدناه يستعمل ما في الآية هنا في إرشاده لها وكلامه معها بدون حاجة، وهذا ظلم للشرع يأباه الشرع.

والإسلام لا يبدأ بالطلاق في التعامل مع مثل هذا النوع من النساء، وإنما يحاول أن يرد الزوجة إلى رشدتها بما شرعه للزوج من أحكام في مثل هذا الحال، وهنا ثلاث وسائل شرعية أذن الله تعالى بها في التعامل مع عصيان الزوجة:

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ موعظتها تقوم على تذكيرها بما يلزمها من أداء واجباتها اتجاه بيتها وزوجها وأولادها، وتذكيرها بأمر الله لها من طاعته بالمعروف، ويراعي الزوج في ذلك الحكمة وعدم الإيذاء بالقول، وإن احتاج الأمر كَرَّرَ عليها النصيحة وبذل وسعه في إرجاعها إلى ما اعتاده منها، ولعلكم تدركون أن ثمة خصومات تحتاج إلى صبر في الموعظة وطول نفس قد يمتد لأشهر.

فالزوج يُذَكِّرُ زوجته بأجر الصالحات القانتات، ويفتح لها آفاق التفكير الإيجابي بموعظته، ويظهر لها حبه وتقديره حال وعظها، ويحرص على الكلام الذي يؤثر في قلب امرأته، وكُلُّ أدرى بزوجته، حفظ الله علينا أهلينا.

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ليس سهلاً على الزوجة أن يهجرها زوجها في فراشها ولا يجمعها، وكذلك ليس سهلاً على الزوج، ولكنه يفعل ذلك لتحقيق مصلحة أعظم، وهي مصلحة حفظ بيته وعياله من عواقب الخصومة والمشاحنة بين عمودَي البيت.

والهجر قد لا يقتصر على الهجر في الفراش والجماع، ولكن قد يمتد إلى الاختصار في الكلام معها على حد الضرورة، ولا يكون إلا بعد حصول ما يكفي من الموعظة التي لم تنتفع بها الزوجة ولم ترجع عن قبيح فعلها.

والهجر ليس مسألة مزاجية يتصرف الزوج به كما يريد، ولكنه يكون بقدر الحاجة وبما يحصل به المقصود وإن زادت مدته عن ثلاثة أيام إذا كان لمصلحة، وليحذر الزوج أن يترتب على الهجر هذا مفسدة أعظم، فإنه إن كان كذلك تركه.

وتنبهوا هنا إلى أن الهجر إنما يكون في البيت لا خارجه، يعني: لا يفهم الرجل من ذلك إخراج الزوجة من بيتها أو خروجه هو، بل لا يخرج من غرفته، ولذلك ذكر أهل العلم أن هجرها إنما يكون بأن يوليها ظهره في الفراش، ولا يكلمها فيه ولا يحدثها.

أخرج أحمد وأبو داود وغيرهما عن مُعَاوِيَةَ الْقُسَيْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟، قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ».

وتأملوا كيف ينهى الحديث عن تقييحها، يعني أن تقول لها: قبحك الله ونحو ذلك من الألفاظ التي لا تليق بقائلها ولا بالمخاطب، فماذا نقول لمن أطلق لسانه في عرض زوجته وفي أهلها، بل ماذا نقول لمن افتري عليها وتكلم بما ليس فيها.

قلت: وقد يغلب على ظن الزوج أن خروجه من غرفته ومبितه في غرفة أخرى داخل بيته يتحقق به ما يريد، ولا يتأذى به الأولاد إن وجدوا، فلا أرى حرجاً في ذلك إذا كان لمصلحة.

﴿وَأَصْرَبُوهُنَّ﴾ الزوج قَوَّام على بيته، والشرع أذن له في وسائل علاجية تحقق غايةً عظمى من غايات هذه الشريعة، ألا وهي حفظ الأسرة واستقرار أمرها.

وفي مسألة الضرب هنا أضع فوائد لا يستغني عنها من أراد أن يفهم شرع الله تعالى، فإليكموها:

١- الضرب وسيلة علاجية للمرأة الناشز وليس لجميع النساء، وهي وسيلة متأخرة عن الوعظ والهجر، ولكم أن تنظروا في أمر هذه الزوجة التي خرجت عن طاعة زوجها، وعرضت بيتها وأولادها للضياع والتشتت، وأذنت لمن هو خارج البيت أن يعيث ببيتها وعلاقتها بزوجها، ولم ينفع معها أسلوب الوعظ ولا أسلوب الهجر.

ولنعترف أن ثمة صنفاً من النساء مُتعب لا يصلح معه إلا ذلك، ولنعترف كذلك أن الضرب موجود حتى عند من يغمز في شريعتنا ويلمز من بلاد الكفر وغيرهم.

٢- لا يجوز إعمال هذا الأمر في الزوجة إلا إذا غلب على ظن الزوج أنه نافع لها، ولن يترتب على ضربها مفسدة أعظم، فالضرب هنا للعلاج لا للانتقام، والزوج لا بُدَّ أن يُقدر ذلك فهو أعلم بحال زوجته.

٣- يراعى في الضرب الشروط الشرعية حتى يكون للزوج لا عليه، وحتى لا يظن الأزواج أن الإذن هنا يكون على إطلاقه فيفعل ما يريد.

فمن هذه الضوابط المنع من الضرب على الوجه، أو على مَقْتَل في بدنِها كالرأس ونحوه، ومنها ألا يضرب ضرب إهانة وإذلال كأن يكون أمام الأولاد أو أمام الأهل أو الصديقات.

ومن ضوابط الضرب أن لا يؤدي إلى كسر في بدنِها، أو إسالة دمها، أو ترك أثر، أو إيذاء لا يحتمل، ولذلك رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه مَثَّلَ لوسيلة الضرب بالسواك، فإن فكرة الضرب تقوم على إيصال رسالة للزوجة بأن زوجك الذي يحبك ويعاملك معاملة طيبة ولم يمد يده عليك، قد وصل إلى مرحلة يفعل فيها ما لم يكن يفعله من قبل، فانتبهي لبيتك، وارجعي إلى رشدك، وتمسكي بسِرِّ سعادتك.

٤- ومن غرائب ما رأينا من بعض أبناء جلدتنا أن عقولهم خَفَّتْ عند تفسير هذه الآية وفهمها، وقد أثرت فيهم ثقافة غير المسلمين بشكل أو بآخر، وحاولوا أن يفروا من غمز أعداء

الإسلام ولمزهم في هذه الآية، وجعلوا يَرِقُّونَ لحال هذه المرأة الناشز دون أن يتأملوا عواقب نشوزها وسوء أدائها في موقع حساس جدًا في جسد هذه الأمة.

هؤلاء تَأَوَّلُوا الضرب هنا في الآية على غير معناه، وحملوه على المباحدة والهجران والتجاهل، معتمدين في ذلك على أحد معاني لفظة (ضرب) في اللغة، التي تأتي بمعنى المفارقة والانفصال، كما نقول: ضرب به عُرْض الحائط، أي: أهمله وأعرض عنه احتقارًا.

والم تأمل لما أوردوه في كلامهم يجد أن أول خطوة انطلقوا منها كانت إسقاط ما أجمع عليه المفسرون والعلماء وأصحاب المذاهب وأهل اللغة عبر تاريخنا الإسلامي، وأخشى أن يكونوا بمقولتهم هذه من الرؤوس الجهال الذين يتخذهم الناس بعد موت العلماء وقتلهم والتضييق عليهم.

والأخطر من ذلك إسقاطهم للأحاديث وكلام الصحابة في هذه الآية، وهذا يدل على فساد طويتهم، وجهل التابعين لهم بحقيقتهم، فقد أخرج مسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ (أي: بعقد الزواج الذي أباحهن لكم)، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُ، فَإِنْ فَعَلَنَّ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ (غير شديد ولا شاق)».

ومعنى: «وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُ» أي: ليس لها أن تدخل إلى بيت زوجها من يكره الزوج دخوله إلى البيت، سواء كان رجلًا أو امرأة، من محارمها أو من غير محارمها، فالزوج له اعتباراته على الغالب في ذلك.

وكلام أصحاب النبي ﷺ الذين عاصروا التنزيل وشهدوا الوحي في تفسير الضرب هنا مشهور وموفور في غالب كتب التفسير وبأسانيد صحيحة.

ثم إن لفظة الضرب على طريقتهم يلزم منها التكرار لأن الهجر سبق الضرب كما في الآية، إلا إذا حملوا الهجر هنا على غير الهجر الأول، وهذا يلزم منه ركاكة التعبير القرآني وضعفه.

والضرب على معناه المعروف جاءت به آيات كثيرة في كتاب الله، كقول الله تعالى: ﴿وَحُذِّ بِيدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَمَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عِيسًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وغير ذلك من الآيات، فهل الضرب هنا بمعنى المباحدة والترك، نعوذ بالله من الفتن.

أخيراً: تفسير كلام الله تعالى لا يكون عن طريق أخذ معجم من معاجم اللغة العربية المعروفة والمعتمدة، ثم البحث فيه عن معنى يوافق هوى في النفس ثم الإعلان به، ولكن التفسير منظومة علمية قائمة بذاتها، لها أصولها وفنونها، ومعاجم اللغة واحد من أركان هذه المنظومة فضلاً عن علوم أخرى لا بد أن يضبطها المفسر ويبلغها ليكون أهلاً لذلك.

٥- صحيح أن الشرع أذن بالضرب وضبطه بما ضبطه، لكنه أشار كذلك إلى كراهته لصنف من الرجال يضرب بدون مسوغ معتبر، ويطلق العنان لنفسه في ذلك دون شروط وضوابط.

ولكم أن تتأملوا ما أخرجه البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَمْعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ».

وأخرج أبو داود وابن ماجه والنسائي في الكبرى وابن حبان عن إِيَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ذُئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ (أي: نشزن وعصين)، فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأَطَافَ بَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءً كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ طَافَ بَالِ مُحَمَّدٍ نِسَاءً كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ».

وفي رواية ابن حبان: «فَذُئِرَ النِّسَاءُ وَسَاءَتْ أَخْلَاقُهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ».

وعند ابن حبان كذلك: «لَقَدْ طَافَ بَالِ مُحَمَّدٍ اللَّيْلَةَ سَبْعُونَ امْرَأَةً كُلُّهُنَّ يَشْتَكِينَ الضَّرْبَ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَا تَجِدُونَ أَوْلَئِكَ خِيَارَكُمْ».

ومن جميل خصال حبيبتنا وقودتنا وقرة أعيننا محمد ﷺ، ما أخرجه مسلم عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الحديث.

٦- انتبهوا إلى أن الضرب ليس على سبيل الإلزام، وإنما هو على سبيل الإباحة في ظرف معين ولا يقع إلا استثناء، ولعلكم تعلمون حال أزواج يعيشون مع صنف من الزوجات نشزن، ولكنهم قدروا الظرف واختاروا طريق الصبر، فهؤلاء لم يلزمهم الشرع بالهجر أو الضرب.

وهنا أهمس في أذن من أقامهم الله على بيوتهم وأقول: انتبهوا أيها الأزواج إلى أن الله تعالى ائتمنكم على نسائكم، وحذركم أن تعتدوا عليهن أو تبطشوا بالباطل، وقد حرم الله تعالى أذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، وضربهن من أذيتهن على الغالب ما لم يكن لمصلحة راجحة وبشرطه.

وأقول كذلك: تجاوزك الحد في الضرب والإفراط فيه يسبب نفور الطرف الآخر غالباً، بل قد يسبب بلادته وزوال ما تبقى من مشاعر إيجابية، بخلاف ما لو كان ضربك شرعياً لَمَسَتْ فيه زوجتك حبك لها، وحرصك عليها وعلى استقرار حال أسرتك، فإنها إن كانت صالحة أثر فيها واستفاق عقلها واستقام حالها.

وأزيدكم من الشعر بيتاً، وأذكركم بتعدد نصوص الشرع التي جاءت تأمر بالرفق بالنساء، واجتناب ظلمهن، وإمساكهن بالمعروف، والقيام على حاجتهن وأمرهن.

﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ هذا ما أَرَادَهُ الشرع مما أُرشدت إليه الآية وأذنت به، أراد أن ترجع المرأة عن نشوزها إلى طاعة زوجها، فالوعظ والهجر والضرب ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي طرق من طرائق علاج ما حصل من الزوجة اتجاه بيتها وزوجها، ولذلك نهى الشرع عن الهجر والضرب إذا أطاعت المرأة، وهذا النهي يفيد التحريم.

والمقصود: لا تظنوا أيها الأزواج أن عظم حقوقكم على أزواجكم يبيح لكم أن تعتدوا عليهن وتتجاوزوا الحد معهن، بل تدرجوا معهن كما أمركم الله: الوعظ ثم الهجر ثم الضرب، وتذكروا أن الشرع أذن لكم في ذلك مع المرأة الناشز فقط، أما القانطة الصالحة فلا يحل لكم تعريضها لإيذاء قولي أو فعلي، بل فتشوا في حالكم وأنفسكم إن كان ثمة شيء.

والترتيب في العقوبات هو قول جمهور أهل العلم، يعني: لا يجوز تقديم وسيلة الهجر على الوعظ ولا الضرب على الهجر والوعظ، ولهم في قرينة ذلك كلام نفيس فليراجع.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ هذا تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْكَبِيرَ وَلِيَّهُنَّ وَهُوَ مُتَّقِمٌ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَغَى عَلَيْهِنَّ، واتخذ من هفواتهن طريقاً إلى التفتن في إيذائهن.

وكأن ختام الآية يضع للزوج معالم تضبط سلوكه وتفكيره لئلا يتكئ كثيراً على تمسك زوجته به وحرصها وصبرها عليه.

فالإي كل زوج علا على زوجته بغير حق: اعلم أن الله تعالى حاكم فيك وفي أمرك، ولن يضيع حق عنده، والله تعالى له الكبرياء والقوة والقدرة، فاتق الله ما استطعت.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥)

هذه الآية تتكلم عن حال من الأحوال التي قد تعرض للأسرة في حياتها: نفور من الزوجين، وخصومة مستمرة بينهما طالت وأوقعت شقاقاً ونزاعاً ومغاضبةً ونشوراً من الطرفين حتى عجزا عن إدارة ما يحصل بينهما، واختلط الأمر عليهما، وقد زعم كل منهما أن النشوز حصل من الطرف الآخر.

ومن أهل العلم من جعل التحكيم كذلك فيما لو استعمل الزوج مع زوجته الناشز كل ما أذن به الشرع، ولم ترجع عن نشوزها فله أن يرفع أمره للقاضي للتحكيم.

في الآية الكريمة توجيه رباني للحكام وللقضاة إذا وصل الأمر إليهم، يرشدهم إلى ما يفعلونه في مثل هذا الحال، وهو توجيه يدل على عظم عناية الشرع بتفاصيل حياة الأسرة المسلمة، والتي يُعَدُّ تعرضُها لما يَصُرُّ بها سبباً من أسباب ضعف المجتمع المسلم، وقد يفتح ضَعْفُها أبواب الشرور على الزوجين وعلى أبنائهما ومن حولهما.

وتوجيه الخطاب هنا للحكام وللأمرء والقضاة إنما هو قول جمهور الفقهاء، ومنهم من ذهب إلى أن الخطاب يصلح كذلك للأولياء وللأزواج، يعني لهم أن يحتكموا في ذلك بدون القضاء.

أقول: إِذَا وَقَعَ الشَّقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وظهرت أسبابه، نبعث حَكَمًا ثَقَّةً مِّنْ قَرَابَةِ الْمَرْأَةِ وَحَكَمًا ثَقَّةً مِّنْ قَرَابَةِ الرَّجُلِ، لِيَجْتَمِعَا وَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا، وَيَفْعَلَا مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لهما، فإن لم يجدا في قرابتهما من يصلح فلا حرج بتحكيم من هو غريب عنهما، والمفترض في القرابة المؤتمنة الناضجة أنها أشفق بحال الزوجين وأعلم بتفاصيل حياتهما، وربما يطمئن لهما الزوجان أكثر من الغريب، ولذلك أوصت الآية بهما.

ويرى الشافعية والحنابلة أن تقديم القرابة في ذلك إنما هو للندب وليس للوجوب، بخلاف المالكية.

والمصلحة التي يقضي بها الحكمان لا تخرج عن أحد أمرين:

الأول: إما أن يقضيا برجوعهما إلى بعضهما وبقائهما في أسرة واحدة واستمرارهما في حياتهما، وذلك بعد أن يُبَيَّنَّ لهما أخطاءهما، وما قَصَّرَ فيه كل منهما اتجاه الآخر وما يلزمه أن يفعله.

وهنا لفئة نتعلم منها أن الزوجين قد يجهلان ما لهما وما عليهما، وقد يحتاج أحدهما أو كلاهما إلى تعليم وتوجيه وإرشاد، حتى يتحصّل النضج الاجتماعي المنشود في التعامل مع مواقف الحياة الزوجية المتجددة، وقد نجد عددًا لا يُستهان به من الأزواج والزوجات بلغوا في العلوم ما بلغوا، وحازوا شهادات في فنون متعددة، لكنهم لا يجيدون أبجديات التواصل الاجتماعي، ولا فهم النصف الثاني في الحياة، فيكون دور الحكمين إن رجحا جانب الإصلاح أن يفتحا لهما طرائق الحياة المستقرة، وسبل تحصيل السكينة في البيوت.

الثاني: وإما أن يقضيا بالتفريق بينهما وتغليب الانفصال ليكونا أقدر على الاستقرار في حياة جديدة. قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

وهذا يدل على أن ثمة ظروفًا في الحياة الزوجية يطلع عليها المحكمان، يغلب على ظنهما صعوبة بقاء الزوجين معًا، ومن جرب الدخول في تفاصيل حياة الأزواج أدرك ذلك لا محالة. والحكم الذي يكون عن كل طرف، لا بد أن يكون من أهل الصلاح، وأن يكون مؤتمنًا، وأن يمتلك بصيرة في حياة الناس تجعله أقدر على الإصلاح أو تقدير الانفصال، ومعلوم لديكم تفاصيل عملهما وحساسية ما يسمعون به ويتكلمون به.

وهنا مسألة فقهية: هل للحكمين أن يقضيا بالتفريق بين الزوجين دون أن يكون لهما رأي في ذلك؟ ذهب الأحناف إلى أن الحكمين ليس لهما إلا الإصلاح إذا كان بتوكيل من القاضي، بخلاف ما لو كان التوكيل من الزوجين فلهما أن يحكما بفسخ الزواج، ويكون حكمهما ماضيًا وملزمًا. أما الجمهور فذهبوا إلى أن الحكمين لهما الإصلاح ولهما القضاء بالتفريق وإن كان التوكيل من القاضي، ويمضي حكمهما في ذلك.

لكن الشافعية والحنابلة اشترطوا موافقة الزوجين على التحكيم ليكون حكمهما ملزمًا.

وفي المسألة تفصيل نفيس محلة كتب الفقهاء فليراجع.

﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ هذان المصلحان إن صدقا في سعيهما وفي كلاهما أجرى الله على يديهما الخير وكان توفيق الله لهما ملازمًا، وإن جاء كل واحد منهما وفي طويته ونفسه شيء من المكر والخبث أفسد من حيث ظنوه مصلحًا.

وهنا يجتهد الحكمان في الوصول إلى ما في قلب الزوجين من محبة أو بغضاء، ويستفرغان وسعهما في تجلية الأمر بينهما وتحديد الخلل إن كان في فهمهما للحياة، أو كان في سوء

ماضيهما، أو كان في فتح بيوتهما ونشر أسرارهما للأهل والصحبة دون حاجة، أو كان في غير ذلك من الأسباب.

وتأملوا عظمة كلام رب العالمين، كيف ذكر الخيار الأول وهو إرادة الإصلاح ولم يذكر الثاني، وقد ألمح العلماء إلى أن الشرع لم يذكر خيار التفريق لأنه لا يحبه، وليُشعر النفوس أنه لا ينبغي أن يقع ذلك، ولكنه لو وقع فالأمر على السَّعة.

وبعض العلماء جعل إرادة الإصلاح في الآية راجعة إلى الزوجين، فإنهما إن أرادا الإصلاح يَسِّر ذلك على المصلحين عملهما وكان لهما ما أرادا، وإن كان الأمر غير ذلك بقاء عملهما بالخسران وعدم التوفيق.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ربنا علم الناس ما ينفعهم، وشرع لهم من الأحكام ما يصلحهم، فإنه العليم بنياتهم وأفعالهم وأقوالهم، وهو الخبير بما يقع بينهم وبأحوالهم وجميع أمرهم.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
مُخْتَلًا فَخُورًا﴾

سياق قرآني ممتد في بيان عظمة ما يدعو إليه الإسلام، وتوجيه رباني للخلقة كلها يرشدهم إلى معالم صحة الاعتقاد وثمرته في حياتنا، ويضيء لهم آفاق العبودية المتعلقة بالجوارح والقلوب، ويعطيهم أسباب تميزهم عن الأمم الأخرى والعقائد الباطلة.

أرشدت الآيات السابقة إلى أسباب قوة الزوجين في حياتهم وفي قيامهم على أمر أبنائهم، ووضعت أسس الإحسان بينهم، ثم جاءت الآيات هنا بأسلوب وعظيٍّ عجيبٍ لتوسيع دائرة البذل والعطاء والإحسان لتشمل كثيرًا من فئات المجتمع.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أمرٌ من الله تعالى للعباد بأن يعلموا أن الله تعالى هو خالقهم ورازقهم ومالكهم ومدير أمرهم، وهو المتفضل على خلقه في جميع الأحوال والأعمال والأقوال، وأمرٌ لهم بأن يعبدوه ويعظموه على الوجه الذي يليق بكماله وجلاله.

أحرصوا على تمكين خشية الله تعالى في نفوسكم، واستحضروا آياته في الأنفس والآفاق على الدوام، ولا تغفلوا عن ذلك.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أحسنوا في طاعتكم ولا تصرفوا عبادتكم إلا لله وحده؛ صلاةً وصيامًا وزكاةً وحجًّا، ودعوة إلى الله وجهادًا، وتعليمًا وتعلمًا، وإنفاقًا وبذلًا.

أخرج البخاري ومسلم عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَعْدُبَهُمْ».

والمطلوب: لا تشركوا بالله كما فعل اليهود والنصارى ويفعلون، وكما فعل مشركو العرب في تعلقهم بالأصنام، وكما يفعل عباد البقر والنار، بل كما يفعل بعض من تعلق بالبشر أحياء وأمواتًا. قال الله تعالى عن اليهود والنصارى الذين تعلقوا بأصنام البشر، وأطاعوا رهبانهم وأجبارهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال الله تعالى عن أولئك الذين تعلقوا بأصنام الحجر: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وتصدير الخطاب الرباني بالأمر بعبادة الله تعالى هنا في الآية التي معنا، يفهم منه أن ما أمرت به بعد ذلك يحتاج إلى قلوب تعلقت بالله لتُحسن في طاعتها له، فإنه من أحسن الاعتقاد أحسن العمل، وكانت تكاليف الشرع أيسر عليه وأهون.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ جاء عطف الإحسان إلى الوالدين هنا على الأمر بتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية، وهذا العطف لم يقتصر على الآية هذه فحسب، وإنما تكرر في أكثر من موضع قرآني نفيس، كقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا ﴿البقرة: ٨٣﴾، وقول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وغير ذلك.

والأمر بالإحسان إلى الوالدين بعد الدعوة إلى تحقيق العبودية وصرفها لله وحده يعطينا مكانة بر الوالدين في منظومة الشرع، وهذا أمر يدركه من له أدنى تأمل في نصوص الكتاب والسنة وكلام أهل العلم، فالشرع دل على أن بر الوالدين سبب من أسباب رضا الله واستجلاب محبته والفوز بجنته، وهو سبب من أسباب استجابة الدعاء وتفريج الكربات وإقالة العثرات، وفيه النجاة من النار ومن الوقوع في الكبائر.

وبر الوالدين مقدم على نوافل الطاعات وفروض الكفاية بالجملة، ولا يسقط بر الوالدين إلا في مواضع قليلة جدًا، وإن كانا على غير دين الإسلام، بل أزعج أن حرص الطائعين لله على برهما عبادة يصطفيها الله تعالى لها من يحب.

والآية هنا تأمر بالإحسان إليهما، أي: إيصال كل خير لهما من الأقوال والأفعال، وكفاية حاجاتهما، وكف الأذى عنهما، والمسارة إلى طاعتهما في غير معصية الله تعالى، والحرص على طيب القول ولين الجانب والتواضع والدعاء لهما، ويتأكد هذا الإحسان حال كبرهما كما أرشدت إلى ذلك آيات أخر، ويتأكد ذلك في حق الأم أكثر وأكثر.

والإحسان لهما يختلف باختلاف أحوال الوالدين وأحوال الأبناء، وتفصيل ذلك بالمجمل يدركه أبناء الإسلام، ولكن للتذكير أقول: كن قريبًا منهما، وقم على خدمتهما، وتكلم معهما بطريقة تناسب قدرهما، وأحسن في استماعك لما يقولون، وتفقدتهما بالنفقة والهدية دومًا، وبالغ في كل ذلك حال كبرهما، ولا تنس أن تخلص لوجه الله تعالى في برك، وأن تستحضر نية طيبة، واحذر ممن ظاهر حاله البر والطاعة لوالديه، وحقيقة حاله أنه يقصد مال الوالد أو الوالدة أو مدح الناس وكفى.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: سئل النبي ﷺ عن الكبائر، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور».

وهنا همسة للآباء والأمهات الذين علموا قدر طاعتهم في الشرع، أقول فيها: أعينوا أبناءكم على بركم، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، وتفقهوا فيما لكم من حقوق على أبنائكم وما عليكم من واجبات، فقد وجدنا في واقعنا من يعين أبناءه على العقوق بسلوكه الفظ، وسؤال ما ليس له.

وهنا مسائل أُرشد إلى ضرورة ضبطها والاطلاع على فقها لتكون علاقة الأبناء بالآباء كما أَرادها الشرع، منها: مسألة النفقة بينهم، وحدود بر الوالدين في أبواب الواجبات والمندوبات والمباحات والمكروهات والمحرمات، ومسألة الإيجار على الزواج من شخص بعينه، وأمر الوالد أو الوالدة ولدهما بطلاق زوجته، وأحكام العدل في الهبة والعطية بينهم، وغير ذلك من المسائل التي هي ليلنا ونهارنا، والتي أزعج أن معرفة أحكامها في الشرع تُصلح أحوال الكثير.

﴿وَبِذَى الْقُرْبَى﴾ وأحسنوا إلى قرابتكم من جهة آبائكم وأمهاتكم أيها الناس، وتذكروا أن الرحم تقف لصاحبها على الصراط تسأله عن حقها في الصلة، وأن أداء حقوقها علامة على الإيمان بالله واليوم الآخر، وسبب لصلة الله للعبد ودخول الجنة والنجاة من النار، وهي سبب كذلك في زيادة العمر وبسط الرزق ومحبة الأهل وحسن الخاتمة، والشرع رغب كثيراً في الصبر على أذية الرحم، وجعل الصدقة عليه بأجرين، وشرع له من الأحكام ما يحفظ حقه ومكانته التي أَرادها الشرع. أخرج ابن حبان عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ فِي مَرْضِهِ: «أَرْحَمُكُمْ أَرْحَمُكُمْ».

والإحسان إليهم يكون بإيصال ما نقدر عليه من الخير، من بذل المال إليهم، وطيب التعامل معهم، ونصرهم على الحق وعونهم عليه، ودفع كل ممكن من الشر والبأس عنهم، ورد أذيتهم بالصبر والعفو ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

ولا يريد الإسلام أن تكون علاقة ذوي القربى فيما بينهم قائمة على التحاسد والتقاتل، ولا يحب ديننا ما يجري بين كثير من الأرحام من تبسيت الضر وبذل ألوانٍ من الكيد، واتباع الهوى في ذلك، ولا يليق بالمسلم الذي رباه القرآن وربته سنة محمد ﷺ أن يصرف خيره وإحسانه إلى الأبعد ولا يفعل ذلك مع الأقارب.

ولا يفوتني التذكير بحال صنف من القرابة لا أظن عائلة تخلو منه، غلب الشر عليه، أو بنى حياته على الكسل والنوم والبطالة والتبذير وَالْفَخْفَخَةَ الْبَاطِلَةَ وَقِلَّةِ الدِّينِ، ويريد من قرابته أن يكفوه حاجاته مع قدرته على البناء، ومثله لا أريد أن يفهم هذه الآية على غير وجهها، ولينطلق وليعمل وليحسن إدارة حياته وماله، وليكيف شروره عن قرابته ممن عملوا وأنتجوا وأحكموا بناء حياتهم بتوفيق من الله تعالى أولاً وآخرًا.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ هؤلاء مات آباؤهم ولم يبلغوا الحلم كما تقدم، وغالب حالهم أنهم محتاجون للمال أو للولاية والرعاية، وقد تواترت نصوص الشرع بالوصية بهم وبأموالهم إن وُجدت، وبالتحذير من الاقتراب من مالهم، وقد جُعِلَتْ كِفَالَتُهُمْ سَبِيلاً لِرَفْقَةِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﷺ، وجعل لهم سهم يخصصهم من مال الغنائم وكذا من مال الفبيء من بيت مال المسلمين، وهذا كله من الإحسان إليهم.

وإحسان المجتمع إلى اليتيم فيه تعويض له عن فقد النَّاصِرِ الْقَوِيِّ الْغَيُورِ وَهُوَ الْأَبُّ، وفيه نجاة له من استقطاب أهل الشرور والمفاسد الذين يبحثون عن مثله، فما أجملها من شريعة.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ أصحاب حاجات لا يجدون من المال ما يكفي حاجاتهم، مع أنهم يبذلون ما عندهم في سبيل تحقيق كفايتهم وعفتهم عن السؤال، ولكن الحال غلبهم، فأرشد الشرع إلى تذكيرهم والإحسان إليهم بالبدل والعطاء مع الكلمة الطيبة، وجعل لهم مصرفاً من مال الزكاة يخصهم، وكذا من مال الغنائم والفيء، ليكون تكافلاً أبناء المجتمع عوناً لهم على قوتهم وأمانهم وقوة أمتهم.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ وصية شرعية تخص جار الواحد منا في مكان سكناه، وهي وصية تدل على امتداد عناية الشرع بنظام الأمة الاجتماعي، والذي يعد ركيزة عظيمة من ركائز قيادة هذه الأمة للعالم.

استطردت الآيات قبل هذه الآية في بيان حقوق الأزواج، وأوصت بالأبوين والقرابة واليتامى والمساكين، وهؤلاء هم من نعيش معهم في يومنا وليلتنا، وكأن الإسلام يبنى في الواحد منا إيجابية يتحقق بها معنى الاستخلاف الذي أراده الله من خلقه، يعني: لا يليق بمن قرأ القرآن وعاش معه أن ينزل عن محيطه، ويفر من أذية من حوله إلى مقاطعتهم وخصومتهم، ولكن يتسع صدره لهم، ويتخذهم طريقاً لبناء شخصية مسلمة تنظر إلى أعالي الأمور على الدوام، وتخطط لمستقبلها الحقيقي الذي يبدأ بعد الموت، ويكفيها في ذلك أن المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم كما في الحديث.

والجار الذي يسكن حولنا قد تربطنا به علاقة القرابة، ومثله يتأكد حقه علينا من أكثر من جهة، يتأكد من جهة إسلامه إن كان مسلماً، ومن جهة قرابته، ومن جهة كونه جاراً تعددت وصايا الشرع به.

ويحتاج الجيران فيما بينهم إلى التناصر والتعاون والرفق وطيب الخصال، فالجار يعيش مع جيرانه ما لا يعيشه مع غيرهم، ويحتاج كلُّ منهم إلى تعاهد الآخر بالهدية والزيارة والدعوة إلى الطعام، والمشاركة في الأفراح والأحزان، ويحرص كل منهم على اجتناب أذية الآخر وإلحاق الضرر به بالقول أو الفعل، ويحرص على احتمال الأذى إن وجد؛ هذه خصال أهل التقوى والصلاح.

ومن حقوق الجار التي نص عليها أهل العلم: أن يَغُصَّ الجَارُ بَصَرَهُ عَنْ مَحَارِمِ جَارِهِ، وَيَحْفَظَ عَلَيْهِ دَارَهُ إِنْ غَابَ، وَيَتَلَطَّفَ بِوَلَدِهِ، وَيُرْسِدَهُ إِلَى مَا يَجْهَلُهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

أما حد الجار، فقد ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ حَدَّ الْجَوَارِ أَرْبَعُونَ دَارًا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَذَهَبَ الْمَالِكِيُّ إِلَى أَنَّ الْجَارَ هُوَ الْمُلاصِقُ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَ أَوْ هُوَ الْمُقَابِلُ لَهُ، أَوْ هُوَ مَنْ يَجْمَعُهُمَا مَسْجِدٌ، وَلِلْأَحْنَفِ كَلَامٌ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن أمر الجوار لا يحدد بالبيوت، وإنما بالعرف، أي: بما تعارف عليه الناس بأنه من الجيران. قلت: وهو قول حسن.

واعلموا أن أَوَّلَى الْجِيرَانِ بِالرَّعَايَةِ وَالْإِهْتِمَامِ مَنْ كَانَ أَقْرَبَهُمْ إِلَيْنَا بَابًا، ثُمَّ الْأَقْرَبُ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَأِلَى أَيِّهِمَا أَهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا».

﴿وَالْجَارُ الْجُنُبُ﴾ يعني: وأحسنوا إلى جيرانكم الذين يسكنون بجانبكم ممن ليسوا من قرابتكم، وإن كانوا أهل ذِمَّةٍ غَيْرَ مُسْلِمِينَ.

وهنا أسوق طائفة من كلام من أوتي جوامع الكلم ﷺ، يدرك قارئه صورة من صور عظمة شرع الله، في حقوق الجار وآدابه:

أخرج البخاري ومسلم عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ».

وأخرج أحمد والترمذي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ».

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِمَجَارَتِهَا، وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ». (أي: لا تحقري أي هدية وعطية لجارتك وإن كانت فرسن شاة، وهو ظلفها أو ما يسمى: خف الشاة، بمنزلة الحافر من الدابة والقدم من الإنسان).

وأخرج مسلم عن أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا دَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ».

وأخرج البخاري عن أَبِي شُرَيْحٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَاقِهِ» (يعني: ظلّمه وشرّه وغدره).

وعند مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

وأخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدًا وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

وأخرج البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في شعب الإيمان عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ فَلَانَةَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قَالُوا: وَفَلَانَةَ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ، وَتَصَدَّقُ بِأَثْوَارٍ (يعني: قطع الجبن)، وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ أَي: وأحسنوا إلى أصحابكم الذين هم بجانبكم والذين لازمكم في مكانكم، سواء كنتم في السفر أم في الحضر.

وهذا يشمل الرفيق في السفر، والزميل في العمل، والصديق والتلميذ والمعلم، والضيف والشريك ومن يستشيرك في أمر ما، وقد يشمل الزوج والزوجة كذلك.

والإحسان إليهم يقتضي أن تكون لهم خير ناصح ومعين في أمر دنياهم وأخراهم، وأن تتحلّى بالوفاء وتجنب الغدر والخيانة، وأن تحب لهم ما تحبه لنفسك، وألا تغفل عن التقرب إلى من ترضى خلقه ودينه منهم.

﴿وَأَبْنِ السَّيْلَ﴾ صنف من الناس انقطعت به السبل في سفره، وغالب حاله أنه ضعيف الحيلة ومحتاج إلى ما يوصله إلى مقصده أو إلى أهله، ومحتاج إلى الإكرام وحسن المعاملة، ومن عجيب هذه الشريعة أنها التفتت إليه، وأوصت به في مواطن عدة حتى جعلته مصرفاً من مصارف الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، بل جعلته مصرفاً من مصارف مال الغنائم ومال الفبيء كذلك. قال الله تعالى: ﴿وَأَتِذَا الْقُرُوفِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّيْلِ وَلَا بُدَّ زَبِيرًا﴾

[الإسراء: ٢٦].

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبد والأمة يكون أمرهما إلى سيدهما على الغالب، وحيلتهما ضعيفة فيما يجري حولهما من أحوال، وقد يظن البعض أن ضعف هذه الفئة من الناس يجيز للسيد امتنانهم والانتقاص من كرامتهم، ولذلك ذكرتهم الآية لتشير إلى حقهم في الإحسان كغيرهم.

الآية هنا تنادي الأسياد الذين أنعم الله عليهم بمن يعينهم في حياتهم، ويكون سبباً من أسباب سعادتهم، تناديهم وتوجههم إلى عدم الاغترار بأنفسهم أو بقوتهم، وليتقوا الله تعالى في هذه الفئة من الناس ولا يظلموهم، ولا يتنقصوهم حقوقهم.

ولكم أن تتأملوا آخر ما قاله نبينا ﷺ وهو على فراش الموت، كما أخرج أبو داود وابن ماجه واللفظ له، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ آخِرُ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ: «الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، وفي لفظ أبي داود: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ (أي: يخولون أمركم ويساعدوكم)، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ (يعني: ما يعجزون عنه ولا يطيقونه)، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا﴾ ختام للآية يدل على أن المعرض عن أوامر الله التي جاءت هنا لا يخلو من صفتي الاختيال والفخر بغير الحق، وهذا الصنف من الناس لم يُقدِّر الله حق قدره، فخرس محبة الله له ورضاه عما يقول ويفعل.

والمختال هو الذي يحمل في نفسه عُجباً وكِبَراً يظهر في مشيته ونظرته وشيء من أفعاله. والفخور هو الذي يتكبر على الناس بقوله، ويفخر عليهم بمدح نفسه، ويرى أنه خير منهم، ولا يشكر الله على نعمه، ولا يتأدب معه كما ينبغي.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٢٧)

لا تبخلوا بأموالكم ولا تحبسوها عن أقاربكم وجيرانكم، ولا تمنعوها الضعفاء من اليتامى والمساكين وملك اليمين، وكونوا عوناً لمن انقطع السبيل به.

أخرج أحمد وأبو داود واللفظ لأحمد، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ (وهو البخل مع شدة الحرص)، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَّعُوا (أي: قطعوا الأرحام)، وَأَمَرَهُمُ بِالْبُخْلِ فَبَخَلُوا، وَأَمَرَهُمُ بِالْفُجُورِ فَفَجَّرُوا (أي: فعلوا الزنا)».

والعجيب من أمر بعض الناس أنهم لا يكتفون بإمساكهم عن الخير، بل يمنعون غيرهم من البذل والعطاء، ويحضونهم على إمساك ما معهم من مال، إما بتخويفهم من الفقر، أو بإثارة العداوة بينهم وبين من سيعطون، أو بتذكيرهم بإساءات قديمة، أو غير ذلك من المكر ليحولوا بينهم وبين أن يبلغوا خيرهم للآخرين.

وَمَنَعَهُمْ هَذَا يَفْعَلُونَهُ لثَلَا يَشُدُّوا عَنْ عَمُومِ النَّاسِ، وليجدوا لهم أعوانًا وأنصارًا على خصالهم القبيحة.

ولعلكم ترون آلامًا يعيشها المسلمون في زماننا في بقاع مختلفة من الأرض، فاحذروا يا أهل القرآن أن يصدكم أحد عن نصرتهم بالمال وبذله لهم، فإن أهل القرآن لهم طريق في حياتهم اختاروه لأنفسهم، وشرح الله صدورهم له، ولن يرضوا بغيره.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَاءَ اتِّهِمُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا حال البخيل الممسك عن الإنفاق، يكتُم المال الذي أعطاه الله له، ولا تكاد تظهر عليه أو على من حوله آثار فضل الله وجوده وكرمه.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ هؤلاء كفروا نعمة الله عليهم، أي: غطوها وستروها ولم يُبدوها، ولم يُؤدُّوا حق الله فيها، فمثلهم أعد الله تعالى لهم عذابًا فيه الإهانة والذلة على سوء صنيعهم.

أخرج الترمذي عن عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ».

قلت: ولعل ختم الآية هنا بتهديد الكافرين لعلتين: الأولى: ما كان في أول الآية من الدعوة إلى عبادة الله وحده، فالكافر هو من أعرض عن ذلك.

والثانية: أن المسلم لا يترك كل هذه الخصال الطيبة التي دعت إليها الآية، بخلاف حال كثير من أهل الكفر الذين لا يلتفتون إلى شيء من الإحسان المأمور به هنا.

ومن أهل العلم من حمل الآية على المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله بإمساكهم عن الإنفاق، ومنع غيرهم منه، ولذلك ختمت الآية ببيان عذاب الكافرين، فإن المنافقين نافقوا في عقيدتهم فأبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ اتِّهِمُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقال سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٣٨)

صنف آخر من الناس لا يبخل بماله ولا يَحْبسه عن حوله، بل يعطي وينفق ويبدل، ولكنه لا يقل مَذَمَّةً عن قبله، مصيبتُه أنه لا يريد وجه الله تعالى بنفقته، ولكنه يبذل ماله قاصداً رِئاء الناس: أي: طالباً مدحهم وثناءهم، ولا يريد بعمله إلا أن يذكره بخير، وأن يتكلموا عنه في مجالسهم وَيُعْظَموه، وأن يصل ببذله إلى حظ من حظوظ الدنيا.

ويا ليت مصيبتُه توقفت عند طلبه مدح الآخرين بنفقته، ولكنه كفر بالله العظيم، ولم يؤمن به إلهاً واحداً رازقاً مُكْرَماً حافظاً، ولم يؤمن كذلك ببعثه ووقوفه للحساب في أرض المحشر، وخلوده في الجنة أو النار.

والآية هنا تصف حال صنف من المنافقين أبطنوا كفرهم بالله العظيم وعداءهم لأهل التوحيد، وأنفقوا أموالهم في أبواب الخير يرجون تربعهم في قلوب الناس وكفى.

ونفقاتهم هذه لا ثواب لهم عليها، ولا يتقبلها الله منهم وإن كان نفعها للفقراء والأيتام كبيراً، ولكن الله يعطيهم بها طيبات في الدنيا، ويرزقهم ما يستحقونه بحسب علمه وحكمته سبحانه. أخرج مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

والآية وإن كانت في معرض الحديث عن المنافقين الذين يبطنون الكفر، إلا أنها تشير إلى مرض يصيب من أنعم الله عليهم بالمال وإن لم يكونوا من المنافقين، مرض خفي لا يطلع عليه إلا العليم الخبير سبحانه، يلبس صاحبه أمام الآخرين في الدنيا ثوب الطيبين أهل العطاء والكرم والجود، ولكن ثوبه هذا لا يبقى معه يوم تُبلى السرائر، ويوم يُحْصَل ما في الصدور.

ومن تأمل حال هؤلاء المرائين، وجدهم يعيشون أمراضاً قلبية لا يُستهان بها، ولا يفوتنا إرشادهم ونصحهم في هذا السياق، ولعل إطلاعهم على عيب قلوبهم، واستشعارهم باقترابهم من دائرة الخطر على أعمالهم هو أول خطوات انتفاعهم بهذه الآية.

أيها المرائي: حاول أن تتخلص من غرورك بنفسك، ومن حرصها على الخيلاء والكبر أمام الآخرين، ولا تراقب نظراتهم واهتمامهم بك وتعظيمهم لك، ولا تتحرر في إنفاقك تلك المواطن التي تحصل فيها على مدح الآخرين وثنائهم، ولا تكن مُمسكًا وقنورًا على أهلك وعيالك ووسع عليهم كما وسعت على غيرهم، ولا تذكر إنفاقك أمام الآخرين إلا لمصلحة، وتذكر أن المال مأل الله وأنت مستخلف فيه.

أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أول من يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة أصناف، وعند الترمذي: أول من تسعر بهم النار، فذكر ﷺ المجاهد الذي قاتل ليقول الناس عنه شجاع، وذكر العالم أو القارئ الذي كان يطلب ثناءهم عليه، ثم قال: «وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمُهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ (يعني: كريم)، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ ما أصعبه من ختام للآية، يصف حال الغافلين، ويقرع قلوب اللاهين العابثين، ختام يبين لنا سبب إعراض هؤلاء المنافقين عن الإيمان الحق وعن البذل ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى، ويظهر لنا حقيقتهم.

اعلموا أن حقيقة من تعلقت قلوبهم بالدنيا، وعملوا لها كأنها دار قرار، وحسبوا أموالهم عن حقها ومستحقها، ولم تزن الدار الآخرة في أقوالهم وأفعالهم شيئاً، أقول: حقيقتهم أن الشيطان عشعش في قلوبهم وعقولهم، وأغلق عليهم أبواب الخير بسوء صنيعهم، وتسلب عليهم وقارنهم في صباحهم ومساءهم، وصاحبهم على الشر وأعانهم عليه، وبست الصحبة صحبته.

وتعالوا وأنتم تفتيؤون ظلال هذه الآية، تعالوا لننتفع من كلام الله هنا على أتم وجه وخير حال، ألا تظنون معي أن ثمة صنفاً من أبناء المسلمين تسلط الشيطان عليه حتى صرفه عن كثير من أعمال التقوى، وضيق عليه تفكيره حتى أعماه عن طريق الحق والاستقامة، وتلاعب بنيته وقلبها عليه، وحسن له قبيح فعاله، ووضع على أول طريق الغفلة الذي نخشى آخره. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ سَيِّطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

واستطراداً في وعظ الآية لنا: احذروا قرناء السوء من شياطين الإنس والجن الذين يزينون لأصحابهم كل رذيلة، ويصدونهم عن فضائل كثيرة.

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ وَكَانَ اللّٰهُ

بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

يظن أهل الكفر والإمساك عن النفقات أن إيمانهم بالله والتزامهم أحكام الشريعة سيحول بينهم وبين طيب العيش ولذته، وسيضيّق عليهم آفاق أفراحهم وسعادتهم، وسيفقدهم ما حصّلوه من متاع الدنيا، ونسوا أو تناسوا ما رأوه بأم أعينهم من ضرر الذنوب وما فعلته بأهلها، ونسوا أو تناسوا أن قلوبهم وأحوالهم بيد خالقهم، وأن سعة رزقهم وروعة عيشهم لا تكون إلا من عند من بيده النفع والضرر، والمنع والعطاء سبحانه لا إله إلا هو.

سبحانه من إله عظيم يخاطبهم ويفتح لهم آفاق التفكير السليم الذي يطير بهم إلى ما يرجونه من حياتهم، القرآن يصّرهم ويوبخهم قائلاً: والله لن تفوتكم منفعة بئذلكم من أجل الله ولن تلحقكم مضرة، ولو أنكم أبصرتهم ما ينتظركم من الحياة الطيبة وسعادة الدارين لما استبدلتم الذي هو أدنى بالذي هو خير، ما أجهلكم!

وفي الآية نداء لنا: وماذا علينا لو صدّقنا الله في توبتنا وتركنا ذنوباً مُحَبَّبَةً إلى قلوبنا، وماذا علينا لو تركنا العمل في أماكن الحرام واستبدلناها بالحلال وإن كان الرزق أقل في الظاهر، وماذا علينا لو تجاوزنا إساءة من حولنا لنا وأقبلنا على صلتهم حتى يرضى ربنا عنا، وماذا علينا لو هجرنا النوم في جوف الليل ووقت صلاة الفجر وأقبلنا على زاد الصالحين وسر سعادتهم.

﴿وَكَانَ اللّٰهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ الله ربنا وربهم هو العليم بحالهم وبما يصلحهم، وهو العليم بالصادق منهم فيعينه ويكرمه وَيُلْهِمُهُ العمل الصالح ويشرح صدره، وهو العليم بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنْ بَابِ رَحْمَتِهِ، والله هو المطلع على نيات عباده وأعمال قلوبهم جميعاً.

وختام الآية هذا فيه تهديد لهم، وتذكير بعظم جزائهم على سوء صنيعهم إن لم يتوبوا.

﴿إِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا

عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

واحدة من الآيات التي تُذكّر العباد بعظم فضل الله عليهم، وكذا تُذكّرهم بعدله الذي يبعث في النفس طمأنينة عجيبة، فإن الواحد منا يتقلب في حياته بين ذنوب اقترفها وبين أعمال صالحة أقبل عليها، ويتقلب بين إيذاء أوقعه على غيره وآخر وقع عليه، ومثل هذه النصوص تعيننا على

تخفيف الحمل والحرص على مراقبة ألسنتنا وأبصارنا وأسماعنا لئلا تؤذي الغير، وتعيننا على المسارعة في الخيرات والأعمال الطيبة.

في أرض المحشر ثمة مواقف يبحث الواحد فيها عن حسنة، وقد يأخذها من أحب الناس إليه إذا ظلمه في الدنيا، فيأتي في ذلك الموقف ويطلب حقه منه، يأخذ شيئاً من حسناته أو يعطيه شيئاً من سيئاته، ولقد وصف القرآن العظيم شيئاً من أهوال هذا اليوم ليكون الناس أحرص على حفظ جوارحهم من الظلم.

في هذا اليوم: يفر الواحد من أقرب الناس إليه: أمه وأبيه وزوجه وعياله، وتنقطع الأنساب بينهم فيه، وليس للواحد منا منجاة إلا بفضل الله تعالى وعمله المتقبل.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هذا من كمال عدل الله تعالى وتنزهه عن النقائص: كل من أقبل على عمل صالح بنية صالحة وفاء الله أجره وأعطاه مثوبته، وكل من فعل ذنباً وإن كان حقيراً وصغيراً، كان مستحقاً لأن يحاسبه الله عليه فإن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، أي: مقدارها، والذرة هي أصغر جزء في عنصر ما، وقدرها ضئيل جداً، وتطلق على صغار النمل، وقد تعدد ضرب المثل بها لتناهيها في الصغر وعظم بلاغتها في الدلالة على المطلوب.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ إِذْ يَقُولُ النَّاسُ أَشْنَا نَافِلًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. [الزلزلة ٦-٨].

وحتى نفقه فضل الله تعالى على الخلق وعدله فيهم وأنه لا يظلم مثقال ذرة، تأملوا الحديث الذي أخبر فيه ﷺ عن إخراج الله تعالى من النار لكل من كان يحمل في قلبه خيراً وإن كان يسيراً مقدار ذرة، فقد أخرج البخاري ومسلم في حديث الشفاعة الطويل أن أهل الجنة يطلبون الشفاعة لإخوانهم من أهل النار الذين كانوا يشاركونهم في عدد من الأعمال الصالحة في الدنيا، فحَرَّمُ الله صورهم على النار ويقول لهم: «اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ عَرَفُوا» قَالَ رَاوِي الْحَدِيثِ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِي: «فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَأَقْرَأُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا﴾».

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾ هذه خاصة لمن مات على التوحيد مؤمناً بالله العظيم وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان من أهل العمل الصالح ممن صلى وصام وتصدق وأمر بالخير ونهى عن الشر، فمثله يضاعف الله تعالى له عمله بحسب حال هذا العمل ونفعه، وبحسب حال صاحبه إخلاصاً ومحبة وكمالاً وتعظيماً.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، فيما يروى عن ربه عز وجل قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضَعُفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

أما من مات كافراً بالله العظيم ولم يؤمن بما أمر الله به، فإن حسناته تُعَجَّلَ له في الدنيا، رزقاً وطعاماً وشراباً وصحة وولداً، أما في الآخرة فلا يدخل جنة الله تعالى حتى يلج الجمل في سم الخياط. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاجِجَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وأخرج مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا».

وقد يخفف الله تعالى عنه من عذابه بقدر ما عمل من الصالحات، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعَتْ أَبَا طَالِبٍ شَيْءٌ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ (يحميك) وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ (أي: عذاب قليل، والعرب تسمي الماء القليل ضحضاحاً)، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كَرَّمُ الله لا يَحُدُّه شَيْءٌ، وفضله لا ينقطع عن عباده الصالحين، وصاحب العمل الصالح ينتظره أجر عظيم بعد أن يضاعف الله له حسناته، والأجر العظيم يكون بإعطائه عطاءً كبيراً لا في مقابلة حسناته فقط، بل تفضلاً منه وتكرماً، ويكون في جنات تجري من تحتها الأنهار، فيها من كل ما لذ وطاب، وفيها قرة عين برضوان الله عليهم ورضاهم عما أعده لهم.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١)

هذه الآية أبكت نبينا ﷺ أصحابه، يوم طلب من ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يقرأ عليه القرآن، فاختار سورة النساء وجعل يقرأ حتى بلغ هذا الموضع من السورة، أسوق إليكم الرواية كما أخرجها البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْتُ النَّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ.

وكان النبي ﷺ يبكائه هذا تمثل أهوال القيامة هنا، واستحضر عظمة الرَّبِّ جل وعلا، واستحضر إكرام الله تعالى له وتشريفه بهذه الشهادة في هذا المشهد العظيم، واستحضر تلك اللحظات التي يشهد فيها على أمته، فبكى رحمةً بهم وشفقةً عليهم لعلمه بما قد كان من بعضهم من زلل وخطأ وتقصير وتفريط قد يؤدي إلى تعذيبهم.

فالآية هنا تصف مشهداً من مشاهد أرض الحشر والحساب، وما أكثرها وما أشدها، وفيه أن الله تعالى يأتي من كل أمة بشهيد، وهذا الشهيد هو النبي الذي أرسله الله تعالى فيهم، يشهد على أنه بلغ رسالته لأمرته ويشهد على ما كان منها، هل استجابت لأمر الله فيها أم أنكرت وكذبت وجحدت.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ثم يأتي الله تعالى بنبينا ﷺ ليشهد على تبليغه رسالته لأمرته التي أحبها وأحبته، وليشهد لمن صدق وسارع للدخول في دعوته والعمل لها، وليشهد على أهل الشرك وعلى هؤلاء المرائين من أهل النفاق بما فعلوا، ممن كان خَصْماً لدعوته وعبئاً عليها؛ ما أصعبها من شهادة.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. أقول: تعالوا ننتفع من هذا المشهد ونستعد له بالحرص على سنته واتباع هديه في عبوديته ﷺ.

ولعل قائلًا يقول: ولم جاءت الآية هنا بصيغة الاستفهام؟ والجواب أن الاستفهام هنا استفهام استنكاري يحمل تقريبًا لهم وتوبيخًا، بمعنى أن الآية تنكر على أهل الكفر كفرهم بذلك اليوم الذي يشهد فيه أنبياء الله تعالى عليهم، وتدعوهم إلى التفكير وتُخَوِّفهم لعلمهم يرشدون.

يعني: يا أهل الكفر: كيف سيكون حالكم في تلك اللحظات، وكم ستكون مهانتكم وذلتكم وحقارتكم بين الخلق، أين تكبرُكم وأين فخرُكم، هل نفعمكم كتمان فضل الله عليكم وبخلُكم به، وهل نفعتكم حظوتكم بين من كنتم تفعلون الخير تقريبًا إليهم، أفيقوا قبل أن تأتيكم تلك اللحظة التي ذكرتها الآية الآتية.

﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾

هذا حالهم في تلك اللحظات، يَتَمَنَّوْنَ عند رؤية هذه الأحوال لَوْ انْشَقَّتْ الأرض وَبَلَغَتْهُمْ وكانوا ترابًا فيها، وكأنني بهم يتذكرون استهزاءهم بدين الله تعالى وأنبيائه في الدنيا، ويستحضرون مكرهم بالليل والنهار ليصدُّوا عن دعوة الحق وسبيل الهدى، ويرون صورتهم التي كانوا عليها من إيذاء أولياء الله، والبطش بالدعاة إلى تعبيد الناس لرب العظيم.

في أرض المحشر أحاط بهم الخزي، وفُضِّحوا على رؤوس الأشهاد، وعانوا عاقبة كفرهم وعصيانهم لرسول الله. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

وهذا بخلاف حال المؤمنين المخلصين الباذلين الذين يطهرون فرحًا بشهادة رسول الله لهم، ويسعدون بانتفاعهم بتلك الشهادة، ويرتقبون ما ينتظرهم من إكرام الله لهم وما أعزّه من إكرام. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: يعترفون بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله ومحاربة دين الله وحملته، ولا يكتُمون من ذلك شيئًا.

وهذا الإقرار إنما يكون آخر أمرهم في أرض المحشر، وبيان ذلك أنهم يسعون أولاً إلى إنكار شركهم عندما يَرَوُا عذاب الله قد اقترَب، ويزعمون أنهم مؤمنون لعل عفو الله يصيبيهم ولعلمهم يتملّصون من العقاب، ولعل الله يدخلهم كما أدخل غيرهم من أهل النار إلى الجنة ممن كان من أهل التوحيد، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا

كَمَا مُشْرِكِينَ ﴿[الأنعام: ٢٣]﴾، ثم يختم الله على أفواههم فتكلم أيديهم بما اقترفت، وتشهد أرجلهم بما كسبت، وتُستنطق جوارحهم فتشهد على كفرهم ولا يكتُمون الله حديثًا، فعندئذ يودون لو تُسَوَّى بهم الأرض.

فعبارة ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿هنا، أي: لن تكتم جوارحهم شيئًا من أعمالهم، بل ستشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وتخبرنا بكل ما عملوا بعد الختم على أفواههم الكاذبة. قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿٤٣﴾

الآيات التي قبل هذه الآية والآيات التي بعدها تكلمت عن أهل النفاق والكفر وذكرت شيئًا من خصالهم، وقد يتساءل المتأمل عن حكمة بيان شيء من فقه الصلاة وفقه المساجد في هذا السياق، ومن أعمل نظره وفكره وجد عددًا من الدلالات في ذلك، فمنها أن الصلاة علامة فارقة بين أهل الإسلام وأهل الكفر، وأن إحسان الوقوف بين يدي الرب علامة على صدق العبد في عبوديته، وأن مراعاة أوامر الشرع ونواهيه في ذلك هو سبيل المسلم في تحقيق مراد الله عز وجل من خلقه واستخلافه.

بل ذكر أهل العلم أن وقوع الآية في هذا السياق فيه إشارة إلى أهمية الاستعانة بالصلاة في مكابدة أهل الكفر ومدافعتهم، وكم من آية جاءت تأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة للقيام بأمور الدين وتكاليفه.

الآية فيها نداء لأهل الإيمان الذين تتوق قلوبهم وأرواحهم إلى أوامر الله تعالى ليسارعوا فيها، نداء يخص شعيرة من شعائر دينهم هي أول ما يسأل عنها المرء يوم القيامة بين يدي الله، وهي شعيرة لا يليق بمسلم تركها أو التهاون فيها، وهي الفريضة الوحيدة التي فرضها ربنا في رحلة المعراج منه مباشرة بدون واسطة الوحي، وقد أعطاها الشرع مساحة واسعة من نصوصه بينت كل صغيرة وكبيرة تتعلق بها.

هذه الآية تمثل مرحلة من المراحل التي مر بها تحريم الخمر في الإسلام، وبيان هذه المراحل وتفصيلها جاء فيما أخرجه أحمد وغيره من أصحاب السنن، عن أبي هريرة وعمر بن الخطاب، أَنَّ النَّبِيَّ عَنِ الْخَمْرِ وَقَعَ عَلَى مَرَاكِلِ ثَلَاثِ عَنَائِيٍّ بِالنَّاسِ وَرَفَقًا بِهِمْ: الْأُولَى: حِينَ نَزَلَتْ آيَةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ نَهْيًا غَيْرَ جَازِمٍ، فَتَرَكَ شُرْبَ الْخَمْرِ نَاسٌ كَانُوا أَشَدَّ تَقْوَى، فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا. ثُمَّ نَزَلَتْ الْآيَةُ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فَتَجَنَّبَ الْمُسْلِمُونَ شُرْبَهَا فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي يُطَنُّ بِقَاءِ السُّكْرِ مِنْهَا إِلَى وَقْتِ الصَّلَاةِ. فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا. ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [المائدة: ٩٠]، فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا.

وجاء في رواية عند أحمد وأبي داود أنه لما نزلت آية النساء كَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُفِيَتِ الصَّلَاةُ يُنَادِي: «أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكَرَانٌ».

فالآية الأولى لم تجزِمْ بالتحريم، ولكنها عرّضت به وألمحت إليه، ثم جاءت الآية التي معنا هنا تنهى عن قربان الصلاة حال حصول الإسكار الذي هو علة تحريم الخمر، ثم كانت آية سورة المائدة التي جازمت بالتحريم واجتنب أهل الإسلام شربها بعدها.

وفي تحريم قرب الصلاة حال السكر دلالة على مكانة التدبر في الصلاة والخشوع فيها، ومعلوم لديكم أن الخمر يذهب العقل، ويستره عن التفكير السليم، ويحجبه عما ينفعه، وقد جاء النهي عنه في حال الصلاة لأن المصلي يقف موقفًا عظيمًا يكون فيه أحوج ما يكون لقبول عمله، فلعله يأتي ليذكر الله فيُسَرِّقَ ويُعَرِّبَ في حديثه ولا يدري ما يقول.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه أبو داود والترمذي واللفظ للترمذي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأْتُ: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢] وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ». قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

وقد بلغ حرص الشريعة على حضور القلب في الصلاة، والتفكير في أقوالها وأفعالها أن أرشد مَنْ غلبه النعاس في الصلاة إلى أن يرجع ويرقد ولا يصلي، ولا يكلف نفسه فوق طاقتها، وكذا في حضرة الطعام أو وهو يدافع الأخبثين (البول والغائط)، وذلك بشرط ألا يُخرج الصلاة عن وقتها إذا كانت فريضة.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ، لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ».

وأخرج مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يَدْفَعُهُ الْأَخْبَثَانِ».

والتوجيه في الآية هنا يلزم منه أن يجتنبوا شرب الخمر قبل حضورهم للصلوات لئلا يصلوا إلى حالة السكر التي لا يدري صاحبها ما يقول وما يفعل، ولكم أن تتأملوا كيف ضيقت عليهم الآية شرب الخمر، فالوقت بين صلوات الظهر والعصر والمغرب قصير لا يكاد الواحد منهم يفيق من سكره إذا شربها فكانوا يجتنبونها في هذه الأوقات، وكذلك يصعب شربها بعد الفجر لحرصهم على خروجهم إلى أعمالهم وتجارتهن، فلم يبق بعد هذه الآية إلا وقت العشاء.

ولقائل أن يقول هنا: لماذا كل هذا التدرج في تحريم الخمر، ولم لم يأت نص قاطع من أول تشريع؟ والجواب أن الشرع اعتنى أولاً بغرس الإيمان في القلوب ليكون أقوى من سلطان الهوى، ومعلوم لديكم أن أهل الخمر لهم تعلق بها لا يخفى، ولها تأثير على عقولهم وطرائق تفكيرهم يدركه كل من رأى حالهم، ولا ينتصر على تعلقهم بأم الخبائث إلا نورٌ يقذفه الله في القلب، وتعظيمُ للرَّبِّ يسكن الجوارح، واستحضارُ للجنة والنار ونعيم البرزخ وعذابه، وهذا هو الإيمان الذي غرسه ﷺ في نفوس أصحابه، وهذا الإيمان هو خير زاد لتتهياً النفوس إلى ترك مألوفاتها، وتقبل على طاعة خالقها وسيدها ومولاها، وهذا ما يفسر لكم سرعة استجابة أصحاب النبي ﷺ ومساقتهم ومبادرتهم إلى امتثال أمر الله باجتنابها لما نزل تحريمها في آية سورة المائدة.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ سَاقِي الْقَوْمِ يَوْمَ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ، وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الْفَضِيخُ: الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ (البسر مرتبة من مراتب نمو ثمرة النخل، يعني كان خمرهم من خلط التمر بالبسر، ويصب عليه الماء ويتركه حتى يغلي)، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي، فَقَالَ: اخْرُجْ فَاظْطُرْ، فَخَرَجْتُ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي: «أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ»، قَالَ: فَجَرْتُ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَاهْرِقْهَا، فَهَرَقْتُهَا (فأرقتها وصببتها).

﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَابِرٌ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ استطرد في بيان حكم شرعي متعلق بأحب بقاع الأرض إلى الله تعالى، المساجد التي هي محل لأداء الصلاة، وقد حمل أهل العلم قول الله هنا على المساجد لأنه ليس في الصلاة عبور سبيل، وإنما يكون في موضع الصلاة وهو المسجد.

أيها المؤمنون: لا تقربوا المساجد وأنتم جنب، ولا تجلسوا فيها للاعتكاف وغيره حال الجنابة، فإن في هذا تعظيماً لبيوت الله تعالى وللصلاة لا يخفى عليكم، إلا أن تكونوا مارّين بالمسجد من باب إلى باب فلا حرج عليكم.

والجنابة وصفٌ يُطلق على من جامع أو أنزل المنى، وهي حدث أكبر لا يكفي فيه الوضوء، بل يجب فيه تعميم الماء على البدن بالاغتسال مع النية، أو التيمم عند قيام أسبابه.

والجنب من الرجال والنساء تحرم عليه الصلاة، ويحرم عليه الطواف بالكعبة، وكذا مس المصحف، كما هو الحال في حكم المرأة الحائض أو النفساء.

ويحرم على الجنب عند جماهير الفقهاء قراءة القرآن، وأجاز بعض أهل العلم ذلك لعدم وجود دليل صحيح صريح في المسألة، كما هو الحال أيضاً في مسألة الحائض والنفساء.

والجنب يباح له الذَّكْرُ وَالتَّسْبِيحُ وَالدُّعَاءُ، ويستحب له أن يتوضأ قبل نومه إذا كان على جنابة، وإذا دخل الفجر عليه وهو جنب فصيامه صحيح، ولكنه إذا جامع أو أنزل المنى وهو صائم في نهار رمضان فسد صومه ولزمه القضاء والكفارة على تفصيل في ذلك عند أهل العلم.

وفي فقه الآية هنا: ذهب أصحاب المذاهب الأربعة إلى حرمة مكث الجنب في المسجد وجلسه فيه، واستثنى الحنابلة من ذلك ما لو توضأ الجنب ودخل المسجد ومكث فيه فإنه لا يحرم، واستدلوا على ذلك بآثار جاءت عن الصحابة.

واختلفوا في حكم مروره به، فمنعه الحنفية والمالكية، وأباحه الشافعية والحنابلة سواء كان المرور لحاجة أو لغير حاجة.

ولقائل أن يقول: ولم منع أئمة الحنفية والمالكية مرور الجنب بالمسجد مع أن الآية هنا أباحت؟ والجواب أنهم لم يفهموا الآية على الوجه الذي سبق، ولكنهم حملوا النهي هنا على الصلاة ولم يحملوه على المسجد، وحملوا عابري السبيل هنا على المسافرين مستدلين بروايات عن الصحابة بتفسيرهم هذا، فيكون معنى الآية عندهم: إذا كنتم مسافرين وأصابكم جنابة، وجاء وقت الصلاة فتيمموا وصلوا حتى تجدوا الماء وتغتسلوا، وبطريقة أخرى: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا إذا كنتم مسافرين فتيمموا وصلوا.

وقد استدل الأحناف والمالكية على حرمة المكث في المسجد والمرور فيه، بحديث ضعفه أكثر أهل العلم وحسنه بعضهم، وهو حديث أخرجه أبو داود وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُجُوهُ بَيُوتِ أَصْحَابِهِ شَارِعَةً فِي الْمَسْجِدِ (يعني أبوابها إلى

المسجد يمرون منه إذا خرجوا)، فَقَالَ: «وَجَّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَمْ يَصْنَعْ الْقَوْمُ شَيْئًا رَجَاءً أَنْ تَنْزَلَ فِيهِمْ رُخْصَةٌ (يعني: رجاء أن يؤذن لهم بإبقائها)، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ بَعْدُ فَقَالَ: «وَجَّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ، فَإِنِّي لَا أَحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا جُنُبٍ».

وفي فقه الحنفية: إذا احتاج الجنب المقيم إلى أن يمر بالمسجد فليتييم وليمر به.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ * معلوم لديكم أن شرعنا قام على مراعاة أحوال الناس والتيسير عليهم حال وجود المشقة المعتبرة شرعاً، وقام على تعليمهم ما يلزمهم في عباداتهم لتكون على الوجه اللائق بها، ولتحقق طاعتهم لله تعالى كما يحب سبحانه ويرضى.

الصلاة والطواف حول الكعبة ومس المصحف لا يصح فعلها من المسلم إلا إذا كان على طهارة كاملة، أي: إلا إذا كان رافعاً للحدث الأكبر والأصغر، وأهل العلم كافة على أن الماء يرفع الحدث الأكبر بالاغتسال به، ويرفع الحدث الأصغر بالوضوء به.

ولكن قد يعجز الواحد منا عن استعمال الماء، إما لأنه مفقود وغير موجود، أو أنه موجود ولكن وُجد مرض أو سبب آخر يصعب معه استعمال الماء أو الوصول إليه.

هنا جاءت الآية ببيان شيء من الأعذار التي يباح معها التيمم لأداء العبادة التي تُشترط لها الطهارة، بل جاءت بذكر كيفية التيمم الشرعي المُجْزئ، وإليك البيان:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ﴾ * أي: وإن كنتم مرضى وكان استعمال الماء في الوضوء أو في الاغتسال يسبب لكم ضرراً بيئاً من هلاك وموت، أو هلاك عضو، أو زيادة المرض، أو تأخير الشفاء، وهذه الأمور بالنسبة للمريض تعرف بإخبار طبيب حاذق مؤتمن أو قد يعرفها المريض نفسه، أقول: في مثل هذه الحالة شرعت الآية لهذا المريض أن يتيمم بالصعيد الطيب بدلاً عن الماء.

وَذَهَبَ الْحَنَفِيُّ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَلَا يَجِدُ مَنْ يَسْعِينُ بِهِ وَيُسَاعِدُهُ فِي إِحْضَارِ الْمَاءِ وَالْوُضُوءِ بِهِ أَوْ الْاِغْتِسَالِ، يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي وَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ لِلصَّلَاةِ إِنْ وَجَدَ مِنْ يَعِينُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

وألحق جماهير الفقهاء في الحكم من غلب على ظنه حصول ضرر لا يطاق بسبب برودة الماء الشديدة التي يصعب استعمال الماء معها وليس ثمة طريق إلى تسخينه، على مزيد تفصيل في شروط ذلك موفور في كتب أهل العلم والفقه.

أخرج أحمد وأبو داود عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: فَاحْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي صَلَاةَ الصُّبْحِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، وَذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فَتَيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.

ومشروعية التيمم هنا حال فقد الماء تعطينا مزيد إشارة إلى قدر الصلاة في الإسلام وعدم سقوطها عن المريض، وتعطينا عظم أمر الطهارة في الإسلام وأنها من الإيمان الذي يرفع صاحبه الدرجات، وتعطينا مزيد فهم كذلك فيما يخص النفس الإنسانية وكيف أن الشرع حرص عليها وأعطاه ما يخصها من أحكام حال مرضها، فأحيائها جملة وتفصيلاً.

أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد حسن، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَأَغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ (أي: شفاء الحيرة في الفتوى والجهل فيها أن يسأل العالم)، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعِصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ».

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: وإن كنتم مسافرين ولم يبق معكم ماء للوضوء أو الاغتسال، أو كان معكم ماء ولكنه قليل لا يكفي للطهارة، أو أنكم تحتاجونه للشرب والطعام، ففي مثل هذا الحال: تيمموا بالصعيد الطيب بدلاً عن الماء.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي: إذا قضيت حاجتكم وخرج منكم شيء من أحد السبيلين: القبل والدبر، ولم تجدوا ماء فتيمموا.

والغائط هو الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ، وَيُسْتَعْمَلُ عَرَفًا فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَتَغَوَّطُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَيَقْضِي حَاجَتَهُ.

وقضاء الحاجة حدث أصغر يجب على صاحبه الوضوء أو التيمم عند عدم الماء إذا أراد الصلاة أو الطواف أو مس المصحف، ويقاس على قضاء الحاجة في الحكم كل حدث أصغر كالنوم والإغماء، ومس العورة عند بعض العلماء، وغير ذلك.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: إذا جامعتم أزواجكم ولم تجدوا ماءً للاغتسال للصلاة ونحوها فتميموا، فيكون معنى الملامسة هنا هو الجماع وليس لمس المرأة.

وهذا القول ذهب إليه عدد من الصحابة والتابعين، وأخذ به الحنفية وقالوا: إن الوضوء لا ينقض بلمس المرأة إلا إذا حصل إنزال المذي، فينقض الوضوء لنزول المذي لا لمجرد اللمس.

واستدلوا كذلك لمذهبهم بعدم نقض الوضوء بلمس المرأة، بما أخرجه الترمذي وابن ماجه عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ خَالَتِهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «قَبَّلَ بَعْضَ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَتَوَضَّأْ» قُلْتُ (أي: عروة): مَا هِيَ إِلَّا أَنْتِ «فَضَحِكَتْ».

واستدلوا كذلك بما أخرجه مسلم عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَّاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

وجه الدلالة أنها لمستته وهو في الصلاة، فلو كان لمسها ينقض الوضوء لما لمستته ولما أتم صلاته.

ومما استدلوا به آيات جاء فيها لفظ المس وكان دالاً على الجماع بين الزوجين، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقول الله تعالى حِكَايَةً عَنْ مَرْيَمَ: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وغير ذلك من الأدلة.

أما جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة، فقد ذهبوا إلى القول الآخر في تفسير الآية، والذي جاء أيضاً مروياً عن عدد من الصحابة والتابعين، وهو أن الملامسة هنا تعني لمس المرأة وليس الجماع، وقالوا في فهمهم لهذه الآية: لمس المرأة من نواقض الوضوء لأنه جاء في الآية معطوفاً على إتيان الغائط وهو حدث ناقض بالاتفاق.

واستدلوا كذلك على ما ذهبوا إليه بقراءة من القراءات الصحيحة المتواترة للآية، جاء فيها: ﴿أَوْ لَمَسْتُمْ﴾ وليس ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾، وَاللَّمْسُ يُطْلَقُ فِي الشَّرْعِ عَلَى الْجَسِّ بِالْيَدِ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧].

ثم إن جمهور الفقهاء القائلين بالنقض اختلفوا في بعض تفاصيل ذلك، فالمالكية والحنابلة ذهبوا إلى أن اللمس ناقض للوضوء إِنْ قَصَدَ التَّلَدُّدَ بِلَمْسِهِ ولو لم يحصل إنزال، أما إذا لم يكن بتلذذ وشهوة فلا ينقض، وقد جمعوا بذلك بين الآية التي معنا والحديث الذي استدل به الحنفية.

أما الشافعية فإذا كانت المرأة ممن يُشْتَهَى نَقَضَ الوضوء بلمسها من غير حائل، سواء قصد اللذة أو لم يقصدها، فينقض الوضوء بلمس الزوجة ولمس كل امرأة يجوز له الزواج منها، بخلاف ما لو لمس امرأة ليست محلاً للشهوة ولا تشتهى عند ذوي الطباع السليمة كالأخت والأم والبنت والعمة والخالة والمحرمات برضاع أو مصاهرة، فلمسهن لا ينقض الوضوء. والحديث الذي استدل به الحنفية ضعيف عندهم لا تقوم به حجة.

قال الإمام الطبري: «وَأَوَّلَى الْقَوَائِنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: عَنِ اللَّهِ يَقُولِهِ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الْجَمَاعَ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ مَعَانِي اللَّمْسِ».

﴿فَلَمْ تَحْدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَأَمَسَ حُجْرَ بُرُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ إذا أحدث أحدكم حدثاً أصغر أو أكبر كما في الحالات المذكورة في الآية فليطلب الماء وليتوضأ أو يغتسل لأداء ما تشترط له الطهارة، فإن لم يجد الماء بعد بذل الجهد المعتبر في تحصيله فليتميم وليقصد الصعيد وليطلبه، وليمسح به وجهه ويديه.

وَالصَّعِيدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يَطْلُقُ عَلَى التُّرَابِ الَّذِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَيَطْلُقُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ.

والصعيد لا بد أن يكون طيباً، أي: طاهراً من النجاسة والقذر والوسخ. أخرج البخاري ومسلم عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنِ الْخَزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا مُعْتَزِلًا لَمْ يُصَلِّ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ فِي الْقَوْمِ؟» فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ».

وطلب الماء والسعي في تحصيله إنما هو للمسافر ولمن جاء الغائط ولمن لامس النساء، أما المريض فلا يفعل ذلك لأن عذره قائم مع وجود الماء ومع عدمه.

بينت الآية هنا بم نعيم وكيف نعيم، وبيان ذلك مع عدد من الأحكام والمسائل المهمة في التيمم أذكرها فيما يأتي:

١ - من اللطائف التي يجدر ذكرها في هذا المقام لطيفة تتعلق بسبب نزول آية التيمم التي في سورة المائدة، وهي إحدى آيتين في كتاب الله تعالى تحدثنا عن التيمم، والثانية هذه التي معنا.

وسبب نزولها جاء فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ (اسم مكان) انْقَطَعَ عَقْدُ لِي (يعني: وقع مني وضاع، وقد جاء في رواية أخرى أن هذا العقد استعارته من أختها أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)، «فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النِّمَاسِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيَسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيَسَ مَعَهُمْ مَاءٌ»، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا: أَلَا تَرَى إِلَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟ «أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيَسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيَسَ مَعَهُمْ مَاءٌ»، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعُ رَأْسِهِ عَلَى فِخْذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ وَلَيَسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيَسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، قَالَتْ فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فِخْذِي، فَتَأَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَضْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التِّيمَمِ فَتِيَمَّمُوا». فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: «مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ». وفي رواية عند البخاري: «فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ لِعَائِشَةَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ بِكَ أَمْرٌ تَكْرِهِيهِ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لِكَ وَلِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْرًا».

٢- ومن اللطائف النفيسة كذلك، أن التيمم من الأحكام التي اختص الله تعالى بها هذه الأمة، فلم تكن الأرض آلة طهارة لأحد من الأمم قبلنا. دَلَّ على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ (والمقصود: غزوة تبوك)، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» الحديث.

٣- آلة التيمم كما نصت الآية الكريمة هي الصعيد، وأهل العلم في ضبط المراد من الصعيد هنا على أقوال، لا تخرج في مجملها عن قولين اثنين وإن كان في المذاهب تفصيلات نفيسة في ما يجوز التيمم به وما لا يجوز. أما القولان فهما:

القول الأول: الصعيد هو كل ما صَعَدَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ التُّرَابُ، وَالرَّمْلُ، وَالشَّجَرُ، وَالْحَجَرُ، وَالنَّبَاتُ، وَهُوَ قَوْلُ المالكية.

وعند أبي حنيفة: يتيمم بكل ما على وجه الأرض من جنس الأرض، كالتراب والرمل والحجر، وَيَجُوزُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مَا دَامَتْ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَمْ يُصْنَعْ مِنْهَا شَيْءٌ، أما بعد الصناعة فلا يجوز.

القول الثاني: لَا يَجُوزُ التِّيمُّ إِلَّا بِتُّرَابٍ طَاهِرٍ ذِي غُبَارٍ يَلْتَقِي بِالْيَدِ، وهذا هو الصعيد المقصود من الآية الكريمة، وهو ما ذهب إليه الشافعية والحنابلة، وَأَصَافَ الشَّافِعِيُّ إِلَى التُّرَابِ الرَّمْلَ الَّذِي فِيهِ غُبَارٌ.

٤- أعمال التيمم التي لا يصح التيمم بدونها: النية، ومسح الوجه، ومسح اليدين، والترتيب في ذلك عند أئمة الشافعية، وكذا عند أئمة الحنابلة إذا كان التيمم عن حدث أصغر، والترتيب أن يمسح الوجه أولاً ثم اليدين.

٥- الواجب في التيمم عند أئمة الحنفية والشافعية أن يكون مسح اليدين إلى المرفقين على وجه الاستيعاب، بخلاف ما ذهب إليه المالكية والحنابلة من وجوب مسح الكفين فقط، واستحباب مسح ما بعدهما إلى المرفقين، ولكل أدلته في ذلك.

٦- الْمَفْرُوضُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِي التَّيَمُّمِ ضَرْبَتَانِ: ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وَضَرْبَةٌ لِلْيَدَيْنِ، يعني: يضرب على الصعيد ضربة ثم يمسح وجهه، ثم يضرب مرة أخرى ويمسح يديه، أما الْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فتكفي عندهم ضربة واحدة للوجه والكفين، ويستحب أن يكون لكل واحد منهما ضربة مستقلة، ولكل أدلته في ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ختام تطيب به القلوب، يربط القارئ لهذه الآيات بأعظم ما يريه في حياته، ويربط الممثل لأوامر الله في الآية بما يُفرِّح قلبه وتطير به وجدانه، فيبادر للطاعة وحسن العبادة راجياً مغفرة الله تعالى ورحمته التي إن حصلت ما ضر المرء بعدها شيء. اللهم أكرمنا بها.

وختام الآية يربطنا بالغاية التي شرع من أجلها التيمم، عفو من الله وتيسير في العبودية، وتوسعة على من فقد الماء، ومغفرة للذنوب.

وهو ختام يشعر من أخطأ في صلاته حال سكره قبل نزول هذه الآية أن الذنب مغفور، وأن رحمة الله وسِعَتُهُ، وأن فضل الله عظيم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾

سياق قرآني مستمر في بيان فضائح أهل الكفر والنفاق وشدة ضلالهم، وذمهم والإنكار عليهم، وذكر مخالفتهم وعنادهم.

يذكر السياق القرآني حال أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وهم اليهود الذين أنعم الله عليهم بنعمة التوراة، وأعطاهم حظاً ونصيباً من الكتب السماوية التي أنزلها على الأقسام والأمم، وأرسل إليهم رسلاً بمعجزات لا يسعهم معها إلا أن يُخلصوا دينهم لله، لكنهم أعرضوا عما أنزله الله،

وتركوا نصيبهم من العلم الموفور في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، واشتروا الضلالة بالهدى، أي: اختاروا طريق الغواية والعقوق والتكذيب وقتل الأنبياء، وكتمان صدق محمد ﷺ، وأحبوا ذلك ورضوا به، وتركوا طريق الرشد والصلاح والاستسلام لأمر خالفهم، تركوا ذلك من أجل حطام الدنيا وشهواتها الفانية.

ويا ليتهم توقفوا عند ذلك، ولكنهم قوم تغلغل الشرُّ إلى قلوبهم وأصبح شريكهم في أفعالهم وأقوالهم، حتى أرادوا أن نضلَّ السبيل معهم، وترك ديننا الذي اختاره الله لنا واصطفانا له، ونشتري بأحكام شريعتنا ثمنًا قليلًا كما فعلوا، وترك طريق سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ من أجل دنياهم لا دنيانا، وقد بذلوا من أجل ذلك الغالي والنفيس، وتفننوا في مكائدهم وحيلهم ليصدوا المسلمين الأوائل عن طريقهم ويردُّوهم عن دينهم.

ولا زالوا حتى هذا الزمن متربصين بأهل الإسلام، باذلين أموالهم وأعمارهم للمكر بهم وخداعهم وإسقاطهم، ساعين في تفريقهم والسيطرة على خيرات أرضهم وطاقاتهم. قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وقبل ختام تفسير الآية أذكر نفائس كلمة ﴿نَصِيبًا﴾ التي جاءت في الآية، والتي دلت على أنهم أوتوا نصيبًا فقط من الكتاب ولم يؤتوا الكتاب كله، وهذه النفائس استفرغ أهل العلم وسعهم للوصول إليها، فمن نفائسها أنها تشير إلى أن اليهود لم يحفظوا كتابهم كما حفظ القرآن، فلم يكتبوا منه نسَخًا، ولا حفظوه غيبًا عن ظهر قلب.

ومن نفائسها كذلك، أن امثالهم لما في الكتاب لم يكن كاملاً، بل أخذوا منه ما وافق حظوظهم وأهواءهم، وتركوا ما سواه وأخفوه عن عوامهم، وغيروا وبدلوا ونسوا.

ومن أعمل فكره زيادة وزيادة فيما سلف، يجد أن حال النصاري كحال اليهود في ذلك، فله الحمد أولاً وآخراً على ما اصطفانا له واستعملنا فيه.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ٤٥

أيها المسلمون المؤمنون: أعداؤكم في الأرض تعرفونهم من هدي شريعتكم ونورها، لا من الذين يروغون ووغان الثعالب ويلبسون على الناس أمر دينهم ودنياهم.

اليهود عدو لكم، والله أعلم بهم، وقد حذرکم منهم أيما تحذير، فعاملوهم كما أراد الشرع، وتتبعوا نصوص الوحي فيهم عداوةً وسلمًا.

والله أعلم بأحوالهم وأعمالهم وكيدهم، وهو يكيد لهم، ويعينكم عليهم.

﴿وَكُفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ اطمئنوا يا أهل التوحيد، ولا تخافوا في الله أحدًا، ولا تخافوا شرور أعدائكم من اليهود وغيرهم وإن كان ظاهر حالهم أنهم يملكون قوة المال والسلاح، ولكن امضوا في طريق تحقيق استخلاف الله لكم في أرضه، واعملوا لدينكم ودعوتكم، وأعدوا ما استطعتم من قوة، واجمعوا كلمتكم وتناصروا فيما بينكم، وكفى بالله وليًّا يتولى أمركم، وكفى به معينًا وناصرًا ومؤيدًا، بل كفى به حافظًا سبحانه لا إله إلا هو.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٤٦ ﴿

الذين هادوا هم اليهود الذين اعتنى القرآن كثيرًا بذكر حقيقتهم لئلا يغتر بهم أهل الإيمان، وهم من أعدائنا الذين علم الله حالهم وأطلعنا عليها لنكون على بصيرة من أمرنا.

هؤلاء الذين هادوا منهم طائفة حرفت كلام الله عن مواضعه، وهذه الطائفة يمثلها علماء الضلال منهم، وقد كان لتحريفهم هذا عدة صور: منها أنهم أضاعوا نصوصًا من توراتهم وأخفوها، ومنها تفسيرهم لكلام الله على غير مراده وتأويله تأويلًا باطلاً وافترأهم عليه.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ هذا كلامهم لخير من وطئت قدماه الثرى، لنبينا محمد ﷺ الذي رفع الله له ذكره، وفضله على جميع خلقه، وآتاه من المعجزات ما آتاه، وقذف حبه في قلوب أصحاب الفطر السليمة.

اليهود أهل عناد وكفر وحرب على المؤمنين، وهذا من سوء ما جبلوا عليه، يقولون لمحمد ﷺ الذي علموا يقينًا أنه نبي: سمعنا كتاب الله منك، وعلمنا ما جئت به، وفهمنا ما تدعونا إليه، ولكننا لا نطيعك في دعوتك ولا نؤمن بك وبدينك، بل نعصيك ونعاديك.

﴿وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ هذا من استهزائهم بنبينا وانتقاصهم من قدره، يقولون له: اسمع ما نقول، لا سمعت أو لا أسمعك الله، فكأنهم يدعون عليه صلوات ربي وسلامه عليه.

ومن أهل العلم من قال: قصدهم: اسمع منا ولن نسمعك ما تحب، بل نسمعك ما تكره.

﴿وَرَاعَنَا لِيَا لِسِنِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ أي خبث وحقد يحمله هؤلاء في قلوبهم، يوهمون من حولهم أنهم يحترمون نبينا عليه الصلاة والسلام إذا قالوا: «راعنا»، يعني: يا محمد: أرعنا سمعك وأعطنا إياه وانتبه لما نقول، ولكن حقيقة ما يقصدونه بكلمتهم هذه أنهم يلوون ألسنتهم بها، ويقصدون الطعن في ديننا، ويظهرون فيما بينهم الانتقاص من قدر مقام النبوة ويفرحون بذلك، لأن كلمة «راعنا» في لغتهم فيها فُبحٌ وازدراءٌ بمن خُوطبَ بها، ففي لغتهم: إذا أرادوا أن يُحَمِّقُوا إنسانًا قالوا له: رَاعِنَا، يعني: يا أحمق.

ولعبهم بالألفاظ هذا قديم حديث فقد جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سَلَّمُوا على نبينا ﷺ والمؤمنين يقولون: السَّامُ عليكم. والسَّامُ هو: الموت. ولهذا أُمِرْنَا أَنْ نَرُدَّ عليهم بـ «وعليكم». وإنما يُسْتَجَابُ لَنَا فيهم، ولا يُسْتَجَابُ لهم فينا كما في الحديث.

وفي كلمة «راعنا» جاء التوجيه الرباني لأهل الإيمان ألا يستعملوها لئلا يُعْطُوا لليهود ذريعةً لِسَبِّ نَبِيِّنا ﷺ، فإنهم كانوا يَتَعَدَّرُونَ بأن المسلمين يقولونها، فجاء النَّهْيُ عنها سدًا للذريعة، وفضْحًا لليهود الذين ظنُّوا أن ذلك خَفِيٌّ على غيرهم، وأنَّ سِرَّهُمْ لَن يُعْرَفَ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وهذا فيه توجيهٌ للمسلمين عَبْرَ كُلِّ الأزمان، بأن يُدْرِكُوا قِيَمَةَ الألفاظِ والمباني، وأنها قوالبُ المعاني، فلا يتساهلوا بنقل مصطلحات أهل الكُفْرِ وتقليديهم فيها دونَ تمحيصها وبيان ما فيها، وقد كفَّاهم الشَّرْعُ مُؤَنَّةَ الألفاظِ، حتَّى أَعْنَاهُمْ بها.

ولا تتعجبوا من كثرة فضحهم في القرآن، ولا تستغربوا من تعدد أساليب كتاب الله تعالى في تجلية حالهم وبيانه، فإن في ذلك فوائد لا تخفى عليكم، منها: الاطلاع على خصالهم لنكون أقدر في مدافعة السوء منها وما أكثره، بل لنكون أقدر على مدافعتهم فإنهم أعداءُ لله ولرسوله.

ومنها: أن نَحْذَرَ من أبناء جلدتنا ممن تشبهوا بهم ووالوهم وأطاعوهم فينا، ومنها: أن نَحْذَرَ من التجرؤ على كتاب الله الذي حفظه ربنا لنا وللناس جميعًا، ومنها: أن تكون بوصلة عقيدتنا بَيِّنَةً وظاهرة لا تشوبها شائبة لئلا يلعب بها اللاعنون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٤٦﴾

وكان اليهود ظنوا الخيرية فيما فعلوه، وظنوا أن هذا هو الطريق القويم الصحيح النافع لهم، ظنوا أنهم بذلك يتمسكون بدينهم الذي لعب به كبارؤهم وسادتهم، فجاءت الآية تعلمهم وتعلمنا أن طريق الخيرية ليست كما يشتهون أو يظنون، بل هو طريق قائم على السمع والطاعة والاستجابة لله ولرسوله، ويا ليتهم فعلوا ذلك.

ويا ليتهم أعطوا نبي الله قَدْرَه، وألأنوا جانبهم له وأكرموا، وأنزلوه المنزلة التي لا يُقبل غيرها في حق نبي مرسل، ويا ليتهم قالوا انظرونا بدلاً من «راعنا»، فإنها لفظة يستعملها أهل الإيمان قاصدين بها: انْتِظَرْنَا وتَأَنَّنَا واستمع إلينا.

لو أنهم استجابوا واستقاموا لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ولكان أقوم، أي: أكثر وضوحاً وظهوراً للطريق الهدى والاستقامة، ولكنهم اختاروا طريقهم الذي ذكرته الآية، فعاقبهم الله بطردهم من رحمته، وحرمانهم من نوره، وإبعادهم عن الصواب.

ثم بقي أثر لعنة الله معهم فلم يدخل الإيمان إلى قلوبهم بما كسبت أيديهم، وبما فعلوه من إصرارهم على الكفر والعناد والصد عن سبيل الله، وبما بذلوه من وسائل وأساليب شتى في إضلال المؤمنين وإضعافهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٤٧﴾ إعراضهم علامة على أن الإيمان الذي حملوه في قلوبهم كان قليلاً، وكان إيماناً ينطفئ سريعاً، وكان مما لا يُعْتَدُّ به ولا ينفعهم.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن القِلَّةَ هنا تشير إلى قلة من آمن منهم ودخل في دين محمد ﷺ، وهذا واقع نلمسه في اليهود بخلاف غيرهم من الأمم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾

ها هو النداء القرآني يُقبل عليهم بعد كل هذا، ويسعى في توجيههم والتأثير فيهم، وكأنه يعلمنا أن أصحاب دعوة التوحيد لا ينبغي أن يتسلل اليأس إلى قلوبهم أو يؤثر على دعوتهم، بل هم ماضون فيها يصنعون من الصعب سهلاً ومن الحزن فرحاً، ويفتحون أبواباً إلى القلوب كلما أغلق عليهم باب.

نداءً رباني لأهل الكتاب من اليهود الذين عاصروا نبينا ﷺ في المدينة والذين جاؤوا من بعدهم، وهو نداء كذلك للنصارى الذين يشاركونهم في عدد من الصفات، نداءً فيه النجاة من سخط الله وعذابه، وفيه الفوز برضا الله وجناته، وفيه النعيم المقيم في جنات عدن أعدّها الله تعالى لمن أحبه واصطفاه.

يا أيها اليهود، ويا أيها النصارى: كما أن الله تعالى أكرمكم بإنزال التوراة والإنجيل وأنزل فيهما من العلم ما أنزل، فإنه سبحانه جعل خاتمتها القرآن العظيم، وهو الكتاب الذي يصدق ما جاءكم في كتبكم من توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله جميعاً، والإيمان باليوم الآخر، ويصدق النصوص التي تأمركم بفعل الطاعات وترك المنكرات والفواحش، بل إنه مصدق لتلك النصوص التي تبشر بمحمد ﷺ، والتي تعلمونها حق العلم.

بادروا للإيمان بالقرآن، وسارعوا لتكونوا من حملته للعالمين، ثم اعلّموا أن عدم إيمانكم به يلزم منه عدم إيمانكم بكتبكم التي تزعمون أنكم متبعون لما جاءت به، فإن كتب الله يُصدّق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ۚ﴾ يا أهل الكتاب: آمنوا وسيروا في طريق الاستقامة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ۚ وَطَمْسُهَا أَي: تعطيل الحواس فيها من السمع والبصر وإزالة منفعتها، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ فَشَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦]، وكما في دعوة نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَام على فرعون وقومه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الدِّينِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا نَدْعُو الْكُفْرَ وَالْكَافِرِينَ ۖ فَيُكْفَرُونَ بِهِ ۖ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَيَسْتَخِفُّونَهَا ۖ لَا يَخَافُونَ آلَاءَهَا ۚ وَلَهَا لَظَلَمَ بَٰلَٰغٌ ۚ﴾ [يونس: ٨٨]، أي: أزلها وأهلكها.

﴿فَزِدْهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا﴾ أي: بعد طمس وجوهكم نجعلها معكوسة ومنكسة إلى الوراء، فتكون هذه الوجوه أعلى ظهوركم.

طمس اليهود والنصارى الحق وقلبوه باطلاً بتكذيبهم بالقرآن، ثم زينوا الباطل وجعلوه حقاً، فجاءهم وعيد الله يحذرهم من شناعة ما اقترفته أيديهم وألسنتهم، وكان جزاؤهم من جنس العمل، وهذا الوعيد إن دل على شيء فإنما يدل على شدة ما ينتظرهم من عقوبة إن لم يؤمنوا، وعلى أمر عظيم سيحل بهم ما نصبوا العداء لدين الله تعالى وحملته، وأصروا على ذلك.

وقد أخرج أهل التفسير بأسانيدهم أن كعب الأحبار وهو من اليهود أسلم في الشام لما سمع قارئاً يقرأ هذا النداء العجيب في الآية التي معنا، فَقَالَ كَعْبٌ لَمَّا سَمِعَهَا: يَا رَبَّ آمَنْتُ، يَا رَبَّ أَسْلَمْتُ، مَخَافَةَ أَنْ تُصِيبَهُ هَذِهِ الْآيَةُ، ثُمَّ رَجَعَ فَأَتَى أَهْلَهُ فِي الْيَمَنِ، ثُمَّ جَاءَ بِهِمْ مُسْلِمِينَ.

ومن أهل العلم من لم يحمل العبارة القرآنية هنا على حقيقتها، وإنما فهمها على المعنى الاعتباري المعنوي المجازي الذي يدل على أنهم إن لم يؤمنوا طمس الله على وجوههم، أي: ضاقت مداركها ولم تنتفع بحواسها، فردها الله على أعقابها وأعمأها عن صراط الحق، وصرفها إلى طريق الضلالة والغواية، ثم كتب على أصحابها الشقاء الأبدي بإعراضهم عن نداء الله لهم.

أو هو وعيد بزوال وجاهة اليهود في بلاد العرب، وَرَمِيَهُمْ بِالْمَذَلَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا هُنَاكَ أَعَزَّةَ دَوِي مَالٍ وَعُدَّةٍ، ووعد بانتصار أهل الإسلام عليهم وعلو راية التوحيد في الأرض.

﴿أَوَلَمْ نَعْنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ احذروا أيها اليهود المعرضون أن تصيبكم لعنة الله التي أصابت أصحاب السبت، وهم أهل قرية عَصَتْ أَمَرَ اللَّهِ، وذلك لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَضْطَادُوا يَوْمَ السَّبْتِ لِيَتَفَرَّغُوا لِلْعِبَادَةِ، وَأَحْلَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بَاقِيَ الْأَيَّامِ، فَاسْتَخَفُّوا بِأَمْرِ اللَّهِ وَاحْتَالُوا عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَصَارُوا يَحْسِبُونَ الْحَيَاتَانَ الَّتِي ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِكَثْرَتِهَا يَوْمَ السَّبْتِ، يَحْسِبُونَهَا بِطَرَائِقَ خَاصَّةٍ، ثُمَّ يَأْخُذُونَهَا بَعْدَ يَوْمِ السَّبْتِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فَكَانَ مِنْ سُوءِ مُنْقَلَبِهِمْ وَجَزَائِهِمْ أَنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَسَخَهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

فكان التحذير هنا في الآية من أن تدركهم لعنة الله، فيُخْزِيهِمْ وَيُطْرِدُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُعَذِّبُهُمْ عَنْهَا، أَوْ قَدْ يَمَسِّخُهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ كَمَا فَعَلَ بِأَسْلَافِهِمْ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أمر الله إذا جاءكم لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ فأدركوا أنفسكم وتوبوا إلى بارئكم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨)

آية تبني في قلب المسلم عقيدة تعينه كثيرًا في زماننا، هذا الزمن الذي ابتعد فيه كثير من أبناء الإسلام عن العلم، واختلطت عليهم أمهات المسائل التي لا يسع المسلم جهلها، وتلاعب بأصول إيمان هذه الأمة أهل الكفر وأهل البدع والضلال، وعاشت مسائل الاعتقاد غربة لا تخفى، فكان لزامًا على طلبة العلم وطالباته أن يُحيوا بالعلم ما جهلته الأجيال، ومن هنا استطردت قليلًا في تفسير هذه الآية.

هذه الآية كما هو حال آيات كتاب الله تعالى حوت على قلة كلماتها وقفات علمية وإيمانية، أبينها لكم في محاور عشرة، إليكموها:

١- الآية جاءت في سياق الحديث عن اليهود، ولعل مناسبتها ظاهرة لكم، فكانها تقول لليهود ولكل من كفر بالله العظيم من النصارى وعباد الأصنام وغيرهم، تقول لهم: إقبالكم على الإسلام هو الطريق الوحيد لقبول أعمالكم عند الله تعالى، ولا تغتروا إن كنتم متمين لنبي أرسله الله إليكم أو لكتاب أنزله الله عليكم من قبل؛ فإن الله تعالى لا يقبل منكم أعمالكم إن لم تؤمنوا بهذا القرآن العظيم وهذا النبي العظيم ﷺ.

٢- المغفرة في قول الله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هي مغفرة الآخرة، فصاحب الكفر لا غفران له وإن قَدَّمَ ما قَدَّمَ، وصاحب راية التوحيد يغفر الله له ولن يخلد في النار، فمدار السعادة والشقاوة في الآخرة إنما هو على التوحيد والشرك.

أما الدنيا فالله يعطي مُتَعَهَا وخيراتها لمن يحب ولمن لا يحب، وهي دار بلاء وليست دار جزاء، وقد يجعل الله فيها أسبابًا لتكفير الخطايا كما سيأتي.

٣- كل من كفر بالله العظيم أو أشرك معه أحدًا، أو كفر بملائكته، أو كتاب من كتبه التي أنزلها، أو نبي من أنبيائه الذين أرسلهم، أو كفر باليوم الآخر، أو بما قَدَرَهُ الله تعالى وقَضَاهُ، فهو مشرك تشمله الآية الكريمة هنا.

وعموم ذلك يدخل فيه المشرك والكافر لا فرق بينهم، ويدخل فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويدخل فيه غيرهم ممن ليس له دين سماوي من عبدة البقر والأصنام والكواكب، وغير ذلك من الملل والتحل.

٤- الآية تدل دلالة لا لبس فيها على أن الله تعالى يغفر الذنوب صغيرها وكبيرها، ما دام أن صاحبها من أهل التوحيد والإسلام، فالمسلم قد يقع في ذنب ما، وقد يكون هذا الذنب كبيرة من كبائر هذا الدين، كالقتل والسرقة والسحر والزنا وقذف المحصنات وغير ذلك، وهذه جرائم لا يستهان بها في منظومة الشرع، والأدلة التي توعدت أصحابها بالعقوبة والسخط موفورة وكثيرة، ولكن مع كل ذلك: إذا أقبل صاحبها على الله تعالى وأتاب وحسنت توبته فإن الله تعالى تواب رحيم يغفر لهذا المسيء ذنبه.

طلاب العلم وطالباته: مغفرة الذنوب عند أهل الإيمان مفتاح سعادتهم، وحول ذلك يدندنون في دعائهم، ويتواصون في مجالسهم، وحتى نفهم مغفرة الذنوب هنا على مراد الله تعالى، لزمنا استحضار النصوص الشرعية التي بينت أن صاحب الذنب يلزمه أن يتوب من ذنبه ليغفره الله تعالى له، والله يقبل توبة العبد وإن كان مقترفاً لكبيرة من الكبائر، ما لم تبلغ روحه الحلقوم لتخرج من بدنه، وما لم يكفر بالله العظيم.

ومن مكفرات الكبائر كذلك إقامة العقوبة الشرعية على مقترف الكبيرة في الدنيا مما جاء الشرع ببيان عقوبته، وذلك بنص حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عَصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ.

أما إذا مات مسلم مقترفاً لكبيرة من الكبائر، دون أن يتوب منها أو تقام العقوبة الشرعية عليه، فهو إلى الله، يغفر له إذا شاء، ويعاقبه عليها إذا شاء، وله في كل ذلك الحكمة البالغة والعزة والعلم، وهذا من المعاني التي جاءت بها الآية هنا.

٥- مغفرة الكبائر وعدم خلود أصحابها في النار هي عقيدة أهل السنة والجماعة التي أطبق عليها أئمتنا من أهل العلم والفضل، وقد نصوا على أن فاعل الكبيرة مسلم وليس كافراً وإن لم يمت على توبة، ولقد ضل في هذه المسألة أقوام من أهل البدع، كما فعلت طائفة الخوارج الذين قالوا بكفر مرتكب الكبيرة وأنه من أهل الخلود في النار، وكما فعلت طائفة المعتزلة: الذين قالوا: هو فاسق في أحكام الدنيا خالد في النار في الآخرة، فهو في منزلة بين المنزلتين.

والخوارج الذين لا زال لهم امتداد إلى أيامنا هذه يقولون بأنه كافر حتى في أحكام الدنيا، ويحكمون برده وما يلحق ذلك من أحكام الردة.

رَدًّا عَلَيْهِم: أخرج أحمد وغير واحد من أصحاب السنن، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايَرِ مِنْ أُمَّتِي».

بل أخرج مسلم عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً (قُرَابَ يَعْنِي: مَلءَ) لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»، وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَبِي ذَرٍّ» وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهِذَا قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ.

٦- أرشدتنا الشريعة فيما يتعلق بصغائر الذنوب إلى حسنات تغفرها: فإقبال العبد على الصلوات الواجبة والمندوبة والصيام الواجب والمندوب، وكذا إقباله على الحج والعمرة والاستغفار وغير ذلك، كل هذا فيه ما يُسعد فاعله من مغفرة لذنوبه وستر لعيوبه.

والشريعة علمتنا أن المصائب والبلايا وتتابع الهموم والغموم سببٌ للغفران كذلك، فمن ابتلي في نفسه وأهله وماله وصبر، كانت هذه الابتلاءات كفارةً له، أو كانت رفعة لدرجاته إذا لم يصادف هذا البلاء ذنوبًا.

٧- اعلّموا أن تنقية المسلم من ذنوبه لا تتوقف على ما أسلفنا، بل تمتد إلى ما ينتظر المرء من أهوال عند سكرة الموت أو في القبر أو في أرض المحشر، وقد ينتفع أصحاب الذنوب بنوع من أنواع الشفاعات كشفاعات الأعمال وشفاعة النبيين والملائكة والصالحين، بل قد ينتفع بعظم رحمة الله تعالى التي تدرك كل من مات وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان.

أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ»، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْثَقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ» الحديث.

وهذا بخلاف الشرك فإنَّ المشرك قد سدَّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات بدون إيمان، ولا تفيده المصائب شيئًا، وما له يوم القيامة من شافعين ولا صديقٍ حميمٍ.

ولذلك احفظوا: كل من رزقه الله قلبًا تغلغل فيه توحيد الله تعالى والإيمان به خالقًا ومالكًا ومُدَبِّرًا، ورزقه الله قلبًا عرف الله حق معرفته وصرف كل أنفاسه له، وعبدته على الوجه الذي يرضيه، واعتز بالعبودية له، أقول: هذا هو العبد الذي لا يشقى أبدًا.

٨- أهل الشرك لهم أعمال خير يفعلونها في حياتهم الدنيا، يتصدقون ويكفلون أيتامًا، ويساعدون ذا الحاجة، وقد يغشون ملهوفًا.

ولكنها ليست أعمالًا صالحة مقبولة عند الله تعالى، وليست نافعة لهم غداً في أرض المحشر لتكون سبباً لدخول الجنة، وسبب ذلك أن أصحابها أشركوا بالله تعالى ولم يؤمنوا به إلهًا واحدًا، ولم يفرده بالربوبية والرهبة، أو أنهم كفروا بنبيٍّ من أنبيائه، أو أنكروا علمه وقدرته وألوهيته، أو أنكروا وجوده سبحانه، فشرّكهم وكفروهم حال بينهم وبين دخولهم جنة الله.

وقد بيّنا في السورة من قبل عند قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] أنه من مات كافرًا بالله العظيم ولم يؤمن بما أمر الله به، فإن حسناته تُعَجَّلُ له في الدنيا رزقًا وطعامًا وشرابًا وصحةً وولدًا، أما في الآخرة فلا يدخل جنة الله تعالى حتى يلج الجمل في سم الخياط. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ولأن ملة الكفر ليست واحدة، بل منهم المحارب ومنهم المسالم، ومنهم المحسن ومنهم المسيء، فإن الله تعالى قضى بأن النار دركات، وأن فاعل الخير منهم قد يخفف الله تعالى عنه من عذابه بقدر ما عمل، وقد تقدم معنا ما أخرجه البخاري ومسلم عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعْتُ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ (يحميك) وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ (أي: عذاب قليل، والعرب تسمي الماء القليل ضحضاحًا)، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

٩- تنبيه أذكره خشية أن يهون الذنب على قلب أحدنا، ويغتر بستر الله عليه، ويغتر بما ذكرنا من عظم فضل الله بكثرة مكفريات الخطايا، ونجاة أهل التوحيد من الخلود في النار.

أقول: في مثل هذا المقام: تذكروا عظمة الرب ولا تستهينوا بالذنب، واعلموا أن أماننا سفرًا طويلاً، وأن خير عدة لما ينتظرنا بعد الموت أن نتقلب في عبوديتنا بين الرجاء والخوف، فكما أن رحمة الله وسعت كل شيء، فإن عذابه شديد وإن الواحد منا لا يدري بم يختم له.

ثم انظروا في أمر الكبائر على وجه الخصوص، وتلمسوا إفسادها لقلوب أصحابها، بل إفسادها لدينهم ودنياهم، ولا أظن أحدكم يجهل ضرر الزنا أو الربا أو السحر أو غير ذلك من الموبقات.

اسألوا الله العافية، ورحم الله امرءًا حفظ الله عليه دينه، ولم تكن مصيئته فيه.

١٠ - للشرك مظاهر حذر الإسلام منها لئلا تسري بين المسلمين ويُلبسوها ثوب العبادة لله، مظاهر تتطلب منا معاشر الدعاة إلى الله تعالى أن نرشد من ابتلي بها إلى تركها، وأن نربطهم بالتوحيد الحق الذي لا يرضى الله غيره، وأن نحسن دعوتنا لهذا الصنف ممن حولنا لعل الله تعالى يفتح بأمرك ونهيك قلبًا غافلًا.

ومن هذه المظاهر: دعاء غير الله تعالى من الأموات والاستغاثة بهم، واعتقاد النفع والضرر بالأنبياء والصالحين منهم، وتحكيم غير شرع الله في بلاد المسلمين، وغير ذلك.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أعظم ذنب عرفته البشرية أن يشرك المخلوق بالخالق، فيجحد وجوده، أو يتخذ له شريكًا، أو ينسب له الزوجة والولد، أو غير ذلك من الأوصاف التي لا تليق بعظمة الرب وكبريائه ووحدانيته وملكه وجبروته.

ليس سهلًا أن يصرف الواحد عبادته إلى غير من يستحقها، وإلى من لا يملك لنفسه ضررًا أو نفعًا فضلًا عن أن يملك لغيره، هذا هو الظلم بعينه، ظلم ليس بعده ظلم. قال الله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ لَقُمْنُ لِابْنَيْهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ، يَبْنِي لَأُشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لُقْمَانَ: ١٣]، وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» الحديث.

ومن هنا كان الشرك مع الله افتراء، أي: كذبًا لا شبهة للكاذب فيه، كذبًا فاحشًا عظيمًا فيه إثم لا يغفر، وهو افتراء يعود على فاعله بما لا يطيقه، فليحذر الذين يُصِرُّون على الشرك وليتوبوا قبل أن يفجأهم الموت.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩)

بقيت عند اليهود بعد مبعث محمد ﷺ فكرة اصطفاء الله لهم على الخلق وتفضيلهم على العالمين جميعاً، وكان هذا أحد الأسباب التي منعتهم من الإيمان وقبول دعوة التوحيد، والانتفاع بنصح نبي الله ﷺ والدعاة من بعده لهم، وجعلتهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وحالهم هذا كحال النصارى الذين زعموا أنهم أحباب الله، وأنهم أهل حظوة ومكانة عنده، وأنه لا يعذبهم.

هكذا زكى اليهود والنصارى أنفسهم بما ليس فيهم، واغتروا بما عندهم من الباطل، وهذا ما جعلهم يعتقدون ضلال المسلمين، ويعتقدون أنهم هم أهل الجنة، وأن عذابهم إذا حصل فإنه يكون عذاباً قليلاً وسريعاً، وهذا كله من جهلهم وغرورهم.

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقال ربنا عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

ومجيء هذه الآية بعد آية بيان بطلان الأعمال بالشرك، فيه دلالة على أنهم بإنكار بعثة محمد ﷺ مشركون، وأنهم ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

صحيح أن السياق في اليهود الذين زكوا أنفسهم فضلاً عن تزكيتهم لجنسهم، ولكن تزكية النفس أمر معلوم عند أفراد المسلمين كذلك، وقد جاءت نصوص شريعتنا تحذرننا من صنفين اثنين:

الأول: صنفٌ يكثر الحديث عن نفسه ويزكيها أمام الناس، ويحرص على دوام إظهار أعماله الصالحة ليوهم غيره أنه مؤمن عظيم الإيمان، وأنه أعلم الناس وأصدقهم وأخيرهم، وأنه أرفعهم قدراً وأكثرهم تميزاً، وقد يمتنُّ بعمله ويؤذي، ويرى لنفسه فضلاً على الآخرين. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

ومثل هذا الصنف قد يحوي قلبه مرضاً من أمراض الغرور أو العُجب أو حب الظهور أو الشعور بالنقص، وقد تجتمع كلها ويجتمع معها غيرها، وليس لصاحبها إلا أن يستحضر فضل الله عليه، ويستحضر ضعفه وأنه لا حول له ولا قوة إلا بخالقه ومالك أمره، وأن يذكر ضعفه في الحياة الدنيا، ثم موته وإقباله على من يعلم ما توسوس به نفسه.

وليس كل ذِكْرٍ لمحاسن النفس مذموماً، بل قد يكون مطلوباً إذا كانت غايته تحقيق مصلحة دينية أو دفع مفسدة قربية، وذلك إذا أَمِنَ على نفسه من فتنها، ونَسَبَ الفضل في ذلك إلى الله، وذلك كأن يذكر الداعية بعض محاسن نفسه في معرض دعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، أو حال التعليم والتأديب والإصلاح بين الناس.

أخرج البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال للثلاثة الذين أرادوا مخالفة هذيه في الطاعة: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، وأخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ».

وقد يذكر شيئاً من محاسن نفسه ليدفع شراً عنها، أو ليحقق مصلحة وجوده في المكان الصحيح كما فعل سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥]، وهذا الأمر يحتاجه الخاطب في التعريف بنفسه، ويحتاجه من يَعْرِفُ نفسه أهلاً للولايات الشرعية التي يُخشي أن يليها من يضيّعها.

الثاني: صنفٌ يكثر من مدح غيره وتزكيتِهِ، ويكثر من الثناء عليه بطريقة لا توافق الشرع، وفي هؤلاء جاء التوجيه النبوي في الحديث الذي أخرجه مسلم عن الْمُقْدَادِ بْنِ الْأَسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْثِيَ فِي وُجُوهِ الْمَدَاحِينَ التُّرَابَ». وقد حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على ظاهره، وأرشد إلى إرسال التراب حقيقة على من يمدحك ويهلكك، ومنهم من قال: مقصود الحديث أن نَحْيِيَهُمْ وَلَا نَعْطِيَهُمْ شيئاً على مدحهم.

فالمداحون هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، وجعلوه سبباً لتحصيل منفعة عاجلة من مال أو نيل وَجَاهَةٍ أو غير ذلك، وهؤلاء لا يسلم مدحهم من التكلف والمبالغة وتهويل المواقف والأحوال غالباً، بل لا يسلم من الكذب أحياناً. أخرج أحمد وابن ماجه عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ».

وتزكية الغير ودوام مدحه على الملاء قد يكون سبباً في إفساد قلبه وتقلب نيَّته عليه، وإدخال داء الْعُجْبِ والكِبَرِ إلى نفسه، وما أصعب ذلك.

ومن هنا نفقه ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتْنِي رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ أَخِيكَ - ثلاثاً -، مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيْبُهُ (يعني: والله يعلم حقيقة عمله وهو محاسبه)، وَلَا أَزْكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ».

أما إذا مدح أحدهم غيره على فعل حسن وأمر محمود لينشر الخير بين الناس ويُرَغَّب في الاقتداء وقال صدقًا، فهذا لا بأس به بل قد يكون مطلوبًا في مواطن، وقد مُدِّح ﷺ ولم يحثُ التراب في وجه من مدحه، بل كان يوجه في ذلك كما أخرج البخاري من حديث عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال عَلَى الْمَنِيرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ».

﴿بَلِ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَشَاءَ﴾ إبطال لتزكية اليهود والنصارى لأنفسهم، وإخبار لهم بأنهم محرومون من تزكية الله لهم، وتعليم لهم ولنا بأن مناط حب الله تعالى للعبد وتزكيته هو الإيمان والعمل الصالح، والاستسلام لأمر الله ومراده، وليست اليهودية أو النصرانية مفتاحًا لحب الله واصطفائه، ولا يعول على تزكيتهكم لأنفسكم بشيء. قال الله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

الله هو الذي يعلم صاحب المقام المرفوع من غيره، وهو المطلع على ما في السرائر والضمائر، وهو الذي يعلم خير الناس من شرهم، ويعلم خير الأمم من شرها، فكل من أثنى الله عليه خيرًا كان من أهل الخير والعاقبة الحسنة، ومن ذكر الله سوء خصاله وبين ضلاله وفساده كان من أهل السوء والخسران. أخرج مسلم في صحيحه قول نبينا ﷺ: «لَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ» الحديث.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ والله لا يظلم أحدًا، وعطاؤه في الدنيا لا يحظره عن أحد وإن كان مشرغًا، وقد أرسل إليكم الرسل وأيدهم بالمعجزات، وأنزل عليكم الكتب، وبين لكم صراطه المستقيم، ولن يُنْقِصَكُمْ شيئًا مما تستحقون وإن كان مقدار فتيل.

والفتيل هو ما يكون في داخل نواة التمر مثل الخيط، وقد لا يكون واضحًا كثيرًا، ويُضرب مثلاً لقلّة الشيء وصِغَرِه.

حتى في أرض المحشر لا يظلمون، فهناك ستكون محكمة العدل ويأخذ كل ما يستحقه، ولا يضيع عند ربك خيرٌ ولا شرٌّ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وكأن الآية تنادي عليهم: هاتوا كلمة التوحيد وأدخلوها إلى قلوبكم، وانظروا كيف أنكم لا تظلمون فتيلًا، أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ

تِسْعَةً وَتِسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ (يعني: كلها ذنوب)، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَاكَ عُذْرٌ، أَلَاكَ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ، فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَتُقْلَتِ الْبِطَاقَةُ.

وفي بيان هذه الآية لا نبتعد كثيرًا عن أنفسنا كمسلمين نقرأ كتاب الله لنهتدي ونكون من الفالحين، فنقول: ديننا أمانة في أعناقنا، ولا يُقبل من أحدنا أن يغترّ بنفسه وإكرام الله له واصطفائه، وأن يترك العمل لهذا الدين والإخلاص فيه، ولا يقبل منه أن ينظر إلى غيره من الأمم نظرة احتقار وازدراء، بل الواجب علينا أن نُعمل في جميع من حولنا ما أمَرنا الله به، ونمضي في طريق استخلاف الله لنا في الأرض، وعمارته بالإيمان والعبودية وفقًا لسنن الله تعالى التي لا تتبدّل ولا تتغيّر.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾

يقول الله تعالى لمن أرادوا إبطال دين محمد ﷺ: دعواكم أيها اليهود والنصارى وتزكيتكم لأنفسكم دعوى كذب وزور وبُهتانٍ، ولا تُعدّو أن تكون أُمْنِيَّاتٍ تَمَيَّنْتُمُوهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فهاتوا حُجَّتَكُمْ ودليلكم وَبَيِّنَتُكُمْ على ما تقولون، وأتّى لهم ذلك؛ فَإِنْ كُتِبَتْ فِيهَا إِثْبَاتٌ لِلدِّينِ مُحَمَّدٍ ﷺ وتصدق له، وهم يعلمون ذلك، ولكنه العناد والحسد.

﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ وكفى بعقيدتكم الباطلة وأفعالكم المشينة وافترائكم العجيب سببًا لإثمكم الظاهر، وسببًا لسخط الله عليكم واستحقاقكم عقوبته وغضبه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾

انظر يا محمد ﷺ وانظروا أيها المسلمون إلى عجيب حال هؤلاء الذين أنزل الله عليه كتبه واختارهم من بين الأمم، انظروا إلى فعالهم واحذروها واعتبروا بما فيها من عظات وفوائد، فإن الأمر فيه جنة ونار، وفيه نجاة وخسران، وفيه وعد ووعد.

هؤلاء اليهود آمنوا بالجبّ، وهو السحر وما قاربه من الكهانة وعمل الشياطين.

وآمنوا كذلك بالطاغوت، وهو كلّ معبودٍ من دونِ الله من الأصنام الحجر، وممن رضي بذلك من البشر. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظَّالِمَاتِ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

اليهود آمنوا بكل ذلك ونصروا من عبد الطاغوت من المشركين من أهل مكة، وخالفوا أعراف دينهم، وخالفوا عقيدتهم من أجل الصدّ عن دين الله تعالى في الأرض إذ كيف ينصرون أهل الشرك على من نزل عليهم كتاب سماوي وجاءهم نبي، هذا مما يخالف دينهم!

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ بلغ الحال من خبث اليهود وحقدهم، ومن جهلهم وقلة دينهم، وكفرهم بالقرآن وبالنبي الذي أنزل عليه، أقول: بلغ الحال بهم أن أثنوا على أهل الأوثان من عباد الأصنام من أهل مكة، وذمّوا طريق أهل الإسلام الذين يعرفون الله مثلهم.

أخرج أهل التفسير وأهل السير بأسانيدهم، أن حُيَّيَّ بْنَ أَخْطَبَ وَكَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ (وهما من سادات يهود) جاءا إلى أهل مكة، فسألتهما قريش عن دين محمد ﷺ، وهل هو خير أم دين قريش وخصالهم التي ما زالوا عليها، فردت اليهود عليهم بأنهم خير من محمد ﷺ وصحبه وهم أهدى سبيلا من المؤمنين، وأن ما هم عليه خير من دينه، ففرحت قريش بذلك.

وأخرج ابن جَبَّانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ أَتَوْهُ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَهْلُ السَّقَايَةِ وَالسَّدَانَةِ، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الصُّنَيْبِيُّ (أي: الضعيف الذي لا قوة معه) الْمُنبِتُّ مِنْ قَوْمِهِ (أي: المنقطع الذي لا ولد له)، يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَتَزَلَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وَتَزَلَّتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

يعني: ومن عجيب حال اليهود كذلك أنهم نصروا المشركين على الموحدين، وكانوا يقولون لأهل الكفر بالله تقرباً إليهم وإرضاء لهم: أنتم أرشد طريقاً وأهدى من المؤمنين الذين اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا ﷺ ودينه، وعبادتكم للأصنام وخصالكم أعدل وأصوب من دين التوحيد الذي يدعو إليه محمد وصحبه، قاتلهم الله أتى يؤفكون.

﴿وَلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٥٢)

جرىمتم هذه لها لعائن الله عليكم وطردكم من رحمته، وعداوتكم العجيبة لهذا الدين لها ما بعدها، لها الخسران المبين، ولها فقدان الولي والنصير والمعين في وقت ستكونون أحوج ما تكونون إليه.

ولعلي في معرض السياق القرآني أشيرُ إلى حال صنف من أبناء جلدتنا، نراه يرتضي بأنظمة أهل الكفر في بلادنا ويتَّبَعُها ويُقَدِّمُها على شريعتنا، ونراه يتملق لهم ويسعى لإرضائهم، ويشني على عقائدهم الباطلة أكثر من ثنائه على دينه، ونراه إذا ذُكِرَ الإسلامُ طأطأ رأسه، وغمز ولمز به وبحملته وبالقابضين عليه.

بل أشيرُ إلى صنف آمن بالخرافة والكهانة، وتتبع طرائق أهل السحر، وتعلق بأزلام لا تسمن ولا تغني من جوع، وإلى الله المشتكى.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣)

يخاطب القرآن اليهود الذين آمنوا بالطاغوت وكفروا بمحمد ﷺ وما جاء به فسخط الله عليهم ولعنهم، يخاطبهم ويقول لهم: ما الذي جعلكم تؤمنون بالطاغوت ولا تصدقون الله تعالى في عبوديته وتوحيده، وما الذي جعلكم تمدحون أهل الأوثان وتذمُّون أهل التوحيد والإسلام، ولماذا أثنيت على قريش التي تعبد الأصنام وتنكَّرتُم لمن يؤمن بأنبيائكم وكتبكم؟

لماذا كفرتم أيها اليهود، هل تظنون أن لكم نصيباً وحصّةً فيما خلق الله، هل أنتم شركاء لله عزَّجَل في تدبير أمر ملكوته وخزائنه فتعطون النبوة والرزق لمن تشاؤون وتُفَضِّلون من أردتم؟! لو كان الأمر كذلك لكتبت من أهل البخل والإمساك كعادتكم، ولاقتصرت في ذلك على أنفسكم ولما أعطيت أحداً شيئاً وإن كان فقيراً، والنقيير هو النقطة التي تكون في نواة التمر وغيره، وهي مما استعمله القرآن في ضرب المثل للشيء اليسير والقليل كما استعمل الفتل والقَطْمِير.

والمقصود: إن لم يكن لكم شيء من ذلك، فلماذا تُقَلِّبون الحق باطلاً، ولماذا كل هذا العناد واللجاج؟!

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾

الحسد داء عظيم أرشد الشرع إلى الاستعاذة من شرِّه وشرِّ صاحبه، وقد بلغ من شدة فتكه بالقلوب أنه صرف اليهود عن الإيمان بنبينا ﷺ حسداً له على ما رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ، وحسداً للعرب الذين جعل الله خاتمة النبوة فيهم ولم يجعلها في بني إسرائيل.

اليهود يعدون أنفسهم أحبباً لله، ولا يحبون أن يشاركونهم في فضل الله أحد، ولا يَرْضون بأن يُكرم الله تعالى بالنبوة غيرهم، ولا يسعدون بأن يكرم الله أمة بالخيرية والفضل كما أكرمهم الله تعالى من قبل.

القرآن يفتح لهم الآفاق في التفكير، ويكشف غرورهم بأنفسهم، ويفضح ما في صدورهم وطَوَيْتِهِمْ، ويقول لهم: هل كان الحسدُ للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من نعمة الرسالة والقرآن هو الدافع لما فعلتم، إن كان الأمر كذلك فتأملوا:

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ يا أيها الحاسدون الجاحدون: هل نسيتم فضل الله عليكم من قبل لما جعل الحكمة فيكم، والمقصود بها هنا النبوة، هل نسيتم كيف اصطفى الله تعالى إبراهيم بالنبوة، ثم جعلها في ذريته، أما أرسل أنبياء جميعاً من ذرية إسحق بن إبراهيم على جميع أنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه، وإسحق هو والد نبي الله تعالى يعقوب الذي تنسب إليه الأمة الإسرائيلية، أما أنزل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى على الأنبياء الذين اختصكم بهم؟!

وكان اليهود تناسوا كل ذلك، وتغافلوا عن الملك العظيم الذي أعطاه الله تعالى لعدد من أنبياء بني إسرائيل كسيدنا داود وسيدنا سليمان وغيرهما عليهم صلوات ربي وسلامه، بل تغافلوا عن تفضيلهم على أمم زمانهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، أي: فضلتكم على أهل زمانكم.

والمقصود بعد كل هذا: لماذا تنكرون اصطفاء الله تعالى لمحمد ﷺ من العرب، وتنكرون اختياره ليكون آخر رسله، وليكون رسولاً للعالمين جميعاً، هل غاظكم أنه من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وليس من ذرية إسحق كما هو الأمر من قبل؟! ارجعوا إلى رشدكم، وأعملوا عقولكم، ولا تعتذروا بما لا ينفعكم.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (٥٥)

هل آمن اليهود بعد كل هذه التوجيهات بمحمد ﷺ، وهل أحسنوا شكر الله تعالى على كل هذه النعم، وهل قاموا على نصوص توراتهم التي وجدوا فيها ذكر هذا النبي؟

والجواب هنا في الآية أن منهم من فعل ذلك وأدَّى ما عليه، وهم قليل كما علمنا من تتبع السيرة النبوية، ومنهم من كفر وأعرض، وسعى في صد الناس عن الإيمان، ونصب العدا الأبدى وبذل أسبابه.

والمقصود من السياق هنا: كيف يؤمنون بك يا محمد ﷺ وأنت لست منهم، وكيف يُصدِّقونك فيما جئت به من الهدى وقد كذبوا أنبياءهم من قبل وقتلوا عدداً منهم، وحرفوا في كتاب الله وغيروا وبدَّلوا، فلا تتأمل منهم إلا عداً أشدَّ وأكثى.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وعيدٌ من الله لكل من صدَّ من هؤلاء عن دعوة محمد ﷺ: عقوبتكم نار تلظى وتستعر وتزداد لهيباً، وكفى بها من عقوبة، وكفى به من شقاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦)

لا يصحُّ زعمكم أيها اليهود أنكم ستمكثون في النار قليلاً إذا دخلتموها، كما ذكر الله تعالى مقولتهم: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ولكن من كفر بالله العظيم، ولم يؤمن به وبما أمرنا أن نؤمن به، ومات على ذلك فإن جزاءه جهنم خالداً فيها.

ولفظه ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ أي: نُدخلهم النار ليعذبوا فيها ويصطلوا بسعيرها، ودخولهم إليها دخولٌ هَوَانٍ وَذَلَّةٍ، ويحيط بهم العذاب من كل مكان، ويكون هذا العذاب دائماً لا ينقطع عنهم ولا يخفف.

وهذه النار ليست لليهود فقط وإن كان السياق فيهم، ولكنها لكل من كفر بآيات الله تعالى التي نزلت على رسول الهدى محمد ﷺ، ولكل من كفر بدلائل وحدانية الله وتفرد به بالالوهية والربوبية، ولكل من صد عن دين الإسلام.

﴿كَلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ تَذَكَّرُوا وَأَنْتُمْ تَقْرَءُونَ مَثَل هَذِهِ الْآيَاتِ شِدَّةَ مَكْرِ أَهْلِ الْكُفْرِ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَكَيْفَ أَنْهَمُ يَتَوَارَثُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَا يَكَادُ يَهْدُوا لَهُمْ بَالٌ حَتَّى يَذِيقُوا الدَّعَاةَ إِلَى اللَّهِ وَالْقَابِضِينَ عَلَى دِينِهِمْ أَلْوَانًا مِنَ الْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ، يَتَفَنُّونَ فِي ذَلِكَ وَيَأْتُونَ كُلَّ يَوْمٍ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ، وَيَمَكُرُونَ لَيْلَهُمْ وَنَهَارَهُمْ، تَذَكَّرُوا كَمْ قَهَرُوا وَظَلَمُوا وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا فُسَادًا وَإِفْسَادًا.

تَذَكَّرُوا كَمْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا، وَكَمْ آتَاهُمْ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْمُعْجَزَاتِ، وَكَمْ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنَّهُمْ يُلْحِقُونَ كُفْرَهُمْ بِكُفْرِ، وَعِنَادَهُمْ بِعِنَادٍ، وَعِدَاءَهُمْ لِلَّهِ بِعِدَاءٍ، فَكَانَ دَوَامُ عَذَابِهِمْ هُنَا جَزَاءً وَفَاقًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ ۖ لَا يُفَرِّقُهُمُ اللَّهُ مِنْ عَذَابِهِمْ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ عَنْهُمْ فِيهِ مُبِلَسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥].

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ فِي النَّارِ، وَعَنْ تَقْلِبِهِمْ فِي الْعَذَابِ الَّذِي لَا يَنْفِكُ عَنْهُمْ، وَكَيْفَ أَنْ خَلُودَهُمْ فِيهَا لَا يَخْفُفُ مَعَهُ الْأَلَمُ وَلَا يَقِلُّ الشَّعُورُ بِهِ وَلَا يَصِيرُ عَادِيًّا، يَعْنِي: لَيْسَ كَمَا يَحْصُلُ مَعَ أَيِّ عَقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا، تَنْتَهِي بِالمَوْتِ أَوْ بِاعْتِيَادِ الْوَجَعِ وَالْأَلَمِ.

أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ: كَلَّمَا أُحْرِقَتِ النَّارُ جُلُودَهُمْ وَنَضَجَتْ وَبَلَغَتْ نَهَايَةَ الْحَرِّ وَالشَّوَاءِ، أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جُلُودًا أُخْرَى لِيَذُوقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ، وَيَذُوقُوا شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يَذِيقُونَهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَلِيَكُونَ إِحْسَاسُهُمْ بِهَذَا الْعَذَابِ عَلَى الدَّوَامِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عَزِيزٌ لَا يَمَانَعُ أَمْرُهُ وَلَا يَغَالِبُ، وَلَا يَرُدُّ بِأَسْهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَقَدَرُهُ، وَلَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلٌ﴾

بَعْدَ الْوَعِيدِ الْعَجِيبِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ جَاءَ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى هُنَا لَصَنْفٍ مِنَ النَّاسِ أَكْرَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَعْظِيمِ خَالِقِهِمْ جَلَّ وَعَلَا، وَافْتَدَوْهَا مِنْ سَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ بِصَدَقِ إِيْمَانِهِمْ، وَحَسَنِ عَمَلِهِمْ، وَاسْتِسْلَامِهِمْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرْعِهِ، فَأَكْرَمَهُمْ رَبُّنَا بِجَنَّاتٍ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ.

هَذِهِ الْجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ الْمُخْتَلِفَةُ الْعَذْبَةُ، تَجْرِي بَيْنَ بَنَائِهَا وَأَرْجَائِهَا أَنْهَارُ الْمَاءِ وَالْعَسَلِ وَالْخَمْرِ وَاللَّبَنِ، تَجْرِي حَيْثُ شَاؤُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا.

وهم خالدون فيها لا يبعون عنها حولاً، أي: تحوُّلاً وانتقالاً لشيء آخر، وخلودهم هذا إلى أبد الآبدين.

﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ وهذا من تمام نعيمهم: أزواج تسر الناظرين، وتطير قلوبهم فرحاً بها، وتقرُّ أعينهم وتأنس أرواحهم بلقياها، وهنَّ مُطَهَّرَاتٌ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ فِي الْأَبْدَانِ والصفات، أصلهن الله لهم وأصلحهم لهن.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ظل أشجار الجنة وظل بنائها ممتد عميق كثير، أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّابِثُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، لَا يَقْطَعُهَا، وَافْرَأُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ: ﴿وَضِلٌّ مَمْدُودٌ﴾ [الواقعة: ٣٠].

ولكم أن تتخيلوا كيف يكون النعيم مع نور يكون في الجنة منتشراً، ولا يوجد معه حرٌّ ولا سَمُومٌ، ولا ما يُفْقِدُ لذة الشعور بالأنس والحياة الطيبة، فظلُّ الجنة ظليل، أي: كثير واسع يستظل به أهلها على الدوام، ولا تنسخه الشمس.

أو بعبارة أخرى: الجنة كلها ظل لا شمس فيها، كما قال سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

واعلموا يرحمكم الله أن الجنة ليس فيها أيام ولا ليال، ولا شمس ولا قمر، وهم في نور أبداً، إنما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحُجُب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحُجُب وفتح الأبواب كما نص على ذلك غير واحد من العلماء، ولهم في ذلك آثار مروية.

وقد ذكر أهل اللغة أن الظل غير مرتبط بالشمس بخلاف لفظة الفيء، فالفيء يكون من الشمس، وأما الظل فقد يكون بدونها، فهو أعم. قال الله تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

لا تكاد تمر بآيات القرآن العظيم وسوره متدبراً ومتأملاً، بل لا تكاد تمر بأحاديث الصادق المصدوق ﷺ، إلا وتجد ذِكْرَ الأمانة أصلاً يدور عليه خطاب الشرع فيهما، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظم أمرها.

أخرج مسلم من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشفاعة، أن النبي ﷺ أخبر أنه بعد حصول الشفاعة في أرض المحشر، وقبل مرور الناس على الصراط أنه «تُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنْبَتَيِ الصَّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا» الحديث، ومعنى الحديث هنا أنه من أذى الْأَمَانَةَ وَوَصَلَ الرَّحِمَ نَجَا، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِمَا يَنْتَظِرُهُ عَلَى الصَّرَاطِ وَلَمْ يَسْلَمْ.

ومما يدل على عظم أمرها كذلك ما ذكره أهل العلم في وجوب أدائها، فقد ذكروا أن هذا الوجوب لا يسلم منه برٌّ ولا فاجر، وذكروا أنها تؤدي للبر وللفاجر، وقد دل على ذلك ما أخرجه أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ».

ولكم أن تتأملوا ما أخرجه أحمد بسند حسن، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَّا قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ».

وزيادة في البيان والموعظة حول الأمانة أقول مستعينًا بالله:

١- الأمانات هنا في الآية جمع أمانة، وهي كُلُّ ما أوْتُمِنَ عليه الواحد منا من حق مادي أو معنوي، ومفهومها يدور حول إيصال الحق إلى مستحقه وحفظه له، فحق الله تعالى أن نعبدَه ولا نشركَ به شيئًا، وحق النفس أن نتعاهدها بما يصلحها ويحفظ جوارحها، وحق الغير أن نُوفِّ إليه حقوقه وما التزمنا له به ولا نكتُم منه شيئًا. قال الله تعالى في وصف أهل الإيمان الذين يرثون الفردوس الأعلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

٢- أداء الأمانة علامة من علامات سلامة المجتمع وخيريته، وبث الثقة بين أفرادِه، وقوته وتماسكه، يعني: هل تخيلتم مجتمعًا قلَّ فيه الغدر والخيانة والكذب والنفاق كيف يكون حاله، وهل استحضرتُم جمال الحياة وسهولتها مع اتباع الحق والعدل، والحرص على إعطاء كل ذي حقَّ حَقَّهُ.

واعلموا يرحمكم الله أن خيانة الأمانة لها ارتباط بِخَصْلَةٍ مذمومة لا يُحبها الله ورسوله، وهي خصلة النفاق، فقد جعل الشرع الخيانة علامة من علامات أهل النفاق العملي، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ».

٣- الآية هنا تحمل أمرًا رَبَّانِيًّا لكل صاحب قلب امتلأ بحب الله وسعى لمرضاته، تقول له: احرص على إيصال الحقوق إلى أصحابها ولا تخن في ذلك أو تغدر.

وأداء الأمانة إلى الناس له صور كثيرة، أذكر منها تمثيلاً لا حصراً فأقول: من الأمانة عفتك عن كل مال ليس من حقك، وحرصك على أداء الوديعة إلى المودع بدون مماطلة ولا تأخير، وحفظ أعراض الناس من اللسان وكافة الجوارح. أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ (يقتص للشاء التي لا قرون لها)، مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ».

ومن الأمانة كذلك قيام الراعي على رعيته في الولاية العامة على الأمة، فيؤدي أمانة الله فيها بحفظ دينها وأموالها وعقول أبنائها، ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب. أخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكِرَهُ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

ومن صورها إتقان العمل، والصدق في البيع والشراء وأداء الشهادة، والعدل في القضاء لئلا تضيع الحقوق وتختلط، والإخلاص في النصيح والمشورة لمن طلبها وائتمنا عليها، وحفظ أسرار المجالس وما لا ينبغي نقله ونشره.

ولا يفوتني أن أذكر الأمانة في أداء حقوق الأبوين والأرحام، والأمانة بين الزوجين في سرهما وعلى عرضهما، والأمانة على تربية العيال ورعايتهم وحفظهم من أهل الأهواء والشهوات. أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا».

٤- ومن صور الأمانة التي يعتني أهل العلم بذكرها وبيانها، الأمانة مع الله، وهي أمانة تقوم على تأدية الواجبات مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالزَّكَّوَاتِ، وَالْكَفَّارَاتِ وَالنُّذُورِ وَالصِّيَامِ، وتقوم على حراسة الدين والغيرة عليه، وحفظه في النفس وفي الزوجة وفي الولد. وتقوم الأمانة مع الله كذلك على أن تعتني بالقرآن وتبلغه وتنشره، وتكون سبباً من أسباب دخوله إلى بيوت الناس وقلوبهم.

وتقوم كذلك على أن تؤدي حق نبيك محمد ﷺ حُبًّا واتباعاً؛ كل ذلك تفعله بنية خالصة لله وكما شرع، فإنه المطلع على ما في الصدور. قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

٥- أجسادنا وجوارحنا مما ائتمنا الله عليه، ويكون أداء الأمانة فيها بحفظ البدن مما يؤذيه، وحفظ السمع والبصر مما يضره في الدين والدنيا، وحفظ العقل مما يفسده، والتزام تغذيته بالعلم والمعرفة، ويكون كذلك بتعاهد القلب بالموعة والتذكرة.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ خطاب لولاة الأمر وللقضاة ولكل من ولي حكمًا بين الناس: لا تظلموا في الفصل بين المتخاصمين فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ولكن اعدلوا وأعطوا الحق لأصحابه، وراقبوا أنفسكم وخالفوها فيما تهوى، وتذكروا موقفكم بين يدي ربكم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَدَانَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وأخرج الترمذي وابن ماجه وابن حبان، واللفظ للترمذي بسند حسنه بعض أهل العلم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ (يظلم)، فَإِذَا جَارَ تَخَلَّى عَنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ»، وأخرج أصحاب السنن عن ابن بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ، اثْنَانِ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ جَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ».

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ ثناء من الله عَزَّجَلَّ على ما أمرنا به في هذه الآية، وكأن أداء الأمانة والحكم بالعدل هما مفتاح سعادة الدارين لمن تأمل.

ولفظه ﴿نِعْمًا﴾ مكونة من كلمتين هما: كلمة «نِعَم» وكلمة «مَا»، أي: نعم ما أرشدكم ربكم إليه هنا فالزموه ولا تضيعوه ولا تفرطوا فيه، واعلموا أن هذا الرُّقْيَ الشَّرِيعِي لا ينفك عن أمر أو نهى إلهي، فارعوا رؤوسكم بدينكم واحفظوه وبلغوه، ودافعوا عنه وادفعوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ واستحضروا دومًا مَعِيَّةَ الله لكم بسمعه لما تقولون، وبصره لما تفعلون، وتذكروا محاسبتكم عن ذلك فإن الأمر جدٌ وليس هزلًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

هذا سبيل المؤمنين وطريقهم الذي لا يسعهم غيره في حياتهم، وهو الذي فارق فيه أهل الصراط المستقيم غيرهم من أهل الكفر والضلال والبدع؛ طاعة لله تعالى هي أعلى ما نملك، وطاعة لرسوله ﷺ حبًّا واقتداءً وامتنالًا لأمر الخالق، وطاعة لأولي الأمر يحصل بها خير كثير ويندفع بها شرٌّ كثير، وهو ما وقع عليه النداء لأهل الإيمان في الآية هنا.

وطاعة الله و طاعة رسوله شرط من شروط كلمة التوحيد التي تنفع صاحبها، ولا تتحقق هذه الطاعة إلا بامثال ما جاء به الأمر في الكتاب والسنة، واجتناب ما جاء النهي عنه فيهما، مع تمام الإخلاص والرضا والانقياد والمحبة والاستسلام.

وهل يصلح أن يطيع العبد ربه بما أمر به في القرآن ويأبى أن يتبع نبيه ﷺ فيما جاء به في السنة؟ والجواب أن هذا هو الكفر بعينه؛ لأن حقيقة صاحبه أنه يكفر بالقرآن الذي تواترت أدلته الأمرة بطاعة نبي الأمة ونبي العالمين وسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ.

أسوق إليكم عددًا من نصوص كتاب الله تعالى في ذلك، طالبًا منكم تدبرها وتأمل ربطها بالإيمان والكفر والضلال والنار والعذاب: قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ٣١-٣٢]، وقال جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نُبَيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وجاء قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وجاء قول ربنا: ﴿وَالنَّجْوَىٰ إِذَا هُوَ ١﴾ مَاضٍ صَاحِبُكُمْ وَمَا عَوَى ٢ وَمَا يَطُوقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٣ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: ١-٤]، وقال ربنا: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ جماهير أهل التفسير على أن أولي الأمر هنا هم الأمراء والحكام، وقد جاء في لزوم طاعتهم وعدم الخروج عليهم أحاديث صحيحة صريحة، منها: ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيئَةً» (هي حبة العنب اليابسة، والتشبيه يراد منه الطاعة وإن كان في أعينكم صغيرًا لا يُلْتَفَتُ إليه).

وأخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ (أي: طاعة الإمام)، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ (عمياء) يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَىٰ عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً (بدون علم ووقوف مع الحق)، فَقُتِلَ، فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَىٰ أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَىٰ مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِدِي عَهْدٍ عَهْدُهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ (والمقصود هنا الخوارج)». وستأتي أحاديث أخرى في ذلك في بيان فقه المسألة.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن أولي الأمر الذين أمرت الآية بطاعتهم ليسوا فقط الأمراء والحكام، بل تجب طاعة علماء الدين والفقهاء معهم، فإنهم مُبَلَّغُونَ عن الله تعالى فيما آتاهم من العلم في أوامره ونواهيه، فكان المقصود من الآية هنا صنفين من الناس هما الأمراء والعلماء. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ويلحق بمن تجب طاعته من أولي الأمر كذلك من كانوا أصحاب ولاية خاصة كالقاضي في قضائه، وكالأمير في السفر، وكالأب أو الزوج في البيت، كما نص على ذلك بعض أهل العلم. أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي».

الآية هنا تأمر الرعية بطاعة أولي الأمر، وتُبين عِظَمَ هذه الطاعة في ميزان الشرع بعطفها على طاعة الله ورسوله، وهذا يدل على أن طاعتهم من طاعة الله ورسوله، وأن مخالفتهم من مخالفة أمر الله ورسوله، وهو ما يدل كذلك على أن هذه الطاعة عبادة شرعية يتقرب العبد فيها إلى ربه، ويلزمه أن يخلص فيها، ولا يحل له أن يقيمها على مصالح شخصية ومنافع تخصه، فإن أفادها على ذلك فليتأمل ما أخرجه البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: «وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يَبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ» الحديث.

وقد دلت النصوص الشرعية على أن طاعتهم إنما تكون في أوامره التي لا تُخالف ديننا وشرعية ربنا في أمور الإدارة والسياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وغير ذلك، أما إذا أمروا بمعصية في ذلك فلا سمع لهم ولا طاعة.

أخرج البخاري ومسلم عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ».

وأخرج البخاري ومسلم عن عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ (أي: جعله أميرًا) وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ (أي: هذا الأمير)، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمْرُكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقِدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَزْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ».

وفي فقه طاعة أولي الأمر، نرى غلوًا وقع فيه طرفان ممن حولنا، طرفٌ نادى بالتسليم لولي الأمر واتباعه فيما يفعل، ولا نجده ينكر عليه، أو قد ينكر عليه شيئًا قليلًا إن استطاع الوصول إليه وهو ما لا يتحقق غالبًا، وهذا الصنف يحرص في نصحه وفي الإنكار عليه على عدم إظهار ذلك لاعتبارات يذكرها.

وثمة طرف آخر أطلق أحكام الكفر في أولي الأمر لما يراه من فشو الظلم والمنكرات، وعمل على إسقاط العلماء والدعاة الذين لم يسلكوا مسلكه، ثم داوم على تجييش عموم الناس وإلهاب مشاعرهم لاعتبارات أخرى عنده.

ومن هنا أذكر عددًا من المسائل والأحكام في فقه المسألة، سائلًا الله تعالى السداد والتوفيق، لعل الله تعالى ينفع بها:

١- أجمع أهل العلم على حرمة الخروج على الإمام العادل الذي يحكم بشرع الله، ويتبع نصوص الوحي ليقيمها في البلاد والعباد، وهذا الإمام العادل لا يظلم ولا يحب الظلم ولا يعين عليه، وهو كذلك لا يُظهر فسقًا ولا يحب أهل الفسق ولا يعينهم.

ومعلوم لديكم كيف امتدح الشرع الإمام العادل وكيف أثبتت النصوص أنه مرفوع القدر عند الله، كما في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

الحاكم العادل يفهم استخلاف الله له في الأرض على خير وجه وأحسن حال، ويعلم أن أسمى ما يعمل له ويسعى إليه أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون الهيمنة في بلده وشعبه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولهذا الدين الذي جاء لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل.

الأصل في الإمام أن يكون من أهل التقوى الذين يحرسون الشريعة ويطبقونها في الرعية، وأن يعلم أن مقامه إنما هو مقام تكليف سيسأل فيه عن رعيته جميعًا، وأن الأمانة على دماء الناس وأعراضهم وأموالهم في عنقه، وما أعظمها من أمانة.

٢- اتفق أهل العلم على وجوب الخروج على الحاكم الكافر إذا حصلت القدرة على ذلك ولم تكن مفسدة أكبر، فغير المسلم لا يجوز له أن يكون ولي أمر المسلمين، وهذا الحكم يكون كذلك فيمن كان مسلمًا ولكنه أظهر كفرًا صريحًا ومعلومًا للقاصي والداني، أظهره في بلاد المسلمين وبين أبنائهم.

أخرج البخاري ومسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَكَانَ فِيمَا أَحَدَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَآثَرَةٍ عَلَيْنَا (يعني: نسمع ونطيع وإن رأينا استئثارًا بالحقوق وبأموال الدنيا من قبل الأمراء)، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ» (أي: لا ننازع ولاية الأمور مناصبهم)، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ».

هذا الحديث يدل على مشروعية الخروج على وليّ الأمر وخلعه إذا أظهر كفرًا صريحًا لا شبهة فيه، وانتبهوا إلى أنه أظهر كفرًا لا يخفى على أحد، فإنه لا مفسدة أعظم من الكفر كما قال أهل العلم الذين وقفوا مع قول الله تعالى: ﴿وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، أي: وفتنة الناس عن دينهم أخطر عليهم وأعظم من قتل بعضهم بعضًا، ولذلك كانت الشهادة في سبيل الله تعالى ممدوحة في الشرع ولها قدرها، مع أن فيها فواتًا للنفس وذهابًا للحياة، ولكن لأن الدين أعظم ضروريات حياتنا، هانت من أجله أرواحنا.

وهذا الوجوب مقيد بشرط آخر، وهو القدرة على خلعه وتنصيب من يخاف الله في هذه الأمة، ويردُّ المظالم، وقيمُ الدين في حياة الناس، أما إذا لم يكن عندهم القدرة فلا يخرجوا، لئلا تكون ثمة مفسدة أعظم وفتنة أكبر، وفي مثل هذه الحالة: نصبر ونطيع في المعروف وننكر المنكر، ونعمل على تكثير الخير في الناس وتضييق الشر، ونلزم باب الدعوة إلى الله والإصلاح حتى يأذن الله بأمر من عنده.

٣- هل نخرج على الحاكم إذا لم يُظهر الكفر، ولكنه أظهر الظلم ولم ينزجر عن ذلك، أو أعان على نشر الفسق والمنكرات في البلاد ولم يعمل على تغيير ذلك؟

والجواب أن أكثر أهل العلم على المنع من ذلك وتحريمه تحريمًا شديدًا، وهذا القول هو القول الذي تسعفه ظواهر النصوص الشرعية التي أمرت بالصبر على هذا النوع من الأئمة، وعدم التسرع في الخروج عليه.

أخرج مسلم عن وائل بن حُجْرٍ الْحَضْرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةَ بْنَ بَرِيدٍ الْجُعْفِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتِ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَجَذَبَهُ الْأَسْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَقَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ».

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وأخرج مسلم من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشَجِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالُوا: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ (يعني: أفلا نقاتلهم ونخرج عليهم)؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهُ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ».

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: «أَفَلَا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا»، ففيه أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِمَجْرَدِ الظُّلْمِ أَوْ الْفُسْقِ مَا لَمْ يَغْيِرُوا شَيْئًا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ».

ومن أهل العلم من خالف مذهب الجمهور في ذلك، وأجاز الخروج على الحاكم الظالم والفسق إذا فحش ظلمه، وأمعن في نشر الرذيلة والمنكرات، وغلب على الظن صعوبة إصلاحه أو تقويم سلوكه، وتحققت قدرتنا على خلعه وتنصيب الحاكم الصالح المصلح الذي يرفع الظلم وينشر العدل ويأمر بالخيرات، وهذا الفريق فَسَّرَ لفظة الكفر البواح في الحديث بالمعاصي الظاهرة البينة لروايات وطرق أخرى، وهذا الفريق قَصَرَ أحاديث الصبر هنا على الحاكم الظالم والفسق في خاصة نفسه، وليس فيمن عمَّ الظلم والفسق البلاد والعباد بسببه.

ومما قرره أهل العلم في ذلك لزوم تولي أهل الحل والعقد تغيير هذا الحاكم، ولا نترك ذلك لعامة الناس فيكثر القتل، وتَعْظُمُ الفتنة، ويزيد الشر.

٤- لا يخفى على المتتبع لنصوص الشرعية حرصها على طاعة أولي الأمر فيما أطاعوا الله فيه، وإن كانت بعض الخصال المطلوبة فيهم منقوصة وغير موجودة، وإن أظهروا ظلمًا وفسقًا، وهذا يجعلنا ننظر في ثمرات ذلك وأثره على الدين والنفس والعرض والمال، وهو أمر لا يحتاج إلى كثير تأمل، فالخروج عليهم وترك طاعتهم في المعروف يُسَبِّبُ فسادًا كبيرًا وشرًا عظيمًا، ويسبب اختلالًا لأمن الناس في ضروريات حياتهم من نفس وعرض ومال، ويقوي أهل الظلم ويعطيهم ذريعة للبطش بغيرهم وأكل حقوقهم، وتطيش معه عقول كثير من أبناء الأمة وبناتها.

وهذا لا يلزم منه إقرار الظلم في بلاد المسلمين، بل إننا متفقون على أن الظلم ظلمات، وعلى أنه لا يأتي بخير أبدًا، بل هو الشر كله، ولكن التعامل مع الشر لا يكون إلا بما يُزيله لا ما يزيده، والخروج على الحاكم الظالم لا يأتي بمقصوده غالبًا، بل تكثر فيه الدماء وتعمُ الفوضى.

ولا تقولوا: إن بقاءهم مع فسقهم وظلمهم فيه خراب للبلاد وإفساد للعباد، فإن هذه المقولة يتساهل فيها كثير من الناس دون أن يدركوا تبعاتها، ودون أن تكون لهم دراسات محكمة في ذلك، وإنما تغلب عليهم الحماسة وحبهم للدين وحرصهم على سرعة التغيير.

أقول هذا لأن الخروج على الحاكم يرتبط بدماء المسلمين التي رفع الشرع قدرها، والخوض فيها وتعريضها للسفك يحتاج إلى رسوخ في العلم والفهم، وإن كنت كباقي إخواني وأخواتي من طلاب العلم وطالباته أبغض الحاكم الظالم والفاسق في الله، ولا أَرْضَى أي مخالفة للشرع تصدر منه وأتبرأ منها، ولا أعينه عليها، أبغضه بِقَدْرِ فسقه وظلمه.

وأفهم كطالب علم تلك المساحة التي أعطاها الشرع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول كلمة الحق عند السلطان الجائر لمن استطاع، أفهم هذه المسائل بفقهها ومعالمتها الشرعية، وأتبعها وأقوم بما استطعت منها إعداراً إلى الله، ورغبة في التغيير.

وهنا همسة في أذن من أحبوا دينهم، وسرى هذا الحب في عروقهم ودمائهم، واختلط بجوارحهم وقلوبهم، أقول: ظهور عدد من المعاصي والكبائر في بلاد المسلمين، وانتشار الظلم وحماية أهله لا يجعل بلاد الإسلام بلاد كفر، ولا يخرج أهلها والعاملين في قطاعاتها عن دائرة الإسلام، فلا تأخذنكم غيرتكم على محارم الله ذات اليمين وذات الشمال، بل احرصوا على ضبط هذه الحماسة بالعلم، وبالالتفاف حول أهله، لئلا يتلاعب بكم أهل الأهواء وأصحاب الرايات التي تحارب دين الله باحتراف وإتقان وإبداع.

ثم تأملوا ما أذن به الشرع في مثل هذا المقام، وهو ما سأزيده بيانا إلى بيان بعون الله تعالى وتوفيقه فيما يأتي.

٥- ديننا لا يُحِبُّ الظلم ولا يرضيه، وقد أعطى لمن رأى ظُلمَ الحاكم يسري في البلاد والعباد مساحةً شرعيةً ليوصل صوت الحق ونداءه، وهذه المساحة مندوبة ومستحبة لمن أطاقها، وما أقل من يطبقها في زماننا، وقد تكون واجبة في أحوال.

الشرع أذن لمن تحقق من غلبة الظلم وقيامه في الناس أن ينكر على الإمام الظالم، وأن يأمره وينهاه، ويُذَكِّرُه بطاعة الله، ويحذره سخطه وعقوبته، وهذا الإنكار ليس خروجاً على الإمام الشرعي، بل هو تذكير وسعي لتصحيح المسار ونشر العدل.

أخرج أحمد والنسائي عن طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

وأخرج الحاكم في المستدرک عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ». أي: فقتل الإمام الجائر هذا الرجل.

تأملوا كيف وصفه الحديث بأنه سيد الشهداء، وكأني به لما قال كلمة الخير وأمر ونهى قد استحضرت عظمة الرب وخشيته نصب عينيه فصَدَقَهُ، ونسي نظر الناس ومدحهم وثناءهم فَتَبَّتْ، وزال الخوف من قلبه فأدَّى ما عليه، وما أصعبها، ولكنها مع صعوبتها قَيَّضَ الله لها منارات من الناس يقومون بأمرها، ويُحْيُونَهَا في العالمين، ويضربون أروع الأمثلة في تحكيم الشرع ومخالفة الهوى.

إنَّ مناصحة الحاكم الظالم أمر لا نستطيع الاستغناء عنه، ولا يجوز لنا بحال أن نميته في الأمة، فقد أخرج أحمد والترمذي عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ».

٦- هنا فائدة نفيسة متعلقة بالخروج على الحاكم الظالم أو الفاسق فيما لو رأينا من يخرج عليه ويرى هذا الرأي، ومتعلقة بموقفنا من هذا الخروج، هل ننصر الحاكم الظالم ونقف معه، أم ننصر الخارجين عليه الذي حملوا السلاح وطالبوا بما طالبوا به؟

والجواب أنقله من كتب أئمة المالكية عن الإمام مالك رحمه الله، حيث قال: «إِنْ كَانَ الْإِمَامُ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَجَبَ عَلَى النَّاسِ الدَّبُّ عَنْهُ، وَالْقِتَالُ مَعَهُ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلَا؛ دَعُوهُ وَمَا يُرَادُّ مِنْهُ، يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنَ الظَّالِمِ بِظَالِمٍ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنْ كُلِّهِمَا».

٧- فائدة أخرى هنا تجدر الإشارة إليها في مقام الحديث عن هذه المسألة، أقول فيها: يجدر بالعلماء وطلبة العلم أن يعتنوا بالنصوص الشرعية التي تدعو إلى الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي تدعو إلى نصر المظلوم ومنع الظالم عن ظلمه، والتي تدعو إلى تحكيم شرع الله تعالى في حياتنا، أقول: يجدر بهم أن يعتنوا بهذه النصوص كما يعتنون بالنصوص الشرعية التي تأمر بلزوم طاعة ولي الأمر وعدم الخروج عليه إلا إذا رأينا كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان، وقد جاء في حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذكر البيعة على السمع والطاعة رواية: «وَأَنْ نَقُومَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً».

ومما يلزمنا كذلك أن نذكر النصوص جميعاً في سياقها الصحيح، ونبين فقهها ومعانيها، فإنَّهَا وَقَعَتْ بين يدي من ظلمها وحملها ما لا تحتل، ووقعت بين يدي من استعملها لخاصة نفسه واتبع هواه فيها، وإلى الله المشتكى.

٨- والشرع أعطى مساحة كذلك لمن رأى بلاد المسلمين تغرق في المنكرات، ومن المنكرات أن نرى تغييراً وتبدلاً لبعض معالم شريعتنا وديننا وعبوديتنا، ومن المنكرات كذلك أن نرى رايات أهل الفسق والفجور ترتفع في أرض الإسلام من شرب للخمر وكشف للعورات، ومن فشو الربا والقمار، ومن غلبة الاختلاط بين الرجال والنساء وما يتبع ذلك من حكايات وقصص يشيب لها الولدان، وغير ذلك.

أقول: الشرع أمر بتغيير المنكر هنا وفقاً لضوابط علمية وشرعية لا بد من مراعاتها، والأمر بالتغيير جاء في قول النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

ولعل التغيير باليد يكون عسيراً في هذا المقام، فكان التغيير بالموعظة والنصيحة والكلمة الطيبة، وإلا فالمدار على القلب إنكاراً وعلى البدن هجراناً. أخرج مسلم عن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

ولعل خلاصة القول في المسألة يأتيكم فيما أخرجه مسلم عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ (يعني: سترون منهم أموراً تعرفونها وأخرى تكون منكراً ومُحَرَّمَةً)، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرَأَ (أي: فمن كره بقلبه لأنه لا يستطيع التغيير بيده ولا بلسانه)، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ (أي أن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا». وهذا يدل على أنه ليس سهلاً أن يكون المرء جندياً من جنود الباطل والظلم ومن مناصريه وأعوانه.

وتذكروا أن الكلام إنما هو حول المنكرات العامة التي تحصل بها المجاهرة، وتحميها القوانين والأنظمة المعمول بها، وليس حول المنكرات الخاصة التي يفعلها أولو الأمر في أنفسهم، أو يفعلها أهلوه.

٩- لا يفوتني حال الحديث عن فشو الظلم والمنكرات في بلاد المسلمين الحبيبة أن أقول:

عندما نرى مظلوماً يطالب بحقه ويرفع صوته به، فالأصل أن ننصره في ذلك وأن نعينه على مظلّمته إن استطعنا، لا أن نقف في وجهه وننصر الظالم لأن القوة معه، ومعلوم لديكم أن أعوان الظلمة من الأصناف التي لم ير النبي ﷺ عقوبتها لما أراه الله ألوأناً من عذاب أهل النار في النار، فقد أخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَنَفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ» (هم أعوان الظلمة الذين يعذبون المؤمنين على غير جريمة منهم) الحديث.

وأقول أيضًا: عندما يرى الشباب المسلم المحب لدينه الغيور عليه تحاكمًا في بلاد المسلمين إلى قوانين تخالف شرع الله تعالى في عدد من أبواب الدين، وعندما يرى موالاة ظاهرة لأهل الكفر يفتخر بها أصحابها صباح مساء، وعندما يرى حربًا على الدعاة إلى الله وتضييقًا عليهم في رزقهم وأمور عيشتهم، بل يرى حربًا على الذين يَحْمُونَ مقدسات المسلمين ويذبون عن دينهم، كيف لي أن أقنعه أن هذا الأمر سوي، وأن ما يجري لا ينفع معه إلا السكوت والاستسلام. ومن هنا نحتاج إلى أمرين اثنين بتقدير أهل العلم:

الأول: أن ندرك سبب فورة الدماء في نفوس كثير من أبناء هذا الجيل، ونعمل على إصلاح الخلل الموجود، ونرتضي حكم الله ودينه دستورًا لنا فيما أمرنا الشرع أن نحتكم إليه، ولا يليق بنا أن نأذن للبد الآثمة أن تمتد إلى أبنائنا العاملين في حقل الدعوة إلى الله تعالى، وتسير بهم إلى المجهول.

والثاني: أن نوجه هؤلاء الشباب إلى ضرورة تقديم ما يستطيعون تقديمه لدينهم وفقًا لما أذنت به الشريعة الراقية الرائعة، وضرورة الالتفاف حول أهل العلم الراسخين فيه وعدم التساهل في إسقاطهم، وعدم الانجرار إلى دعوات تكون الراية فيها عمياء، وأن يصبروا على انتفاش الباطل وأهله، ويدافعوه ويدافعوهم بما استطاعوا، فإن الفرج قريب بعون الله.

١٠ - هل الإنكار على الحاكم الظالم أو الفاسق يكون سرًّا أو علانية؟ والجواب أن الإنكار قد يكون علنًا وقد يكون سرًّا، وذلك بحسب المنكر وما يترتب على إنكاره، وإليك البيان:

إذا كان هناك ظلم ظاهر وَبَيَّنَّ، وكان هناك فسق عَمَّ وانتشر، واستطاع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يصل إلى الحاكم ويتناصح معه، وَيُبَيِّنَ له حكم الله في ذلك، ويقول كلمة الحق، فهذا هو الأصل، وهذا ما استحبه أكثر أهل العلم واتبعه، وأرشدوا في مثل هذه الحال إلى الإسرار في البيان، والإسرار في ذلك إنما هو خشية أن يترتب فساد أكبر على هذا الإنكار، كأن تشد وطأة هذا الحاكم الظالم على الدعاة والعلماء، وكأن تزداد مجاهرته بالمعاصي والدعوة لها، وخشية أن يستغل بعض الغوغائيين والمغرضين الجهر في الإنكار ليُفسدوا حياة الناس وما حصلوه من أمن وأمان.

ولكن هناك حالات لا يصلح معها الإسرار، بل يكون الإعلان بالإنكار أقرب إلى روح الشرع وطريقته، فالحاكم الذي نشر الفسق والظلم، وأحاطت به حاشية السوء، ولم يمكن الوصول إليه، فواجب الدعاة إلى الله هنا أن يبينوا هذا المنكر للناس على الملأ، ويذكروا مفاصله ومخاطره وطاماته علانية، لئلا يضيع شرع الله ويظن الناس أن أمر المنكرات هينٌ وسهلٌ.

وربما يكون الإنكار العلني رادعاً للحاكم وحاشيته لئلا يستطردوا في الظلم والفسق، وقد أُمِنَ بإنكاره ظلماً محتملاً على الآخرين، وقد يتوقف الحاكم عن إلحاق الضرر بمن أنكر لما يرى التفاف الناس حوله، ويرى وقوفهم مع العدل والخير.

وبطريقة أخرى: لا يليق بالعالم أن يكون في مجلس منكر يحضره الحاكم ويجاهر فيه بالفسق ويدعو إليه، ثم يسكت عن المنكر ولا يتحرك ساكناً، فهنا ينصح ويُذَكَّر أو يهجر المجلس إن استطاع، أو يبدي بأي طريقة عدم رضاه عن الحرام.

أخرج مسلم عن طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ (يعني: الخليفة الأموي مروان بن الحكم الذي عكس في صلاة العيد، فخطب ثم صلى حرصاً على إسماع الناس للخطبة). فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، فَقَالَ: قَدْ تَرَكْتُ مَا هُنَالِكَ (يعني: تركت السنة)، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ (هو الصحابي أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

والإنكار علانية له ما بعده، وهو ما يجدر بمن يختار هذا الطريق أن يفقهه ويدرك عواقبه على نفسه وأهله وماله، لا أقول ذلك تخذيلًا أو إرجافًا وتخويفًا، ولكني أقوله لأن الدعاة إلى الله تعالى يختلفون في ذلك، فمنهم من يطيق ومنهم من لا يطيق، ولذلك أرجو ممن أطاق ذلك وارتفعت همته له ألا يثقل على إخوانه الذين اختاروا طريق العافية في ذلك.

أخرج أبو داود وغيره بإسناد حسن عن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»، قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يَطِيقُهُ».

ثم إن هناك منكرات قد يُقبل عليها الحاكم ويرضى بها، ويكون شرُّها على الأمة عظيمًا، وضررها كبيرًا، كأن يتنازل حاكم عن أرض المسلمين ويبيعها لأعداء الأمة، أو كأن يُمكن في البلد لأصحاب الفكر المنحرف الصادين عن التوحيد الخالص، أو كأن يأذن لتجار الشهوات بإغراق الجيل بالشهوات المحرمة ويسر لهم ما يحتاجونه في الإعلام والقوانين والتربية، وغير ذلك.

ومن عجائب زماننا ما نراه من عدد من العلماء وطلبة العلم الذين أصبحوا أدوات في يد الأنظمة العلمانية التي تأخذ من الدين ما يوافق هواها، حيث يعمد هؤلاء إلى النكاية بمخالفهم

من طلبة العلم والدعاة فيما يحتمل الخلاف، ويكونون سبباً في التضيق على كثير من الشباب الذين يحملون فكرًا معتدلاً بالجملة، ويكونون متحمسين لدينهم محتاجين لشيء من الإرشاد والتوجيه والتذكير فقط، بل قد يُعينون على سجنهم، ويفتحون للحاكم أبواباً من الشرور والظلم والصد عن الخيرات، وأقل ما يقال في هؤلاء أنهم ضلوا الطريق، وأخذت الدنيا حظوظها من نفوسهم، والخطر يكمن في أنهم ألبسوا فعلتهم هذه ثوب التدين والعمل لله.

والجهر بالإنكار على أئمة الجور والفسق إن كان منضبطاً بضوابط الشريعة، له فوائد كثيرة أشير إلى بعضها على عجلة، منها: أن فيه إعداءً إلى الله تعالى وإبراء للذمة، وفيه إحياء لما عرفناه من سيرة عدد من أئمة الدين وقادته، وفيه كذلك إظهار لشعيرة رَفَعَ الله قَدْرَ أمتنا من أجلها وهي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه تربية لعموم المسلمين بأن السيادة في حياتنا إنما هي للدين وأحكامه، ولا أحد فوق شريعة الله تعالى وإن كان حاكمًا.

وتنبهوا هنا إلى أن إنكار المنكر والنصح فيه له ضوابط شرعية يلزمنا الانتباه إليها، من أهمها: أن نتحقق من وقوعها، وأن تكون منكرًا لا مَرِيّة فيه ولا شَكَّ، وأن يحصل الإنكار بالحكمة والأسلوب الحسن وفقًا للمقام.

وقد رأينا عددًا من المنكرين يخوضون في الأعراض، ويشترقون ويغربون في كلامهم حتى أفسدوا صالح عملهم، بل رأينا عددًا من الدعاة الذين نفع الله بهم استعجلوا التغيير فحُرم الناس خيرهم.

﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

علامة الإيمان الحق الذي صدق صاحبه فيه، أن يكون الكتاب والسنة مرجعه فيما اختلط عليه من الأمر من أصول الشريعة وفروعها، وفيما جهله من ذلك.

الإيمان بالله واليوم الآخر لا يكون نافعا إلا إذا انقاد صاحبه للوحي، فإياها الحكام ويا أيها المحكومون: إذا حصل اختلاف بينكم وتنازعتم في أمر ما فاجعلوا الحُكم في ذلك إلى نصوص الشرع، وإلى ما فهمه العلماء الراسخون وما وضعوه من قواعد شرعية حال الاختلاف. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ هذا خير لكم في أمور دنياكم، وهو ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن لكم نفعًا في أمور أخراكم ومآلكم وعاقبة أمركم وجزائكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ
قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠)

تصفُ الآيةُ هنا حال قوم من الناس نافقوا، وخالفت أفعالهم أقوالهم مخالفة تدل على فساد ما في نفوسهم، وتدلل على أن إيمانهم ودخولهم إلى الإسلام لم يكن صادقاً، وعلى أنهم رضوا بحكم علماء اليهود وحُكمائهم معرضين عن حكم النبي ﷺ وأمر الله تعالى.

هؤلاء كما ذكر أهل التفسير: يهود أظهروا إسلامهم أمام النبي ﷺ وجموع أصحابه، أظهروا أنهم مؤمنون بهذا الدين وبكل ما جاء به، وهم كذلك مؤمنون بالأنبياء والكتب من قبل، ولكنهم كانوا إذا نزلت بهم خصومة واحتاجوا إلى حكم فيها تحاكموا إلى الطاغوت، ورضوا بحكمه، وقدموه على حكم دينهم وبنبيهم وقرآنهم، فكانت دعواهم بأنهم مؤمنون دعوى كذب وزور وبهتان. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

النص القرآني يذكر حالهم وما فعلوه من طاعتهم للطواغيت، ورضاهم بأحكامهم، وكيف أنهم عدلوا عن حكم الله تعالى وشرعه.

الآية تفضحهم وتكشف خبث قلوبهم، وتقول لنبينا ﷺ: ألم تر كيف يفعلون ذلك وأنت بين أظهرهم والمعجزات تنزل عليهم، ما أعجب حالهم! وما أشد ما ينتظرهم من سخط الله وعقوبته إن لم يتوبوا ويرجعوا!

والطاغوت هو صاحب الطغيان الكبير والكثير، وهو كل معبود من دون الله ممن رضي بذلك من البشر، ممن شرع للناس أحكاماً تخالف منهج الله تعالى وحكمه، والمقصود به هنا أولئك الحُكماء والعلماء من أهل الكفر الذين رضيهم المنافقون لأنفسهم.

وقد روى أهل التفسير بأسانديهم عن عدد من الصحابة أن الآية نزلت في متخاصمين أحدهما كان منافقاً، وأبى أن يحتكم إلى النبي ﷺ لأنه لا يأخذ الرشوة، وأراد أن يحتكم إلى غيره من اليهود أو من حكماء العرب الذين قد يميلون في الحكم له.

ولكم وأنتم تعيشون ظلال هذه الآية أن تستحضروا حال قوم يعيشون في زماننا وبين أظهرنا، يتسابقون إلى شريعة أهل الكفر التي تخالف منهج الله تعالى ويجعلونها حكماً في خصومات الناس، ويقدمونها بقوالب شتى ليرضى عنها الناس، وأتى لهم ذلك.

بل نجد من يتحاكم إلى قضاة الزور الذين يقبلون الحق باطلاً ويحكمون بالحق إلى غير أهله، يتحاكم إليهم وقد يبذل لهم رشوة وهو يعلم أنهم سيخالفون حكم الله في قضائهم، بل يقصد ذلك ويريده ليحصل على شيء من متاع الدنيا الفاني.

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ زيادة بيان لحالهم البائس، كيف أن الشيطان حَبَبَ إليهم فَعَلَهُمْ هذا وزينه لهم وَرَغَّبَهُمْ فيه، وتلاعب بعقولهم وصرفها عن طريق الفلاح والنجاح، مع أنهم كانوا يتأملون السعادة والطمأنينة وتحصيل رضا الطاغوت باحتكامهم إليه، ولكن حقيقة الأمر أن الله تعالى تخلى عنهم بما كسبت أيديهم، وأن الشيطان قادهم إلى الضلال الذي أبعدهم عن طريق الحق والعبودية، وقربهم من طريق الكفر الذي تعقبه خسارة الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾

وصل بهم الحال إلى عدم تقبل نصح الناصح ودعوة الداعي بأن يُحْكَمُوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في أحوالهم، فكان حالهم دالاً على رضاهم بما هم عليه من الكفر والضلال.

حالهم هنا يحمل صعوبة لا نظير لها، قد وصفتها الآية بأنهم يصدون عما دُعُوا إليه صدوداً، أي: يعرضون إعراضاً متعمداً يحمل العداوة والاستكبار.

والتصريح بنفاقهم في هذه الآية يدل على أن من علامات أهل النفاق إعراضهم عن حكم الله وحكم رسوله ﷺ، ورغبتهم عن ذلك وعدم قبولهم مع علمهم التام بما جاءت به الشريعة، ويدل كذلك على أن إيمانهم المزعوم لا يصح ولا ينجو به صاحبه.

قارنوا حالهم بحال أهل الإيمان والتقوى الذين عرفوا ربهم وعظَّموه وعبدوه، وعرفوا نبيهم وآمنوا به واتبعوه، والذين وصفهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (٦٢)

في حال السَّعة والرخاء يتحاكمون إلى الطاغوت ويسترضونه، يأخذون من الدين بعض المظاهر ليحفظوا أنفسهم وأموالهم ويحتاطوا لأنفسهم، ويعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم جعلوا لهم مكانة عند أهل الإسلام وعند أهل الكفر، ونسوا أو تناسوا أن غضب الله عليهم له ما بعده، وأن أمرهم لن يكون على الحال الذي يحبون ولن يدوم.

هؤلاء: إذا أصابتهم مصيبة في أموالهم أو أنفسهم أو أولادهم بسبب ذنوبهم وإعراضهم، تذكروا من بيده النفع والضرر حقيقة، وعلموا أن نفاقهم لن يغني عنهم شيئاً، وجأؤا إلى نبينا ﷺ يعتذرون له ويحلفون على صدقهم وعدم نفاقهم، وأنهم إنما ذهبوا إلى أهل الكفر ليتحاكموا عندهم إحساناً وتوفيقاً، يعني: مداراة لهم ومصانعة واحترازاً واحتياطاً، أو دعوة لهم وتأليفاً لقلوبهم وليس قناعة بما عندهم.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (٦٣)

أمر النفاق عجيب لأن محله القلب، ولا يطلع على حقيقة ما في القلوب إلا الله تعالى، وإن كانت ثمة أمارات تظهر على فلتات السنة المنافقين وفي بعض أحوالهم يعرفهم بها أهل الإيمان.

والمطلوب في التعامل معهم أن ندرك أن الله تعالى مطلع على قلوبهم، ولا يغفل عما فيها من نفاق وقصد سيئ وعداوة وتربص، وسيحاسبهم على ما حملوه في قلوبهم أشد محاسبة.

ثم احرص يا محمد ﷺ واحرصوا أيها المؤمنون على ثلاثة أمور في مجاهدتهم:

الأول: أن تعرض عنهم، أي: لا تلتفت كثيراً إلى سوء فعالهم، ولا تحزنك خصالهم المؤذية، ولا تهتم بصددودهم، ولا تحرص على تعنيفهم والجهر بإطلاق وصف النفاق عليهم، ولا تحرص كذلك على تكريمهم والبشاشة في وجوههم، واكتف بظاهر حالهم واجعل سرائرهم إلى الله.

وهذا الإعراض مع هذا النوع من الناس يُحدث عنده قلاقل واضطرابات، ويدخل على قلبه ألواناً من الحزن، ويدعوه إلى مراجعة نفسه والانتصار عليها وطلب استقامتها.

الثاني: عِظْهُمْ، أي: ذَكِّرْهُمْ بالله ترغيبًا وترهيبًا، وادعهم إلى الصدق معه والتخلص من التذبذب والنفاق، وأْمُرْهُمْ بفعل الخير واجتناب الشر مع شيء من التخويف.

الثالث: قل لهم في أنفسهم قولًا بليغًا، أي: بينك وبينهم لعل حالهم يصلح.

ومن أهل العلم من قال: المقصود أن تنصحهم في شأن أنفسهم بكلمات فيها قوة تبلغ إلى سويداء قلوبهم، وفيها مبالغة لردعهم عمَّا قد يصدر منهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

لا يُقبل إيمان عبد أبي أن يطيع محمدًا ﷺ فيما جاء به، وإيمانه المزعوم مغلوط ومردود عليه، ولا يقبل الله معه فرضًا ولا نَفْلًا فإن طاعة الرسول ﷺ ركن من أركان الدين التي أمر الله تعالى بها وارتضاها لعباده، والتحاكم إلى شريعته أصل من أصول التوحيد والعبودية.

وطاعة النبي ﷺ عبادة يكرم الله تعالى بها من رضي عنهم، ولا تكون هذه العبادة إلا بأمر الله وإذنه، ولذلك جاء في الآية قول الله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: إلا بمشيئته وتوقيفه وإعانتة، وكأن النص القرآني هنا يعلمنا أن حقيقة طاعة الرسل أنها طاعة لله تعالى، وأن مَرَدَّ الطاعة إليه سبحانه لا إله إلا هو.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ سبحان ربي ما أعظمه، كيف يرشد هؤلاء الضالين الذين اتبعوا أهواءهم، وانغمسوا في الفسق والبعد عن طاعة الله، وارتضوا حُكْمَ الكُفَّان والكفار ولم يرتضوا بحكم الله ورسوله، وظلموا أنفسهم أشد الظلم بالطريق الذي اختاروه، ربنا يرشدهم ويغذ خطاهم إلى طريق التوبة والاستغفار، فهذا طريق أحبه الله ووعد أصحابه بالمغفرة والرضوان والقبول.

ولو أن هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع رجعوا إلى الله وفارقوا خصالهم السيئة، وندموا على ما فعلوا، وعاهدوا الله تعالى على استقامة قلوبهم، ثم انقادوا لنبِيِّهم عليه الصلاة والسلام وسألوه أن يدعو الله لهم ليغفر لهم ويقبل توبتهم، أقول: لو أنهم فعلوا ذلك لَفُتِحَتْ لهم أبواب رحمت الكريم الذي وسعت رحمته كل شيء، ولرضي عنهم وأرضاهم.

والظاهر من حال المنافقين أن قلوبهم فسدت، وأن خطيئاتهم أحاطت بهم، فحرموا أنفسهم وعد الله تعالى وفضله، ولم يرجعوا إلى ربهم ويتوبوا، ولا جاؤوا بنبهم ﷺ يطلبون منه الدعاء. قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأْرُؤُهُمْ وَإِنْ لَهُمُ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

ثم تذكروا معي أن الله تعالى قال: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وهذا معناه أنه لا يكفي استغفار رسول الله لهم، بل لا بد من توبتهم مع استغفار نبي الله لهم ليتوب الله عليهم.

واعلموا أن المجيء إلى النبي ﷺ لطلب الدعاء منه والاستغفار إنما هو في حياته، أما بعد مماته فلا يصح طلب ذلك منه، ولا يجوز الذهاب إلى قبره من أجل ذلك فإنه قد مات ﷺ، والحمد لله الذي أخبر عن نفسه بأنه قريب من دعوة الداعي، فالله الله بإفراد الله سبحانه وتعالى بالدعوات وطلب المغفرة والرضوان، مع التذكير بأنه لا حرج بأن يطلب الواحد منا من غيره من الأحياء أن يدعو له، بل إن الدعاء للمسلمين والمسلمات عمومًا من خصال أهل الصلاة والصالح.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥)

آية عجيبة يُقسم الله تعالى فيها بنفسه الكريمة المقدسة سبحانه، دلالة على عظم المُقَسَّم عليه، والمُقَسَّم عليه هنا هو أن إيمان الواحد منا لا يصح ولا يقبل منه إلا إذا جعل محمدًا ﷺ حكمًا لما يعترضه من خصومة.

والمقصود شريعة محمد ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله تعالى لئلا يُظَنَّ ظان أن الآية خاصة بمن عاش معه ورآه، فقد أجمع أهل العلم على أن المؤمنين لا يرتضون بغيره حكمًا في حياته ﷺ، ولا يرتضون بغير أقواله وأفعاله حكمًا بعد وفاته، وإلا كان إيمانهم باطلاً وفساداً ومردوداً عليهم.

يقسم الله تعالى بذاته لنعلم أن هؤلاء المنافقين ليسوا مؤمنين وإن زعموا ما زعموا، فالدين والطاعة ليست كما يشتهون أو يُحبُّون، والعبودية لا تقوم على الانتقاء والتشهي، العبودية منهج حياة وبناء صلب قائم على عقيدة صافية نقية لا عوج فيها.

والآية ترسم لأهل الإيمان طريقهم في التعامل مع ما جاء به رسول هذه الأمة المباركة محمد ﷺ، ثلاثة أمور لا يُقبل تَخَلُّف واحد منها ليصدق عليهم وصف العبودية والإيمان الصحيح النافع:

الأول: تحكيم هدي النبي ﷺ إذا اختلفوا في أمر واختلط عليهم حكمه.

الثاني: خلو القلب من أي ضيق أو تسخط أو حرج من حكم الشريعة فيما ألزمت أن تكون حكماً فيه، والرضا بأمرها ونهيها، وهذا معناه أن يعلموا أن الشريعة التي جاءت لتحقيق مصالحنا في العاجل والآجل ما كانت لتُظلمنا ولا لتضيق علينا، ولكنها تختار لنا ما فيه صلاحنا فإنها أنزلت من عند حكيم خبير، والمؤمن يعلم ذلك وينشرح صدره لحكم الشرع ويفرح به.

أخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصِمَ الزُّبَيْرِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ (الحرّة موضع في المدينة فيه حجارة سوداء، وشراجها يعني: مجاري الماء)، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرَحَ الْمَاءُ يَمُرُّ (أي: اتركه وأطلقه ليصلني لأنه كان يصل أرض الزبير أولاً فيحبسه ليسقي أرضه ثم يرسله)، فَأَبَى عَلَيْهِمْ (رفض الزبير)، فَاتَّخَصَّمُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ (لم يرض بحكم نبينا وزعم أنه وقف مع قرابته)، فَتَلَوْنَ وَجْهَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ (تَغَيَّرَ مِنَ الْغَضَبِ لِأَنْتَهَاكَ حُرْمَاتِ النُّبُوَّةِ وَقُبِحَ كَلَامُ هَذَا الْإِنْسَانِ)، ثُمَّ قَالَ: «يَا زُبَيْرُ اسْقِ، ثُمَّ احْسِبِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدَرِ (الجدار)» فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾.

ومقصود هذه القصة أن الماء كان يصل أولاً إلى أرض الزبير فيسقي منه، ثم يتركه للأرض التي تحته وهي أرض الأنصاري، وهذا كان حقاً للزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم لما خاصمه الأنصاري عند نبينا عليه الصلاة والسلام طلب نبينا عليه الصلاة والسلام من الزبير أن يسقي شيئاً سيراً أقل من حقه وحاجته ثم يرسل الماء إلى جاره، فلم يرض الأنصاري بهذا القضاء مع أن فيه تسهلاً عليه، وقال ما قال، فغضب ﷺ وطلب من الزبير أن يأخذ جميع حقه، فَكَانَ قَضَاؤُهُ الْأَوَّلُ ضُلْحًا، وَكَانَ قَضَاؤُهُ الثَّانِي أَخْذًا بِالْحَقِّ.

الثالث: ويسلموا تسليماً، أي: يستسلموا لهدى الوحي، ويعملوا به، وينقادوا له بجوارحهم مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافِعَةٍ وَلَا مُنَازَعَةٍ، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٦٦)

هذا وصف لحال صنف من الناس هم أقرب للنفاق من الإيمان، هؤلاء: يتعبدون الله تعالى على طريقتهم لا على طريقة الشرع، ويعبدون الله تعالى على حرف ولا يثبتون في الصعاب، ولا يُسلمون لأمر الله تسليمًا.

يخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يطيعون أمره إذا كان عسيرًا على نفوسهم، فلو أمرهم بأن يقتل كل واحد منهم نفسه أو يخرج من أرضه وبلده ما فعل ذلك ولا أقدم عليه، يعني: سواء كان التكليف عليهم سيرًا أم شديدًا فالحال لا يتغير مع أهل النفاق الذين لا يصدر منهم إلا العناد وقلة الاستجابة لأمر الله ورسوله.

ولكن الآية بينت حال قليل من العباد حملوا في قلوبهم إيمانًا راسخًا كالجبال، نجدهم يتسابقون لتحقيق مرضاة الرب عنهم، ولا يلتفتون لأهوائهم ولا إلى راحة أبدانهم على حساب دينهم وأمتهم، يحملون أرواحهم على أكفهم ويذلونها كما أمر الشرع وأرشد.

وانتهوا هنا إلى أن الله تعالى لم يأمر أحدًا من أصحاب النبي ﷺ أن يقتل نفسه كما أمر بني إسرائيل من قبل عقوبة لهم، ولكن عافاهم مما يشق في ظاهره على الأنفس، ويسر عليهم في مقامهم وسفرهم، وأعطاهم من الفقه ما يهون عليهم كل عسير، مع علم الشرع بأن هؤلاء الصَّحْبَ صدقوا الله، ونذروا أرواحهم وأنفسهم وأموالهم للدين وأهله، وهم الذين عاهدوا الله تعالى ورسوله ﷺ على الطاعة في الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالسَّهْلِ وَالشَّاقِّ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ * يظن أهل النفاق أن بعدهم عن أوامر الله التي لا توافق أهواءهم أو التي يكون فيها نوع كلفة ومشقة، يظنون أنها تُفسد عليهم حياتهم الطيبة، وأنها تُضيِّق عليهم في معاشهم، وأنها لا تحقق لهم السعادة المطلوبة، ولو أنهم أقبلوا على الصلاة والذكر والجهاد وما أمروا به لكان ذلك أسعد لقلوبهم وأكثر طمأنينة، ولكان أقرب إلى الحياة الطيبة التي يرجونها بنفاقهم وإعراضهم، وكان أشد تثبيتًا على الإيمان والمسارة للطاعات وهجران المحرمات، ويا ليتهم يعلمون ما ينتظرهم في الدارين بالتزام أوامر الرب جل وعلا، واتباع سيد ولد آدم ﷺ.

وهذا الأمر لا يقتصر على أهل النفاق، بل نجده كثيراً مع فاعل المعصية الذي يظن أن إقباله عليها سيربحه من عناء التفكير بها، وسيطفئ النار التي في قلبه من شدة تعلقه وشغفه، ونراه يفتح طرائق هذه المعصية ويخطط لها باحتراف لعله يظفر بالراحة التي يبحث عنها وبالسعادة التي يريجوها، ولكن لحظات الفرح التي تدخل إلى قلبه باقترافه للذنوب ما تلبث إلا أن تتحول بعد برهة من الزمن إلى لعنات تلاحقه في كل مكان، وتفتح عليه أبواب شرور لم تخطر له على بال، ويودُّ لو رجع إليه قلبه.

ولكم أن تتأملوا ما يحصل مع فاعل الزنا بعد فراغه من شهوته، انظروا إلى قلبه وحياته مع أسرته وأنواع الحرمان التي تحيط به، لقد استعجل طبياته بالحرام، وكذا الحال مع أكل الربا وشارب الخمر وسائر ما حرم الله.

ومثل هذا الصنف من الناس يحتاج إلى أمرين يجدر به أن يعرض عليهما بأسنانه:

الأول: توبة نصوح إلى الله تعالى يدّخرها إلى يوم لقائه والوقوف بين يديه.

والثاني: إقبال على الطاعة ومجاهدة للنفس عليها، حتى لا يبقى للمعصية مكان في قلبه، وهذا الأمر الثاني هو الذي جاءت به الآية.

وأنا أزعّم أن النص القرآني هنا يمثل قاعدة عظيمة من قواعد العبودية للرب العظيم، قاعدة تبين لنا رُكنًا من أركان الثبات على الطاعات، وتثير الدرب لأولئك الحيارى الذين انغمسوا في الشهوات.

أيها العصاة: اعلموا أن من أعظم أسباب الثبات على العبودية والثبات عند الممات وبعده، المسارعة إلى فعل الطاعات وإن كانت ثقيلة على النفس أول الأمر، ثم الصبر عليها حتى يألّفها المؤمن، وتكون هي جنته وسرّ سعادته وطمأنينة قلبه، وهذا أمر معلوم في حياة الصالحين من الناس، فإنهم لما جاهدوا أنفسهم وخالفوا أهواءهم أصبحت الطاعة جزءاً من حياتهم وحياة قلوبهم لا يقدرّون على مفارقتها، وأصبحت المعاصي أبغض شيء إليهم في يومهم وليلتهم، وقذف الله في صدورهم نوراً عرفوا به الخير من الشر، وتآلفت بسببه أرواحهم مع السائرين إلى الله تعالى.

﴿وَإِذَا لَآتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾

لا يقتصر أثر الطاعة على الدنيا، ولكنه ممتد إلى الدار الآخرة حيث الأجر العظيم والنعيم المقيم في جنات رب العالمين.

ولعلنا لو استحضرنا نصوص الشرع التي بينت كثيرًا من الفضائل التي تنتظر صاحب الصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد والدعوة إلى الله وغير ذلك، ثم رأينا حال من أقبل عليها وبذل من أجلها الغالي والنفيس، وهجر استكمالاً لفضائل النفس كثيرًا من الذنوب التي كانت محبة إلى قلبه، أقول: لو استحضرنا ذلك لهانت في سبيل الله كل لحظة من حياتنا.

﴿وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٦٨)

أي فضل هذا ينتظر المستجيبين لأمر الله تعالى المسارعين فيه، هؤلاء: يهديهم ربنا إلى الصراط المستقيم وينير بصائرهم، ويشرح صدورهم إلى الثبات عليه، والانتصار على المعوقات التي تلوح لهم في الطريق، وما أكثرها

أمران نحتاجهما في سيرنا إلى الله: أن نعلم الحق، وأن نثبت فيه وعليه.

وهنا لفظة وَعَظِيَّةٌ تسوقنا إليها الآية الكريمة، وهي أن العبد منا ضعيف جدًا لا يقوى على تحقيق العبودية الحقة إلا بصدق الاستعانة بخالقنا ورازقنا وسيدنا ومولانا، فإن الهداية من عنده وهو من يربط على قلب أهلها، والمِنَّةُ في ذلك له أولاً وآخرًا، اللهم ألهمنا رشدنا.

ولفظة أخرى تأملوها: طاعة الله تعالى مفتاح كل نجاة وسعادة، وكل من خالف هواه وخلق نفسه من التعلق بأوهام المتع واللذائذ المحرمة، سقاها الله تعالى كأسًا من الحكمة والعلم والهدى فعرف الخير من الشر، وأصبح التزامه بدينه يسري في لحمه ودمه بتوفيق من الله تعالى.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩)

ومن أنواع النعيم المقيم الذي ينتظر من جعل طاعة الله ورسوله مقدمة على كل شيء، صحبة أقرب الناس إلى الله تعالى عبودية وأرفعهم درجة، أولئك الذين اصطفاهم ربنا على خلقه جميعًا، فرسموا لمن بعدهم معالم طريق النجاة، وكانوا خير قدوة لأمثالنا.

هل أدرك الواحد منا معاني رفقة النبيين في دار الكرامة، رفقة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وهل طار القلب شوقًا لرفقة الصديقين الذين آمنوا برسولهم خير إيمان واتبعوههم بصدق وإخلاص، كالحواريين من أصحاب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَكَمْزِيمِ الصَّدِيقَةِ عَلَيْهَا السَّلَامَ، وَكَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَخَدِيجَةُ وَعَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَفَاطِمَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ خَيْرَةِ صَحْبِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهَلْ تَخِيلُنَا جَمَالَ رَفَقَةِ الشَّهَدَاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَالَّذِينَ ضَحُّوا بِدِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَهَجَرُوا الدُّنْيَا بِلَذَائِهَا حِرَاسَةً لِلْعَقِيدَةِ وَشَوْقًا لِلْقَاءِ اللَّهِ، وَهَلْ اسْتَحْضَرْنَا كَيْفَ تَكُونُ رَفَقَتُنَا فِي الْجَنَّةِ لِلصَّالِحِينَ الْمُسْتَقِيمِينَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ الَّذِينَ صَلَّحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ، وَالَّذِينَ أَمْضَوْا أَعْمَارَهُمْ بَيْنَ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ، مَا أَرْقَاهَا مِنْ رَفَقَةٍ لَمَنْ تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهَا.

أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَكَذَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، بِأَسَانِيدٍ ضَعْفَهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَسَّنَهَا غَيْرُهُمْ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ، فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ، فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَكَ. فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ﴾».

وَلَا يَلْزَمُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ هُنَا أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَلَكِنْهُمْ قَدْ يَتَفَاوَتُونَ، لَكِنْهُمْ مَعًا فِي جَنَّاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَهُمُ الرِّضَا بِمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ كَرَامَةٍ.

وَالْتَفَاوَتُ فِي الدَّرَجَاتِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ فِي نصوصِ الشَّرِيعَةِ حَتَّى بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ الشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ ارْفَعْ دَرَجَتَنَا عِنْدَكَ يَا كَرِيمُ.

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَلْحَقَ بِأَهْلِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى وَنَكُونَ مَعَهُمْ فِي دَرَجَتِهِمْ، وَالْجَوَابُ يَأْتِيكُمْ فِيمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبُ الدَّرِّيُّ الْغَابِرُ مِنَ الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ «بَلَى»، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَةَ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَهِدْتُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّيْتُ الْخُمْسَ، وَأَدَيْتُ زَكَاةَ مَالِي، وَصُمْتُ شَهْرَ رَمَضَانَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا، كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَكَذَا - وَنَصَبَ إِصْبَعِيهِ - مَا لَمْ يَعْشَ وَالِدِيهِ».

ومن الأحاديث التي يحبها أهل العبودية الذين اشتاقت أرواحهم لمن سبقهم بالإيمان، ما أخرجه البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وغيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

وأستأذنكم هنا في تقليد جمع من أهل العلم لأقول: إني أشهد الله تعالى على محبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وعلى رأسهم سيدي وقرّة عيني ومعلمي وقُدوتي محمد ﷺ.

﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ يكفيني هنا أن الله تعالى أثنى على رفقتهم، ويكفيهم فخراً لذلك، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن رفقتهم نعيم بذاته كنعيم الطعام والشراب والنكاح في الجنة، ولعلكم تستحضرون صنفاً من الناس يحب مجالسة أهل الخير والصلاح في الدنيا، ويجد في قلبه حلاوة عجيبة لذلك، فكيف بمجالسة المخلصين في النعيم المقيم.

من هنا نفهم سر اختيار نبينا ﷺ لقبض روحه على أن يبقى في الدنيا، فقد اشتاق ﷺ لرفقة من ذكرت الآية هنا، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرَ بَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ (البحّة تغير في الصوت)، فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ﴾.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾

من الذي أكرم النبيين بالنبوة؟ ومن الذي اصطفى من خلقه صديقين وشهداء؟ ومن الذي شرح صدور قوم ليكونوا من أهل الصلاح؟ الفضل في ذلك كله لله سبحانه وتعالى.

وكفى به عليمًا بمن يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ وبمن يصلح لذلك، وكفى به عليمًا بمن صلحت نيته وصدق فيما عاهد الله عليه من بذل الروح والمال والوقت لتحصيل رضاه، وكفى به عليمًا بمن مات على الخير والصلاح وإن لم يعلم به الناس.

وهذا الختام الكريم للآية ينادي على الناس: احذروا أيها المنافقون، وتوبوا إلى الله يا من ابتليتكم بمعصية، واطمأنوا يا أهل الصلاح، وامضوا في طريق دعوتكم أيها الدعاة، وأصلحوا نياتكم وجاهدوها. اللهم استعملنا في طاعتك وأصلح نياتنا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَعَادٍ جَمِيعًا﴾ (٧١)

سياق قرآني يُظهر كرامة أهل الجهاد في سبيل الله عند الله، ويحمل أمرًا إلهيًا يسعى إلى تثبيت حب الشهادة من أجل كلمة التوحيد في قلوب المؤمنين، ويهدف إلى تمكين ذروة سنام الإسلام في الأئمة، لعل القارئ لكتاب الله تعالى يسير على خطا المجاهدين ليكونوا معهم في الجنات وإن ماتوا على فراشهم.

طلاب العلم وطالباته: المعركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر مما كتبه الله تعالى قَدَرًا، فالخير والشر لا يجتمعان أبدًا، وجنود الحق يعلمون أن دوام نصرتهم لدينهم، والعمل لذلك هو مفتاح تحجيم الشر ومحاصرة أهله.

ينادي الله تعالى أهل الإيمان ويأمرهم بِأَخِذِ الْحَذَرَ مِنْ عَدُوِّهِمُ الَّذِي يَتَرَبَّصُ بِهِمْ، ولا تكاد تُغْمَضُ له عين حتى يحصل له التمكين في الأرض، وهذا أمر لا يليق بأهل الإسلام أن يجهلوه، وأن يُعْمِلُوا فيه طيبة قلوبهم ويكونوا في غفلة عنه، وما رأينا في زماننا ما رأينا من تسلط أهل الكفر علينا إلا بعد أن آمنهم المسلمون واتخذوهم أولياء وزيادة، وإلى الله المشتكى.

يا أيها العابدون لربكم: كونوا دومًا على أهبة الاستعداد لقتال عدو الله وعدوكم، وأعدوا ما استطعتم من السلاح والرجال لتكون الغلبة لكم، ولترهبوا عدو الله وتمنعوه من إيلاكم وإسقاطكم.

احذروا خطط الأعداء ومكرهم الذي لا ينقطع، وإن كان بينكم وبينهم عهد وصلح فلا تأمنوهم.

ولا يقتصر الحذر من الأعداء على الاستعداد بالسلاح وإن كان هو المطلوب الأول، وإنما يمتد لمجالات كثيرة لا تقل خطورة عن حمل السلاح؛ فتَعَلَّمِ الصناعات التي تعين في مراقبتهم ومعرفة أخبارهم وتطلعاتهم نحونا من أنواع الحذر، وكذلك التعرف على حيلهم وطرائق مكرهم بالمسلمين عن طريق دراسات علمية متينة، نراقب إعلامهم وسفاراتهم، ونراقب أموالهم التي تدخل بلادنا، ونحذر مما يملونه علينا من اتفاقيات لا تنطلق من أسس الشرع وضوابطه، ومن تدخلهم في تعليمنا واقتصادنا، ثم نكون على دراية بحجم قوتهم الحقيقي وتقدير ظرف المرحلة وما يناسبها في مدافعتهم وجهادهم.

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ ﴿فَانْفِرُوا﴾ أي: فاخرجوا للحرب. ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسريّة بعد سريّة، يعني: متفرقين. ﴿أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ يعني: كلُّكم.

والمقصود: تخيروا من أساليب القتال ما يناسب سير المعركة، ووفقاً لتقدير قادتها للمصلحة، المهم أن تبقوا مستعدين ولا تغفلوا، وأن تتقدموا ولا تفرّوا.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾

إليكم علامة من علامات أهل النفاق الذين يتباطؤون عن نصره محمد ﷺ، ونصرة القادة المؤمنين عبر التاريخ الإسلامي، هؤلاء: تظهر حقيقتهم عند المواطن التي تزداد فيها المشقة كالجهاد في سبيل الله، هؤلاء: عندهم مرض عجيب في قلوبهم، ويتظاهرون بالسلام لغايات دنيوية صرفة، أما نور الآخرة في قلوبهم فهو ضعيف لا يكاد يظهر.

القرآن يقول عنهم: ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتخلف عن الجهاد ويتباطأ في الخروج له، والمصيبة العظمى أن فعله هذا كان في وقت أحوج ما تكون الأمة فيه لمن ينصرها، وفعله فيه إرجاف في أهل الإيمان، وتثبيط لهم ولعزائهم عن نصره دين الله لعلهم يتباطؤون ويكونون مثله، ولكن هيهات لهم ذلك.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ وتأملوا يرحمكم الله ما أخبرت به الآية عما يضمرونه في أنفسهم حال نصر المسلمين أو حال هزيمتهم، وما يضمرونه قد يظهر على فلتات لسانهم أمام المؤمنين أو قد ييوحون به فيما بينهم، وأمام من هم على شاكلتهم من أهل النفاق.

كان المنافقون يفرحون إذا أصابت المؤمنين المجاهدين مصيبة في جهادهم، كأن يهزموا أو يُقتلوا، أو تصيبهم جراحات، أو يقعوا في الأسر، وذلك لعدم شهود المعركة وتعريض أنفسهم للخطر.

والعجيب أنهم يعدّون ذلك من نعم الله عليهم لأن طريقة حكمهم على منافع الأشياء تنطلق من الدنيا ومتعتها فقط، أما الآخرة فهم في غفلة عنها، ومن غفلتهم في هذا المقام أنهم لم يستحضروا ثواب الجهاد وكرامة أهله عند الله، سواء هُزموا فصبّروا، أم استشهدوا فأُكْرِمُوا، أو انتصروا فغنموا، فالخير كل الخير في جهاد عدو الله ورسوله والمؤمنين. المنافقون كما قال أهل العلم: أعداء في صورة أولياء.

وَفَرَحُ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى أَنَّهُمْ سَلِمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَلَكِنَّهُ مُتَمَدِّدٌ إِلَى الشَّمَاتَةِ بِالْمُسْلِمِينَ لانتصار أهل الكفر عليهم. قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ^ط وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُّوْا بِهِمْ فَرِحُوا﴾ [النوبة: ٥٠].

وتعالوا نعرض أنفسنا على هذه الآية ونتساءل عن حالنا نحن مع نصرة دين الله تعالى والدعوة إليه، والحرص على تواجدها في الصفوف الأولى في كل ذلك، وتعالوا نتساءل عن حال صنف منا يتشاكل عن مدافعة الباطل وأهله لاعتبارات موهومة وخوفٍ استقر في قلبه، ودنيا أخذت عقله، مع أن هذا الصنف ربما يحب دينه ويعبد خالقه، ولكنه يراقب الحدث من بعيد ويلتزم الصمت حتى يرى النصر فيقبل، أو يرى خسارة مرحلة من مراحل الصراع فيفرح لأنه سَلِمَ، أو يلدغ إخوانه بلسانه، وليت شعري: متى تغضب لدينك وتنصره ما دمت ستقطف الثمار جاهزة، هذا لا يليق بمن امتلأ قلبه بالإيمان الحق.

﴿وَلَيْنَ أَصْبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ^ط لَيَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا

أما إذا انتصر المجاهدون بفضل الله وعونه وغنموا وفازوا بأجر الجهاد، فإنهم يندمون على تخاذلهم هذا، ويودون لو كانوا مع المقاتلين ليفوزوا بالغنائم ويأخذوا حصتهم منها.

ولا يتجاوز تفكير المنافقين شهوة المال، وغاية تفكيرهم يدور بين فرحهم بالسلامة وبين الحسرة والندامة على ما فاتهم من الدنيا.

وتمنيهم هذا يقولونه ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾، أي: كأنهم لم يسلموا أماكم ويعلنوا اتباعهم لهذا الدين، ويكون بينكم وبينهم مجالسة ومؤانسة. وكأن الآية تخاطبهم: ألم تسمعوا النداء إلى الجهاد؟ لماذا تخلفتم عنكم معهم في الظاهر؟ لماذا تخلفتم عن إخوانكم الذين هم أولياؤكم وسندكم؟ ولماذا لم تخرجوا لتنالوا الشهادة أو الغنائم؟!

وسياتي ذكر حال صنف آخر من المنافقين قريب من هذا عند قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنٌ مِّنَ اللَّهِ فَكُلُّوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ^ط عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ
وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٧٤

قاتلوا في سبيل الله أيها الصادقون مع الله، ولا تتبعوا دنياكم بأخركم، ولا تلتفتوا لتخذيـل هؤلاء المنافقين، ولا تهابوا أهل الكفر وتخشونهم، انفروا في سبيل الله ولتكن الدار الآخرة هممتكم.

وأنتم أيها المنافقون: لا تشتروا الحياة الدنيا وما فيها من متاع زائل بجنة الله ورضوانه، ولا تظنوا أن الدنيا دامت لغيركم، فالكل فانٍ وموقوف بين يدي الله، فاصدقوا وأقبلوا على ذروة سنام الإسلام.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ المجاهد في سبيل الله لا في سبيل الدنيا رابح على جميع أحواله: إذا قُتِلَ كان من الشهداء الذين هم أحياء عند الله تعالى، في دار الكرامة التي تنتقل أرواحهم فيها في جوف طير خضر تأكل من ثمار الجنة حيث شاءت، وإن كانت الغلبة لهم وظفروا بعدوهم فإن الله تعالى يرضى عنهم ويتقبل منهم عملهم، وسيثيبهم عليه بالأجر العظيم.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمٍ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تُغْزَوُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزَوُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوُ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوُ فَأُقْتَلَ».

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن الْمُقَدِّمِ بْنِ مَعْدِي كَرَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ (أي: مع نزول أول دفعة من دمه)، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُسَقَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ».

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥)

انظروا كيف يستنهض القرآن الكريم همَّ المسلمين ليقبى الجهاد في سبيل الله مفتاحاً
لإعزاز دين الله تعالى وإنقاذ البشرية، وليدرك الصادقون في عبوديتهم مع الله قيمته ويعضون
عليه بأسنانهم.

تناديههم الآية هنا وتقول لهم: قاتلوا لأجل دين الله ومرضاته، ولا يَصُدَّتْكم شيء عن ذلك،
قاتلوا من أجل فئات من الناس تنتظر النور الذي معكم، تنتظر الأمن الموفور بحكم شريعتكم
وهذاها، تتطلع لإنقاذ الرجال والنساء من التضييق عليهم في معاشهم، وإنقاذ الأطفال من أن
يشبوا على الكفر ويكونوا من أهله، قاتلوا لإحلال الخير والعدل والرحمة.

يذكر ربنا جل وعلا حال فئات من الناس تعيش القهر بعينه في بلاد الظلم والكفر والشرك،
فئات مستضعفة لا حول لها ولا قوة، يتحكم أهل الظلم في رزقها، ويحولون بينها وبين دين
الإسلام، ويضيقون عليها بأساليب شتى.

والقرية المذكورة هنا هي مكة التي كان فيها عدد من المسلمين الذين ضيقت عليهم قريش
في كل شيء وأذلتهم، وقهرتهم في دينهم ومنعتهم من الهجرة إلى المدينة، وكان فيها من امتنع
من الدخول في الإسلام خشية سطوة أهل الكفر في مكة عليه وعلى ماله، ولذلك جاء التحريض
لاستنقاذ هذه الفئة من الناس، والتخلية بينهم وبين عبوديتهم لله رب العالمين.

أخرج البخاري عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: «كُنْتُ
أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ: أَنَا مِنَ الْوِلْدَانِ، وَأُمِّي مِنَ النِّسَاءِ».

ولقائل أن يقول: إن كثيراً من دول الكفر في أيامنا رأيناها تعدل في شعوبها ولا تظلم،
والقوانين عندها تسري على الجميع بلا استثناء، ونرى فيها حرية المعتقد للمسلم وغيره،
فلماذا يكون الجهاد فيها؟

والجواب أن عدلهم هذا إنما ظهر للمسلمين وانبهروا به لما كثر الظلم في بلاد المسلمين،
ولما حصل التضييق في بعضها على العلماء والدعاة، ولما قادت العلمانية فيها وسادت.

ثم تذكروا أن العدل الموجود في عدد من دول الكفر، إنما جاء بعد أن تقاتلوا فيما بينهم في حروب عالمية خلفت عشرات الملايين من القتلى قبل عشرات السنين فقط، وبعد أن كانت الطبقة تعصف في بلادهم، وكان التمييز العنصري هو سيد الموقف.

ولا زلنا نرى صورًا من ذلك في بلادهم يدركها من خالطهم وعاشهم في تفاصيل حياتهم، نرى التفريق بين الأبيض والأسود، وبين المواطن الأصلي والمهاجر، ونرى من التضيق على المسلمين في دينهم ما نرى وبأشكال شتى، بل نرى أخلاق شعوبهم كيف تكون مع غياب رقابة القانون وأجهزة رصد تحركات أفرادهم، أقول: لو شعرت شعوبهم بهذا العدل فلماذا ينتظرون الفرصة لينقضوا على ممتلكات دولتهم ويسرقون ويعتدون؟!

ولكننا لا ننكر أن ثمة مظاهر للعدل في بلادهم موفرة، ولكنها تبقى منقوصة لأنها لا تنطلق من شرع الله ودينه، بل ربما تخالفه في بعض أحكامها، ألا ترون تعاملهم مع بلاد الإسلام في زماننا، ألا ترون ما تفعله صواريخهم وطائراتهم في هذه البلاد وفي الشعوب الموحدة للرب العظيم فيها، هم يسعون لفرض هيمنتهم علينا ويتغنون بذلك، ويستعملون من أجلها أبشع الوسائل وأشدّها، وسائل تُظهر حقيقة ما في قلوبهم وما هم عليه.

أقول بعد كل هذا: العاملون لدين الله لا بد أن ينتبهوا إلى أن إقامة العدل في الأرض وإعطاء كل ذي حق حقه مما أوجبه عليهم دينهم، ومما لا يُقبل منهم غيره، ومما لا يليق بهم أن يغفلوا عنه أو يناموا.

وإقامة العدل يحتاج إلى ثبات على المبادئ، فلا يليق معه يأس أو ضعف أو فرار، الثبات الثبات حتى الممات أو حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

أخيرًا: ليست الغاية الوحيدة للجهاد ما ذكرته الآية الكريمة هنا، بل ثمة غايات أخرى جاءت بها نصوص الشريعة تدل على أن الجهاد جاء لإعلاء كلمة الله تعالى في الأرض ونشر الإسلام وقهر الطواغيت، وجاء لدفع شرور أهل الكفر عن بلاد المسلمين، والقضاء على الأنظمة التي تتربص بنا وتعمل على تشويه صورة ديننا صباح مساء.

﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ هم فقدوا من أقوامهم كلّ عون ونصير، فكان دعاؤهم لخالقهم: يا رب: يسر لنا من ينصرنا من إخواننا في الدين، ويستنقذنا مما نحن فيه، فهذا حالنا لا يخفى عليك، وهذا ضعفنا بين يديك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

هذه خلاصة مدافعة أهل الحق لأهل الباطل، أهل الحق عرفوا قيمة الدنيا وحقيقتها فلم يقاتلوا من أجلها، أهل الحق فهموا عن الله تعالى مُرَّادَهُ من خلق الخلق ومما كلفهم به من عمارة الأرض وتحقيق الاستخلاف فيها، فجاهدوا وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، ولتظهر شعائر هذا الدين في البلاد والعباد، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وجهادهم من أجل كلمة التوحيد هو سِرُّ قوتهم وثباتهم على الطريق، وهو سِرُّ نصرهم على عدوهم وإن كان أكثر منهم عددًا وعتادًا، وهو سِرُّ عون الله لهم.

ولا ينتفع المسلم من جهاده إلا إذا كان في سبيل الله، يعني: لا يقبل منه غير ذلك، فقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذَّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَائِهِ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

أما أهل الباطل فهم يقاتلون طاعةً لأصنامهم، وطاعةً لشياطين الإنس والجن الذين طغوا في الأرض وعبدوا الناس لغير ربهم وخالقهم، وكانت أسمى همتهم أن يعيشوا لدنياهم وكفى، وأن يَسْتَعْلُوا في الأرض بغير الحق ويُسخروا الناس لشهواتهم ولذاتهم.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ليس سهلاً أن يترك أولياء الرحمن القتال في سبيل الله، لو تركوه لغلب أهل الطاغوت أهل الحق، ولتسلطوا على رقابهم وأموالهم ودينهم، ولنشروا شركهم ووثنياتهم وسوء أخلاقهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

ولذلك جاء الأمر من الله تعالى بقتال أهل الكفر الذين تولوا الشيطان من دون الله واتبعوا طرائقه، وصدوا عن سبيل الله، وعاثوا في الأرض فسادًا وإفسادًا.

يا أهل الله وخاصته: لا تضعفوا أمام عِظَم مكر أولياء الشيطان، ولا تخافوهم لظاهر حالهم وما وصلوا إليه من قوة واستكبار، ولكن قاتلوهم وخذوا بما قدرتم عليه من أسباب واصبروا، فإن كيدهم ضعيفٌ جدًّا، وإن الله تعالى ناصركم عليهم.

الشيطان يَعِدُهُم بالعز والشرف، وَيُزَيِّن لَهُم باطلهم ويعينهم عليه، وَيُغْرِيهِم لقتال المسلمين والتضييق عليهم، ولكن الله تعالى قضى أن يكون كيد الشيطان ضعيفًا، وأن تنقطع ولايته عن الكافرين، وقضى أن ما ينفع الناس هو الذي يمكث في الأرض، وأنه قد يعلو الباطل قليلًا ولكنه لا يدوم. قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

﴿الْمَرَّةَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا آخَرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ انْقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَبَيِّنًا﴾ (٧٧)

لم يُفرض الجهاد في سبيل الله في مكة التي كان المسلمون فيها قلةً مستضعفين، وإنما أُمروا بكف اليد عن قتال المشركين، والصبر والصفح والعتو عنهم، وأُمروا بلزوم باب الطاعات من صلاة وزكاة، وقد كان فريق منهم يريد قتال المشركين الذين اشتد إيذاؤهم عليهم، وكانوا يتحرقون لقتال أعداء الله تعالى ويتظرون اللحظة التي يُؤذن لهم فيها بالجهاد ليشفوا غليل صدورهم، وَوَدُّوا لو أمرهم الله بقتال أهل الكفر، ولكن الله تعالى لم يأذن لهم وقال لهم: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْقِتَالِ.

ثم لما هاجروا إلى المدينة أصبحت للمسلمين دولةً وَمَنْعَةً وَأَنْصَارٌ، وبدأت شوكتهم تقوى، وكان قد دخل في الإسلام أقوام لم يتمكن الإيمان من قلوبهم وإن كانوا على خير، ودخل فيه كذلك من أظهر الإسلام وأبطن الكفر خشيةً على نفسه وماله، وهم المنافقون، وجميع هؤلاء كانوا يترقبون لحظة الإذن بالقتال ويتعطشون لها، أو رُبَّمَا يتظاهرون بَعْضُهُمْ بِذَلِكَ.

ومعلوم لديكم أَنَّ الْجِهَادَ فِيهِ مَشَاقٌّ مُتَعَدِّدَةٌ، وفيه شِدَّةٌ لَا تَخْفَى، وفيه تَرْكٌ لِلرَّاحَةِ وَالطَّمَأِينَةِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَطَنِ، وفيه تعريضٌ لِلنَّفْسِ لِلْمَوْتِ أَوْ الْجِرَاحَةِ، ولذلك كان الجهاد ثَقِيلًا عَلَى النَّفْسِ، وَرُبَّمَا كَرِهَتْهُ بِطَبْعِهَا. قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ

تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١٦﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال: ٧].

ثم إن الله تعالى بعد ذلك أذن لهم بالقتال، ثم فرضه عليهم، فهل سارعوا للاستجابة إلى أمر الله؟ قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴿٨﴾ تَذَكَّرُ الْآيَةُ أَنْ فِرْقًا مِنْ الَّذِينَ أَظْهَرُوا حِرْصَهُمْ عَلَى قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى كَانُوا مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ فَخَافُوا مِنْ مُوَاجَهَةِ عَدُوِّهِمْ خَوْفًا عَظِيمًا، وَأَنْ ثَمَّةَ فِرْقًا مِنْهُمْ أَوْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ بَلَغَ الْخَوْفُ مِنَ الْعَدُوِّ فِيهِمْ مَبْلَغَهُ حَتَّى كَانَ أَشَدَّ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

أخرج النَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَأَصْحَابًا لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، فَقَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا» فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَرْنَا بِالْقِتَالِ، فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿١٠﴾﴾ هذه المقالة قالتها طائفتان منهم: طائفة آمنت ولكنها جُبِنت عن القتال أوَّل الأمر، ووصل الحال بها إلى طلب تأخير فرض القتال عليهم قليلاً، ولعلمهم طلبوا ذلك من شدة خشيتهم على أنفسهم وأبنائهم وأموالهم، ولأن شوكتهم قوية وأصبحوا في أمان أكثر من كيد الكفار وبطشهم، ولأنهم كانوا يرجون ازدياد قوتهم وعددهم.

وطائفة أخرى هي طائفة أهل النفاق الذين سيذكر السياق القرآني الآتي مزيداً من خُبثهم وفساد قلوبهم، هؤلاء قطعاً أرادوا الهروب من القتال، وأصابهم الضَجْرُ من تعريض أنفسهم لأمر لا يؤمنون به ولا يعني لهم الكثير، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فَتَنُورُ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [مُحَمَّدٍ: ٢٠-٢١].

﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ تربية ربَّانِيَّةٌ لما قد يعرض للنفس البشرية من ضعف، هذه النفس التي نجد فيها حب الدنيا لما فيها من زينة ومتاع، ولما تحمّل من لذة عاجلة وقرينة، يأتي الشرع ليخبرنا أن متاعها قليل بالنسبة لمتاع الآخرة، وأن اللذة التي نجدها فيها لا تعدل شيئاً أمام لذائذ الآخرة، فإن متاع الدنيا زائل وفيه من الهموم والغموم والتغصص ما فيه، وإن مَتَاعَ الآخرة كَثِيرٌ وَبَاقٍ لَا نَفَادَ لَهُ وَلَا زَوَالَ، بل لا كَدَرَ فيه ولا أحزان، ولذلك كانت الآخرة أنفع لمن اتقى الله وقدم رضاه على كل شيء، وقاتل في سبيل الله حتى لقي ربه على خير حال.

أخرج مسلم عن المُسْتَوْدِدِ بْنِ شَدَّادِ الْفَهْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟».

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ يعطي متأملها معالم التفكير النافع، يعطيه القناعة بما قدّره الله له والرضا به وإن كان على خلاف مراده، ويجنبه الحزن والقنوط والخوف، ويعطيه القوة في العمل ليفوز بالآخرة التي هي دار القرار، ويجعله يصل إلى مرحلة لا يتبغي فيها إلا أن يرضى الله عنه.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ لما كانت الآخرة دارَ المتاع الحقيقي الذي لا يفنى ولا يزول، فليس لكم أن تتراخوا عن الجهاد في سبيل الله أو تنتظروا تأخيرها، فإن أعمالكم مكتوبة، وإن بذلكم وعطاءكم محفوظ، وستجزون عليه أحسن الجزاء، ولن تُنقصوا من أجوركم شيئاً وإن كان فتيةً، والفتيل هو ما يكونُ في شِقِّ نَوَاةِ التَّمَرَةِ مِثْلَ الْخَيْطِ، وهو مثل يضرب لأقل الأشياء وأدناها.

﴿أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)

الخوف من الموت هو أكثر ما يجعلنا نحجم عن الجهاد في سبيل الله، وهو الذي يمنعنا من كثير من أنواع الإنكار على الظلمة وأعوانهم، وهو الذي يُضعفنا عن نصره إخواننا المستضعفين في بلائهم.

يسترسل القرآن في بناء العقيدة في القلوب لتحيا بها خير حياة، ولتنعم بالأمن والأمان بدلاً من الخوف والقلق.

تُذَكِّرُ الْآيَةُ النَّاسَ وتناديهم وتقول لهم: الموت حق، ولن ينجو منه أحد أو يفرّ أو يهرب، ولن ينفع حَذَرٌ من قَدَرٍ، وإذا جاءت سكرة الموت جاءت بحق، والمرء له أجل مكتوب ومحتوم، جاهد أم لم يجاهد، وقف مع أهل الحق أم كان ممن ينصر الباطل، كان في بيته الصغير أم كان في بروج مشيدة، أي: قصور محصنة منيعة عالية. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

والمطلوب: جاهد في سبيل الله ولا تجبن عن الاستجابة لأمر الله تعالى، فَشِدَّةُ حرصك على الدنيا لن تطيل بقاءك فيها، وإنك أن تلقى الله تعالى على مراده خير لك من أن تلقاه مُدْبِرًا، ولأهل الكفر والظلم والفسق ناصراً.

﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾

يفتقد أهل النفاق إلى دخول الإيمان الحق إلى قلوبهم، فهؤلاء إنما أرادوا بدخولهم في الإسلام أن يأمنوا على أنفسهم وأموالهم ولهم كذلك مآرب أخرى، ولذلك تجدونهم عند البلاء يذهبون ذات اليمين وذات الشمال، ولا تطمئن قلوبهم بما هو من عند الله إلا إذا وافق أهواءهم وما يجول في خواطرهم.

كان المنافقون إذا أنعم الله عليهم بنعمة الولد والرزق والسعة في العيش يحمدون الله على ذلك، ويقولون: هذا دين خير، والله أكرمنا وأعطانا من فضله لأن لنا قدراً عنده.

ولكنهم كانوا إذا ضَيَّقَ عليهم في الرزق، ومات لهم الولد، وحصلت معهم البلى التي لا يريدونها في زرعهم ومواشيهم، وهُزِمُوا من أعدائهم، أقول: كانوا إذا حصل ذلك معهم يتطَيَّرُونَ بالنبي ﷺ ويتشاءمون به، ويجعلون سبب ما حصل معهم اتباعهم له وإقبالهم عليه واقتداءهم به وتركهم لدينهم، كَمَا ذَكَرَ رَبُّنَا تَشَاوَمَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ بِسَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكما تشاءم قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بنبيهم، ﴿قَالُوا أَطِيعُوا بَكَّ وَبَيْنَ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وكما تشاءم أهل القرية التي أرسل الله تعالى لها رسوله كما في قول الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ نَنْتَهُوا لَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]، سبحانه الله كيف تشابهت قلوبهم بالكفر فتشابهت أقوالهم لأنبيائهم ومصلحيهم.

نعم، كان المنافقون يلومون نبينا ﷺ فيما يحصل معهم من بلاء، يُسمعونه مقولتهم فيؤذونه، أو كانوا يتحدثون فيه فيما بينهم فأطلع الله نبيه على خُبث مقالهم.

وسبحان الله كيف تصف الآية حال صنف نعايشه، نراه يلتف حول أهل العلم والدين إذا رأى نعيمًا من نعيم أهل الدنيا يقترب منهم لعله يناله شيء من ذلك، ثم يشكر نعم الله عليه بلسانه، فإذا أُوذي في نفسه، أو ابتلي في رزقه أو عياله نزع يده مما كان عليه، وانقلب على أهل العلم والدعوة إلى الله يكيلهم بألوان من الافتراءات، وينسب كل ما حصل معه إليهم، ثم ينتكس عن طريق الهدى وينقلب حاله كأنه ليس هو.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الحج: ١١]، وأخرج البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه، قال: جاء أعرابيُّ النَّبيِّ ﷺ، فقال: بايعني على الإسلام، فبايعه على الإسلام، ثُمَّ جَاءَ الْعَدَّ مُحْمُومًا (يعني: مريضًا بالحمى) فقال: أَقْلِنِي (أي: أفسخ بيعتي معك) فأبى، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ ﷺ: «الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ (وهو منفخ الحداد الذي ينفخ به النار) تَنْفِي خَبَثِهَا وَيَنْصَعُ طِبْهَا (أي: يبقى الطيب فيها)».

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ قل يا محمد ﷺ لهم، وعلمهم أمر عقيدتهم لعلهم يصدقون مع الله تعالى ومعك، وأنكر عليهم فهمهم وكلامهم الذي يدل على فساد قلوبهم ودخول الشك عليها، قل لهم: قدّر الله تعالى نافذ في جميع خلقه، مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، قل لهم: الحسنة والسيئة والخير والشر من عند الله، ولا يجري في خلق الله أمر إلا بقضائه سبحانه، ووفقًا لسننه وعلمه وحكمته، كل ذلك يتلى به عباده لينظر أشكروا أم يكفرون.

علمهم يا محمد ﷺ وقل لهم: ليس صحيحًا أن تنسبوا بعض ما يجري معكم لله، وبعضه الآخر لغير الله، فهذا علامة فساد عقيدتكم وعدم فقهكم بما تتلقونه عن الله، وبما تتعلمونه من رسوله عليه الصلاة والسلام، وبما تسمعون وترونه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كفركم وبعدمكم عن الإيمان.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٨)

خطاب للنبي ﷺ فيه علم نفيس ونفع عظيم للناس كلهم، علم يرشد السائرين إلى الله تعالى في طريق عبوديتهم، ويعينهم على فهم ما يجري من بلاء معهم ومع غيرهم، وفيه ردٌّ على كلام أهل النفاق وزيادةً بيان لهم لعلهم يفقهون.

يا محمد ﷺ: اعلم أن الله تعالى هو الذي خلق الخير والشر والنفع والضرر، وكل شيء يجري في خلقه إنما هو بقدره وعلمه سبحانه، فما رأيت من نعمة ورحمة عليك وعلى أهلِكَ فإنما هو من الله، والفضل فيه أولاً وآخراً له، وما أصابَكَ من سوء في نفسك ومالك وأهلك فإنما هو من الله، ولكنه بسبب ذنب أحدثته، أو عمل قصرت فيه.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وأخرج البخاري في الأدب المفرد وأحمد واللفظ له، عن ابن عمر وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا». قلت: وهذا من شؤم الذنب، وقلٌّ من الناس من ينسب التقصير لنفسه، بل يشتغل غالبهم بدم الغير والإساءة إليه، يا ليت الواحد منا يستحضر أن غيره إنما سُلط عليه لذنب أحدثه، والله المستعان. قلت: ولا يقتصر شؤم الذنب على ذلك، بل يتغلغل في تفاصيل حياة من أَصَرَ على الذنب ولم يبادر إلى التوبة.

ومن جمال هذه الآية أنها تُذكِّرنا بعظمة الله تعالى التي لا تخفى على من تأمل النص القرآني هنا، وجه ذلك: أن فضل الله على العبد ابتداءً من وجود الخليفة، تأملوا كيف سخر له كل هذه المنافع، وكيف أكرمه بالخلافة في الأرض وأسبغَ عليه من أجل ذلك نعمه ظاهرة وباطنة، كل هذا بدون استحقاق لهذا العبد عند الله، ولولا لطف الله وإرشاده وحفظه لحل بالعباد شقاء لا يخفى عليكم، فَكَانَتْ الْمِنَّةُ فِي تَوْفِيقِ الْعَبْدِ وَتَيْسِيرِ أَمْرِهِ فِي عِمَارَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

على أن ثمة خيراً يعطيه الله تعالى للعبد بسبب كَسْبِهِ وَعَمَلِهِ، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ولكن التوفيق للعمل الصالح والثبات عليه لا يكون إلا بفضل الله تعالى وكرمه وجوده.

ومن جمال هذه الآية كذلك أنها تثبت أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ كما زعمت أقوام من قبل ولا تزال، فمثل هذا الخطاب لا يعقل أن يخاطب نبينا فيه نفسه، إذ كيف ينسب السيئة لنفسه، ثم يدكر ذلك في قرآن يُتلى إلى أن يأذن الله.

وزيادة في الفائدة: الآية ترشدنا إلى أن الشر لا يندفع بالطيرة والتشاؤم، ولكن دفع الشر عن الواحد منا يكون بصلاحه واستقامته.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ احرص على أن تُبلِّغَ الناس رسالة الله إليهم، وعلمهم من علم الله الذي أعطاكه، ولا تحزن كثيرًا على تولي بعضهم وإعراضه، ولا تيأس من عنادهم وعدائهم، ولا تتوقف كثيرًا مع شُبَّههم وحيلهم.

أنت رسول الله إلى الناس جميعًا، اصطفاك الله تعالى لتكون مُبَلِّغًا عنه وهاديًا، والنفع والضرر ليس بيدك ولا من عندك، ولست سببًا فيما يصيب الناس من الضر، فامض في دعوتك حتى يقضي الله أمرًا من عنده.

﴿وَكُنْ لِلَّهِ شَهِيدًا﴾ الله يشهد أنك رسوله وكفى بذلك شهادة، والله عالم بحالهم وحالك وهو شهيد بينك وبينهم، وثمة يوم ستقفون فيه بين يدي الله تعالى فيفصل بينكم.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

تأكيدٌ على أصل من أصول هذه الشريعة، وعلامة من علامات الصادقين في عبوديتهم لخالقهم ومُدَبِّرِ أمرهم، ومزيدٌ بيانٍ لخصال أهل النفاق والشقاق.

الآية تقول: لا يكون مسلمًا من أبى طاعة نبينا ﷺ وإن زعم أنه يطيع الله تعالى، فإن الله تعالى أمر بطاعة نبيه عليه الصلاة والسلام في مواضع متعددة من كتابه الكريم كما في الخطاب الرباني هنا.

وقد أخبر سبحانه أن ما ينطقه نبينا ﷺ في معرض التشريع والبيان إنما هو بَوْحِي من الله تعالى وليس من تلقاء نفسه، فكانت حقيقة تارك طاعة الرسول أنه تارك لطاعة الرَّبِّ جل وعلا.

إن محاولة الفصل بين طاعة الله وطاعة الرسول التي ينادي بها جمع من الناس في زماننا ليست جديدة، بل قام عليها من قبل جمع من أهل الباطل ودعائِهِ، إلا أنها اتخذت صورًا متعددة في زماننا وكثر القائمون عليها وعلا صوتهم.

أخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَا أَبِي؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

تعد هذه الآية دليلاً من أدلة عصمة النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى، لأنه لو لم يكن معصوماً لما أمر الله تعالى بطاعته بأبي هو وأمي ﷺ، وعصمته من الخطأ في ذلك أمر أجمعت عليه الأمة وإن غمز فيه ولمز جَمْعٌ من أعداء الملة والدين.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ كل من تولى عن طاعتك واتباع دعوتك وأمرك ونهيك فهو من الخاسرين، فلا تتحسر عليهم كثيراً، واعلم أن قلوبهم بيد من خلقهم، ولست بحفيظ عليهم، أي: لست مسؤولاً عن ظلمهم لأنفسهم وعدائهم لأولياء الله تعالى ودينه، ولست رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم عليها، إن عليك إلا البلاغ والبيان والنصح، وقد أدت كل ذلك على أتم وجه. قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١١) لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١-٢٢]﴾.

و يحمل ختام الآية تهديداً لهؤلاء الذين انصرفوا عن دعوة محمد ﷺ، وكأنها تقول لهم: الله سيتولى أمركم وعقابكم.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١)

من روعة كتاب الله تعالى أنه يصف لك أحوال الناس الذين تعيش معهم، ويعطيك ما تحتاجه من أوصافهم لتتولى أهل الخير فيهم، وتحذر أهل الشر وتبتعد عنهم.

جاءنا وصف ذي الوجهين في الآية هنا، وهو الذي يُظهر أمامك خلاف ما يبطنه، وهو الذي قصده ﷺ في حديثه فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءَ بِوَجْهِ، وَهَؤُلَاءَ بِوَجْهِ».

هؤلاء لا يعيشون حياة المبادئ ولا يعرفونها، وإنما يتقلبون في حياة التلون والخداع، ولعل أخطر أشكالهم أولئك الذين تقلّبوا في اعتقادهم وناقضوا، وهو ما يسميه أهل العلم: نفاق الاعتقاد، وهو نفاق يقوم على أن يظهر صاحبه حب الإسلام والمسلمين، بل يشاركهم في عدد من شعائر الإسلام الظاهرة، وربما زعم أمامهم أنه يتمنى رفعة الإسلام وعلوه في الأرض، ولكن باطنه امتلاء بالبغض لدين الله وأوليائه، وتربص بالمؤمنين صباحه ومساءه ينتظر زوالهم عن الساحة والميدان، وتراه يخذلهم عن الجهاد والدعوة، وفيهم نزلت سورة كاملة في كتاب الله تعالى.

تبيّن الآية هنا حالهم وتفضحهم، وتذكر حقيقتهم بأنهم منافقون يأتون نبينا عليه الصلاة والسلام ويظهرون الطاعة له والامثال لأوامره، ويوافقونه ظاهراً بكل ما يقول، ولكنهم إذا برزوا من عنده، أي: خرجوا منصرفين إلى بيوتهم، ثم خلوا مع بعضهم في الليل فلا يراهم أحد، وهو التبيت المذكور في الآية، جعلوا يتكلمون بحقيقة ما في نفوسهم من بغض نبينا عليه الصلاة والسلام وبغض ما جاء به، وانطلقت ألسنتهم بإظهار العداء لأصحاب محمد ﷺ الذين نصره وكانوا معه، وجعلوا يدبرون الحيل لإسقاط هبة الإسلام من قلوب العباد، وإسقاط حكمه في البلاد. قال الله تعالى: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

المؤمن الصادق يطيع الله ورسوله ظاهراً وباطناً، في السر والعلن، وفي السراء والضراء، ولا يطيّب قلبه بمجالسة من يغمزون بشريعة رب العالمين ويلمزون؛ تلك علامة أهل التقوى فالزموهم والتقوا حولهم، ولا تغتروا بظاهر حال غيرهم.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أيّ تهديد تحمله الآية لهم لو كانوا يعقلون.

ربنا جل وعلا لا يغفل عما يعملهم الظالمون المفسدون، سبحانه يعلم سرهم ونجواهم، ويعلم ما يبيتونه في ليلهم وما يظهرونه في نهارهم، وحفظته الكاتبون الموكلون بهم يكتبون كلامهم وما أظهروه بينهم في مجالسهم، وسيبلي الله يوم القيامة ما في صدورهم، وسيأتي بما كتبه الحفظة في كتبهم التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، وسيحاسبهم على كفرهم هذا يوم لا يغني عنهم أولياؤهم شيئاً، ولن يفلت منهم أحد.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ومع كل هذه الخصال التي تأبأها النفوس السوية، يأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يصفح عنهم ولا يؤاخذهم بما يفعلون، ولا يكشف أمرهم أمام الناس، وليصبر عليهم وليعلم أنهم لن يضروه شيئاً.

يا محمد ﷺ: امض في دعوتك وجهادك، وتوكل في كل ذلك على من بيده ملكوت السماوات والأرض، ولا تحف من هؤلاء الذين يكيدون لك، ولا تغتر بتأخير العذاب عنهم، واعلم أن كيدهم مردود عليهم، والله خير حافظاً.

في دعوتنا إلى الله: نمضي بلا خوف ولا حزن، ولا نكثر من الالتفات إلا إذا قامت الحاجة لذلك وبقدر الضرورة.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أجد نفسي مع عدد من آيات القرآن عاجزًا عن إعادة كتابتها بما يخدمها من معاني، ويكفيني أن أكتبها كما هي، وأترك مساحة للفكر ليقراً مثل هذه النصوص ويطمئن قلبه بها. اللهم ارزقنا حُسن الإنابة إليك وجميل التوكل عليك.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

يا أهل النفاق: هذا كتاب الله تعالى ينزل على نبيه ﷺ وهو بين أظهركم، فيه الشفاء لأمراض قلوبكم، وفيه ما ينير بصائركم، ويسدّدكم في طريقكم إلى الله، وفيه السعادة والراحة والطمأنينة، فَهَلُمُّوا إليه وتدبروه، وعيشوا مع معانيه، ولا تعرضوا عنه.

أفلا يتدبرون فصاحته وبلاغته، وعِظَمَ مقاصده وأحكامه، وعجزَ الخلاق عن أن يأتوا بسورة من مثله.

القرآن الذي بين أيديكم قرع رؤوس أعتى أهل الكفر فأصبحوا من أولياء الله ودخلوا في الإسلام أفواجًا أفواجًا، القرآن غير حياة كثير من الناس كان البؤس والشقاء ملازمًا لهم.

إنَّ القرآن سرٌّ من أسرار الله تعالى في أرضه، من أقبل عليه بقلبه وسمعه وذاق حلاوته دخل جنّة الدنيا قبل جنة الآخرة، وتعلّق به حتى صار أنيسه في ليله ونهاره، واشتاق إليه أكثر من اشتياقه للطعام والشراب. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى نَقَّشَ فِيهِ الْجُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

يا أهل النفاق: أفلا تتأملون الآيات التي تفضحكم وتكلم عما تبيتونه من سوء القول، أليس في ذلك دليلًا ظاهرًا على أن الله تعالى أرسل نبيه وأنزل عليه القرآن؟ فلماذا مرضت قلوبكم وتغلغل فيها الشك، وأصابها الحيرة؟!

وكان الآية تدعونا نحن إلى أن نترك التشبه بأهل النفاق الذي لم يتدبروا كتاب الله، وتنادي على أهل الإيمان من بعيد أن هَلُمُّوا إلى العيش في ظلال كلمات القرآن كلمة كلمة، تدبروها وافقهوا عن الله معانيها، وانتفعوا بها في حياتكم، وتفكروا فيما تريده منكم، وتأملوا جزاء من آمن بها وجزاء من صد عنها. قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلَّا يَكُنِ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ [ص: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ دخل الشك إلى قلوب المنافقين من أوسع الأبواب حتى وصل إلى أن يشكُّوا في كتاب الله الذي يسمعون، وكأنهم في قرارة أنفسهم يقولون: أيعقل أن يكون هذا من عند الله؟ وهل يُعقل أن تعلو كلمة الإسلام على كل قوى أهل الأرض كما ذكر القرآن وأراد؟ وهل حقاً سنُبعث بعد موتنا ونحاسب على أفعالنا كما ذكر كلام الله؟

سبحان الله كيف يرشدهم ربهم ويعينهم على أنفسهم لعلَّها تصدق في إيمانها، وكيف يخاطبهم ويدعوهم للتأمل والتفكر في هذا الكلام العظيم الذي أنزله وهو الحكيم الخبير، يقول لهم: هذه آياته تنزل، فيها من البلاغة والفصاحة ما فيها، وفيها من القصص وذُكر أحوال الأمم سابقاً ولاحقاً ما فيها، وفيها من التشريع والهداية لإصلاح هذه الدنيا ما فيها، أيعقل أن يكون هذا من عمل البشر؟! لو كان من عمل البشر لرأيتهم فيه اضطراباً واختلافاً كثيراً، ولوجدتم الآيات يخالف بعضها بعضاً في معانيها ودلالاتها كحال كلام البشر إذا كثر كلامهم، وقد نزل القرآن العظيم في ثلاث وعشرين سنة على أتم وجه وأكمل حال.

هل وقف محمد ﷺ على تفاصيل قصص الأمم من قبل؟ وكيف علِمَ أحوال السماوات والأرض وتفاصيلهما؟ ومن أين له أن يطلع على خبايا الأنفس وما تحدث به الضمائر؟ وأنَّى لمثله أن يأتي بمثل هذه العقيدة المحكمة وهذا التشريع الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا بينها؟ ألا يدلکم كل ذلك على أن هذا القرآن أنزل من عند حكيم خبير؟!

أربعة عشر قرناً من الزمان مرَّت والقرآن كما هو، عظمة في كل شيء، وكمال في سورته وآياته وحروفه، وتوافق تام مع كل ما وصلت إليه العلوم والمعارف من أوله إلى منتهاه، ما أعظمه من معجزة!

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وهذه خصلة من خصال المنافقين التي يسعون عن طريقها إلى بث روح الهزيمة واليأس بين أفراد الأمة المسلمة، يقصدون بها زعزعة منظومة الأمن والاستقرار، ثم يربطون ذلك بالدين، ويقولون: هذا ما جنته أيديكم أيها المسلمون من اتباع ما في القرآن والسنة.

إذا سمع المنافقون خبراً فيه غمز في أهل الدين وطعن في الإسلام سارعوا إلى نشره وإفشائه بين الناس قبل أن يتحققوا منه، وأخبروا من حولهم به دون رجوع إلى النبي ﷺ وهو

بين أظهرهم، أو إلى أولي العلم والاختصاص الذين يُحسنون التعامل مع مثل هذه الأخبار صحيحة كانت أو غير صحيحة.

المنافقون إذا وصل إليهم خبر متعلق بمنظومة أمن المسلمين وخوفهم، كخبر متعلق بهزيمة المسلمين في غزوة ما، أو قتل بعضهم في مكان ما، قصدوا أصحاب القلوب الضعيفة في إيمانها وعلمها من المسلمين، وجعلوا يعثون بها بما يقولونه، ويدخلون إليها الخوف والخذلان والانكسار بإفشاء هذا الأخبار وإذاعتها ليعينوا عدو الله عليهم.

وهذا يُفهم منه أنهم كانوا إذا علموا أن ثمة خطرًا يحيط بالمسلمين كتموه، وأوهموا أهل الإيمان بأنهم في طمأنينة وأمن وأمان، لأن غايتهم الأولى والأخيرة من ذلك إيقاع الضرر بدين الله تعالى وحملته. قال الله تعالى عنهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٧].

أيها المؤمنون: احذروا مكائد هؤلاء المنافقين، واحذروا أن تشبهوا بهم في خصالهم، ولا تتسرعوا بإشاعة ما يأتيكم من أخبار تتعلق بأمر المسلمين ومصلحتهم إذا كان فيها تخذيل للأمة وإضعاف لعزيمتها، وانتبهوا إلى التوجيه الرباني لكم في مثل هذه الأحوال.

أقول هذا لأن تسارع نشر الأخبار قبل التوثق منها لم يُعرف به المنافقون فقط، بل نرى في واقعنا كثيرًا من الناس يقبل على ذلك ولا يحتاط لأمر دينه، ويعتذر عن نفسه بأنه لم يقصد الضرر.

ومعلوم لديكم أن من ينقل كل ما يسمعه يكثر خطؤه، ويُجرب عليه الكذب، ويكون من أقبح الناس وإن لم يقصد ما يقصده المنافقون من وراء ذلك، لأنه غالبًا ما يبيّن أخباره على الشك والتخمين دون التوثق والجزم واليقين. أخرج مُسْلِمٌ في «مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»، وأخرج البخاري ومسلم عن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ». والقليل والقال: هو أن تقول ما لا تعلم صحته ولا صدقه.

أخيرًا: أقول هنا: إن سبب نزول الآية يفتح للقارئ آفاق تفسيرها، ويزيده فهمًا إلى فهم، فقد أخرج مسلم «أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَلَّقَ نِسَاءَهُ، جَاءَ مِنْ مَنْزِلِهِ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْهَمَهُ وَقَالَ: أَطَلَقْتَهُنَّ؟ فَقَالَ: «لَا» فَقَامَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يقول عمر: فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ».

والظاهر أن الجزم بأن النبي ﷺ طلق نساءه وقع أولاً من أهل النفاق، ثم تناقله المسلمون حتى جاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واتبع سبيل التحقق مما جرى وعلم أن الطلاق لم يحصل، وإنما الذي حصل هو أنه ﷺ اعتزل نساءه فقط.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ لو أن الذين أشاعوا خبر طلاق النبي ﷺ لنسائه رجعوا إليه، واستفهموا منه لعلموا الصواب من الخطأ، ولنجت ألسنتهم من الافتراء على أطهر بيت في حياة المسلمين، ولسلموا من مكر المنافقين وخبثهم.

أما بعد وفاة النبي ﷺ، فإن الواجب على من سمع شيئاً يتعلق بأمر من أمور المسلمين أن يتحقق منها من أولي الأمر قبل أن يَبْثُها وينقلها، لئلا يهدم في بلاد المسلمين من حيث شعر أو لم يشعر.

أولو الأمر هم كبراء المسلمين وأهل الرأي والحل والعقد منهم، وأصحاب العلم والتخصص، وهم الذين يستنبطون الخبر اليقين، أي: يستخرجونه بعلمهم الوافر وآرائهم الناضجة، ويتبعون تفاصيله وخفاياه بحكم ولايتهم، ويدركون عواقبه على التمام، ويضعونه في موضعه اللائق به، ويبينونه للناس أو يكتُمونه بما يحقق المصلحة ويدفع الضرر.

وهنا فائدة متعلقة بالذين يستنبطون من أولي الأمر، وهذه الفائدة تتعلق بما ملكوه من أصول الاستنباط في فنِّهم وما أتقنوه، والمقصود أن منهم من يكون في علم الشريعة، ومنهم من يكون في الاقتصاد، وآخر في علم السياسة أو علم الاجتماع، وليس من السهل أن يخوض الناس في فن من الفنون لم يملكوا أدوات الاستنباط فيه، ولذلك كان خوض عوام الناس في علم السياسة مثلاً ضاراً بهم وبأُمَّتِهِمْ، وكذا خوضهم في كبار مسائل العلم الشرعي التي قد يتوقف فيها الراسخون من العلماء، وكذا الأمر في علم الاقتصاد وباقي العلوم.

ولذلك: فليحرص الواحد منا على عدم الخوض فيما لا يتقنه، وجدير به أن يعرف قدر نفسه ولا يلبس ثوباً ليس له، فإن ذلك أضرُّ لذمته وأهنأ له، وليرجع إلى الثقات من أهل العلم والتقوى، كُلِّ فيما يعلم.

وأظنكم بعد العيش مع ظلال الآية الكريمة أدركتم ثمرة أن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب، وأدركتم ضرر الخيانة بتوسيد الأمر إلى غير أهله، وإلى الله المشتكى.

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الحمد لله الذي صرف أهل الإيمان عن خصال أهل النفاق ومعايهم، وعلمهم ما لهم وما عليهم في قولهم وعملهم، وأرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم، والحمد لله الذي ثبتهم على دينهم وشرح صدورهم للتوبة والرجعة إلى ما يحب ويرضى، والحمد لله الذي صرفهم عن طرائق الشيطان، وحذّرهم من السير فيها مع كثرة من وقع فيها وهلك.

فضل الله علينا وربّي عظيم، وشكره على نعمه لا تبلغه ألسنتنا ولا كل جوارحنا.

القليل المذكور في الآية هنا هم أولئك الذين تعلقت قلوبهم بالله وحده فاتاهم البصيرة في الأمور وعواقبها، وأعطاهم قلوباً رسخ الإيمان فيها حتى كان كالجبال، وقواهم على حيل أنفسهم وطرائق الشيطان إليها، اللهم اجعلنا منهم.

﴿فَقَنْلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾

تربية قرآنية للقابضين على دينهم في كل زمان، ولكل من عاهد الله تعالى على أن يكون من الدعاة إلى دينه وشريعته: اقصدوا الصراط المستقيم وإن كان السائرون فيه قليلاً، واجعلوا همّتكم في مرضاة الله لا في مرضاة خلقه، واعلموا أن أكثر الناس في غفلة ولهو، وأن نور الإيمان في قلبهم خافت ضعيف لا يتجاوز اللحظات إذا أضاء، وتذكروا أنكم تأتون الله فرادى كما خلقكم أول مرة.

﴿فَقَنْلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ يا محمد ﷺ: اعلم أن القعود عن الجهاد لا يجبه الله تعالى ولا يرضاه، واعلم أن ترك الجهاد سبيلٌ لتسليط أعداء الله على أولياء الله، فاحرص على أن تكون في طليعة المجاهدين، ولا تتخلف عن مدافعة أعداء الله وإن كنت وحدك في ميدان القتال، ولا تلتفت إلى من قعد عن نصرة الدين، أو سعى في تشييط العزائم، أو هرب من ميدان قتال أهل الكفر وأعدائهم وأذنانهم.

يا محمد ﷺ: أنت القدوة والناس تقتدي بك، ولا تُكَلِّفُ بفعل غيرك ولا تُسأل عنه، فامض في حق نفسك وتذكر أنك مسؤول عنها. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم في بيان أهوال يوم القيامة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» الحديث.

﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿فَضَىٰ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ تَبْقَىٰ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَبَيْنَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ، وَلِذَلِكَ شَرَعَ لَنَا مَا يَحْفَظُنَا مِنْهُمْ وَمَنْ تَرَبَّصُهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَمِمَّا شَرَعَهُ لَنَا تَحْرِيطُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ قِتَالِهِمْ لِيَصْرِفَ بِأَسْهَمِ عَنَّا، أَيْ: يَصْرِفَ قُوَّتَهُمْ وَشُرُورَهُمْ، وَيُبِثَّ الرُّهْبَةُ فِي قُلُوبِهِمْ.

إنَّ تَحْرِيطَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ يَبْعَثُ فِي نَفْسِهِمْ هِمَّةً عَجِيبَةً لِمَنَاجَزَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ فِي الْإِرْضِ وَإِقَافِهِمْ وَتَحْجِيمِهِمْ، وَيُعِينُهُمْ فِي صَبْرِهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ وَحَسَنَ الْمَجَاهِدَةِ لِثَلَا تَكُونَ الصُّوْلَةُ لَهُمْ عَلَيْنَا.

وقول الله تعالى هنا يدل على غاية من غايات الجهاد في سبيل الله، ويدل على لزوم إعداد ما استطاعت الأمة من قوة.

الآية فيها أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يحرض المؤمنين على القتال ليكف بأس كفار مكة وغيرهم عن المؤمنين، وَحَرَّضَهُمْ أَيْ: شَجَّعَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، وَذَكَرَهُمْ بِمَكَانَتِهِ فِي الدِّينِ وَفَضْلِ أَهْلِهِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَاتِ.

أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ».

وأخرج الترمذي وابن ماجه في وصية النبي ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

وفي تحريضه ﷺ لأصحابه وامتناله لأمر ربه، أخرج مسلم من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مِنْ قَوْلِهِ لِأَصْحَابِهِ قَبْلَ بَدْءِ الْقِتَالِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ».

وتحريض المؤمنين على القتال يشمل كلَّ أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من بيان أسباب النصر والعزة وثمره ذلك في الدارين، والإخبار عن ضعف الأعداء وفشلهم، والتذكير بما أعدَّه الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال. قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ ﴿

[الأنفال: ٦٥].

وهذا التحريض تفعله أكثر دول العالم لتحفظ نفسها من غيرها، وتبذل من أجله الغالي والنفيس لأنها تعلم حقيقة ما يجري في الأرض وما جبلت عليه نفوس كثير من الناس، ولكن تميّزنا عنهم يكمن في أننا نفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتحقيقاً لما حملناه من أمانة نشر الإسلام والخير في الأرض، ونبذ الشرك والإلحاد وقهرهما.

وأنتم يا من حملتم لواء النبوة وإرثها، يا من تعيشون مدافعة الباطل وأهله بأجلى صورها وأظهرها: امضوا فيما أنتم ماضون، ولا يُفَعِدْكُمْ تخلف غيركم عن الطريق ولكن حرصوهم وذكروهم.

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ واللّه قادر عليهم، ولو شاء لأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فإنه أشد بأساً، أي: قوة. وهو أشد تنكيلاً، أي: عذاباً وعقوبةً يعتبر بها الغير.

أيها المؤمنون العاملون لهذا الدين: لا تخافوا بأس عدو الله وعدوكم، واعلموا أن حكمة الله قضت أن يبلو الناس بعضهم ببعض ليعلم الصادقين من غيرهم، وقضت أن تكون العاقبة لأهل الحق إن ثبتوا وأخذوا بأسباب النصر، فاصدقوا الله وكونوا من جنده الصابرين. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَاهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِ الَّذِيْنَ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَكُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ٤].

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾

التحريض على الجهاد شكل من أشكال الشفاعة الحسنة، لأنها واسطة بين الناس وبين عمل الخير، ولذلك جاءت في السياق هنا.

وأهل العلم انتفعوا بعموم هذه الآية ليُشَرُّوا بها كل من كان واسطة بين الناس وبين الخير، حتى رَغِبَهم فيه وداوم على تذكير الناس به وأعان عليه.

الشفاعة الحسنة هي التي يقوم عليها صاحبها بنية صالحة، فيسعى في أمر من أمور الناس مما يترتب عليه خير أو إصلاح أو عون للآخرين، أو دفع لظلم وقع عليهم، وقد تكون بطلب منهم وقد لا يطلبون.

هنا ترغيب لمن رزقه الله قدرة على مساعدة الناس، أو لمن رزقه الله مكانة أو وجاهة عند الآخرين، أن يعمل على بذل ما عنده ليعين غيره على صعوبة هذه الحياة، وليكون سبباً في تفريج الكربات وتنفيسها، وأن يعمل على إيصال الحقوق إلى مستحقيها.

تريد منا الآية أن نُقبل على ذلك، وأن نستحضر الفضل العظيم لمثل هذه الأعمال، فقد بشرت الآية صاحب الشفاعة الحسنة بأن يناله نصيب منها، أي: أجر وثواب.

أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ يَسْأَلُ، أَوْ طَالِبٌ حَاجَةً، أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «اشْفَعُوا فَلْتَوْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ».

وكأن الآية تنادي علينا وتقول لنا: اشفعوا في الخير أيها الناس، وانفعوا إخوانكم فيما يعود نفعه عليكم في الآخرة، ورحم الله امرأً كان مفتاحاً من مفاتيح الخير في الأرض.

وإياكم أن يكون في شفاعتكم أكلاً لحقوق الناس واعتداءً على منافعهم، أو أن تُلحقوا بهم ضرراً لا يستحقوه، هذه هي الشفاعة السيئة التي جاءت في تمام الآية، فتأملوا:

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ وأما من كانت نيته فاسدة وسعى في الصد عن الجهاد، وعمل على تخذيل المؤمنين والإرجاف فيهم، فهذا من الشفاعة السيئة التي ينال فاعلها كِفْلٌ منها، أي: نصيب وْحْظٌ ومثلٌ من الإثم والوزر وسوء العاقبة، ويستحق عقوبة الله له فإنه كان واسطة بين الناس وبين الشر.

وهذا حال كل من قَرَّبَ الشرور من الناس وفتح أبواب السوء عليهم، كمن يحرش بينهم ويوقع الخصومة، وكمن يكون سبباً في التضييق على غيره وزيادة كَرْبِهِ بغير حق، وكمن يشفع في إسقاطِ حَدٍّ من حدود الله، أو هَضْمِ ما هو له، أو إعطائه لغيرِ مُسْتَحَقِّ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا﴾ أي: حفيظاً وشهيداً ومقتدرًا، فالله تعالى يحفظ الأعمال على من يفعلها، ويعلمها ولا يخفى عليه شيء منها، وسيحاسب الناس عليها في يومٍ يكون العدل فيه ولا شيء غيره.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٨١)

أصل التحية في اللغة: الدُّعاء بِالْحَيَاةِ، والتحية التي ارتضاها الله تعالى لعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة هي السلام، قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وأعلى مراتب السلام قول القائل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ويجزئ فيه قول: السلام عليكم.

وإلقاء التحية وإفشاء السلام بين أبناء المجتمع المسلم سبب من أسباب التوادد والتراحم والتعاطف، والسلام على الغير مفتاح إلى قلبه، وبه يطمئن القائل والمجيب، وبه يأمن أهل البيت عند الدخول عليهم، ويأمن كل من لاقاه غيره بالسلام، إنه دينُ السَّلامِ والأمان، وأهل السلام هم أهلُ السَّلمِ ومُحِبُّو السَّلامَةِ.

ولذلك جعله الإسلام من حق المسلم على المسلم، وجعله شعارًا من شعارات الإسلام وعلامات أهله، بل جعله سببًا لزيادة الأجر ودخول الجنة، وفيه امتثال لهدي نبينا ﷺ وإرشاده وتوجيهه.

أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَذْلكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»، وأخرج مسلم عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «فَمَرَّ بِصَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا»، أي: سلم عليهم الرسول ﷺ.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ: رَدُّ السَّلَامِ (أَيُّ رَدُّهُ عَلَى مَنْ بَدَأَ بِهِ)، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ».

ولكم أن تتأملوا جمال القرآن في توجيهاته وإرشاداته النفيسة في سياق حديثه عن الجهاد وعن الشفاعة في ذلك، فهو يقول لنا: اشفعوا لإخوانكم في الخير والحق، وأفشوا بينكم السلام وتحابوا، واعلموا أن أحكام شرع الله تعالى يُكَمَّلُ بعضها بعضًا، ومجموعها يصنع ذلك الإنسان الذي نريد، ذاك الإنسان الذي لا يخرج منه إلا كل خير، وقد حقق عمارة الأرض على المنهج الذي ارتضاه الخالق جلَّ وعلا.

الآية هنا تعطينا أدبًا من الآداب الشرعية التي راعاها الإسلام في فقه إفشاء السلام وردّه، فمن ابتدأ بالسلام عليك وقال: السلام عليكم، فَرَدَّ عليه سلامه بمثله وقل له: وعليكم السلام، أو رَدَّ عليه سلامه بأحسن من ذلك بقولك: وعليكم السلام ورحمة الله، أو: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وهذه مرتبة أعلى من الأولى.

أخرج أحمد وأبو داود عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَشْرُ» (أي: عشر حسنات) ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «عَشْرُونَ» ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ».

أما إذا قال مبتدئ السلام: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فلا زيادة على ذلك في اللفظ ويردها كما هي، ولكن قد يزيد عليها بطيب الإقبال عليه، وبشاشة الوجه، وحسن إسماعها، وغير ذلك.

وفي فقه ردِّ التحية والسلام على الغير أحكام شرعية أختار منها:

١- حكم ابتداء السلام على المسلم هو النَّدْبُ والاستحبابُ والسُّنَّةُ، بخلاف رد السلام على من ألقاه عليك فإن حكمه هو الوجوب، ويأثم من امتنع عن رد السلام، ولا يجزئ إلا أن يرد بالسلام ويقول: وعليكم السلام، يعني: لا يجزئ بلفظة أو عبارة أخرى كأن يقول: أهلاً، أو يكتفي بالإشارة برأسه أو غير ذلك.

ورد السلام فرض كفاية في حق الجماعة، فلو مرَّ واحد عليهم وألقى السلام فيكفي أن يرد عليه واحد ويجزئ، ولو رد الجميع فهو خير، وهذا عند جمهور أهل العلم.

ويشترط رَفْعُ الصوت بالسلام للمُسلم ولمن يَرُدُّ عليه ليسمع الآخر وتحقق فائدة السلام، فإن لم يسمع فليكرِّر عليه ذلك.

٢- أكثر أهل العلم على أنه لا يجب رد التحية إذا كانت بغير السلام، كقول القائل: صَبَّحَكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ، أَوْ السَّعَادَةِ، أَوْ قَوَّكَ اللَّهُ، وهذه ألفاظ مشروعة بحكم عادات الناس، ولم يأت في الإسلام ما يمنعها، ويُشرع الرد عليها والدعاء لصاحبها بالخير، مع التنبيه على أن تحية الإسلام تُقدم، وهي سمت من سمات الصالحين الحريصين على تحصيل الثواب من عند الله.

٣- للسلام آداب أخرى جاءت بها الأدلة الشرعية ونص عليها العلماء، من مثل إلقاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف، ومن مثل سلام الصغير على الكبير والقليل على الكثير والماشي على الجالس، وغير ذلك. أخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ».

٤- يُكره إلقاء السلام وَرَدُّهُ على من كان يقضي حاجته عند جمهور أهل العلم.

ويكره كذلك إلقاء السلام وردُّه وقت الاستماع لخطبة الجمعة عند الشافعية، ويحرم عند الحنفية والمالكية، أما الحنابلة فأجازوه ولم يقولوا بكرهاته.

ومن مواطن الكراهة أيضًا إلقاءه على من كانت اللقمة في فمه أو كان مشغولاً بقراءة القرآن أو الدعاء، ولا يجب على هؤلاء رد السلام، نص على ذلك غير واحد من العلماء.

٥- أما وهو يصلي فلا يُكره إلقاء السلام عليه عند الجمهور خلافاً للحنفية الذين قالوا بكراهة ذلك، ولكن المصلي لا يرد على من ألقى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله وعليكم السلام لأن هذا يبطل الصلاة بإجماع المذاهب الأربعة، ولكن يرد عليه بالإشارة فيرفع كفه قليلاً أو يحرك رأسه، كما دل على ذلك ما أخرجه أصحاب السنن واللفظ للترمذي عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قُلْتُ لِبَلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِينَ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «كَانَ يُشِيرُ بِيَدِهِ». وعند مسلم: أنه أوماً برأسه.

وجواز رد المصلي بالإشارة على من سلم عليه ذهب إليه الحنابلة، أما الشافعية فيستحب ذلك عندهم، والمالكية ذهبوا إلى الوجوب، وكرهه الحنفية مع قولهم بعدم بطلان الصلاة.

٦- لا يسلم الرجل على امرأة غريبة عنه إذا خُشيت الفتنة كأن كانت شابة، ويحرم ردُّ السلام منها، وكذلك العكس، بخلاف ما لو كانت كبيرة في السن فلا حرج في ذلك، فإذا مر من عند جمع نسوة فلا حرج بقوله لهن: السلام عليكم ما أمنت الفتنة، وكذلك العكس. وتذكروا أننا نتكلم عن أحكام السلام لا عن حكم المصافحة باليد.

أخرج أبو داود وابن ماجه عن أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا».

٧- أكثر أهل العلم على حرمة ابتداء الكافر بالسلام، وفي الرد عليهم لا يزيد على قول: وعليكم. وقد أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ».

والشافعية والحنابلة ذهبوا إلى حُرْمَةِ تَحِيَّةِ الْكُفَّارِ وَلَوْ بِغَيْرِ السَّلَامِ، بخلاف الحنفية والمالكية الذين كرهوا تحيتهم بغير السلام ولم يحرموه.

قال بعض أهل العلم: إذا كانت هناك حاجة لبدئهم بالتحية فلتكن بغير السلام، كقول: أهلاً وسهلاً، أو كيف حالك، ونحو ذلك.

ويرى ابن القيم أن المسلم إذا تحقق من قولهم: السلام عليكم، فله أن يرد السلام عليهم، لأن الحديث الذي جاء في قولنا: «وعليكم» إنما هو في حق اليهود الذين تحقّقنا من قولهم: السلام عليك يا محمد، أي: الموت.

وفي ابتداء السلام وردّه مسائل أخرى استطرد أهل العلم ببيانها مقرونة بالأدلة، فلترجع في مظانها.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ الْحَسِيبُ: الْمُحَاسِبُ عَلَى الْعَمَلِ الذي يكافئ عليه إن كان خيراً، والسلام والتحية من أنواع الخير، والله يجازي عباده بما يسره في أخراهم، فأقبلوا على دين الله وأحكام شريعته، وارفعوا رؤوسكم بهذا الدين.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

حَدِيثًا

ما أعظمه من خطاب رباني يقرع القلوب التي ما زالت فيها بقية حياة، تأملوا كيف جاء الخطاب في سياق الحديث عن خصال أهل النفاق ومكرهم الذي يتجدد ويتنوع ولا يكاد ينقطع، بل تأملوا كيف جاء في سياق الحديث عن عدد من الأحكام الشرعية التي تحتاج لمن يحمل إيماناً صادقاً في قلبه لِيُمَثِّلَ لها.

الخطاب بدأ بتعظيم الرب الذي لا يختلف فيه اثنان، بدأ بتذكيرهم بألوهيته التي قامت من أجلها السماوات والأرض، ألوهية تخاطب ما فُطرت عليه قلوبهم بأنه لا معبود بحق إلا الله، وأنه العظيم الذي تُصرف إليه العبادة، ومثل هذا الخطاب إن وافق نفوساً طيبة كفاها للإيمان بكل ما جاء به الشرع.

إلى أولئك الذين كفروا بالله العظيم وباليوم الآخر، إلى الذين دخل الشك إلى قلوبهم ولم يصدقوا الله تعالى في إيمانهم، إلى الذين أظهروا إيماناً متذبذباً غير مستقر يسقط معه صاحبه من أول بلاء، إليهم جميعاً جاء الخطاب الرباني: سيجمع الله الذي لا إله إلا هو الأولين والآخرين إلى يوم القيامة الذي لا مزية فيه ولا شك، ستقفون في هذا اليوم بين يدي خالقكم، وسيحاسبكم ويجزيكم عما قدمتم خيراً وشرّاً، فاستعدوا واحذروا. قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

والمطلوب منهم: آمنوا، وأصلحوا أحوال قلوبكم، وأحسنوا في العمل قبل أن تتحسروا في يوم لا تنفع فيه الحسرة، واعلموا أن إخلاصكم في عبوديتكم، وإيمانكم باليوم الآخر هما سبيل النجاة في الدارين، ومفتاح الفلاح فيهما.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لَا أَحَدَ أَصْدَقُ حَدِيثًا وَخَبْرًا، وَوَعْدًا وَوَعِيدًا، وَحُكْمًا وَقَضَاءً مِنْ خَالِقِكُمْ وَرَازِقِكُمْ وَمُدَبِّرِ أَمْرِكُمْ.

كيف تحتكمون إلى غير الله فيما أمركم به؟! كيف تقدمون كلام البشر وتعظمونه وهو يحتمل الصدق والكذب والجهل والسهو والخطأ، وتغفلون عن كلام أحكم الحاكمين ورب العالمين الذي أحاط علمه بما خلق، لا إله إلا هو؟!!

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

الفتنات المذكورتان في الآية هنا من أصحاب رسول الله ﷺ، هاتان الطائفتان من المؤمنين اختلفتا في حال قوم كانوا بمكة، أظهروا الإسلام ليأمنوا على أنفسهم وتجارتهم، وزعموا أن ولاءهم للنبي ﷺ وللمؤمنين، ولكنهم بقوا في مكة ولم يهاجروا من مكة إلى المدينة، وكانوا يظاهرون المشركين الذين في مكة وينصرونهم، وقد خرجوا مرة من مكة في تجارة لهم فأشار بعض أصحاب النبي ﷺ بالخروج لهم وقتلهم وقتلهم، وقال آخرون: لا نقتل من أظهرنا لنا خيراً، فاختلفوا فيهم ونزلت الآيات.

الآية تنكر عليهم اختلافهم هذا وتقول لهم: لماذا تختلفون في حال هؤلاء المنافقين وتنقسمون إلى فئتين، وحقيقة حالهم أن الله تعالى أركسهم بما كسبوا، أي: ردّهم إلى الكفر وإلى إعانة المشركين، وأوقعهم في الضلال وصرفهم عن الهدى.

يعني: أنتم أيها المؤمنون تختلفون فيهم وما دريتم حالهم، وما دريتم أن الله تعالى عاقبهم على سوء اعتقادهم وقلة إخلاصهم فأوقعهم في طريق الغواية والكفر، وحرّمهم نور هدايته، واستدرجهم من حيث لا يعلمون، كل ذلك بما عصوا رسول الله ﷺ، وبما أعانوا المشركين عليه وعلى المؤمنين، وبما خذلوهم في موطن عزيز لا يُقبل فيه التولي والهرب، ولا يصلح معه البقاء في دار الكفر.

هنا بيانٌ من الله تعالى لحقيقة هذا الصنف من أهل النفاق وفضحُ لهم، هذا الصنف يختلف حاله عن حال أهل النفاق الذين هم في المدينة، هؤلاء كانوا قادرين على الهجرة إلى المدينة ونصرة نبي الله ﷺ ونصرة دينه، ولكنهم لم يفعلوا ذلك لشركهم، فلا يشتبه حالهم عليكم، ولا ترددوا في كفرهم وسوء نواياهم وكَوْنهم عدوًّا ظاهرًا، ولا تبرروا لهم كفرهم هذا وتدافعوا عنهم، ولا توالوهم وتتقربوا إليهم.

وسياًتي معنا مزيد بيان لحالهم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفَّاءَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن الآية نزلت بسبب ما حصل في غزوة أحد، لما خرج ﷺ بنحو ألف مقاتل من أهل المدينة ليقاتل ثلاثة آلاف مقاتل من أهل الكفر من قريش كما يذكر أهل السير، ففي هذه الغزوة رجع أهل النفاق وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول بثلاث جيش المسلمين معتذراً هو وإياهم بكلام يدل على نفاقهم وما يحملونه في قلوبهم.

هؤلاء المنافقون لما رجعوا جعل أهل الإيمان يتكلمون فيهم وفيما يستحقونه على فعلتهم، واختلفوا فيهم وانقسموا إلى فئتين وطائفتين ذكر الله تعالى حالهما في الآية هنا، أسوق إليكم ما استدل به أصحاب هذا القول، وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَحَدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نَقْتُلُهُمْ، فَتَزَلَّتْ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ﷻ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ حَبَثَ الْحَدِيدِ». (والمقصود أن المدينة تُظهر الرجال وتُميزهم وتخرج الأشرار من بينهم). وفي رواية أنه قال: «إِنَّهَا طَيِّبَةٌ (اسم من أسماء المدينة النبوية شرفها الله) تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ حَبَثَ الْفِصَّةِ».

ولكن عدداً من أهل العلم من أهل التحقيق ذهبوا إلى القول الأول، لأن السياق القرآني أمر بقتلهم كما سياًتي، وهو ما لم يعمل به ﷺ بابن سلول ومن معه. أما حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد جعلوه من باب التفسير لا التاريخ، أي: أنه ينطبق تفسير الآية على ابن سلول ومن معه ولكنها لم تنزل فيهم.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ لا تحزنوا على ما فعلوا، ولا تغتروا بما أظهروا ولا تأملوا منهم خيراً، لقد أحاط بهم كفرهم، وعَمَّروا قلوبهم ببغضكم وبغض دينكم، ومثل هؤلاء: من يهديهم من بعد الله، أظنون أنه يقدر أحد في هذا الخلق على أن يخالف قدر الله فيهم، وأن يردَّ حكمته وعلمه. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

اسألوا الله دوماً أن يحفظ عليكم دينكم، وأن يثبت الخير في قلوبكم، وأن يجعلكم هداة مهتدين، وأن تكونوا ممن يستوي ظاهره وباطنه مع حب الله تعالى والسعي في مرضاته والعمل لدينه. قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].
﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ سبيل الحق والهدى واحد لا يتعدد، ولا يناله إلا من صدق في عبوديته، وأراد الله تعالى له خيراً.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فُخِذُوا بِهِمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾

حقيقة الذين نافقوا في اعتقادهم أنهم من أهل الكفر، بل هم في الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله عنهم، فهؤلاء لم يكتفوا بكفرهم ويقنعوا به، ولكنهم يريدون من أصحاب محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم وعلى طريقتهم، ولذلك تراهم يبذلون الغالي والنفيس، ويتركون الهجرة إليهم ونصرتهم لإضعافهم وإدخال الخوف في قلوبهم وردهم إلى الكفر، يفعلون ذلك ليقضوا على الإسلام في الأرض، ولتكون الكلمة لهم في المجتمع، وليحفظوا مكاسبهم وينالوا رضا أسيادهم عنهم.

وهذا الأمر لا يفعله فقط أهل النفاق في مجتمعات أهل الإسلام، بل يفعله كذلك أهل الفسوق والعصيان الذين يبارزون بفواحشهم ومنكراتهم ويفتخرون بها، ويجعلون لها ولهم قوانين تحميها وتحميهم، يفعلون ذلك لإشاعة الفاحشة في جميع أهل الإيمان لئلا يكونوا بفسقهم شذاذاً في المجتمع.

ومثل هؤلاء جاءتهم منظومة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر الله تعالى بجهادهم عن طريق دعوتهم، وبيان خطرهم، والتضييق عليهم، وإنزال وليٍّ أمر المسلمين بهم عقوبة تناسب جريمتهم.

وهنا لفظة بلاغية عظيمة في كلمة ﴿وَدُّوا﴾ يعني: هم تمنوا ذلك ورغبوا فيه وأحبوه، وكأنهم يعلمون في حقيقة أنفسهم أن الإيمان الحق إذا قر في القلب لم تزعجه الجبال ولا كل أهل الأرض، هم يعلمون ذلك حق العلم، ولكن مع كل ذلك: احذروهم يا أهل الإيمان، وتذكروا أن القلوب بيد الله تعالى يقبلها كيف يشاء.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تحذير يوزن بالذهب، ويعيننا كثيراً ونحن نراهم يتربصون بدين الله تعالى وحملته.

نَهَى من الله تعالى عن موالاتهم، أي: لا تُحبُّوهم ولا تتخذوا منهم أنصاراً، لا تفعلوا ذلك حتى يهاجروا من مكة إليكم ويكونوا مثلكم، فالهجرة للقادرين عليها جعلها الله تعالى علامة فارقة بين المسلمين والكافرين، هم لو صدقوا الله في إسلامهم لهاجروا ولكنهم ليسوا كذلك.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾
فإن تركوا الهجرة التي أمر الله بها، واستمروا على مظاهرة أهل الشرك ونصرتهم فلا تثقوا بهم وتوالوهم، ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك، ولا تأخذكم بهم رافة، واقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه وتمكنتم منهم، جزاء على ما فعلوه من تخذيل لكم، وسعي للقضاء على دينكم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغَنِّيلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُغَنِّيلُوكُمْ أَتَقْوُوا إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا﴾

صنفان من الناس استثناهم القرآن من وجوب أخذهم وقتلهم، مع أنهم بقوا في مكة وتركوا الهجرة إلى مدينة رسول الله ﷺ:

الأول: صنف لجأ وتحيز ووصل إلى قوم يوجد بينهم وبين المسلمين عهد ومهادنة واتفاق، كما حصل في صلح الحديبية الذي جاء فيه أنه من دخل في عهد قريش وحمايتها فله ذلك وهو

آمن، ويكون حكمهم كحكم الذين لجؤوا إليهم.

هؤلاء لا نأخذهم ونقتلهم؛ فقد أخذوا الأمن والأمان من دخولهم في ذمة قوم من الكفار عاهدناهم من قبل على عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم ولمن دخل في عهدهم والتحق بهم، وهم المقصودون بقول الله في الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

الثاني: قوم جاءوكم في المدينة وقد حشرت صدورهم عن القتال معكم أو القتال مع قومهم، وحشرت يعني: ضاقت وأبغضت ذلك وامتنعت عنه، والتزمت موقف الحياد مع الطرفين.

بطريقة أخرى: هذه طائفة تحترمنا ولا تُعينُ عدوَّنَا علينا بشكل من الأشكال، ولا تعيننا عليه، ولكنها تجتنب الفريقين، فمثلها لا نقتلها ولكن نقصر على دعوتها والسعي إلى إدخال نور الإيمان إلى قلبها.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَّاكُمْ﴾ لا تتأقلوا من الأمر بترك قتالهم، واذكروا أيها المسلمون كيف صرف قلوبهم عن قتالكم، وكيف جعلهم يجتنبون نصره أقوامهم في أمر جلل، وكيف ضيق عليهم في تفكيرهم وألهمهم رأياً يخفف عنكم، هذه نعمة من نعم الله قل من يلتفت إليها، فاشكروها وتذكروا أن الله تعالى خير حافظاً وناصرًا.

﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ الذين تركوا قتالكم وألقوا إليكم السلم، أي: المسالمة والأمان، لم يأذن الله تعالى لكم أن تقتلوهم فكانت دماؤهم محرمة عليكم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُمُوا أَيْدِيَهُمْ فَحُدُّوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١١)

ومن عجيب حال هؤلاء أنهم إذا جاؤوكم إلى المدينة وجالسوكم فيها أظهروا إسلامهم ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وذرياتهم، وليغنموا معكم إذا انتصرتكم على عدوكم، ثم إذا جالسوا أقوامهم من أهل الكفر في مكة عبدوا الأصنام وعظموها وأظهروا أمامهم الكفر ليأمنوا على أنفسهم، فكان حالهم كحال المنافقين في المدينة الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

يعني: ستطلعون على حالهم فلا يغرتكم ظاهريهم، هم أرادوا أن يأمنوكم بما أظهروه من التوحيد، وأرادوا أن يأمنوا قومهم بما أظهروه أمامهم من الشرك والكفر.

لا تتعجبوا من إطناب آيات كتاب الله تعالى وكثرتها وتتابعها في فضحهم، فإنه لا يعلم شدة عداوتهم على الدين، وخطرهم على أمان بلاد الإسلام والمسلمين إلا من عاصرهم وخالطهم، وإلى الله المشتكى.

﴿كُلُّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ الفتنه: هي الشرك والكفر، يعني: ما أقربهم من الكفر وما أسرعهم فيه، لأن عبارة: ﴿أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي: ارتدوا عن الدين ووقعوا في الشرك، وأقبلوا عليه كلما أغراهم به رؤوس أهل الكفر والضلال في الأرض، وكلما عرض عليهم.

﴿فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوْكُمْ وَيَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوْا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ إذا علمتموهم وتبين لكم حالهم، ولم يتركوا عداوتكم ويسالموكم حقيقة، ويكفوا أيديهم عن قتالكم مع المشركين، ويكفوا ألسنتهم عن المكر بكم وخداعكم فلا ترأفوا بهم، ولكن خذوهم واقتلوهم حيث ثققتموهم، أي: وجدتموهم.

هذه الطائفة من المنافقين لا يؤمن غدرهم وشرهم، وهي تنتظر فرصة لقتال المؤمنين، ولا علاج لهم بغير ما ذكرت الآية.

﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أذن الله تعالى لكم بإيقاع عقوبة القتل بأمثال هؤلاء ليكونوا عبرة لغيرهم، وليأمن المسلمون على دينهم وأنفسهم بهلاكهم، وقد جعل الله لكم على قتال هذا الصنف حجة واضحة وسلطاناً بيناً فامثلوا لأمر الله فيهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

قتل النفس التي حرم الله تعالى من الكبائر، وفيه اعتداء على الجماعة والمجتمع، وسأذكر شيئاً من أدلة حرمة النفس في تفسير الآية التي بعدها.

ينتقل بنا السياق القرآني من الحديث عن أحكام التعامل مع أهل الكفر ومع أهل النفاق، إلى الكلام عن حقوق أهل الإيمان فيما بينهم، وهذا فيه تنشيط للذهن والفهم، وفيه أن ديننا الذي جاء يحكم الدنيا هداًنا إلى معالم قوتنا ورفعتنا، وأرشدنا إلى ما فيه صلاحنا فيما بيننا كما أرشدنا إلى ما يلزمنا مع غيرنا.

استعمل النص القرآني لفظة الإيمان كعادته، وهي لفظة تشمل كل مسلم على هذه الأرض، ولكنها جاءت بلفظة الإيمان لأن أهل الإيمان أقرب إلى الاستجابة لأمر خالقهم، ولأن أهلهم هم الذين ننتظر منهم مزيد خدمة لدينهم وأوطانهم ومجتمعاتهم ليتحقق مراد الله تعالى فينا.

إخباراً من الله تعالى يحمل نداءً لنا وتوجيهاً، ويقول لنا: المؤمن الذي تربى في ظلال آيات كتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام يعلم أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ويعلم أن المؤمنين تجمعهم روابط المحبة والمواودة التي تقوم على أن يدفع كل منهم الأذى عن الآخر، ويعلم أن الأصل في النفس المؤمنة أنها محفوظة من القتل والاعتداء، ولذلك: لا يُتصور أن يعتدي عليها قاصداً إيذاها، ولا يمكن أن يقصد مؤمن مؤمناً بالقتل، فالمؤمن الحق يمنعه إيمانه من العدوان على الآخرين، ويُسدده فيما يقول ويفعل وإن غضب.

والتعبير هنا بلفظ الإيمان يدل على أن القتل العمد هذا من أعمال أهل الكفر، أو هو من أعمال من نقص الإيمان في قلبه نقصاً عظيماً وإن بقي في دائرة الإسلام، كما هو الحال في شأن من زنى أو سرق فإنه لا يفعل ذلك وهو مؤمن كما قال ﷺ.

أخرج البخاري ومسلم عن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» (يعني: اطلب منهم أن يسكتوا) فَقَالَ ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

ولكن المؤمن قد يقع القتل منه خطأ، كأن يقصد رمي صبي فيصيب مؤمناً معصوماً الدم، وقد يقتل رجلاً يظنه كافراً حربياً وهو مسلم، وقد يدهس غيره بسيارته خطأ فيموت، وهكذا.

وهناك قتل يسميه كثير من أهل العلم شبه عمد، يعني: ليس عمداً وليس خطأ ولكنه بينهما، وفيه أن القاتل لم يقصد القتل ولكنه قصد ضرب غيره وإيذاءه، واستعمل أداة أو آلة لا تقتل غالباً كالعصا الخفيفة والصفع باليد والرمي بحجر صغير، ولكن المضروب مات بسبب ذلك، فهذا قتل شبه عمد تجب فيه الدية ولا يجب فيه القصاص.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾

صحيح أن الشرع لم يوجب الإثم على من قتل مؤمناً خطأ، ولكن صورة القتل تبقى بشعة في نفسه وفي نفوس من حوله، ولذلك أوجب الشرع أمرين اثنين على من قتل نفساً مسلمة خطأ:

الأول: تحرير رقبة، أي: عتقها ونقلها من العبودية إلى الحرية، وهذه كفارة القتل الخطأ التي هي حق لله تعالى.

قال أهل العلم: القاتل أزهق روحاً ونقلها من الحياة إلى الموت، فألزمه الشرع بالعتق الذي فيه حياة جديدة لهذا العبد، وكأنه أوجد نفساً وأحياها.

وقد تقدم معنا كيف تعامل الشرع مع مسألة العبيد والإماء في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَتِ الْمُؤْمِنَتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَنِيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَتِ﴾ [النساء: ٢٥].

واشترطت الآية في كفارة القتل الخطأ أن تكون الرقبة مؤمنة، أي: مسلمة، فلا يجزئ عتق رقبة غير مسلمة. أخرج أحمد في مسنده أن رجلاً من الأنصار جاء بأمة سوداء، وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَلَيَّ رَقَبَةً مُّؤْمَنَةً، فَإِنْ كُنْتُ تَرَىٰ هَذِهِ مُؤْمَنَةً أَعْتَقْتُهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشْهَدِينَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» «قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: «أَتَشْهَدِينَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ؟» «قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: «أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟» «قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: «أَعْتَقُهَا».

الثاني: دِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله، أي: يسلمها إلى أولياء المقتول، وهي حق لهم لاسترضاء نفوسهم وتطبيب خواطرهم.

وأولياء الدم الذين تُسَلَّم إليهم الدية هم ورثة المقتول الذين يرثون ماله من بعده من الذكور والإناث، وهم الذين لهم الحق بأن يطالبوا بحق المقتول، وذلك عند جمهور الفقهاء. وعند المالكية: أولياء الدم هم العصبات الذكور من الورثة.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قيمة هذه النفس ورفعة مكانتها في ميزان الشرع، لأنه قد يقول قائل: وما ذنبي أن أحرّر رقبة وأدفع ديةً وأنا لم أقصد القتل؟ والجواب أنه يجب على الواحد منّا أن يضمن ما أتلّفه إن كان شيئاً مادياً وإن كان بدون قصد منه، فكيف لو كان ما أتلّفه نفساً إنسانية لها كرامتها عند الله، ثم إن الذي قتل خطأ لا بد وأن يكون قد قصر في أمر ما، ولم يتثبت ولم تكن عنده روية فيما فعل.

ثم إن المقتول هذا له أقارب وأحباب وأولياء، ولن يكون فراقه سهلاً عليهم بحال من الأحوال، فكان دفع الدية هذا مُهَوِّناً عليهم مصيبتهم، ودافعاً لما قد يخطر ببالهم من وساوس وشُرور، ومُعيناً لهم على فقد من فقدوا، بل قد يكون المقتول معيلاً لأسرته، فتكون الدية معينة لهم على ما ينتظرهم بفقده.

ولكن مع ذلك راعى الشرع أن القاتل لم يقصد الفعل، فأوجب على عاقلة القاتل أن تدفع الدية ولم يوجبها في مال القاتل ابتداءً، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَقْتَلْتُ امْرَأَتَانِ مِنْ هَذَيْلٍ (اسم قبيلة)، فَرَمْتُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلْتَهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، «فَقَضَى أَنَّ دِيَّةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ، عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ (يعني: دية الجنين شراء عبد أو أمة وإعطائه لورثة الجنين، فإن لم يوجد فخمسة من الإبل لأدلة أخرى)، وَقَضَى أَنَّ دِيَّةَ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا».

والعاقلة التي تدفع الدية هي عصابة القاتل، وهم أقاربه من جهة أبيه كإخوانه وأبنائهم، وكأعمامه وأبنائهم، وهذا عند جمهور أهل العلم.

ولعل الحكمة في إعانة الأقارب للقاتل إذا كان مخطئاً هي أن جنایات الخطأ ربما تكون أكثر من العمد، وإيجابها في مال القاتل ربما يُوقعه في حرج شديد، فكان وقوف العاقلة معه في ذلك عوناً له، وتخفيفاً عنه، وتحقيقاً للتعاون والتكاتف بين أفراد المجتمع وعلى رأسهم القرابة.

ومن التخفيف كذلك في حال القتل الخطأ، أن العاقلة تدفع هذه الدية مقسطة على ثلاث سنوات، ولا تدفعها على الفور كما هو الحال في القتل العمد إذا عفا أولياء الدم عن القصاص وطلبوا الدية الشرعية.

وقد بين الشرع قدر الدية في القتل الخطأ، وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم في قصة الصحابي الذي وجد قتيلاً عند يهود خيبر ولم يُعرف قاتله، فإن النبي ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِمْ مِائَةَ نَاقَةٍ حَتَّى أَدْخَلَتْ عَلَيْهِمُ الدَّارَ.

وأخرج النسائي وغيره بسند فيه كلام، ما رواه عَمْرُو بْنُ حَزْمٍ فِي كِتَابِهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ: «وَأَنَّ فِي النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ» الحديث.

وهذه الدية تدفع إلى أولياء المقتول سواء كان القاتل ذكراً أم أنثى، حرّاً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، لا فرق في ذلك.

وفي الدية أحكام استطرد أهل الفقه في بيانها تراجع في مظانها.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ يعني: يسقط وجوب دفع الدية إلى ورثة المقتول إذا سامح الورثة وصدر منهم عفو باختيارهم، فهذا تَصَدَّقُ منهم لأنهم ورثة الدم، والدية حق شرعي لهم، والله تعالى يعطيهم أجر من عفا إذا كان عفوهم لله تعالى وحرصاً منهم على الإصلاح، ولذلك سمي الله العفو هنا تصدقاً ليرغبهم في العفو فهذا مما يحبه الله ويشيب عليه أجراً عظيماً.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ المقتول هنا مؤمن كذلك، ولكن أولياءه ليسوا مسلمين، بل هم كفار محاربون لنا يصدوننا عن دعوتنا ورسالتنا، أقول: يجب على القاتل هنا تحرير رقبة تعظيماً لحرمة المقتول لأنه مسلم، ولا يجب عليه دفع الدية لأن أهله من أعدائنا من أهل الكفر المحاربين لا المسالمين، يعني: هؤلاء لسنا حريصين على جبر خواطرهم وتطبيب نفوسهم، ولا نعطيهم ما لا يستعينون به في قتالنا وعداوتنا.

وهذا الحكم ذهب إليه جمهور أهل العلم فيما لو كان المقتول باقياً في دار قومه وهم كفار، فأما إِنْ كَانَ المقتول فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَكَانَ أَوْلِيَائُهُ كُفَّارًا مُحَارِبِينَ لَنَا، فَكَذَلِكَ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ تَجِبُ الْكَفَّارَةُ فَقَطْ وَلَا تَجِبُ الدِّيَةُ، بِخِلَافِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو حَنِيفَةَ مِنْ وَجُوبِ دَفْعِ الدِّيَةِ، وَلَكِنَّهَا تَدْفَعُ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَ لِأَوْلِيَائِهِمْ كُفَّارٌ وَالْكَافِرُ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمَ.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمَنَةٍ﴾

وهنا المقتول كذلك مسلم، وأهله كفار غير مسلمين، ولكنهم ليسوا محاربين لنا، يعني: كانوا مُسلمين لنا كأن يكونوا أهل ذمة، أو كان بيننا وبينهم عهد وهدنة واتفاق مصالحة بألا نقاتلهم ولا يقاتلوننا؛ هنا تجب الدية على عاقلة القاتل، وتدفع إلى بيت المال إذا لم يكن له ورثة مسلمون، وكذلك تجب الكفارة.

وهنا فائدة أوردتها أهل العلم والفقه في استنباط الأحكام من هذه الآية، وهي فيما لو كان المقتول كافراً في هذه الأحوال المذكورة في الآية، فما هو الحكم؟

الجواب: إذا كان محارباً فلا دية ولا كفارة، أما إذا كان من أهل الذمة أو المعاهدين أو دخل بلدنا بأمان وقتله مسلم بغير حق، فتجب الدية إلى أهله إذا لم يكونوا محاربين، وتجب الكفارة كذلك خلافاً للمالكية، ولكن دية غير المسلم أقل من دية المسلم، وتفصيل ذلك مبثوث في كتب أهل الفقه والدراية.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ إذا لم يكن القاتل قادراً على تحرير رقبة لعدم وجودها عنده، أو عدم وجود ثمنها معه ليشترها، أو عدم وجود العبيد كما هو الحال في زماننا، فيجب عليه أن يصوم شهرين متتابعين بدلاً عن ذلك.

والتتابع في صيام الكفارة هنا واجب، يعني: لو أفطر من غير عذر بعد أيام من شروعه في الصيام وجب عليه أن يبدأ من جديد.

وهذا بخلاف ما لو أفطر بعذر، فإنه يتم صيام الشهرين ولا يبدأ من جديد، ومن الأعذار المعتبرة أن يقطع صيامه بسبب المرض، أو يقطع صيامه في أيام العيد التي يحرم صيامها، أو تقطع صيامها فيما لو كان القاتل أنثى بسبب حيض أو نفاس.

وهذه الكفارة التي تدور بين عتق الرقبة أو الصيام، جعلها الله تعالى كفارة للقاتل وسبباً لتوبة الله عليه وإن كان قتلُه حصل عن طريق الخطأ، لأنها في نهاية الحال روح معصومة، ويبقى في القتل الخطأ نوع تقصير كان من الممكن تداركه، فليحذر الواحد منا وليأخذ بالأحوط فيما يتعلق بأرواح الناس ودمائهم.

قلت: وهذا من رحمة الله بعباده أن شرع لهم أسباب توبته عليهم، فإن هذا غاية ما يرجونه من دنياهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ سبحانه يعلم ما يصلح الناس ويحفظ عليهم أمنهم وأمانهم، ويعلم ما يهديهم إلى فلاحهم في الدنيا والآخرة، ويعلم أحوال النفوس وما يرضيها ويُطَيِّبها، وما يصلحها ويؤدبها.

وهو حكيم فيما شرع من أحكام العتق والصيام والدية، والتي لا تكاد تقف مع أي حكم من أحكامها إلا وتجد فيه علم الله وعظمته وحكمته.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (١٣)

هذا واحد من نصوص شريعتنا الطافحة ببيان حرمة دماء المؤمنين، وهو نص يحمل تهديدًا ووعيدًا لكل من اقترف هذا الذنب العظيم، يحمل وعيدًا لم يرد مثله في حق أهل الكبائر في الكتاب ولا في السنة، وهو نص يدل دلالة ظاهرة على تعظيم الإسلام لأمر الدماء، يكفيك أن تتأمل كلمات الآية هنا لتدرك ما ينتظر قاتل النفس المحرمة الذي تجرأ متعمدًا على إزهاق روح مسلمة معصومة لم يأذن الشرع بالاعتداء عليها، انظر كيف أخبر الشرع هنا عما ينتظر القاتل المتعمد من خلودٍ في جهنم إلى أن يأذن الله، ثم غضب من الله تعالى ينزل عليه، وكذلك لعنة منة وعذابٍ عظيمٍ وشديدٍ.

القتل العمد من أعظم الذنوب بعد الشرك، وفيه اعتداء على نفس مؤمنة بريئة، نفس قد يكون من ذريتها الخير الكثير للبشرية، وهذا القتل فيه بث لروح الكراهية والبغضاء والشحناء بين أبناء المجتمع الواحد، وفيه تفريق للمؤمنين وإضعاف لهم أمام عدوهم الذي يترصص بهم ليله ونهاره، ينتظر فرقته وحصول الخصومات العظيمة بينهم، وأن يكون بأسهم بينهم شديدًا.

وهذه الآية فيها وقفات متعددة أطال أهل العلم النفس فيها، أذكر لكم ما فيها من كنوز وعظية وعلمية فيما يأتي:

أولاً: إليكم نصوص شرعية تعطينا مزيد بيان لمكانة أهل التوحيد عند الله، وترشدنا إلى ما يلزمنا لنحفظ على أمتنا دماءها، فضلاً عن حفظنا لدينها وأموالها وأعراضها وعقول أبنائها.

نصوص تجعل قارئها ينطلق بمبادرات تجمع الناس على الدين والعلم، وتُرجعهم إلى رشدهم في زمن سهل فيه القتل وكثر، وتجراً على دماء المسلمين جَمْعٌ من الظلمة في عدد من بلدان أهل الإسلام، إليكم شيئاً من هذه النصوص، فتأملوها:

أما من كتاب الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْنَلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

وأما من أحاديث رسول الله ﷺ، فقد أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّخْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

وأخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ (أي: في النفوس التي قتلت ظلماً في الدنيا)».

وأخرج الترمذي وغيره عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الْمُقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاصِيئُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ وَأَوْدَاجُهُ (العروق التي تحيط بالعنق) تَشْخَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ، قَتَلَنِي هَذَا، حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ».

وأخرج أبو داود عَنْ أَبِي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا (مسرعا في طاعة الله وفي الخير) صَالِحًا مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ (انقطع ولم يوفق للمسارعة في الخير)».

وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه واللفظ للنسائي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ». وفي لفظ ابن ماجه عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بَغَيْرِ حَقٍّ».

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ»، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا».

ثانيًا: هذه النصوص إنما هي فيمن قتل مسلمًا بغير حق، أما من قتله بحق فلا يشملها الوعيد المذكور في الآيات والأحاديث، والشرع أوجب على الإمام قتل المسلم إذا قتل نفسًا مسلمة معصومة متعمدًا، وهو ما يعرف بالقصاص الذي وصفه القرآن بأنه حياة للناس، وأوجب الشرع كذلك على الإمام قتل المسلم إذا اقترف جُرم الزنا وكان محصنًا، أي: متزوجًا، وأوجب قتله إذا ارتد عن دينه، وعند جمهور أهل العلم يُقتل الساحر، وكذا عند الشافعية إذا قتل بسحره، ولذلك كان الوعيد في الآيات المذكورة إنما هو لمن قتل نفسًا بغير حق.

أخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: الشِّبُّ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

ومما يُستثنى من الوعيد المذكور في الآية هنا ما لو صال مسلم واعتدى على مال الآخرين، أو اعتدى على أنفسهم، أو على أعراضهم ثم حاولوا دَفْعَهُ وكَفَّ شَرَّهُ فلم يندفع إلا بالقتل فقتلوه، فمثله لا دية له، ولا كفارة على قاتله، ولا قصاص.

وكذلك الحال فيما لو بَغَتْ طائفة على إمام المسلمين فإنه يقاتلها ليدفع بغيها، وقد يكون في ذلك قتل لبعض من كان مع البغاة، فمثلهم أباح الشرع قتالهم وقتلهم إذا لزم الأمر.

ثالثًا: حرص شريعتنا على النفوس لم يقتصر على تحريم قتلها ظلمًا، ولكنه امتدَّ لإغلاق وسدِّ كل ذريعة توصل إلى قتلها، وحرَّم كل فعل يؤذيها وإن كان دون القتل، ولذلك جاءت طائفة من أحاديث النبي ﷺ تبين خطورة التعرض للنفس المعصومة، وخطورة أن يقاتل المسلم المسلم على باطل، وخطورة أن يؤذيه في بدنه.

أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

وأخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَسَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ».

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ» يعني: (لعل الشيطان يجعله يقتل فيعرض نفسه لسخط الله وناره).

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، وغير ذلك من الأحاديث.

رابعاً: العقوبة الأولى التي ذكرتها الآية لقاتل المؤمن عمداً هي أنه من أهل جهنم الخالدين فيها، ومعلوم لديكم أنه في عقيدتنا لا يخلد في جهنم إلا أهل الكفر والشرك، ومعلوم لديكم كذلك أن المسلم إذا اقترف جُرمَ القتل فإنه يبقى مسلماً ولا يكون كافراً، فلماذا يخلد في النار؟ وهنا مسألة أخرى تتبع هذه المسألة، وهي: قبول توبة القاتل عمداً، بمعنى: هل تقبل توبة القاتل العمد أم ليس له توبة؟ أقول في الجواب عن ذلك:

الصحيح أن القاتل عمداً لا يكفر بإجماع أهل العلم، بل هو في دائرة الإسلام، خلافاً لبعض طوائف المسلمين التي ضلت في ذلك كالخوارج والمعتزلة.

وتوبة القاتل المتعمد مقبولة عند جماهير أهل العلم من السلف والخلف، وَقَدْ كَانَ جَمْعُ مِنَ الصَّحَابَةِ يَرُونَ أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِلْقَاتِلِ عَمْدًا إِذَا قَتَلَ مُؤْمِنًا أَخْذًا بظاهر الآية، وظاهر ما أخرجه أحمد والنسائي عن مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلُ يَقْتُلُ الْمُؤْمِنَ مُتَعَمِّدًا، أَوْ الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا». ومن القائلين بذلك من الصحابة ابْنُ عَبَّاسٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أما جماهير السلف والخلف فقد استدلوا على قبول توبته بجمع من الآيات والأحاديث، كحديث الذي قتل مائة نفس ثم تاب فتاب الله عليه، وَقَبِضَتْ رَوْحَهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وكقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، ويشمل القاتل المتعمد عموم قول الله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَعْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ويشمله كذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

واستدلوا كذلك بالنصوص التي جاءت في عظم كلمة التوحيد ومكانة صاحبها عند الله، وكذلك بالحديث الذي دل على أن إقامة الحد في الدنيا على صاحبه يكون كفارة لذنبه.

وقد أجاب أهل العلم عن الخلود المذكور في الآية هنا بأجوبة:

منها: أن المقصود بالخلود هنا هو المَكْتُ الطَّوِيلُ في النار وليس الخلود الأبدي كما هو حال الكفار والمشركين، وَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ كما صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك.

وإطلاق لفظة الخلود على المكث الطويل أسلوب من أساليب العرب في لغتهم، فقد اسْتَعْمَلُوا لَفْظَ الْخُلُودِ وَهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ شَيْئًا يَدُومُ دَوَامًا لَا نِهَآيَةَ لَهُ، وقد أوردوا على ذلك شواهد من شعر العرب ولغتهم، وذكروا أن العرب تحب أن تسمي المولود باسم (خالد) تفاؤلاً بطول بقائه وإن كانوا يعلمون أنه لن يخلد، واستأنسوا كذلك بأن الآية لم تذكر الأبدية، يعني: لم تقل: خالدًا فيها أبداً، وهناك فرق بين العبارتين.

ومنها: أن معنى (جزاؤه) أي: هذا جزاؤه الذي يستحقه لو جازاه، بمعنى أنه مستحق للخلود فيها لشناعة فعله وقبحه، ولكن رحمة الله أدركته فلم يخلد لموته على التوحيد، وربما يعفو الله عنه فلا يدخل النار أصلاً، وهذا ما يقول عنه أهل العلم: هو تحت المشيئة، أي: مشيئة الله سبحانه وتعالى.

ومنها: أن الآية محمولة على من استحل ذلك يعني قال: إن قتل المسلم حلال، لأن تحريم قتل المؤمن معلوم من ديننا بالضرورة، وكل من أنكر شيئاً من ذلك فلا يكون مسلماً.

ومنها: أن الآية جاءت في معرض الزجر والتغليظ ليتعظ الناس ويجتنبوا ذلك.

خامساً: تأملوا غضب الله تعالى المذكور هنا ولعنته، هاتان علامتان من علامات سخط الله تعالى على القاتل، فاللعنة هي طرده من رحمة الله والخير الذي أعده له، وأما الغضب فهو أشد من اللعن وأعظم، فهو لا يقتصر على الطرد من الرحمة ولكنه قد يأتي بعذاب شديد في الدنيا والآخرة.

ثم انظروا فيما ختمت به الآية من ذكر العذاب العظيم، وهو الذي يكون في جهنم دار الخزي والهوان. اللهم ربنا جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

سادسًا: القتل العمد عقوبته في الدنيا القصاص من القاتل، والذي يقيم القصاص هو الإمام أو نائبه من القضاة ونحوهم، ويجوز لأولياء المقتول أن يصدر منهم عفو أو من أحدهم عن القاتل، فإذا صدر العفو منهم جميعًا أو من أحدهم سَقَطَ القصاص.

والعفو قد يكون بدون مقابل، وقد يكون مقابل الدية الشرعية التي هي مائة من الإبل، وقد يكون صُلْحًا عن القصاص، بمعنى أن أولياء الدم يطلبون أكثر من مقدار الدية للعفو عن القاتل، وهذا أمر جائز ولهم ذلك.

وعند غير واحد من أهل العلم: للإمام أن يقيم عقوبة تعزيرية على الجاني إذا حصل العفو عن الجاني، وهو ما يُسمَّى في أيامنا بالحق العام.

فإذا عفا أولياء الدم ومستحقو القصاص إلى الدية، فإنها تكون في مال القاتل وليست على العاقلة، وتدفع على الفور ولا تؤجل لثلاث سنوات كما هو الحال في القتل الخطأ وشبه العمد، وتكون مغلظة: أربعون خِلْفَةً من الإبل (وهي الحوامل)، وثلاثون حِقَّةً (وهي الإبل التي بدأت في السنة الرابعة من عمرها)، وثلاثون جَذَعَةً (وهي الإبل التي بدأت في السنة الخامسة من عمرها)، وبعض العلماء غَلَّظَها بغير ذلك.

سابعًا: لقائل أن يقول: أين حَقُّ المقتول من قاتله، يعني: إذا تاب القاتل تاب الله عليه، وإذا أقيمت عقوبة القصاص أو طلب أولياء الدم الدية فهذا حق لهم وتطيب لخواطرهم، فكيف سيأخذ المقتول حقه من القاتل الذي ظلمه؟

والجواب أن حق المقتول لا يسقط يوم القيامة بحال من الأحوال، حتى وإن تاب القاتل إلى الله أو أقيم القصاص عليه، وتبقى مطالبة المقتول بحقه قائمة، ومثله يعوضه الله تعالى عن حقه؛ إما بالأخذ من حسنات قاتله، وإما بطرح سيئاته على القاتل، وإما بأن يعطي الله تعالى المقتول من فضله وكرمه ونعيمه ما يرضيه، أو يُصلح الله بينهما.

ثامنًا: أوجب الشافعية الكفارة على القاتل عمدًا، يعني: يلزمه كذلك عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين إن لم يجدها، وذلك خلافًا لجمهور أهل العلم الذين قالوا: إنما تجب الكفارة فقط على القاتل الخطأ أو شبه العمد، ولا يجب على القاتل العمد إلا القصاص أو العفو إذا عفا أولياء الدم.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ لَكَ اللَّهُ كَانِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ۖ﴾ (٩٤)

﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: إذا سرتهم وسافرتهم لنشر دين الله وإعلاء كلمته في الأرض. وقول الله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، أي: فتحققوا من إسلام من لقيتموهم قبل قتالهم وقتلهم.

هذا نداء من الله تعالى لأهل الإيمان ألا يستعجلوا في قتل من تمكنوا منه وغلبوه في جهادهم وفتوحاتهم، ثم ألقى السلام عليهم ليأمنهم، صحيح أن ظاهر حاله أنه غير مسلم، لكنه أظهر أمراً يجعلنا نشك في أنه مسلم، وأنه ربما يكتم إيمانه خشية أهل الكفر من حوله، وأنه لم يستطع أن يهاجر إلى بلاد الإسلام لسبب ما.

أخرج أحمد والترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ غَنَمٌ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ فَقَامُوا فَفَتَلَوْهُ وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَاتُّوا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ۖ﴾.

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كَانَ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ لَهُ (يعني: أغنام قليلة) فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَفَتَلَوْهُ وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ تِلْكَ الْغَنِيمَةُ».

الصحابة رضوان الله عليهم اجتهدوا وظنوا أنه ربما قالها خوفاً من القتل ومن سيوفهم، وأنه يسعى لغدرهم وخيانتهم، فبادروا لقتله، فجاء العتاب الشديد لهم على تسرعهم وعدم سؤالهم رسول الله وهو بين أظهرهم.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ خذوا بظاهر قول من سلم عليكم تقرباً منكم، ولا تُفَتِّشُوا عما في القلب فذلك إلى الله تعالى، ولا تتبعوا خواطركم المستعجلة ولا تتبعوا أهواءكم. وكلمة السلام هنا هي قوله لكم: السلام عليكم.

إذا أظهر لكم أحدهم قولاً أو فعلاً يدل على أنه مسلم فلا تكذبوه وتتهموه في نيته وتنفوا عنه الإيمان وإن كان في ديار الكفر، لا تفعلوا ذلك ابتغاء عرض من أعراض الدنيا، وهي الغنيمة التي ستأخذونها منه بعد قتله.

صحيح أن الغنائم حق مشروع لكم في أحوال، ولكن: ثمة ما هو أحب إلى الله تعالى وإلى أوليائه، ثمة كلمة لو قالها لكتب الله تعالى له الجنة، ولغفر له، ولفتح له أبواب التوبة.

وافهموا مراد الله فيكم ومنكم: إذا كان الشرع قد نهاكم عن قتل من ألقى إليكم السلام ليحفظ نفسه ودمه، فكيف بمن نطق بالشهادتين أمامكم، فاحرصوا عليها وانتظروها منه، وقدموها له على أحسن حال.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ (الحرقات بطن من بطون قبيلة جهينة)، فَأَذْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتُهُ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

وأخرج البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَقَالُوا: صَبَّأْنَا صَبَّأْنَا (أي: خرجنا من ديننا)، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ وَيَأْسِرُ (لم يفهم عليهم أنهم يريدون أنهم أسلموا)، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أَسِيرِهِ، فَأَمَرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ يَقْتُلَ أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» مَرَّتَيْنِ.

وعند أهل السير أن النبي ﷺ بعث إليهم عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودفع لهم دية قتلاهم جميعاً وما خسروه من أموالهم حتى الإناء الذي كان الكلب يشرب منه.

ولعلكم وجدتم في الآية إنكاراً شديداً عليهم في استعجالهم هذا، مع أن القتل الذي فعلوه إنما هو نوع من أنواع القتل الخطأ، وقد كان باجتهاد منهم، ولكن حظوظ النفس دخلت في اجتهادهم هذا، ودخل حب الدنيا عليه كما أشارت الآية إلى ذلك.

ومثل هذا التوجيه الرباني يعلمنا الكثير وربّي، يعلمنا أن نتثبت في كثير من أمور حياتنا التي نبنيها على الظن والتخمين وقد أشكل علينا أمرها، فكم من بيوت خربت لعدم التثبت والتيقن، وكم من دماء أريقَت لذلك، بل كم من خصومات حصلت بين القرابة وبين أفراد المجتمع

وعوائله بسبب ذلك، نريد أن نبث الثقة بين أفراد المجتمع ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، هذه قاعدة ربانية عظيمة فتأملوها والزموها.

وللتذكير فإن الآية هنا في حق من أبدى لنا فعلاً يدل على إسلامه، أما من لم يُظهر شيئاً من ذلك، ولكن أظهر كفره البواح وعداءه لله ولرسوله وللمؤمنين، وحمل السلاح علينا، فهذا من الأصناف التي لا تشملها الآية هنا.

وفي الآية فائدة دقيقة ونفيسة أقول فيها: فليحذر الواحد منا أن يفعل فعلاً لإرضاء نفسه واتباع هواه، ثم يلبس ما فعله ثوب الدين والتدين، فيظلم دينه ونفسه.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ إذا تحرك ما في نفوسكم من رغد العيش وسعة الرزق، وحرصتم على الدنيا وأعطيتموها أكثر مما تستحق، فتذكروا في مثل هذا الحال أن الله سيغنيكم من فضله في حياتكم إن جاهدتم أنفسكم وانتصرتكم عليها، وستأتي الدنيا إليكم وهي راغمة مطيعة، وإياكم أن تغفلوا عن ثواب الآخرة الذي ليس مثله ثواب.

القرآن ينادينا هنا: تذكروا أن ما عند الله دوماً خيراً وأبقى، وقدموا مرضاته على كل شيء، واتركوا الرزق الذي قام على الحرام وعلى المشتبهات، وتوبوا إلى الله تعالى منه ومن أي مال خبيث تسلل إلى عيالكم وأهلكم.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَالُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ يا من استعجلتم وقتلتهم من هو مؤمن يكتنم إيمانه خوفاً على نفسه من أهل الكفر: هل تذكرون كيف كنتم من قبل، هل تذكرون يوم كنتم في مكة وكنتم تخفون إيمانكم وعبوديتكم لله خشية أهل مكة؟ ألا يدفعكم ذلك لأن تتبينوا وتحرصوا على دماء من ظهرت منهم أمارات الإسلام وعلاماته؟!

ذكر البخاري أثراً معلقاً في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمَقْدَادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ؟ فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ»، وتمام القصة في مسند البزار، والتي فيها أن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل رجلاً بعد أن شهد بكلمة التوحيد أمامه، فظن أنه قالها خوفاً من السيف، فقتله، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال ذلك.

وكذلك يا أهل الإيمان: ألم تدخلوا في هذا الدين بكلمة الإسلام وبالشهادتين، كيف حالكم لو لم تُقبل منكم هذه الكلمة، وأُخذتم بالشكوك والظنون.

ويا أهل الإيمان: كما أن الله تعالى أكرمكم بالهداية شيئاً فشيئاً، فكذلك يحصل لغيركم.

وهنا همسة في أذن الصالحين والصالحات الذين ربما كان بعضهم بعيداً عن طاعة الله، وعن طريق الاستقامة في مرحلة من عمره، ثم أكرمه الله بالهداية وتاب عليه ويسر له طريق الطاعة وشرح صدره لما يحب ويرضى، حتى أصبح إيمانه كالجبال، أقول له: إذا رأيت من أغرقتَه المعاصي، وحُبِّيت إليه الذنوب، وأسرف على نفسه فيها فاذكُرْ أول ما تذكُرْ فضل الله عليك، ثم اجعل الشفقة والرحمة مفتاحاً لتصل إلى قلبه، واحرص على أن تنقله إلى الحياة الطيبة التي أكرمك الله بها واصطفاك لها، فالمتتبع لأحوالهم يجد أن كثيراً منهم يحتاجنا وينتظرنا، ويجد أن كلمة راقية ومعاملة لائقة منا قد تعينه على طريق الاستقامة والهدى.

أقول هذا في حق من غلب على ظنكم قربه وحبه لدينه ولكن غلبه هواه وانتصرت عليه شهواته وربما كان جاهلاً، ولا أقوله في حق من عاداكم وعادى دينكم وتربص بكم الدوائر، ولا أقوله فيمن كان رأساً في الشر ومفتاحاً للفجور في الأرض، فهؤلاء ليس لهم إلا الغلظة والمدافعة والتحذير منهم ومن شرهم، نعوذ بالله من الفتن.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الله عالم بكم ولا يخفى عليه شيء من حالكم، والله يعلم حظ الدنيا ومبلغها من قلوبكم، وسيجازيكم على نياتكم وأعمالكم، فراقبوا أنفسكم وانصروا دين الله تعالى كما أمركم وشرع لكم.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٩٥

تربية قرآنية فريدة من نوعها، تصلح منهاجاً في فنون وعلوم شتى: القرآن العظيم بعد أن عاتب المجاهدين الذين تسرعوا في الحكم على غيرهم وبادروا إلى قتلهم قبل التحقق من إسلامهم، يرتقي بهم في بيان فضائل ذروة سنام الإسلام وبيان كرامة أهله على الله، وذلك لثلاث يكون لوهم السابق سبباً في ضعف همتهم واضطراب عزيמתهم، كأن القرآن يقول لهم: أنتم خير أهل الإيمان وأقربهم درجة من الله، سيروا في طريق جهادكم وارفعوا رايته وتأملوا غايته، وعتاب القرآن إنما هو لكم وليس عليكم.

هنا إخبار من الله تعالى عن فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله، أولئك الذين تركوا أحب شيء إليهم في دنياهم، تركوا أهليهم وأموالهم ورغد العيش وراحته، بل بذلوا أموالهم وأنفسهم حباً لله ورغبة فيما عنده وقاموا يحمون بلاد الإسلام، وينشرون دين الله تعالى في الأرض، ويدعون الناس إلى التوحيد والعمل، هؤلاء لا يستون مع أهل الإيمان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يجاهدوا لانشغالهم بغير ذلك من الأعمال الصالحة.

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ [التوبة: ١٩-٢٢].

والذين لا يجاهدون من المؤمنين صنفان:

صنف يتمنى الجهاد ويود لو كان من أهله، ولكن حبسه العذر، فقد يكون كبيراً في السن ضعيفاً، أو مريضاً، أو ابتلي بالعمى أو بالعرج، أو غير ذلك من الأعذار، فهذا الصنف من المؤمنين أشارت إليه الآية بقول الله تعالى فيها: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ أي: إن أولي الضرر الذين هم أصحاب الأعذار المعبرة قد يبلغون أجر المجاهدين في سبيل الله إن صدقوا في نيتهم، وهذا فيه إنصاف لهم وحفظ لنفوسهم من الانكسار، وفيه رعاية لمشاعرهم وتكريم لهم على صبرهم على بلائهم، وطيب نيتهم، وحسن سريرتهم.

وقد دل على ذلك سبب نزول الآية الكريمة هنا، فقد أخرج البخاري عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَلَى عَلَيْهِ (أي: أعطاه كلاماً ليكتبه، وكان زيد من كتاب الوحي): «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قال زيد: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمْلِيهَا عَلَيَّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ - وَكَانَ أَعْمَى - فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفَخَذَهُ عَلَى فَخْذِي، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخْذِي (أي: تُدَقَّ وَتُؤَذَى)، ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ (يعني: كُشِفَ وَأُزِيلَ)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

وفي فضل الصادقين هؤلاء أخرج البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلَفْنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ». (يعني هم معنا في الأجر والثواب).

بل إن الله تعالى ذكرهم في كتابه وأثنى عليهم ووصفهم بالإحسان، وذلك في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِذْ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿ [سورة التوبة: ٩١-٩٢].

والصنف الثاني اشتغل في عبوديته لله تعالى بغير الجهاد، كطلب العلم والدعوة إلى الله والسعي على رزق عياله بما أحل الله وغير ذلك، وهذا الصنف لم يدخل في دائرة الذم والعتاب لأنه ترك جهاداً حكمه فرض كفاية وليس فرض عين، ثم إنه تركه لغاية أخرى قصدها الشرع لعمارة الأرض على الوجه الذي يحبه ربنا.

هذا الصنف لا يبلغ بعمله أولئك الذين قاتلوا أعداء الله ليطهروا الأرض من الفساد وقيموا الحق فيها، وبذلوا ما بذلوه رفعةً للدين وحمايةً للمسلمين.

ويلحق بهذا الصنف أولو الضرر الذين لم يُحَدِّثُوا أنفسهم بالقتال والجهاد، ولم تكن لهم نية صادقة في ذلك فيما لو زال عذرهم.

واعلموا يرحمكم الله أن الآية ذكرت أعلى مراتب الجهاد، وهو الجهاد بالمال والنفس، ولا يفوتكم أن حقيقة الجهاد في سبيل الله تقوم على بذل النفس فقط، وأنه لو جاهد بنفسه كان مرفوع القدر عند الله، ولكن الذي قدّم مالا وبذل نفساً يصعب أن يسبقه أحد في الثواب والدرجات.

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ المجاهدون أعلى مرتبة في الآخرة من القاعدين غير المعدورين، وقد اختصهم الله تعالى بمزيد نعيم.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ؟ قَالَ: «لَا أَجِدُهُ» قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقُومَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟»، قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «إِنْ فَرَسَ الْمُجَاهِدُ لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ (ليعدو بنشاط، والطول هو الحبل الذي يربط به ويقاد)، فَيَكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ (أي: لصاحبه)».

وأخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ، كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ، بَأَنْ يَتَوَفَّاهُ اللَّهُ فَيَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ هذا دليل على أن الآية تتكلم هنا عن الجهاد الذي هو فرض كفاية، لأنه لو كان فرض عين لما قُبِلَ تخلف أحدٍ عنه من المسلمين، ولما وعد الله تعالى القاعدين عنه بحسن العاقبة.

الله عَزَّوَجَلَّ وعد المؤمنين المجاهدين بالحسنى، والحسنى هي دار الجزاء التي أعدها لأوليائه وهي الجنة.

وكذلك وعد الله تعالى الذين قعدوا عن الجهاد واشتغلوا بأعمال صالحة أخرى بحسن العاقبة والأجر العظيم؛ وذلك لأنهم يكفون الأمة فرضاً آخر من فروض الشريعة كالعلم أو كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو كالدعوة إلى الله، أو كتطبيب الناس وإعانتهم في تحقيق مصالحهم في العاجل، أو غير ذلك.

أخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

وأخرج البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ».

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تأكيد يحمل زيادة الأجر العظيم للمجاهدين، وهو ما يدل على كرامتهم عند الله، ويدفع كل توهم من شأنه أن يُنقص من قدرهم، فإنه معلوم لديكم أن الحرب عليهم لا تكاد تنقطع، ولعلكم تجدون من أبناء جلدتكم من يغمز في الجهاد ويلمز، ويسعى لإسقاط كل من يحمله همًّا، وينشر ذكْره وفضله بين الناس.

﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١٦)

هذا مزيد بيان للأجر العظيم للمجاهدين، فقد أعد الله لهم درجات في الجنة جاء بيان شيء من سعتها وعظمتها فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

ثم إن الله تعالى أعد لهم مغفرة على ما كان منهم من ذنوب وزلات، وأعد لهم رحمة تخصهم على ما قدموا، كما دل على ذلك الحديث الذي تقدم معنا فيما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ» الحديث.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَجَرٍّ نُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠-١٢].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبحانه يغفر لكل من أناب إليه ورجع، ويقبل التوبة من عباده ما لم تبلغ الروح مكان خروجها، وقد جعل الشهادة في سبيله سبباً من أسباب ذلك، وهذا من سعة رحمته لا إله إلا هو.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

لما هاجر ﷺ إلى المدينة وأقام دولة الإسلام، كانت الهجرة إليها واجبة على كل مسلم كان في مكة، والتي كانت يومئذ دار كفر وصد عن سبيل الله، وكانت في عدا دائم مع النبي ﷺ وصحبه، وكانت تُخرج جيوشها الواحد تلو الآخر لتقتضي على دين الله تعالى في مهده ونواته الأولى.

تذكر الآية هنا حال صنف من الذين دخلوا في دين الله تعالى وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكنهم آثروا البقاء في ديار أهل الكفر والشرك يحملون همومهم ويكثر سوادهم، ولم يهاجروا إلى أرض الإسلام والمسلمين معتردين عن ذلك بأعذار واهية لا تصح.

ومعلوم لديكم أن بقاءهم مع المشركين فيه تكثير لعددهم، وفيه ترك التمايز عنهم وعن ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفيه ترك الجهاد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ومع المسلمين، وفيه تقوية شوكتهم، وفيه فوات لأنواع من علوم الشرع مما يحتاجه المرء في دنياه وينفعه في آخرته.

تذكر الآية حال أناس أسلموا في مكة ولم يهاجروا مع نبينا عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وإنما بقي الواحد منهم في مكة مُخْفِيًا إسلامه كاتمًا إيمانه، زاعمًا أنه ضعيف لا حول له ولا قوة على الهجرة، والمصيبة أنه كان يخرج مع جيش مكة الذي قصد قتال المسلمين في المدينة.

أخرج البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، يَكْتُمُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يَضْرِبُهُ فَيَقْتُلُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمًا لِنَفْسِهِمْ﴾».

إذاً، هؤلاء يقتلون وهم في جيش أهل الكفر، وهو أمر جلل قد يُوقع أصحاب النبي ﷺ في حرج شديد لأنهم مسلمون قُتلوا على أيدي المسلمين غالبًا، وهذا أمرٌ عسيرٌ عليهم، ولذلك جاءت الآية تصف حالهم بما وَصَفَتْ.

يعني: هؤلاء لا يقدرّون على إظهار دينهم في مكة، فكانوا من الذين ظلموا أنفسهم بترك الهجرة وهم قادرّون عليها، وكانوا من الذين رضوا بالذلة وهم قادرّون على التخلص منها، ولما جاءتهم الملائكة لتقبض أرواحهم سألتهم سؤال توبيخ، أو أنها سألت أرواحهم بعد قبضها وقالت لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾، أي: كيف كان حالكم مع دينكم الذي دخلتموه، ولماذا مكثتم في ديار الكفر ولم تهاجروا، فاعتذروا عن قبح فعلتهم بما لا يصح و﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: زعموا أنهم قوم مستضعفون أذلاء في بلد الكفر لا يستطيعون فعل شيء، فأبطلت الملائكة عذرهم هذا، وأعلمتهم بأنهم كانوا قادرين على ترك هذه الديار وأن أرض الله واسعة، ولكنهم لا يريدون الفرار بدينهم فظلموا أنفسهم بذلك، فكان جزاؤهم كما قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ودخولهم جهنم لا يدل على كفرهم، بل هم مسلمون اقترفوا كبيرة من كبائر هذا الدين، فاستحقوا سخط الله وعقوبته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]

ومزيد من التأمل في بيان حقيقة هؤلاء نستطيع القول: إن الذي منعهم من الهجرة هو ما أصاب قلوبهم من مرض الخوف من صناديد أهل الكفر وكُبَّارهم، ولعلهم يرجون أن يكون لهم شأن عندهم ولا يريدون التضحية براحتهم وأمانهم الموهوم، كما هو الحال مع عدد من أبناء الإسلام الذين يقفون مع الباطل وأهله من قادة الظلم والصد عن الدين والسعي إلى تحجيمه، ممن يريدون ديناً على طريقتهم لا على مراد من نزل الدين من عنده، وتراهم يذلون أمامهم ولا ينطقون بالحق الذي يعلمونه حق العلم، بل وربما كانوا اليد التي يضرب بها أهل الظلم في بلاد المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وانتهوا إلى أننا نتكلم عن صنف لم يستطع أن يظهر شعائر الله تعالى ودينه في ديار الكفر، وليس له عذر حقيقي في بقاءه في دارهم، وهذا بخلاف من كان له عذر معتبر في ذلك.

وهذا الحديث القرآني يفيدنا في توجيه من يعتذر عن العمل لدين الله في بلاد المسلمين بأعذار واهية لا وزن لها، وتراه يظهر في مواطن شتى في صف الباطل وأهله، وقد لا يتمعر وجهه ولا يتحرك قلبه من أجل محارم الله التي تنتهك، ومن أجل دين الله الذي يضيع، كأن الآية تقول له: لا تترك إخوانك العاملين لدين الله وحدهم، فإن الحمل ثقیل عليهم، والمتربصون بهم أشداء على دعوتهم، فاحرص على أهل الحق والزَّمهم وانصرهم.

ومن فوائد الآية الوعظية التي لا تخفى فائدة الانغماس في المجتمع الصالح والصحبة الطيبة، يعني: تأملوا كيف كانت مسألة الهجرة مسألة ولاء وبراء ودين، وكيف كان الوعيد على تركها شديداً، وما ذلك إلا لأن البيئة الطيبة تُعين كثيراً على الثبات وزيادة الإيمان، بخلاف البيئة التي غلب فيها الكفر والفسق فإنها جارفة ولو بعد حين، وقلما ينجو عبد من طرائقهم وحيلهم، اللهم اربط على القلوب. قال الله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسْعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾

[العنكبوت: ٥٦].

والهجرة من مكة إلى المدينة انقطعت بعد فتح مكة، وبعد أن أصبحت مكة دار إسلام، وقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس وغيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم جميعاً، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ (أي: احرصوا على الجهاد والنية الصالحة في أعمالكم)، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَأَنْفِرُوا».

ولكن هذا لا يعني أن الهجرة انقطعت إلى يوم القيامة، بل إن الهجرة قائمة أحكامها كلما لزم الأمر واحتاج صاحبها إليها.

ومن المسائل العلمية التي يذكرها أهل التفسير والفقه في هذه الآية مسألة الإقامة في بلاد أهل الكفر والهجرة إليها، وهي مسألة تعني كثيرًا من المسلمين في زماننا، ومجمل القول فيها:

١- الأصل هو عدم جواز الإقامة فيها والهجرة إليها لما قد يتعرض له المسلم من فتنه في دينه وعقيدته وما تربى عليه، ولما أخرجه أبو داود عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ».

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَنْعَمٍ فَأَعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ (يعني: قُتِلُوا وَهُمْ سَجُودٌ) قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَأَى نَارَاهُمَا (أي: لا ترى ناره التي يوقدها في بيته، وهذا حث على الابتعاد عن أهل الشرك ومساكنهم وشعاراتهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا)».

وقد أخرج أحمد والنسائي واللفظ له، عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُبَايِعُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْسُطْ يَدَكَ حَتَّى أَبَايَعَكَ، وَاشْتَرِطْ عَلَيَّ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُنَاصِحَ الْمُسْلِمِينَ، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ».

٢- إذا كانت هناك ضرورة أو حاجة للإقامة فيها أو الهجرة إليها فلا حرج في ذلك، وهو أمر يقدر بحسب الحاجة إليه، وهذا إذا أمن على دينه من أن يفتن فيه، وكان قادرًا على إظهار شعائر الإسلام وأدائها كالصلاة ونحوها.

ومن أمثلة ذلك ما يحصل مع عدد من أبناء المسلمين الذين أُودُوا من أجل دينهم في بلاد المسلمين وَضُيِّقَ عليهم، وكذلك ذهاب الدعاة إلى الله تعالى الذين يفتح الله على أيديهم قلوب كثير من أهل الكفر، وكذلك حال من أسلم في بلاده من أهل الكفر وكان مجيئه إلى بلاد الإسلام والإقامة فيها صعبًا عليه وشاقًا لأسباب متعددة.

ومعلوم لديكم أن الله تعالى أجرى خيرًا كثيرًا على يد أبناء هذا الدين العظيم في بلاد الكفر ممن أُلْجِأَتِ الحاجة إلى الإقامة هناك، واستطاعوا أن يوظفوا عددًا من أسباب حضارة بلاد الكفر ورفيهم المادي في نشر الإسلام وإدخاله إلى العقول والقلوب، فبارك الله مسعاهم.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨)

وكأن القرآن يجيبنا عما يدور في أفهامنا حول أناس عجزوا عن الهجرة والفرار بدينهم، وهم ممن صدقوا الله في سعيهم وبذلهم ولكنهم عاجزون عن ذلك حقاً، كأن يكونوا مستضعفين محبوسين عند أسيادهم من صناديد الكفر، أو هم من النساء والصغار الذين لا قدرة لهم ولا نفقة للخروج من مكة، ولا يعرفون الطريق إلى غيرها، ويغلب على ظنهم هلاكهم إذا خرجوا وحدهم.

أخرج البخاري عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ أَنَا مِنَ الْوِلْدَانِ وَأُمِّي مِنَ النِّسَاءِ».

القرآن يجيبنا عن حال عدد من أبناء الإسلام في زماننا ممن تقطعت بهم السبل، وهم يقيمون في بلاد أهل الكفر وقد حصلوا على كثير من الحقوق هناك، وربما كان الواحد قادراً على تحصين دينه ونفسه أكثر مما هو عليه في بلاد الإسلام لما يفعله أهل الظلم بهم، بل ولربما نفع الله بهم في بلاد أهل الكفر واهتدى على أيديهم من اهتدى، واستطاعوا أن ينصروا قضايا أمتهم بطريقة أو بأخرى.

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٩٩)

هؤلاء عَذَرهم الله وعفا عنهم، وغفر لهم ما كان منهم، وأذن لهم بالبقاء وعدم الهجرة تيسيراً عليهم ورعاية لحاجاتهم.

والتيسير على الملكفين في أحكام الشرع معلوم ومعهود كلما لحقت بهم المشقة التي لا تكون معتادة. قال الله تعالى: ﴿فَأَنقُذِ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله خطبهم وقال لهم مُوجِّهاً ومُعَلِّماً: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ» الحديث.

وهؤلاء لم يكتف بالشرع بالعفو عنهم، ولكنه أرشد إلى أعمال رابطة الدين في الدعاء لهم وفي نصرتهم فإن بلاءهم شديد، وقد كان ﷺ يدعو لهم في صلاته، وكان يُقْنِتُ من أجلهم بعد رفعه من الركوع يسأل الله تعالى لهم حفظاً، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ إِذْ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ

يَسْجُدُ: اللَّهُمَّ نَجِّ عِيَّاشَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ نَجِّ سَلَمَةَ بْنِ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ نَجِّ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ».

صحيح أن الدعاء سلاح من الأسلحة التي لا يُقبل سقوطها في حال من الأحوال، ولكن لا تظنوا أن واجبنا اتجاههم يقتصر عليه، بل الواجب مع ذلك نصرتهم بقتال أهل الكفر وكسر شوكتهم لتكون العزة للدين وأهله، ولذلك أذكركم بما مر معنا من أجلهم في قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِجْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠)

هنا مسألتان نافعتان لمن تأمل:

الأولى: يجدر بمن هاجر من أجل الله تعالى أن يعلم أن الله عزَّ وجلَّ سيُخلفه خيرًا، وأن الأرض فيها مُراعِم كثير، أي: أماكن ومواطن يتحصَّن فيها المرء ويحفظ نفسه ودينه من ناحية، ثم يراغم بهجرته أعداء الله تعالى ويقهرهم ويغلبهم من ناحية أخرى، وذلك كما حبسوه عن نصرة دينه وأرغموه على الكفر.

وكذلك يجد في الأرض سعة، أي: يكرمه الله بالسعة في الرزق والهداية والعلم.

وحتى نعيش ظلال الآية على حقيقتها، نتذكر حال أصحاب النبي ﷺ الذين تركوا أوطانهم وقرابتهم وهاجروا فرارًا بدينهم، انظروا كيف أكرمهم ربهم وعوضهم خيرًا، انظروا كيف أصبحوا من أغنياء الأرض وأقوى أهلها، وممن امتدَّ مُلكهم في انحاء شتى، على أننا على يقين أنهم ما هاجروا إلا ليكونوا في مكان يحبه الله ويحبه الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا من صدق عزيبتهم ونيتهم.

الثانية: ربما يدرك الموت واحدنا وهو يفرُّ بدينه ويهاجر امتثالًا لأمر الله وحبًا لدينه بنية صادقة؛ هذا العبد تبشره الآية الكريمة بأن أجره على الله وقع من بداية مفارقتها لديار أهل الشر، وبأنه نال ثواب المهاجرين وإن لم يصل إلى مبتغاه.

ولعلكم تذكرون قصة الذي قتل مائة نفس كيف مات في طريقه إلى القرية الصالحة، فوقع أجره على الله وأكرمه ربه وتقبل منه، وقدّر أن تقبض روحه ملائكة الرحمة ليكون من أهل الجنان.

أخرج البخاري ومسلم عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

وإكرام الله تعالى للعبد المهاجر بقبول عمله وسعيه إذا مات في طريقه، فيه تحريض على الهجرة، وفيه ترغيب في مفارقة أهل الشرك واجتناب مخالطتهم بحسب القدرة.

وقد أورد أهل التفسير بأسانيدهم عدداً من قصص من هاجروا إلى النبي ﷺ وماتوا قبل أن يصلوا إليه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وهو ما نراه في كل معنى من معاني هذه الآية، ففضل الله عظيم، ورحمته وسعت عباده ما داموا على الصدق، ومغفرته بابٌ أكرم به الصالحين من خلقه، اللهم اجعلنا منهم واسترنا بستره.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٠١)

رخصة من رخص الشريعة التي تدل على علو مقامها ورعايتها لحاجات المكلفين، وتدل على يسر أحكام هذا الدين، وأنه إنما جاء لتحقيق العبودية على أكمل وجه ولم يأت قاصداً مشقتنا وإيقاعنا في الحرج.

رخصة متعلقة بالصلاة تدل على عظم مكانتها، فإن الشرع لم يسقطها عن المالك وإن كان يجاهد أعداء الله تعالى، بل ثمة لفظة إيمانية عجيبة هنا، وهي أن الضارب في الأرض تبقى حياته قلبه وطمأنينته في صلاته وعبوديته، ولا يصلح بحال من الأحوال أن ينفك عنها أو تنفك عنه وإن عَظُمَ الْخَطْبُ وَصَعُبَ الْحَالُ.

تقول الآية: يا أيها المجاهدون الباذلون أنفسكم من أجل إيصال رسالة نبيكم للعالمين، ويا من خرجتم لفتح البلاد وقلوب العباد: إذا ضربتم في الأرض، أي: إذا سافرتم للجهاد فقد أذن لكم الشرع بأن تقصروا من الصلاة الرباعية، وأباح لكم أن تصلوها ركعتين تخفيفاً عنكم.

ومعلوم لديكم أن قصر الصلاة لا يكون إلا في السفر، وأنه يكون في الصلاة الرباعية فقط، وأن قصرها يكون بأدائها ركعتين، أما المغرب والفجر فلا يُقصران.

وظاهر جواز القصر في السفر أنه مشروط في الآية بقول الله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولكن أهل العلم لم يفهموا ذلك، وذكروا أن هذا الشرط مذکور لبيان غالب حال الصحابة يوم تنزلت الآيات، فقد كان غالب سفرهم للجهاد والقتال وهذا فيه خوف من فتنة أهل الكفر، أي: من غدرهم وعدوانهم، وهذا ما يُطلق عليه العلماء بأنه قيد أغلبي أكثر من مخرج الغالب، أي: هذا القيد يشير إلى غالب حال الناس ولا يفهم منه خلافه إذا لم يكن موجوداً.

وذلك كما قال الله تعالى في تحريم الربا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، فالربا حرام سواء كان أضعافاً مضاعفة أو كان قليلاً مع أن الغالب أن آكلي الربا يأكلونه كثيراً، وكَقَوْلِهِ سبحانه في بيان المحرمات من النساء: ﴿وَرَبِّبْنَكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، والربيبة هي بنت الزوجة من زوج آخر، وهي محرمة على زوج أمها سواء كانت قد تربت في حجره وبيته أم تربت خارج بيته وحجره، مع أن الغالب أنها تتربى مع أمها في بيته.

وبطريقة أخرى: القصر من الصلاة الرباعية في السفر يباح حال السلم كما يباح حال الحرب، ويباح حال الأمان كما يباح حال الخوف، ويجوز لمن سافر من أجل تجارة أو سياحة في الأرض أو غير ذلك أن يقصر من الصلاة استدلالاً بهذه الآية.

وإليكم في ذلك أحاديث تدل على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف، فقد أخرج مسلم عن يعلى بن أمية، قال: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ، فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ «صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ».

يعني: هو يسأله: كيف نقصر الصلاة في السفر ونحن الآن أقوياء وفي أمان ولا نخاف من الذين كفروا؟ فأخبره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن حكم القصر باقٍ ولو لم يكن هناك خوف، وأن هذا تخفيف لنا وصدقة من الله علينا.

وعند ابن أبي شيبَةَ: عَنْ أَبِي حَنْظَلَةَ الْحَذَّاءِ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ صَلَاةِ السَّفَرِ فَقَالَ: رَكْعَتَانِ. فَقُلْتُ: أَيْنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَنَحْنُ آمِنُونَ؟ فَقَالَ: سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وأخرج أحمد بإسناد فيه كلام عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «سِرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَنَحْنُ آمِنُونَ لَا نَخَافُ شَيْئًا، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ».

ومن أهل العلم من أجرى الآية هنا على ظاهرها، وذكر أنها إنما جاءت في قصر الصلاة في السفر إذا كان هناك خوف فقط، ولم تأت لبيان الصلاة في السفر حال الأمن، أما حكم قصر الصلاة في السفر حال الأمن فقد بينته السنة.

وذكروا أن المقصود من قصر الصلاة حال الخوف هو تغير کیفیتها، بحيث تصلى صلاة خاصة بالخوف سيأتي شيء من هيئاتها في تفسير الآية الآتية، وصلاة الخوف تصلى في الحضر كما تصلى في السفر عند جمهور أهل العلم، ولكنها لا تصلى حال الأمان من العدو وفتنته.

بل ذهب بعض أهل العلم إلى أن صلاة الخوف من العدو إذا كانت في سفر، فإنها تصلى ركعة واحدة جرياً مع ظاهر الآية ولوجود أدلة أخرى في ذلك.

وفي قصر الصلاة في السفر مسائل علمية أشير إلى بعضها:

١- أجمع الفقهاء على مَشْرُوعِيَّةِ قَصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ، وحكمه أنه جائز عند الشافعية والحنابلة وهو أفضل في السفر، وهو سنة عند المالكية.

أما الأحناف فقد ذهبوا إلى أن القصر فرض في السفر، وليس للمسافر أن يصلّيها أربع ركعات.

٢- عند جمهور أهل العلم ومنهم المذاهب الأربعة، يبتدئ القصر في السفر إذا جَاوَزَ بَيُوتَ بَلَدِهِ بِأَنْ خَرَجَ مِنَ الْبَلَدِ كُلِّهِ، وَلَا يَقْصُرُ فِي بَيْتِهِ إِذَا نَوَى السَّفَرَ، وَلَا فِي وَسْطِ الْبَلَدِ.

٣- ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أن السفر المعتبر هو الذي يكون أكثر من أربعة بُرْدَ ذهاباً لا ذهاباً وإياباً، وتساوي قرابة ٨١ كيلو متراً في أيامنا، وعند الحنفية تزيد عن ذلك.

وفي قول ذهب إليه الظاهرية ومال إليه بعض أهل العلم: ضابط السفر المعتبر هو العُرف، فما كان في عرف أهل البلد سفرًا جاز فيه القصر والجمع وغير ذلك من أحكام الترخّص، وإلا فلا.

٤- يجوز للمسافر أن يقصر مدة خمسة عشر يوماً عند الأحناف ما دام مسافراً ولم ينو الإقامة، أما عند الجمهور فيقصر إذا عرف مدة إقامته وكانت أقل من أربعة أيام، أما إذا لم يعرف مدة إقامته فعند الشافعية يقصر إلى ثمانية عشر يوماً.

وفي المسألة تفصيلٌ طيبٌ يراجع في مظانه.

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ قاعدة من القواعد التي تدور حولها آيات كتاب ربنا في مواضع عدة، قاعدة تجعل أهل الإسلام أكثر حيطة وحذرًا في تعاملهم مع غيرهم من الأمم. العداوة بين أهل التوحيد وبين أهل الكفر لم تنقطع يومًا ما، والحرب تاريخيًا سجال بينهم، ولذلك أذن الشرع بقصر الصلاة حال قتالهم لئلا يجدوا سبيلًا إلى قتل المسلمين والغدر بهم، وقد أمر الإسلام بإعداد ما استطعنا من قوة لهم، وأرشدنا إلى أنهم لن يتوقفوا عن قتالنا حتى يردونا عن ديننا، وأنهم لا يرقبون في مؤمن ذمّة ولا عهدًا، وأنهم أولياء بعض وليس لنا من ولايتهم من شيء. وعداوتهم لا تخفى على من عنده أدنى تأمل فيما يفعلون بالمسلمين وبلادهم، ولذلك وصفت الآية عداوتهم بأنها مُبِينَةٌ، يعني: ظاهرة وليست مستورة، ومتى قدرُوا على أذيتنا فَعَلُوا. ولكن الإسلام فَهَّنَا في ديننا لتجديد التعامل معهم، وعلمنا باستقراء نصوصه أن الكافرين قد يكونوا حَرْبِيَّين وهم الذين يلزمنا قتالهم، أو ذِمِّيَّين يدفعون لنا الجزية ليأمنوا على أموالهم وأنفسهم فهؤلاء يحرم الاعتداء عليهم أو الانتقاص من حقوقهم، وكذا المستأمنون الذين دخلوا بلادنا بأمان، وكذا المعاهدون الذين عقدنا معهم معاهدة صلح وسلام.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٠٢)

صورة من صور صلاة الخوف، يأتي بها كتاب ربنا ليزداد قدر الصلاة في نفوس المؤمنين، وليعلموا أنها حياتنا التي لا يُقبل منا التقصير فيها بحال من الأحوال، وإن كنا نقاتل أعداء الله تعالى وكان الموت قريبًا منا كما أسلفنا.

والحرص على تعليم المسلمين صلاة الجماعة حال قتال الأعداء، استدل به القائلون بوجوب أداء الفريضة في جماعة، حيث حرص الشرع على الجماعة في أداء الصلاة في أرض

المعركة، وشرع فيها من الأحكام ما لم يشرع في فعلها حال الأمان، وهو دليل ناقشه القائلون بخلاف هذا القول، ويَبَيَّنُوا أن الجماعة في صلاة الخوف ليست واجبة بل لو صلاها كل واحد منهم وَحْدَهُ صحت الصلاة ولا إثم، والمسألة تراجع في كتب أهل الفقه.

وصلاة الخوف مشروعة عند جَمْعٍ من أهل العلم عند الحاجة إليها وإن لم يكن في قتال العدو، كقتال أهل البغي وَقَطَّاعِ الطُّرُقِ وَقِتَالِ مَنْ هَاجَمَكَ لِيَقْتُلَكَ، ويشرع كذلك صلاتها عند شدة الخوف وإن لم يكن ثمة قتال كالهروب من سيل أو حريق أو حيوان مفترس فَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ شِدَّةِ الْخَوْفِ إِذَا ضَاقَ الْوَقْتُ وَخَافَ فَوَتْ الصَّلَاةُ.

تقول الآية: إِذَا كُنْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي جَمَاعَتِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ المجاهدين وجاء وقت الصلاة، وقيمتهم لأداء الصلاة جماعة بعد تمام الاستعداد لها، وكان الزمنُ زَمَنَ قِتَالٍ، وكان جيش العدو أمامكم باتجاه القبلة وخشيتهم صولته وهجومه في أي لحظة، فإليكُم كيفية أداء صلاة الخوف في مثل هذه الحالة.

وأنتم أيها المؤمنون كذلك: إِذَا كُنْتُمْ تَقَاتِلُونَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وكان العدو بينكم وبين القبلة ترونه ويراكم وتخشون غدره، فإليكُم خطواتُ صلاة الخوف في مثل هذا الحال:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْفُخَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾

١ - فلتقم بهم يا محمد ﷺ إمامًا، ولتقسمهم إلى طائفتين وليدخلوا جميعًا في الصلاة معك، وليحملوا أسلحتهم وهم في الصلاة استعدادًا لما قد يفعله عدوهم من غدر.

والأمر بحمل السلاح في الصلاة محمول عند جمهور أهل العلم على الندب والاستحباب، ومذهب الظاهرية هو الوجوب، وهو اختيار جمع من المحققين من العلماء.

٢ - إِذَا وَصَلْتَ إِلَى الرُّكُوعِ فَارْكَعْ وَلْيَرْكَعُوا جَمِيعًا مَعَكَ، فإذا رفعت من الركوع فليرفعوا جميعًا معك.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾

٣ - إِذَا وَصَلْتَ إِلَى السُّجُودِ فَلتسجد الطائفة الأولى التي هي أقرب إليك، أما الطائفة الثانية فلتبقى واقفة بعد رفعها من الركوع، ولتحرس وتراقب من ورائكم مع أنها لا زالت في صلاة.

٤ - إِذَا انْتَهَيْتَ مِنَ السُّجُودِ وَقَمْتَ إِلَى الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ وَقَامْتَ مَعَكَ الطَّائِفَةُ الْأُولَى، فانتظر حتى تسجد الطائفة الثانية وحدها وتنتهي من السجود وتقوم لتلحقكم في قيامكم.

﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾

٥- إذا انتهيت من الركعة الأولى فلتبدل الطائفتان مكانهما، فالطائفة التي كانت في الصفوف الأولى ترجع إلى الصفوف الأخيرة، ولتأت الطائفة التي كانت في الصفوف الأخيرة إلى الصفوف الأولى، وكل ذلك وهم في الصلاة.

٦- تبدأ معهم في الركعة الثانية وتفعل معهم مثل ما فعلت في الركعة الأولى، ولا حظوا أن الطائفة التي سجدت مؤخرًا في الركعة الأولى ستسجد أولًا في الركعة الثانية بعد أن بدلت مكانها، بخلاف الطائفة الأخرى.

٧- بعد أن يسجد ﷺ في الركعة الثانية وتسجد معه الطائفة التي أصبحت أولى، فإنه يجلس للشهد و ينتظر الطائفة التي أصبحت ثانية حتى تأتي بتمام الركعة وحدها وتنتهي من سجودها، ثم يسلم بهم جميعًا ويسلمون معه.

ومعلوم لديكم أن صلاة الخوف هذه تصلى تامة في الحضر وتقصر في حال السفر كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وتقسيم الطائفتين وأداؤهم للصلاة مع الإمام في مثل هذه الحالة يختلف باختلاف عدد ركعات الصلاة، فإذا كانوا مقيمين وصلوها أربعًا حصل التقديم والتأخير بين الطائفتين بعد الركعتين الأوليين، وإذا كانوا مسافرين وصلوها ركعتين كان كما ذكرنا في شرح الآية، أما صلاة المغرب فلا تقصر، ويختار الإمام بين أن يحصل التقديم والتأخير بعد الركعة الأولى أو بعد الركعة الثانية.

وقد جاء في سبب نزول الآية الكريمة ما أخرجه أحمد عن أبي عيَّاشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْضَانِ (اسم مكان قريب من مكة)، فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ، عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ (وذلك قبل إسلامه)، وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الظُّهْرَ، فَقَالُوا (أي: جيش المشركين): لَقَدْ كَانُوا عَلَىٰ حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غُرَّتَهُمْ (أي: هجمنا فجأة). ثُمَّ قَالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أُنْبَاءِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ (يعني: نهجم عليهم وهم يصلون العصر). قَالَ: فَزَلَّ جَبْرِيلُ بِهِذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قَالَ: فَحَضَرْتُ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخَذُوا السَّلَاحَ، قَالَ: فَصَفْنَا خَلْفَهُ صَفَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ وَالْآخَرُونَ قِيَامًا يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا سَجَدُوا وَقَامُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا فِي مَكَانِهِمْ ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ،

وَجَاءَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ، ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامٌ يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ. قَالَ: فَصَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً يُعْشَفَانِ، وَمَرَّةً بِأَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ.

ومن أهل العلم من حمل الآية هنا على صفة أخرى من صفات صلاة الخوف، وهي صفة يحتملها تفسير الآية وتُصَلَّى إذا كان العدو في غير جهة القبلة، وهذه الصفة صلاها ﷺ في غزوة ذات الرقاع، وقد أخرج صفتها الإمامان البخاري ومسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ طَائِفَةً صَفَّتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَطَائِفَةٌ وَجَّاهَ الْعَدُوَّ، فَصَلَّى بِالنَّبِيِّ مَعَهُ رُكْعَةً، ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا، وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَصَفُّوا وَجَّاهَ الْعَدُوَّ، وَجَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْآخَرَى فَصَلَّى بِهِمُ الرُّكْعَةَ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ صَلَاتِهِ ثُمَّ ثَبَتَ جَالِسًا، وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ.

ويكون تفسير الآية اعتبارًا لهذه الصفة:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتَقِمَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا سِلَاحَهُمْ﴾

١ - فلتقم بهم يا محمد ﷺ إمامًا، ولتقسمهم إلى طائفتين ولتدخل طائفة منهم معك في الصلاة، وليبقى سلاحهم معهم أخذًا بالأحوط.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾

٢ - الطائفة الثانية لا تدخل في الصلاة، ولكنها تبقى وراء المصلين تحرسهم حال سجودهم وتراقب العدو. وموطن السجود هو أحوج ما يكون إلى الحراسة.

﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَهُمْ﴾

٣ - بعد قيام الإمام للركعة الثانية، تنوي الطائفة الأولى مفارقة الإمام وتكمل الصلاة وحدها فرادى، ثم يسلمون والإمام لا زال واقفًا، ويذهبون للحراسة مكان الطائفة الثانية.

٤ - تأتي الطائفة الثانية وتدخل في الصلاة مع الإمام، ويصلي بهم ركعة هي الثانية بالنسبة إليه والأولى بالنسبة لهم.

٥ - بعد جلوسه للتشهد ينتظر الإمام حتى يقوموا ويأتوا بالركعة الثانية، ثم يسلم بهم من الصلاة ويسلمون معه.

ولا يقولن قائل: ولماذا لا يصلي كل واحد منهم وحده، ليكون أسهل وأسرع وأبعد عن هذه الهيئات التي لم نعتدها في الصلاة حال الأمن؟ وذلك لأن صلاة الجماعة فيها دوام اجتماع كلمة المسلمين وهم أحوج ما يكونون إليها في مواطن جهاد العدو، ثم إن رؤية أهل الكفر لصفوف المسلمين وهي مجمعة في الصلاة يوقع في قلوبهم هيبة عجيبة، ويقذف في قلوبهم ما لا يكون مع صلاة الفرادى.

وللعلم فإن صلاة الخوف جاءت فيها هيئات متعددة صحت بها الأحاديث، أوصلها بعض أهل العلم كالشافعية إلى ست عشرة هيئة، وجعلها بعضهم ستاً، وللإمام أن يختار واحدة منها مما يناسب الحال، والمسألة تراجع في بطون كتب أهل الفقه والعلم والدراية.

وقد ذكر القرآن الكريم حالة يصعب فيها أداء صلاة الخوف بأي من كيفياتها المذكورة، وهي حال القتال والجهاد والالتحام مع الأعداء، والتي جاء فيها قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَآلًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنٌ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، أي: حال التحاكم مع الأعداء صلوا على أي حال كان؛ سواء كنتم تمشون على أرجلكم وأقدامكم، أو كنتم تركبون على دوابكم، مستقبل القبلة أو غير مستقبلين، يصلي كيفما كانت حاله ويومئ بالركوع والسجود إيماءً، ففي مثل هذه الحالات يسقط ركن القيام والوقوف.

أخرج أحمد وأبو داود وغيرهم عن عبد الله بن أنيس الجهني رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعثه إلى خالد بن سفيان بن ثبيح الهذلي ليقتله، وكان يجمع لقتال رسول الله ﷺ (يعني: يجمع الناس ويدعوهم ويشجعهم)، قال: فأتيته بعرة (اسم مكان قريب من جبل عرفات) وهو في ظهر له، وقد دخل وقت العصر، فخفت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، قال: فصليت وأنا أمشي أو مضى إيماءً الحديث. يعني: أحرّك رأسي بالركوع والسجود حال صلاتي وأنا أمشي.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾

تعليل لما أذن به الشرع من حركات غير معتادة في صلاة الجماعة حال الأمان، وبيان لما يريده أهل الكفر من المسلمين، يريدون أن يغفل المجاهدون عن متاعهم وأن ينشغلوا عن سلاحهم ليفجؤوهم ويتصروا عليهم، هم ظنوا أن دخول المسلمين في صلاتهم سيلهيهم عن سلاح القتال الذي يقاتلون فيه، ويلهيهم عن متاع الحرب كسروج الخيل والطعام ونحو ذلك، هم ظنوا ذلك وترقبوه ليهجموا على جيش المسلمين دفعة واحدة ويسرعوا في القتل والأسر، هم ما عرفوا أن المسلمين يرقبونهم على كل حال، وأنهم مستعدون لهم وإن كانوا في صلاة.

وتعالوا نقف مع عموم البيان الرباني هنا وننتفع منه في زماننا الذي تعددت فيه أسلحة أهل الكفر وتنوعت، فهي لم تعد تقتصر على آلات الحرب والقتل والدمار، ولكن امتدت إلى غزو العقول والقلوب وصرفها عن دينها وهويتها وتراثها، وممارسة ألوان الخبث والمكر والخداع للوصول بأجيالنا إلى حالة التيه عمّا خلَقوا له وكُلِّفوا به.

هذه مقدمة تقودنا إلى وجوب أن نُعدَّ العُدَّة ونكون أقوياء في الثقافة والعلم، كما هو الحال في أدوات القتال والسلاح، فالمعركة معهم معركة مفتوحة على أبواب كثيرة، والغفلة عن واحد منها لا يأتي بخير، فالهمة الهمة في إعداد ما استطعنا من قوة السلاح والعلم والفكر، والحكمة الحكمة في توجيه أسلحتنا في هذه المرحلة العvisية والحساسة من تاريخ أمتنا، والصبر الصبر فإن قادم الأيام لنا وليس لهم بعون ربنا وكرمه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لا إثم عليكم ولا حرج أن تضعوا أسلحتكم قريباً منكم إذا لم يكن ثمة قتالٌ وشقٌّ عليكم حملها على الدوام، ولكن لا تبتعدوا كثيراً عن أسلحتكم لأن عدوكم ينتظر غفلتكم، وكونوا دوماً حذرين على أهبة الاستعداد.

وجاء ذكر المطر هنا لأنه يعيق حركة المجاهدين من المسلمين وكذلك حركة المقاتلين من أهل الكفر، وأما المرض فهو مما يعسر معه القتال ويصعب.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ مهيناً، أي: ذليلاً يجعلهم أحقر ما يكونون بعد أن كانوا في الدنيا يصولون ويجولون.

وهذا العذاب المهين يكون في الدنيا بنصر المؤمنين عليهم، ويكون في الآخرة بما يلحقهم من الخزي والخلود في النار.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (١٠٣)

لا تستهينوا بذكر الله تعالى حال جهادكم أعداء الله، فهو زادٌ لا يستغني عنه من يعلم أن النصر من عند الله، وأن تعظيمه وتوحيده والتسبيح بحمده مفتاح مرضاته ونصره، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٥].

يأمرنا الله تعالى بعد الانتهاء من صلاة الخوف أن نكثر من ذكره سبحانه وتعالى، وألا ننساه في هذا الموطن الصعب، سواء كنا نقاتل أعداء الله أم ننتظر قتالهم، ويرشدنا جلّ وعلا إلى دوام ذكره ونحن قائمون وقاعدون ومضطجعون على جنوبنا، ويعلمنا أن ذكر الله تعالى يتأكد هنا وإن كان مطلوباً في غالب حياة المؤمن.

وهذه الطاعة القائمة على تعظيم الربّ فيها راحة للقلب، وذهاب للخوف والهمّ والغمّ، وتستجلب محبة الله وتأييده ونصره، وصاحبها مذكور في الملاء الأعلى.

ثم تأملوا كيف أن الوقوف مع عبارات الذكر والتأمل فيها والعيش معها يبعث عقيدة في القلب لا ترحزها الجبال، وتقوى بذلك القلوب وتعلو الهمم، وكلما أكثر العبد من الذكر كلما كان ذلك أدعى للصبر على جهاد الأعداء ومدافعة الظالمين.

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إذا ذهب الخوف عنكم وحصلت الطمأنينة فأقيموا الصلاة وصلوها كما كنتم من قبل، أتموها سجوداً وركوعاً وخشوعاً، وصلوها تامةً ولا تقصروها إن كنتم مقيمين غير مسافرين.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ الأصل في الصلاة أن لها أوقاتاً مفروضة يحرم على المسلم إهمالها إلا من عذر كنوم ونسيان، ولفظة: ﴿كِتَابًا﴾ أي: فَرَضًا، ولفظة: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ تشير إلى أوقات صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، وهي أوقات اعتنى بها الشرع في نصوص الكتاب والسنة وجاء بيانها بياناً شافياً وافياً. قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عَسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وجمهور أهل العلم على أنه لا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها حال اشتداد القتال والحرب وقوفاً مع النص القرآني هنا، وخالفهم في ذلك أبو حنيفة وأجاز تأخيرها عن وقتها في مثل هذا الحال، استدلالاً بما فعله النبي ﷺ في غزوة الخندق، وما حصل كذلك في عدد من الفتوحات الإسلامية.

وجواز تأخيرها عن وقتها عند الأحناف إنما هو استثناء قامت إليه الحاجة، كما هو الحال مع عدد من هيئات صلاة الخوف التي نجد فيها تقدماً وتأخراً والصلاة قائمة، ونجد فيها تغييراً للنية ومفارقة للإمام، حتى إن المالكية أجازوا الكلام في صلاة الخوف إذا قامت الحاجة لذلك من أمر أو نهي أو تحذير.

وللفائدة: ربط الصلاة بأوقات معلومة ومعهودة ومنضبطة فيه تربية للمسلم لا تخفى على ذي لب، فهي تعلمه الانضباط في حياته، والتخطيط لوقته، وتصنع منه مسلماً حريصاً على إرضاء خالقه فيما أمر، ويكفيه أن عنايته بأوقاتها يجعل الصلاة في حياته بوصلة تدور حولها أحواله وأوقاته ومشاريعه، وتجعله في حركة دائمة لا مكان فيها للكسل، فضلاً عن السعادة التي يجدها والطمأنينة التي يقطف ثمارها في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾

الجهاد في سبيل الله تعالى فيه تعريض النفس للجراح والقتل، وفيه من المصاعب ما فيه، وقد جرت سنة الله تعالى أن يؤلم العدو فينا ويبدل وسعه في إضعافنا، وربما يقتل أحب الناس إلينا وأعزهم علينا، وقد يتعرض لأبنائنا وأموالنا وأعراضنا، وهذا ما قد يوهن من عزائم المجاهدين ويسبب لهم حُزناً مقعداً عن غايتهم وذروة سنام دينهم.

أيها المجاهدون الصادقون: لَا تَضَعُفُوا فِي مَدَافِعَةِ عَدُوِّكُمْ، ولا تقعدوا عن طلبهم وبدء قتالهم والإثخان فيهم وإيلاهم، واعلموا أَنَّ عَدُوَّكُمْ يَأْلَمُ كَمَا تَأْلَمُونَ، ويحزن كما تحزنون، ويصيبه من الجراح والقتل كما يصيبكم، فلا تتخلفوا عن حمل راية الحق ورفعها، ولا ترضوا أن يكون عَدُوُّكُمْ أَصْبَرَ مِنْكُمْ عَلَى الْقِتَالِ وهو يحمل الباطل، هم أجدر بالخوف منكم وأحق به، فتأملوا.

وتذكروا أن ثمة ما تميزون به عن عدوكم الذي ستتصرون عليه قَطْعاً في آخر الأمر إذا تتبعتم سنن الله في النصر، أنتم تميزون بأنكم ترجون من الله تعالى أمراً لا يخطر لهم على بال، ولا يستحضرونه حال قتالهم بل لا يعرفونه، إنكم ترجون من الله تعالى جنة أعد الله

فيها للمجاهدين ما ليس لغيرهم، وترجون من الله تعالى أن يرضى عنكم ويغفر لكم ذنوبكم، ويؤمنكم من فتنة المحيا والممات والقبر والحساب، وترجون من الله تعالى أن يرتفع اسمكم عنده في عليائه، ويرضىكم في أنفسكم وأهلكم. قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولعل هذا التمايز هو سرُّ حفظ الله لكم ونصركم عليهم، وهو سر قوتكم وغلبتكم على من هو أكثر منكم عددًا وعدة على الغالب، فكونوا كما أرادكم الله تعالى أهل عزيمة وشجاعة وإقدام وصبر، وخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية وانظروا في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ربنا جل وعلا يعلم ما يصلحنا، وهو حكيم فيما شرعه لنا وأوجه علينا وأذن لنا به، سبحانه لا يكون قضاؤه إلا فيما هو خير لنا، سبحانه لا رادَّ لأمره وهو محمود على كل حال، لا إله إلا هو.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥)

خطاب للنبي ﷺ يربط على قلبه كما ربطت الآية السابقة على قلوب المجاهدين.

يا محمد ﷺ: هذا القرآن نزل من عند الله تعالى بالحق، أي: نزل من عنده حقًا وليس من عند غيره، ونزلت آياته بالحق فيما أخبرت وفيما طلبت فعله أو تركه، أعطاك الله تعالى فيه قواعد شرعية ومعالِم ربانية في العقيدة وفي الدماء والأموال والأعراض، أراك الله العلم الذي يهديك إلى حكم الله تعالى في الخصومة التي تحصل بين الناس، وقد جاؤوا إليك ورضوا بشرع الله تعالى حكماً بينهم.

وقد كان نبينا ﷺ يتمثل هذه الآية ويجعلها في قضاائه بين الناس، وكان يُربِّي من حوله من المتخاصمين على الصدق في عرض الخصومة لئلا يقتطعوا حقوق الآخرين، فقد أخرج أحمد عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: جَاءَ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ يَخْتَصِمَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَوَارِيثَ بَيْنَهُمَا قَدْ دُرِسَتْ (خفيت آثارها لقدمها)، لَيْسَ بَيْنَهُمَا بَيِّنَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ (أفصح في بيانها وتقديمها)، فَإِنَّمَا

أَفْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْطِمًا فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (حديدة من نار). فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لِأَخِي، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِذْ قُلْتُمَا، فَادْهَبَا فَاقْتَسِمَا، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ، ثُمَّ اسْتَهِمَا (أي: اعملَا قرعة)، ثُمَّ لِيَحْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ (أي: تتسامحان)».

وهذا الخطاب نافع لنا لو تأملنا، ونفعه يكمن في توجيهها إلى ضرورة تثبيت اليقين في قلوبنا، والحرص على نشر العلم الشرعي بيننا، وضرورة تعزيز الثقة بهذا الدين وبما جاء به لتكون أقوى في دعوتنا، وليكون وقعها على قلوب المدعويين أنفع وأكمل، ولنستعين بذلك على الثبات في وجه الشبهات والشهوات التي تتلَوَّنُ صباح ومساءً، أقول: كل ذلك موفور بالعيش مع كتاب ربنا الذي نزل بالحق، ومع سنة نبينا عليه الصلاة والسلام التي نزلت كذلك بالحق.

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تكن خصيماً تخاصم عن أهل الظلم وتدافع عنهم وتتصر لهم، وإن كان الظالم مسلماً والمظلوم غير مسلم، ولا تتهاون في تحري الحق ومعرفة صاحبه وإرجاع حقه إليه.

وهذا خطاب لنا جميعاً لتكون على دراية من أمرنا وحرص على استقامتنا وعبوديتنا، بل يتأكد في حق من تصدر للفصل بين متخاصمين وابتلي بذلك.

وهل يقع ذلك من رسولنا ﷺ ليأتيه هذا الخطاب؟ الجواب يأتيكم في قصة سبب نزول هذه الآية التي زُورَ فيها المنافقون الحقائق وغيروها، ودفعوا نبينا ﷺ ليحكم لهم.

أخرج الترمذي والحاكم والطبراني وغيرهم في سبب نزول الآية هنا قصة يذكرها قتادة بن النعمان، أذكرها ملخصة لكم، فقد جاء فيها أن منافقاً اسمه بشر من عائلة معروفة عندهم ببني أبيريق، وكان هذا المنافق يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي ﷺ ويذمهم، ثم ينسب الشعر لغيره.

وكان بنوا أبيريق أهل فقر وحاجة، وقد حصل أن سرق بشرٌ طعاماً وسلاحاً من بيت رجل اسمه رفاعة بن زيد هو عم قتادة راوي القصة، فاتهموا أول ما اتهموا بشرًا وذهب قتادة إلى رسول الله ﷺ يشكوا ما حصل مع عمه، فلما شعر بشر المنافق بالخطر قام بوضع الطعام والسلاح في بيت رجل بريء اسمه كَيْبِدُ بْنُ سَهْلٍ، وأشاع في الناس أن المسروق عنده، ووجدوا الطعام عند هذا الرجل البريء واتهموه، وجعل ﷺ يعاتب قتادة وعمه على اتهامهم لبشر ويدافع عنه وبأنه ليس هو السارق بعد أن جاء أقاربه يدافعون عنه، فنزلت الآيات.

هذا جزء من معركة المنافقين مع النبي ﷺ وأصحابه، وهي معركة قديمة حديثة لا تكاد تنقطع عنهم، أسلحتهم فيها الخداع والكذب والتدليس والخيانة قاتلهم الله وأشغلهم بأنفسهم.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٦)

خطابٌ لبنينا ﷺ يُثبت بشريته، ويثبت أن القرآن من عند الله وليس من صنع محمد ﷺ.

يا محمد ﷺ: استغفر الله تعالى من حُكْمِكَ الذي برأت فيه ذلك المنافق الخبيث، واسأل الله تعالى الصفح والعفو عن مخاصمتك عن هذا الخائن.

صحيح أن نبينا عليه الصلاة والسلام حكم وفقًا لما ظهر له من الأدلة، ولكن هذا العتاب الرباني يُنبئُك عن عِظَم مسألة الحكم بين المتخاصمين، ويُنبئُك عن انتصار القرآن للصادقين والمظلومين من الناس، وكأنه يقول لبنينا ﷺ: لو تأتيت قليلًا واستفرغت الوسع أكثر في الوصول إلى الحق وصاحبه، وقد كانت عندك أمانةٌ سابقةٌ في حق هذا المنافق الذي كان يهجو بشعره أصحابك رضوان الله عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الله تعالى يُحبُّ استغفار عبده، ووَعْدُهُ بالمغفرة لا يُخْلَفُ، ومن رحمته أن يوفق التائب إليه بعد ذلك للعمل الصالح، ويشرح صدره للمسارعة فيه وإليه.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧)

عاتب رسول الله ﷺ قتادة وعمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في سياق الخصومة التي حصلت، وكان في عتابه مدافعةٌ عن ذلك المنافق الذي اختان نفسه، أي: خانها وظلمها ولم يكن أمينًا معها وعليها؛ خانها بنفاقه وسرقته وافترائه وكذبه.

تأتي الآية هنا ناهية عن ذلك ومرشدة إلى أخذ الحَيَطة في التعامل مع هذا الصنف من الناس.

تعلمنا الآية أن نحذر أهل النفاق وطريقتهم في تغييب الحقائق وإحداث البلبلة في المجتمع المسلم، وتوجهنا إلى الالتفاف حول المؤمنين الصادقين وعدم إعانة أهل النفاق عليهم.

في زماننا: نرى صنفًا من أهل الإيمان كيف أحسن الظن بأهل النفاق ممن ظهرت عداوتهم لله ورسوله وللمؤمنين، ظهرت في مواقفهم وعلى فلتات ألسنتهم، ومثلهم لا يليق بهم إلا مدافعتهم وفضحهم والتضييق عليهم في مكرهم.

وهذا الأمر يجب على المؤمن أن يفعله مع أهل المعاصي الذين هم رؤوس فيها، والذين يخططون لها، ويجاهرون فيها، ويدعون غيرهم إليها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ الخَوَّان هو الذي اعتاد الخيانة وأكثر منها وأصبحت طبعًا له وسجيةً فيه.

والأثيم هو الذي اعتاد الإثم واستهان به، واستخفَّ بنظر الله إليه ومراقبته.

والخوان والأثيم لا يجتمعان غالبًا إلا في أهل النفاق فهذه علامة لهم نسأل الله تعالى العافية.

هذان الصنفان لا يحبهما الله، ولا يرضى عنهما، ولا يكرهما بما أعده لعباده الصالحين، وما أعظمها من خسارة يوم يفقد العبد حُبَّ الله تعالى له ومَعِيَّتِهِ.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾

علامة فارقة بين أهل النفاق وأهل الإيمان، فالمنافق يكيد لدين الله سرًّا، ويحرص على خلوته بالمعاصي ويخطط لذلك ولا ينفك عنه، وهو مِمَّنْ لَا يَتَمَعَّرُ وَجْهَهُ أَوْ يَضْطَرِبُ قَلْبُهُ إِذَا اقْتَرَبَ مِنَ الذَّنْبِ وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا، وطاعته أمام الناس رياء وطلب للثناء وكفى.

المنافقون يخشون كلام الناس ونظراتهم إذا رأوهم على معصية، وإذا علموا قبح ما يفكرون به، ومخافة الخلق في قلوبهم أعظم من مخافة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن عجب حالهم أنهم غافلون عن علم الله تعالى بحالهم وما يُبَيِّتُونَهُ في ليلهم من القول السيِّء من تخطيطٍ لإسقاط هيبة الدين من القلوب، ومن مكر بالعلماء وطلبة العلم والدعاة ليصدوا الناس عنهم، ومن كلام السخرية والاستهزاء بشعائر الإسلام وجهد حملته، وهذا ما فعلوه في قصتهم التي جاءت الآيات هنا فيها.

أما أهل الإيمان فيراقبون الله تعالى على جميع أحوالهم ويستحيون منه حق الحياء، ويعلمون أن الله تعالى معهم بعلمه وسمعه وبصره، يرى مكانهم، ويسمع سرهم ونجواهم، ولا يخفى عليه شيء من حالهم.

والمؤمنون يدافعون عن دين الله وأوليائه، ويحرصون على أن تكون سرائرهم كعلائقهم، وعلى أن يكونوا في خلوتهم كما هم في جلوتهم، وربما تغلب الواحد منهم نفسه، وتستجمع عنده قوى المعصية فيقع فيها، يقع عن غفلة وجهالة لحظيته، ولكنه أواب تواب رجاء إلى خالقه، يشعر بحرقه الذنب ويجدد عهده مع الله تعالى كلما وقع فيه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تأكيد على إحاطة علم الله بهم، لكنه تأكيد يحمل تهديداً لهم بسبب فساد نفوسهم وخبث طباعهم وبقائهم على ما هم عليه، فليحذروا وليرجعوا عن غيهم وضلالهم قبل فوات الأوان.

﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٠٩)

المنافقون ربما نجحوا في الدنيا بقلب الحقائق وتزييفها، وربما يأخذون ما ليس لهم بما أبدوه عند من يقضي لهم.

هل تذكرن ماذا فعل المنافق بشر، لقد اعتدى على حرمة بيت وسرق منه، ثم جعل البيئة له وبراً نفسه بإلقاء المسروق في بيت غيره، ثم فاز بدفاع النبي ﷺ عنه بما ظهر له من قرائن، نعم جادل عنه النبي ﷺ وعاتب من اتهمه، ولكن هل تظنون أن الأمر انتهى؟!

تبين الآية أن نجاته من جرمه نجاةً موهومةً وليست حقيقيةً، لأن الموت ينتظر الجميع، وبعد الموت بعث ووقوف بين يدي الرب للحساب، وهناك: من يجادل عنهم يوم يُفصَحون على الملاء؟ وهل سيقف قومهم معهم كما وقفوا في الدنيا؟ وكيف سيُخفون ما فعلوا وهم بين يدي من يعلم السر والنجوى؟ ومن سيتوكل عنهم بالخصومة والدفاع عما اقترفوه من باطل وتدليس وكذب؟ والجواب قطعاً: لا أحد، ولا ينتظرهم إلا الخيبة والخسران والعذاب المقيم.

يستحضر أصحاب البصيرة وأولوا النهى على الدوام مشهد الحساب، ويستعينون به على ترك الشهوات المحرمة، والإقبال على الطاعات وإن كانت ثقيلة.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠)

يا الله، بعد كل هذا يفتح الله أبواب رحمته وعفوه وجوده وكرمه لكل من عمل سوءاً، واعتدى على مال غيره وعرضه ونفسه بقول أو فعل، ولكل من ظلم نفسه بشرك أو كبيرة من

كباثر هذا الدين. قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

الله يغفر لعباده إذا أَحَسُّوا بعظم معصيتهم لخالقهم، وتحركت قلوبهم بالخير وحصل الندم فيها، ثم وجد الواحد منهم نفسه مُقْبِلًا على الله تعالى عابداً مستغفراً مستقيماً معاهداً له على الثبات حتى الممات.

أخرج أحمد عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدَٰلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ» وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجُوسًا أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وتذكروا أن رحمته ومغفرته سبحانه تكون لكل من صدقه في توبته، وأنه أكرم من أن يردَّ عبده إذا رجع إليه، وأن توفيقه للتائبين في حياتهم معلوم ومعهود، فضلاً عما ينتظرهم في آخرتهم، وأن العبد إذا استعان بالله في توبته أعانه الله على كراهة الذنب واجتناب أسبابه ومقدماته، وأعانه على الثبات أمامه وعلى تركه إذا باشره، وهذا من تمام كرمه وجميل لطفه وسعة رحمته.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

احذروا الذنوب، ولا تعتذروا عن فعلها بأن فلاناً أضلكم، وبأن من حولكم لم يعينوك على الطاعة ولم يرشدوكم إلى دوام فعلها، واعلموا أنكم ستأتون الله تعالى فرادى، وسيُسأل كل واحد عما قَدَّمَ، فإن كان ما قدمه إثماً وحراماً كان وزره وإثمُه عليه، ولن يحمل أحدٌ عن أحدٍ شيئاً ولو كان حبيباً وقريباً. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ سبحانه، قضى ذلك بعلمه وحكمته وعذله ورحمته، قضى أن لا يعاقب أحداً بذنب أحدٍ إلا إذا كان مفتاحاً لوقوع غيره في الحرام فإنه يحمل وزره ووزر من فعله.

سبحانه، يعلم ما في قلب عبده إذا فعل الذنب، هل فعله لأن عظمة الله تعالى في قلبه ليست موجودة فاستخف بنظر الله إليه، أو كان ممن يعظم ربه ولكنه ضعف أمام الحرام ففعله، ثم سارع بالتوبة منه قبل أن يفجأه الموت وهو على حاله.

وهو حكيم فيما قضاه من عقوبة أو مغفرة، وفيما قضاه من حسن خاتمة أو سوءها، وفيما يسير العبد إليه فإنه مُطَّلَعٌ على القلوب وما فيها.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝١١٢﴾

اتَّهَمَ بِشَرِّ الْمَنَافِقِ لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ بِأَنَّهُ سَرَقَ، وَلَبِيدٌ هَذَا رَجُلٌ صَالِحٌ بَرِيءٌ، جَاءَتْ الْآيَةُ هُنَا لِتَدْفَعَ عَنْهُ وَتَذَكِّرَ وَعِيدَ مَنْ كَسَبَ خَطِيئَةَ السَّرَقَةِ، ثُمَّ احْتَالَ وَرَمَى بِهَا رَجُلًا بَرِيئًا لِيَنْجُوَ هُوَ.

وعنده أنه احتمل بهتانًا، وَالْبُهْتَانُ: الْكُذْبُ الْفَاحِشُ، أَي: حَمَلَ كَذِبَهُ بَدَنُو أَخْلَاقِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ خَائِنٌ، وَاحْتَمَلَ كَذَلِكَ إِثْمًا مُبِينًا، أَي: اكْتَسَبَ حَرَامًا ظَاهِرًا بَيِّنًا لَا شُبْهَةَ فِيهِ.

وهذا جزاء كل من اعتدى على غيره، واتهمه بما ليس فيه ونسب إليه الباطل، استحضروا كيف سيكون حاله وهو مقبل على الله يحمل على ظهره آثامًا عظامًا، فليتنبه الواحد منا وليحذر.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۖ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾

أَرَادَ الَّذِينَ وَقَفُوا مِنْ بَنِي أُبَيٍّ مَعَ الْمَنَافِقِ السَّارِقِ أَنْ يُغَيَّبُوا الْحَقِيقَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيُضِلُّوهَ عَنْهَا، وَيَجْعَلُوهُ يَقِفُ مَعَ الْمَجْرَمِ بِمَا قَضَى لَهُ، وَلَكِنْ فَضَلَ اللَّهُ عَظِيمٌ فَقَدْ فَضَحَهُمْ فِي الْآيَاتِ هُنَا، وَبَشَّرَ نَبِيَنَا ﷺ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ بِكَوْنِهِمْ غَفَلُوا عَنْ رِقَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنَ الْعُقُوبَةِ بِمَا فَعَلُوهُ، وَأَخْبَرَ نَبِيَنَا ﷺ أَنْ كَيْدَهُمْ وَمَكْرَهُمْ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْفُضِيحَةِ وَبَسْخَطِ اللَّهِ تَعَالَى كَحَالِ كُلِّ مُخَادَعٍ.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۖ﴾ ثم إكرام آخر لنبي الرحمة والهدى عليه صلوات ربي وسلامه بأن الله تعالى قد عصمه من عدوه من أهل النفاق، وحفظه من ضرهم وإيذائهم. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۖ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۖ﴾ ما أعظمها من نعمة عليه وعلينا، قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار يهدينا سواء السبيل في بؤس الحياة وتلاطم أمواجها، وحكمة تجلت في أحاديث الصادق المصدوق ﷺ التي حملت جوامع الكلم وعظم المعاني، وفي كل نص من نصوصها بناء عظيم يهدي البشرية في عقيدتها وأخلاقها والأحكام التي تحتاجها.

نبيُّ أُمِّيَّ يعيش في مكة التي ليس فيها أي لون من ألوان الحضارة والعلم، يصطفي فيها الله تعالى خير البشر ليعلمه من علمه، ويجعله مفتاحاً من مفاتيح العلم والخير في الأرض للإنس والجن والحيوان والحجر والشجر. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ٥٣ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿[الشُّورَى: ٥٢ - ٥٣].

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ هذه سيرته ﷺ بين أيديكم، من ولادته حتى وفاته، لا أظن أن لحظة فيها مرت إلا وتذكرنا بفضل الله عليه.

ولا أتوقف عند مماته بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام، بل كل من جاء بعده واهتدى إلى الصراط المستقيم كان لبنينا عليه الصلاة والسلام سهمٌ في ذلك، وأيُّ فضل أعظم من هذا.

وأستأذنكم لأقول لكم: كان فضل الله على نبيه عظيمًا له، ولكنه عظيم لنا كذلك، فقد اصطفانا لتكون أُمَّتَه وحملته رسالته، وشرح صدورنا لذلك، وحفظنا من الضلالة والنفاق، وأَحْيَا قلوبنا بالقرآن وبالسنة، وأعدَّ لنا دار كرامته في جنة تشاق لأرواحنا وأبداننا، اللهم اجمعنا فيها.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٤﴾

التناجي هنا يشير إلى تبادل أطراف الحديث في المجالس والطرق، وهذا الحديث على الغالب يكون تناجيًا، أي: سرًّا لا يسمعه غير من هو موجود، وهذا التناجي كان يقوم عليه عدد من أعداء الإسلام في المدينة من اليهود والمنافقين، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بَآلِئِهِمْ وَالْعَدُوِّنَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ ﴿[سورة المجادلة: ٨].

كانوا يفعلونه مكرًا بالمسلمين قاصدين به إيصال الشكِّ إلى قلوبهم، وإدخال الحُزن عليهم برؤيتهم وهم يتناجون، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿[سورة المجادلة: ١٠].

جاءت الآية في سياق الحديث عن أحوال أهل النفاق والكفر التي لا تخلوا من التناجي لتدبير الخيانات وتبئيسها، ولا يخفى عليكم ما فعله بشر المنافق ومن أعانته من عائلته على تدبير حيلة نجاتهم من السرقة كما في الآيات قبل ذلك، فقد كانوا يتناجون في ذلك ويتفقون على مكرهم وخداعهم.

ولكن العبرة في هذه الآية بعموم اللفظ فيها، وكأنها تحمل تربية اجتماعية، وإرشادًا للبشرية كلها في هذه الحياة الدنيا التي قامت على البلاء قبل أن يكون اليوم الآخر الذي يحصل فيه الجزاء. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كُنتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزَنُ».

القرآن يُخبرنا أن كلام الناس فيما بينهم لا ينفعهم، وأنه لا خير لهم فيه في الدنيا ولا في الآخرة إلا أن يكون فيما ذكرت الآية هنا.

والكلام كما هو معلوم لديكم منه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب أو واجب، ومنه ما هو مكروه أو حرام، والمؤمن الذي يربط دنياه بآخرته يحرص على ألا يكون كلامه فيما يُسخط الله عليه، بل قد يرتقي بتفكيره ليكون غالب كلامه في الواجب أو المستحب، وقد تجدونه وإن تكلم في المباح إلا أن له نيةً طيبةً في ذلك.

ولفظه الكثرة في الآية تدل على أن نجواهم ربما يكون فيها خيرٌ، كما لو تناجوا في أمور دنياهم من التجارة ونحوها، ولكن نجواهم التي تحمل خيرًا قليلًا وليست كثيرةً.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ الصدقة هنا في الأصل هي صدقة المال الواجبة ومنها الزكاة والنفقة الواجبة والكفارات والנדور، وكذلك الصدقة المندوبة، أي: المستحبة، ومنها الوقف وبناء المساجد وكفالة الأيتام وغير ذلك.

هنيئًا لذلك المجلس الذي اجتمع على ذلك، اجتمع على السعي على ذوي الحاجات وعلى الذين أصابتهم الكُرْبَات، هنيئًا لمن سار بين الناس وغشيتهم في مجالسهم وقنوات تواصلهم، وتناجى معهم وأمرهم بالصدقة وذكَّروهم بها ودعاهم إليها.

وقد يكون الأمر في هذه الصدقة هو صاحب المال الذي يحرص على التناجي في إيصال الصدقة إلى مستحقيها، وذلك عن طريق الإسرار إلى أحد عياله أو عماله بإعطائها لفلان حرصًا منه على الإخلاص، واجتنابًا لإيذاء الأخذ لها والتعدي على مشاعره.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ المعروف هو كل ما عُرف أن الشرع يحبه ويستحسنه ويدعو إليه، ويدخل في ذلك أمرُ الناس وإرشادهم إلى ذكرِ الله وقراءة القرآن، وبذلِ الكلمة الطيبة والابتسامة، وطيبِ الخلق واجتنابِ الفسوق، وغير ذلك. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجُّوْا إِلَّا نِمْرَ وَالْعَادُوْنَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُوْلِ وَتَنَجُّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِىٓ اِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ﴾ [سورة المجادلة: ٩].

هنا تكون دائرة التناجي أوسع، ولعل ثمرتها في المعروف تكون عظيمة على الفرد والمجتمع، وإن كان الجهر بها غير ممنوع في الشرع بل يندب إذا كانت هناك مصلحة راجحة في ذلك، وخشي على نفسه من العُجب والرياء.

﴿أَوْصِلِحْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الإصلاح بين المتخاصمين باب خير عظيم، يغفل عنه كثير من الناس، ولا يبذلون له شيئاً من أوقاتهم إلا من رحم الله.

وحرص الشريعة على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض لا يخفى على من تأملها، وهذا واحد من النصوص التي تذكر فضل ذلك، وقد جعلت الشريعة للمصلح بين الناس سهماً من مال الزكاة وإن كان غنياً، وهو سهم الغارمين، وذلك بشروط ذكرها أهل الفقه، بل أباح الشرع الكذب في الإصلاح عند الحاجة وبِقَدْرها، وجعل ثواب المَشَائِين في الإصلاح أفضل عند الله من ثواب صلاة النافلة وصدقة النافلة، فصلاة النافلة وصدقة النافلة مع عظمهما يرجع نفعهما على المصلي وعلى المتصدق، أما الإصلاح فنفعه راجع إلى المجتمع كله وبه يدفع المصلح شرواً كثيرة قد تحصل.

قال الله تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وأخرج البخاري ومسلم عن أُمِّ كُلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيُنْجِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا».

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ (أي: تزيل المحبة والألفة وتهدد أمن المجتمع)».

وإباحة التناجي في الإصلاح يعين المصلح في عمله، فإن من أهم معوقات التأليف بين قلوب الناس وجود أصحاب قلوب مريضة لا يريدون الإصلاح، ويعملون على إذكاء نار الفتنة ونقل كلام السوء بين الطرفين لمصالح تُخْصِّمهم، فكان الحرص على إباحة التناجي في ذلك مُعِينًا في إغلاق الطريق عليهم، ودفع شرهم عن الناس.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الإخلاص في ذلك أمر لا نستغني عنه وما كان لنا أن نستغني عنه، فإنه سر النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وهو الذي لا يَتَأْتَى الأجر إلا به.

تشير الآية إلى ما قد يدخل إلى النفوس من العُجب بالعمل وطلب مدح الناس وثنائهم، فالناس تعلم أن تذكيرهم بالخير والإصلاح بينهم لا يطيقه إلا الأقوياء الذين يحملون ما لا يحمله غيرهم، فليتببه الواحد منا لقلبه في ذلك، وليجعل عمله خالصاً لوجه الله الكريم، وليستحضر الأجر العظيم الكثير الواسع الذي وعدت به الآية هنا فهذا يعينه، وَيُهَوِّنَ عليه في ثباته أمام المعوقات والصعوبات.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾

لا تقتصر مشاققة نبينا ﷺ على حياته، بل هي مُمتدة إلى زماننا هذا الذي نرى فيه من ينصب العداء لسنة نبينا ﷺ بكلامه وأفعاله، ويكاد يسقطها بالكامل أو يسقط بعضها رَعْمًا منه أنه غير موثوق بها، أو أنها لا تصلح لأجيالنا، أو لأن عقله لم يقتنع بما فيها.

ولفظه المُشَاقَّة تدل على أنَّ السنة أصبحت في شقٍ وناحية، وأصبح هو في شقٍ آخر بعيد عنها في ناحية أخرى.

في الآية وعيد عجيب من نوعه لمن يتجرؤون على نبينا ﷺ وعلى الوحي الذي جاء به من عند الله، ووعد لمن خالف جمهور الأمة في ذلك واتبع طريقاً غير طريق أهل الإيمان العدول الثقات المعروفين في كل زمان ومكان.

وهذه الآية فيها إشارة إلى عصمة هذه الأمة وحفظها من أن تجتمع على خطأ وضلال، وأن الحافظ لها هو الله سبحانه وتعالى.

وقول الله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي: عن عمد منه وقصد من بعد ما قامت عنده دلائل صدق هذا النبي ﷺ وصدق رسالته، ومن بعد أن رأى معجزة القرآن الخالدة، ورأى كيف حفظت السنة هذا القرآن بيان ما فيه من أحكام ومعاني، ثم كيف كتب الله لها الخلود، ويسر لها من علوم الأسانيد والجرح والتعديل التي حفظتها من التغيير والتبديل والتحريف.

كلُّ من سلك غير طريق أهل الإيمان في العقيدة والأحكام والأخلاق عناداً وعصبيةً واتباعاً للهوى فليعلم أن الله تعالى سيؤله ما تولى، أي: سيركه في طريق ضلاله ولا يُوفِّقه للخير، وسيستدرجه من حيث لا يعلم ويجعله يظن أنه على صواب مع أنه حمل راية الباطل واتباع طريقه، كل ذلك بما حمله قلبه من فساد وخبث وبغض لهذا الدين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْسَدَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وجزاؤه لا يتوقف عند ذلك بل سيكون مستقره ومقامه بعد الحساب جهنم التي سيصلى بنارها، وسيقلب في دركاتهما في العذاب الشديد المؤلم.

ولا يقولن قائل: وما هي الطريق التي نحرص عليها ولا نرتضي غيرها، لأن هذه الطريق أفاض كتاب الله تعالى بيانها، وأفاضت سنة حبيبكم محمد ﷺ بتجليتها، وبين أيديكم ثراث يُوزَنُ بالذهب قام عليه علماء الأمة من الصحابة والسلف والأئمة الأربعة ومن سار على نهجهم واتبع هداهم إلى زماننا، صراطٌ مستقيمٌ لا يزيغ عنه إلا أهل الزيغ والضلال.

ولا تتكلم الآية هنا عن صنف من الناس ربما وقع في ذنب ما دون أن يقصد مشاقة الرسول، ودون أن يقصد اتباع غير سبيل المؤمنين، فهذا يفتح الله له طرائق التوبة، ويعينه عليها إذا كان من الصادقين، فتأمل.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

لا تطيب حياتنا بدون توحيد للربِّ العظيم، ولا يستقيم حال الخليقة إلا بذلك، ديننا وإفرادنا لخالقنا بالعبودية هو الهواء الذي نتنفسه، وهو الماء الذي لا نعيش بدونه، وهو النعمة التي لا تطيق جوارحنا شكر الله تعالى عليها قولاً وعملاً، فاللهم ربنا لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

إذا سألكم أحد عن سرِّ ثباتكم على دينكم، وعن سر عملكم المتجدد والمتنوع في مدافعة الباطل وأهله، وعن مسارعتكم في الطاعات بلا كسل ولا ملل، وعما يملأ قلوبكم من الرضا بالقدر وإن عظم البلاء فيه، وعن حرصكم على التوبة التي يحبها الله ويقبلها؛ أقول: من سألكم عن السر في كل هذا فقولوا: إنه إفراد ربنا بالتوحيد وتعظيمه وحبُّه والشوق إلى لقائه، تلکم جنة الله في أرضه قبل سمائه، اللهم بلغنا الجنتين.

تكررت هذه الآية في الآية الثامنة والأربعين من هذه السورة إلا أن ختامها كان مختلفاً، وذلك في قول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وقد ذكرتُ في تفسيرها عشر مسائل علمية ووعظية فلتراجع، فإنها نافعة في تفسير الآية هنا وبيان أبعادها.

ختم الآيتين مختلف، والسياق الذي جاءت فيه كل آية يجعل قول الله تعالى له ظلًا جديدة، ففي الآية الأولى كان الحديث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وختم الآية يخبرهم أن الخسران هو عاقبة شركهم وكفرهم لا محالة.

أما الآية هنا فجاءت في ختام الحديث عن المنافقين الذين يشاقون رسول الله ويسعون في إضلاله، جاءت في هذا السياق لِيَحْذَرَ مكرهم وكيدهم، وليعلموا حقيقتهم، وليدركوا أن المنافقين الذين يُظْهِرون خلاف ما يُبْطِنون لا يختلف طريقهم عن طريق أهل الشرك.

يدل ختام الآية على أن الضلال هو الوصف الصحيح لما يقوم به أهل النفاق من حيث ظنوا أنفسهم على خير بما يظهرونه.

وهنا يحضرنا ما وصف القرآن به آياته بأنها مَثَانِي، أي: تتكرر فيها المعاني والأحكام لتخدم السياق الذي جاءت فيه، وليبقى قارئ القرآن على قُرْب منها ولا يغفل، فإن الهداية تحتاج إلى دوام الوعظ والإرشاد والتذكير، وتحتاج إلى إعادة ما قد ينساه الإنسان بطبعه.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١٧)

المقصود بالإناث هنا هو الأصنام، فإن العرب ومنهم قريش كانت تنسب إلى ربنا ما تكره، فهي تكره البنات ثم تعتقد أن الملائكة بنات الله، وأن الأصنام التي صَنَعَتْهَا أيديهم كانت على شكل الملائكة، ولذلك صلحت أن تكون شفعاء لهم عند الله، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكُنَبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الرَّحُوف: ١٩]، فهم لا يعتقدون أن الأصنام تخلق وترزق، ولكنهم يتخذونها واسطة بينهم وبين الرب لاعتقادهم أنها تنفع وتضر في ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

حقيقة هذه العقيدة أنها كفر بالله العظيم، وأن عبوديتهم إنما هي لأصنام زَيْن لهم الشيطان سوء عملهم فيها، وقربها من قلوبهم حتى عَظَّموها وظنوا فيها ما ظنوا، فكان منتهى ما يفعلونه أنه طاعة للشيطان ودعاء وعبودية له.

والشيطان المريد، أي: الخارج عن الطاعة فهو مُتَمَرِّدٌ ومستكبرٌ على أوامر ربه وخالقه ومالكة. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

[يس: ٦٠].

وكان الآية تقول: لا يغرنكم ما يقوله بعض من أطاع غير الله في نظامه وقوانينه وتحليله وتحريمه، فإن فعله هذا ورضاه عنه يدلّك على أنه عابد لـشيطان الجن وأتباعه من شياطين الإنس وإن زعم أنه من أهل التوحيد.

ولا يغرنكم طواف الناس حول القبور ودعاء الأموات والاستنجاد بهم من دون الله، فحقيقة أمرهم أنهم استجابوا لنداء الشيطان فيهم وتلبّسه عليهم.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨)

انتبهوا يا من تطيعون عدو الله وعدوكم، الشيطان الذي قادكم إلى الشرك لعنه الله، أي: طرده من رحمته وأبعده عنها، وأخرجه من جواره مع الإهانة والخزي.

ثم إنه لما طرد من جنة الله أعلن عداؤه الكبير لآدم وذريته، وتوعد بأن يكون له من تفكيرهم وعملهم نصيباً مفروضاً، أي: حصّة مقدرة وسهماً معلوماً، وهذا النصيب المقدر سيكون في الطائعين له المستجيبين لأمره، وليس في أهل الإيمان الذين عادوه كما عاداهم، والذين استعانوا بالله عليه فجعلوه يخنس أمامهم ويخشاهم أشد خشية.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتِي لِأَفَعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١١٦) ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَرِئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠].

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (١١٩)

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾ أي: لأصرفهم عن الحق، ولأفعدنّ لهم صراطك المستقيم أبعدهم عنه وأبغضه إليهم، وستكون أسلحتي في ذلك الشبهات في الدين، وكذا الشهوات التي سأجعلهم يصلون إليها بالحرام.

﴿وَلَا مَنِيْنَهُمْ﴾ وهذا من حبال الشيطان وطرائقه: يستحوذ على العبد ليعيش في الأمان، ومن الأمانى أنه يزيّن له ترك التوبة الآن وأنه لا يصلح لها، ويأمره بتأخيرها إلى حين الكبر،

ويقنعه بأن خيره كثير وأجره عظيم، وأنه ليس بحاجة إلى مزيد عمل، ويجعله ينظر دومًا إلى من هو دونه في العبادة فيغترّ بطاعته وعبادته التي هي على طريقته وهواه لا على طريقة الشرع.

من لعب الشيطان بأوليائه أنه يُلقِي في نفوسهم آمانياتٍ كاذبةً، ويجعلهم أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، ويُغرِقهم في التفكير الذي لا فائدة منه ليدخل بعد ذلك اليأس والحزن إلى قلوبهم، ثم يسهل عليه أن يقودهم للكفر أو كبائر الذنوب.

وقد وصف القرآن حال أهل النفاق يوم القيامة كيف أنهم يقولون للمؤمنين الصادقين الذين ما غرتهم الأماني، يقولون لهم: ألسنا منكم! انظروا في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٣-١٤].

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ أَذَاكَ الْأَنْعَمِ﴾ أي: لأجعلنهم يقطعون آذان الإبل والبقر والغنم ويشققونها، ثم يجعلون ذلك علامة على اعتقاداتهم الفاسدة؛ هذا من لعب الشيطان بهم.

قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وهذه الألفاظ تدل على استجابتهم لأمر الشيطان لهم، وكيف أنهم افترضوا على الله الكذب وشرعوا ما لم يأذن الله به.

والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام مسميات لأنعامهم التي جعلوها قربانًا لطواغيتهم، وجعلوا لكل واحدة منها وصفاً يخصها وأحكاماً ألزموا أنفسهم بها، وكانوا يميزونها بطريقة شقهم لأذانها.

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ بَخْلَ اللَّهِ﴾ طاعة الشيطان في تغيير خلق الله يخالف الرضا بما قَدَّره الله تعالى للعبد، بل قد يحمل تَسَخُّطًا على ما خلق في الشكل واللون ونحو ذلك، فضلاً عن كونه شعارًا من شعارات أهل الدنيا من أهل الكفر والفسوق والفجور.

عقد أهل الإيمان قلوبهم على الرضا بما أكرم الله تعالى به الواحد منهم من شكل ولون، وهم يستحضرون أن الدنيا هذه دار بلاء، وأن البلاء يتنوع ويأتي بطرائق مختلفة، وهم وقَّافون عند حدود الله يدركون حقيقة العبودية وتماها.

أخرج مسلم في صحيحه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَمَصَّاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ

الله»، وأخرج البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْوَاشِمَةُ وَالْمُوتَشِمَةُ، وَالْوَاصِلَةُ وَالْمُسْتَوْصِلَةُ» يَعْنِي: لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ. وعند أحمد: «نَهَى عَنِ النَّامِصَةِ وَالْوَاشِرَةِ وَالْوَاصِلَةِ وَالْوَاشِمَةِ إِلَّا مِنْ دَاءٍ».

فأما الواشمات فهن اللواتي يَقُمنَ بوضع الوشم على أبدان غيرهنَّ من النساء، والمستوشمات هن اللواتي يُفعل بهن ذلك.

والنَّمْصُ هو إزالة شعر الحاجبين والتخفيف منه، والفاعلة والمفعول بها تشتركان في اللعن بنص الحديث.

وأما الْمُتَفَلِّجَةُ للحسن فهي التي تبرد ما بين أسنان المقدمة، وتباعد بينها طلباً للجمال، وهي الواشرة التي جاءت في رواية أحمد.

وأما الواصلة فهي التي تصل شعرها بشعر غيره، توهم أن ذلك من شعرها، وَالْمُسْتَوْصِلَةُ: التي تطلب من يفعل بها ذلك.

والحديث وإن كان بصيغة التأنيث إلا أن الحكم يشمل الرجال كذلك، وقد جاء بصيغة التأنيث لأنه يغلب فيهن ويكثر.

ولأهل العلم فقه عظيمًا في تفصيل هذه الأحكام، وبيان مستجد فيها، ولكل واحد منها أحكام تخصه وعلل يقوم عليها، فلتراجع في مظانها.

وصحيح أن الله تعالى جميل يحب الجمال، ولكن الجمال الذي نريده هو الذي ضبطه الشرع وأرشد إليه، لا الذي جاءت به أهواء الناس وطرائق أهل الكفر والفسق وعاداتهم، فالحجبة على الرجل جميلة بمنظار أهل الآخرة لأن الشرع أمر بها، والتي تخرج بلباسها الشرعي جميلة لأنها أطاعت ربها بذلك، وحلق الشعر الذي طلب الشرع حلقه وتقليم الأظافر يدلان على الجمال الذي أَرادَه الدين منا، والأمر بالتنظيف والتطهير والوضوء والغتسال، وغير ذلك، وهكذا نفهم الجمال في حياتنا ونتبع طرائقه.

ومن أهل العلم من حمل التغيير هنا على تغيير دين الناس وفطرتهم التي فطر الله عليها كل مولود، يعني: سيأمرهم بتغيير دين الفطرة الذي هو الإسلام إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ۚ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾

طريقان لا ثالث لهما، إما أن يتولى الواحد منا الرحمن فيطيعه ويقفَ عند أوامره ونواهيه راجياً جنته وهارباً من عذابه، وإما أن يتولَّى عدو الله وعدو الإنس، ويطيعه فيما وسوس إليه وأمر ونهى.

من اختار الطريق الأول فله الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، ومن اختار الثانية والعياذ بالله كان من الذين خسروا الدنيا والآخرة، وهذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح الذي لا يُجبر ولا يُستدرَك، وهو الشقاء الذي ليس بعده فلاح.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٠)

الشیطان يقول لمن تسلط عليهم وزین لهم أعمال الكفر والمعاصي: هذه طريق السعادة، وهذا ما سيریح قلوبكم ويجعلُ حياتكم أجمل.

ويقول لهم: لا تُنفقوا لثلاً ينقصَ مآلُكم، وتعاملوا بالربا والقمار لتكونوا من الأغنياء، وربما يكون هذا ليس حراماً، ونحن الآن في زمن تطورت فيه المفاهيم والعقائد والأحكام فلا بد من التجديد فيها، وهكذا. قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٨].

ولكن القرآن يخبر أن وعده لهم وإغراقهم في الأمنيات إنما هو كذب وافتراء، وهو تغريب بهم وضحك عليهم، وكلامه هذا لن ينفعهم غداً يوم الحساب. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢١)

كل من أطاعه من دون الله وكان لعبة بين يديه، سيكون مصيره ومآله يوم الحساب نازراً تَلْظَى، لا يجدون عنها محيصاً، أي: مهرباً وخلاصاً وملجأً.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٢)

بعد أن ذكر القرآن حال الأشقياء الذين يوالون الشيطان ويتعلقون بوعده وأمنيته، جاء ذكر حال السعداء الذين غلبوا شياطينهم وحفظ الله عليهم دينهم، أولئك الذين آمنوا بالله ربًّا، وكانت ثقتهم بموعد الله عالية فأقبلوا على مجاهدة أنفسهم في عمل الصالحات، حتى أصبح الدين هواءهم وماءهم.

هؤلاء: سيكرمهم ربهم بما هو أهله، سيرضيهم غدا في جناته التي تجري أنواع الأنهار بين قصورها ومن تحتها، يسمعون صوتها الجميل ويشربون كؤوسًا منها تُنسيهم شقاء الدنيا وبؤسها، وتعوّضهم عن حرمانهم من بعض أنواع اللذات، ما أجملها من لحظات يوم يفرحون بخلودهم في هذه الدار فلا ييغون عنها تحوُّلاً.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ هذا الوعد يعلمه أهل الإيمان جيّدًا، إنه وعد من عَظَمَتْهُ عَمَرَتْ قلوبهم فتعلقت به، وقد أنساهم وعدهم الدنيا وغمّها، يقينهم بالله كبير، وشوقهم إلى النظر إلى وجهه الكريم عظيم، اللهم اشرح صدورنا لما تحب وترضى.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ قِيلًا، أي: قولًا، والمقصود: لَا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قَوْلًا وَخَبْرًا، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَاقِدَ عَبْدٌ مَوْءِنَ قَوْلًا عَلَى قَوْلِهِ وَلَا أَمْرًا عَلَى أَمْرِهِ، وَلَا وَعْدًا عَلَى وَعْدِهِ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ سَبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وأما الشيطان فوعده قائم على الأمنيات، وكل من اتبع طرائقه أدرك أنه غير قادر على شيء، وعلم أن وعده باطل وقوله كذب وزور وسراب.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣)

هذه قاعدة من قواعد الحياة النافعة لنا في فهمنا لديننا، قاعدة تنفعنا في فهم حقيقة العبودية التي ارتضاها ربُّنا لنا، وتنفعنا في خطابنا مع أهل الملل الأخرى.

يعلّمنا الخطاب الرباني أن الدينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وأن القبول عند الله ليس تابعًا لأهواء الناس وما يشتهون، وأن النجاة لا تكون إلّا بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح.

يا أيها المسلمون: اعلّموا أن دخول الجنة والفوز بمرضاة الله لا يكون بالأُماني، واعلموا أن صراط الله تعالى واحد لا يسلكه إلا من اتبع أمرَ الله تعالى ونهْيَه، ولا تظنّوا أن دخولكم إلى الجنة ونجاتكم سيكون فقط لأنّكم آخرُ الأمم، أو لأنّ نبيكم هو محمدٌ ﷺ وليس موسى أو عيسى أو غيرهم عليهم الصلاة والسلام، أو لأنّ كتابكم هو القرآن وليس التوراة ولا الإنجيل.

يا أيها المسلمون: لا تكون النجاة بين يدي الله تعالى بمجرد الانتساب للدين، ولا تكون بالأسماء والألقاب، واعلموا أن دينكم يحتاج إلى من يفقهه عن الله تعالى، وأن النجاة فيه إنما تكون بالعمل له والذّب عنه عن علم ودراية، ثم الثبات على التوحيد الخالص حتى الممات.

يا أهل الكتاب: لا تزعموا أنكم أبناءُ الله وأحبّاءُه وأنّ الله لن يعذبكم، وأنه لو عذبكم فسيكون عذابكم قليلاً، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن الفضل لكم علينا لأن نبيكم جاء قبل نبينا عليهم جميعاً صلوات ربي وسلامه، ولأنّ كتابكم أنزل قبل كتابنا، ولا تظنّوا أن لذلك أثراً في معرفة الحق من الباطل، واعلموا أنّ هذا من الأُماني التي جعلتكم تغترون بباطلكم وتُصِرُّون عليه.

ويا من تبثّثون عن الدين الصحيح، وعن الحق والعدل، وعن العقيدة النقية الطيبة الصافية التي لا عوجَ فيها: اعلّموا أن العبرةَ بِطاعةِ الله، واتباعِ ما شرَّعه على ألسنةِ رُسُلِهِ الكرامِ، إليكم جميعاً ما يعاملكم به الله سبحانه وتعالى:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

أكبر السيئات أن يكفر المرء بالله العظيم، أو أن ينسب له الولد أو الشريك، أو أن يكفر بنبي من أنبياء الله تعالى، أو أن يكفر بكتاب من كتبه التي أنزلها على رسله، كيف تزعمون أنكم أولياء الله وأنتم تقولون عنه ثلاثة، وكيف يزعم أقوام أنهم أحبّاء الله وهم يقولون عزير ابن الله، ويقتلون النبيين ويكفرون بهم، كيف تتمنون على الله الأُماني وقد كفرتم بخاتم رسله محمد ﷺ وبما أنزل عليه.

ثم من أنواع السيئات اقترافُ الكبائر كالقتل والزنا والسَّحر ونحو ذلك، وكذا اقترافُ صغائر الذنوب، والمطلوب ممّن أراد طريق النجاة بين يدي الله: أن يحرص على الإيمان الحق الذي لا ينفع غيره، وأن يجتنب سيئة الشرك والكفر والرّدّة، وأن يجتنب الكبائر فإنها مُهلكةٌ، ثم يجتنب الصغائر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والجزاء المذكور في الآية قد يكون في الدنيا، أو في البرزخ، أو في هَوَلٍ من أهوال يوم القيامة؛ يكون في الدنيا بما قد يصيب المرء من سوء في نفسه أو ماله أو أهله أو فيما يُحِبُّ، أو يكون في البرزخ بضغطة القبر والعرض على النار، أو يكون في الآخرة بما ينتظر الجميع من مواقف تشيَّب لها الولدان، وبما كتبه الله على أهل الكفر من الخلود في النار.

لَمَّا نزلت هذه الآية وسمعتها أصحاب النبي ﷺ شَقَّ عليهم ذلك، وخافوا على أنفسهم من بعض السيئات التي لربما فعلوها، حتى سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك خشية أن تهلكهم ذنوبهم. أخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَارِبُوا، وَسَدُّوا، فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةً، حَتَّى النُّكْبَةُ يُنْكَبَهَا، أَوِ الشُّوْكَةُ يُشَاكَهَا».

وأخرج أحمد وابن حبان بسند صَحَّحَهُ أهل العلم بشواهد، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ (يعني: كيف النجاة في الدنيا والآخرة) بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿فَكُلُّ سُوءٍ عَمَلْنَا جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيئُكَ الْأَوَّاءَ (أي: ضيق العيش)؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَهُوَ مَا تُجْزُونَ بِهِ».

انظروا إلى لطف الله تعالى بنا كيف جعل لنا مَكْفَرَاتٍ تُهَوِّنُ علينا إذا ما وقفنا بين يديه للحساب، مكفرات نرجو بها رحمته وغفرانه وجنته، ما أجمل استحضار مثل هذه المعاني لمن تابعت عليه الهموم والغموم والأسقام.

أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَدَى وَلَا عَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ».

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ من سيكون مولى لأولئك الذين كفروا بالله العظيم، وأحاطت بهم خطاياهم فتخلى الله عنهم؟ ومن سينصرهم ويغنيهم من عذاب الله وسخطه؟ اللهم لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، اللهم إنا نعلم أن جميع خلقك لا حول لهم ولا قوة إلا بك، فلا تذرنا إلى أنفسنا وتولنا فيمن توليت.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤)

هذا من تمام عدله وكرمه سبحانه: كما أنه يجازي بالسيئات فكذلك يُكرم من عمل الصالحات بالمشوبة والفوز بالدرجات، وذلك فيما لو آمن إيماناً مرضياً لا مزعوماً، آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعاً، وآمن باليوم الآخر والقضاء خيره وشره.

العمل بعد الإيمان هو أساس التفضيل والرفعة في الدرجات، ومنظومة الحساب والعقاب لا تقوم على الجنس أو النسب أو اللون، وثواب الله لا فرق فيه بين ذكر وأنثى وإن حصل اختلاف بينهما في عددٍ من الأحكام والواجبات والحقوق في الدنيا.

أهل الإيمان الحق والعمل الصالح هم سكان دار الكرامة والرضوان، هم الفائزون بجنة الله تعالى، وهم الذين سيوفيههم الله تعالى أجرهم غير منقوص وإن كان العمل الصالح الذي قدموه يسيراً يساوي نقيراً، والنقير جزء صغير في ظهر نواة التمر، يُشبهه في حجمه ما يحصل بنقر الطير بمنقاره في مكانٍ ما.

وتخصيصُ الأنثى بالذكر هنا فيه إجماع لأولئك الذين كانوا لا يلتفتون إليها في قوانينهم وأنظمتهم من أهل الشرك وغيرهم من الأمم عبر التاريخ، وفيه إجماع كذلك لمن غمَزَ من أهل زماننا بدين الله وَلَمَزَ، وزعم أن الإسلام لا يُقدِّرُ المرأة ولا يكرمُها، يقول ذلك عن جهلٍ أو حقدٍ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥)

هذه معالم قبول الأعمال عند الله تعالى لثلاث يكون الدين خاضعاً لأهواء الناس التي ترون كثرة تنوعها واختلافها، الدين الحسن الذي رضيهِ الله لعباده هو من كان صاحبه قد أسلم وجهه لله تعالى، أي: استسلم لأمر الله تعالى مُخلصاً في ذلك، ومقبلاً على ما يأمره به حُباً ورضاً وإذعاناً وانقياداً وسمْعاً وطاعةً، واتباع شريعة الله تعالى في إيمانه وإسلامه، ولم يُسلم عقله وقلبه إلى الذين حرفوا في عقائدهم وانحرفوا عن ملة أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يتخذ واسطة بينه وبين خالقه بل جعل دعاءه ورجاءه له وحده سبحانه.

ثم هو محسن في ذلك، أي: متقن في عبوديته بإقباله على العمل واتباعه ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

واجتماع الإحسان مع إسلام الوجه لله يحصل به الثبات والنجاة، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

ثم هو متبع لملة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وملته هي الإسلام، وهو الدين الذي جاء به كل أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وكان حاله حنيفاً لما اتبع ملته، والحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد عن علم وقصد، وهو المقبل على العبودية ظاهراً وباطناً، وهو المحب لدينه العامل له الذي لا يصده عنه صადٌّ، ولا يردُّه عنه رادٌّ، ولا يصرفه عنه صارف. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، أي: جعل التوحيد والبراءة من الشرك دعوة باقية في عقبه من الأنبياء والرسل جميعاً.

في الآية هنا إشارة لما زعمه أهل الكتاب بأنهم على دين إبراهيم عليه السلام، وزعمهم هذا مردود عليهم جُملة وتفصيلاً، فقد جاء فيهم قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٧].

واعلموا أنَّ أولى الأمم والطوائف والمِلَلِ بسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام نحن، أعني: أمة محمد ﷺ، هكذا خاطبنا ربنا وهكذا أراد منا، أراد منا أن نكون على ثقة بهذا الطريق، وأن ندعو إليه العالمين، وأن نأخذ بيد من استطعنا إلى الصراط المستقيم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْبَرِّ النَّاسُ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التكوير: ١٦١].

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ترغيب عجيب من نوعه في اتباع إمام من أئمة الهدى والخير والتوحيد في الأرض، نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام الذي رفعه الله تعالى إلى دَرَجَةِ الْخُلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ، فهي ليست مجرد محبة فإن الله تعالى يحب عباده المؤمنين ويحبونه، ولكنها تتضمن المحبة وزيادة.

وقد ثبتت خُلَّةُ الله تعالى لبنينا محمد ﷺ كما ثبتت لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج مسلم عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ».

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي».

أما عن رفعة سيدنا إبراهيم عليه السلام عند الله تعالى والخلة التي جعلها سبحانه له، فقد ذكر كتاب الله تعالى شيئاً من أسبابها، فمن ذلك:

١- قول الله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمر به، ووفى كل مقامٍ من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمرٌ عن التبعّد لله تعالى في نيته وجميع أحواله.

٢- قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: امتحنه واختبره بشرائع وأوامر ونواهي من عنده، فقام بهن، ووفى بعهد الله وأمره.

٣- قوّته في التوحيد وقوته في اجتناب الشرك وأهله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٣٠] شاكراً لأنعمه أجتنبه وهدّته إلى صراطٍ مستقيم ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الذُّنُوبِ حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

وقال ربنا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

٤- ومن تأمل ما صحَّ في سيرة إبراهيم عليه السلام، وجدَّ استغناءه عن الخلق بالخالق، ورأى من أبعاد شخصيته ما هو جدير بأن نعلمه ونُتبعه؛ فإنه فارق قومه حين أمر بذلك، وحاجَّ التمرود، وصبر على إلقائه في النار، وترك زوجته وولده في الصحراء استجابةً لأمر الله، وأضجع ولده الوحيد إسماعيل ليذبحه لما أُوحِيَ إليه في رؤياه، وعلم الناس مناسك الحجاج، وغير ذلك.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة أبي الأنبياء سيّدنا إبراهيم عليه السلام، ويدل على عظم محبته لخالقه وسيده ومولاه، ولا يفوتكم أن السياق القرآني هنا فيه إقامة حُجّة على مشركي العرب الذين زعموا أنّهم على طريقة إبراهيم عليه السلام وهدّيه، وأنهم حمّة الكعبة التي بناها وولده إسماعيل عليه السلام، خاصّة أنّهم من نسلهما، ولا يفوتكم ما في ذلك من تذكير لليهود والنصارى بحقيقة دين إبراهيم ودعوته.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٦٦﴾

الْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ، لَا رَادَّ لِمَا قَضَى، وَلَا مُعَقَّبَ لِمَا حَكَمَ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ اللَّطِيفُ. وَالْمَقْصُودُ: كَيْفَ تُشْرَكُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَتَنْسُبُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى دِينِهِ مَا لَا يَصِحُّ بِحَالٍ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٦٧﴾ أَيُّ: عِلْمُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝١٦٧﴾

يَطْلُبُ الصَّحَابَةُ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ نَبِينَا ﷺ فِي عِدَدٍ مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالزَّوْجَاتِ وَالْأَيَّامِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّتْ سُورَةُ النِّسَاءِ فِي أَوَّلِ آيَاتِهَا أَحْكَامًا تَعْلُقُ بِنِكَاحِ الْيَتِيمَةِ وَحَقُوقِهَا.

يَسْتَفْتُونَهُ هُنَا بِمَا يَتَعْلَقُ بِالْحَقُوقِ الْمَالِيَةِ، وَعِدَدٌ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَحْتَاجُهَا النِّسَاءُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأَزْوَاجِ مِنْ نَفَقَةٍ وَنَشُوزٍ وَخِصَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ مَا سَتَذْكُرُ الْآيَاتُ الْقَادِمَةُ أَحْكَامَهُ.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يُحَدِّثُ أَنَّه سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ۝﴾ [النساء: ٣]، قَالَتْ: هِيَ الْيَتِيمَةُ فِي حَجَرٍ وَلَيْيَها، فَيَرْغَبُ فِي جَمَالِهَا وَمَالِهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِأَذْنَى مِنْ سُنَّةِ نِسَائِهَا (أَيُّ: أَقَلِّ مِنْ مَهْرٍ مِثْلَاتِهَا مِنَ النِّسَاءِ)، فَتُهْوَى عَنْ نِكَاحِهَا، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ (أَيُّ: الْمَهْرِ)، وَأَمْرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتَى النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ۝﴾ [النساء: ١٢٧]، قَالَتْ: «فَبَيَّنَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْيَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا، وَلَمْ يُلْحَقُوا بِسُنَّتِهَا (بِعَنِي: بِمَهْرِ مِثْلَاتِهَا) بِإِكْمَالِ الصَّدَاقِ، فَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قَلَّةِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ تَرَكُّوْهَا وَالتَّمَسُّوْا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ».

فالصحابة هنا يطلبون مزيد بيان لحكم نكاح اليتيمات وما كان من عادة أهل الجاهلية في حق اليتيمة، فقد كان واحداهم يتزوج اليتيمة دون أن يعطيها ما تستحقه من مهر إن كانت جميلة، فإن لم تكن جميلة لا يتزوجها ويمنعها من نكاح غيره ليقى مالها قريباً منه ويرثها إذا ماتت كما مر معنا، فأجابت الآية بتوجيه نفيس في حقهن، وأمرت بالعدل إليهن.

الآية تقول: إن الله تعالى سيبيّن لكم حكم ذلك لتتقنوا من حرص الشريعة عليهن، وتؤدوا الحق إليهن كاملاً غير منقوص، وتجتنبوا استغلالهن بالتقليل من المهر، أو عدم دفعه، أو أخذ ميراثهن لأنه لا أب لهن، لا تظنوا أن حكم الله في ذلك سيتغير أو يتبدل.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ الْمَرْءُ الْأَتَىٰ لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ﴾ الكتاب هنا هو القرآن، وقد نزلت آيات في أوائل السورة عليهم من قبل، وتليت عليهم في حق مال اليتيم، وفي حق ما يفعله الولي إذا رغب في نكاح اليتيمة أو لم يرغب، هذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾.

وتأملوا عبارة: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ فإنها نص في أن هذا المال أمر مكتوب ومفروض لهن بقسمة الله تعالى في الميراث، وما أمر به من أداء المهور إليهن فلا تعتدوا على حقوقهن ولا تظلموهن.

﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ الويل لكم إذا اعتديتم على الصغار الذين هم في حجوركم ومنعموهم من الميراث أو من عموم أموالهم، لا تشبهوا بأفعال أهل الجاهلية. قال الله تعالى في أوائل السورة: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ الشرع يوجب عليكم أن تعدلوا وتقسطوا إلى اليتيم، أدوا إليهم حقوقهم وقوموا على حاجاتهم وعاملوهم بالحسن.

ومن القيام عليهم تكليف المؤمنين من الناس على أموالهم، الذين يجيدون إدارة المال وتنميته ولا يمدون أعينهم إليه بحال.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ ترغيب بفعل الخير، وتهيج لأصحاب النفوس السوية ليسابقوا فيه ويزدادوا منه، استحضروا علم الله بما تفعلون، واستحضروا ثوابه الذي جعله مضاعفاً، وقد أعد له لكم إن صدقتم وبررتم وأحستم إلى من حولكم.

﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨)

آية من آيات كتاب الله العظيم، تحمل دلالاتٍ عجيبةً نافعةً للأمة، على رأسها عناية الشرع بالأسرة والعلاقة بين الزوجين، ثم بيان لطبائع الناس وما استقر في عمق نفوسهم مما لا يعلمه إلا الخالق، ثم في ختام الآية: عقيدة لا نستغني عنها في جميع أمورنا، أعني: عقيدة أن الدنيا دارٌ ممرٌ إلى الآخرة، وأن أعمالنا فيها معروضة على العليم الخبير سبحانه وإن كانت هذه الأعمال في حق الزوج والزوجة.

هنا إرشاد من الله تعالى إلى المرأة المتزوجة التي وصل زوجها في علاقته معها إلى النشوز والإعراض، إرشاد يعطيها آفاقاً في التفكير تناسب واقعها، وتلائم ما فُطر عليه الرجال والنساء، وتجعلها تتحرر من التخطب الذي يساهم في صناعته أصحاب الرأي الفاسد من حولها، وتساهم في صناعته الثقافات الدخيلة على ديننا ومجتمعاتنا.

إليك بيان ما جاء في الآية هنا بأبعاده الوعظية والعلمية، مستعيناً في ذلك بالله ومتوكلاً عليه:

١- البعل هنا في الآية هو الزوج، والمقصود أن النشوز والإعراض في الحياة الزوجية لا يكون فقط من الزوجة اتجاه زوجها، بل قد يكون كذلك من الزوج اتجاه زوجته، وقد مر معنا قول الله تعالى فيما لو كان النشوز منها: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَاصْرَبُوا لَهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

٢- ذكرت الآية هنا خوف الزوجة من نشوز الزوج أو إعراضه:

أما نشوز الزوج فمعناه أنه لا يقوم بالواجبات الشرعية الملقاة عليه اتجاه زوجته، ولم يعد يعاملها بالمعروف الذي عرفه الناس بين الزوجين، كأن امتنع عن الإنفاق عليها، أو امتنع عن أداء حقها في الفراش، أو أصبح يُهملها كثيراً أو يؤذيها بلسانه، أو يتجاوز حده في التأديب فيضربها ضرباً مبرحاً غير شرعي، أو يهجرها قاصداً قهرها والانتقام منها، أو تصدر منه سلوكات في بيتها لا تناسب العلاقة بين الزوجين، واستمر ذلك منه على حال لا يُطاق.

وأما إعراضه عن زوجته، فيظهر بسلوكات تدلُّ على النفور منها وقلة رغبته فيها، وأنه يفكر بطلاقها وإنهاء علاقته بها، فهو يرفع عنها وعليها، ولا ينبسط إليها كما كان من قبل.

وهو في ذلك إما أن يطلقها، أو أن يصالحها وترضى بالتنازل عن شيء من حقوقها. وانتبهوا هنا إلى أننا نتكلم عن أزواج نشزوا، وليس عن أزواج يعيشون حياة آمنة مطمئنة لا يستغني فيها أحدهما عن الآخر، ولا نتكلم كذلك عن أزواج لم ينشزوا واختاروا طريق الصبر على حالهم لصعوبة الحلول الأخرى على أنفسهم وأفراد أسرهم.

٣- خوف الزوجة من نشوز زوجها في الآية هنا، بمعنى: أنه غلب على ظن الزوجة أن زوجها لن يرجع إلى سابق عهده، ولن يعطيها حقوقها، وذلك على ضوء سلوكات ظاهرة في نشازه تدل على أنه يضمّر في نفسه طلاقاً أو هجرانها بالكامل.

وبطريقة أخرى: نشوز الزوج ليس مجرد وساوس تراود الزوجة بسبب مواقف متفرقة طبيعية تجري بين غالب الأزواج، ولكنه حقيقة له ما يدل عليه فيما عهده الناس.

وفي هذا المقام: أشير إلى ضرورة فهم ما يكون من عدد من الزوجات الفاضلات التي تحمل حساسية مفرطة في التعامل مع المواقف، والتي قد تخرج بنتائج موهومة من تصرفات زوجها التي هي أقرب إلى الطبيعية، نجدها تطالب بما ليس لها، وتقول في زوجها ما ليس صحيحاً، وتعمل على تضخيم الأحداث، وهنا يأتي عمل الصالحين المصلحين في أن يرشدوها إلى الصواب، ويعينوها على نفسها، ويفتحوا لها الآفاق الطيبة الإيجابية في التفكير والسلوك.

٤- هذا النشوز أو الإعراض له أسبابه في حياة الزوج، منها ما يُصرّح به ومنها ما يُسكت عنه، ومنها ما هو مقبول بحكم الطبيعة البشرية ومنها ما لا ينبغي للزوج فعله، فعلى سبيل المثال لا الحصر: قد يحصل النفور في نفس الزوج لسوء خلق في الزوجة وتغيرها عليه، أو لأنها لا تنجب الذكور ولا الإناث، أو لكثرة مرضها وشدته أو لكبر سنّها، وقد يحتاج إلى الزواج من أخرى ليحصن نفسه من الوقوع في الفاحشة أو ليحصل على الولد، وقد تكون انشغالاته كثيرة جداً ولا يقدر على السيطرة على وقته، وقد يقع في علاقات غير مشروعة، أو يرافق أهل السوء ويصاحبهم، أو ينشغل في سفاسف الأمور التي تجعل عقله خفيفاً سفيهاً، وغير ذلك.

٥- أرشدت الآية الزوجة في مثل هذا الحال إلى أن تصلح بينها وبين زوجها، وهذا الصلح عند جمهور أهل التفسير قائم على أن تتنازل الزوجة عن شيء من حقوقها على زوجها مقابل أن تبقى معه ولا يكون الطلاق، وليبقى عيالها أكثر أماناً واستقراراً.

ومن حقوقها التي يمكن أن تسقطها عن الزوج حقّها في النفقة مثلاً أو في جزء منه، أو قد تسقط حقّها في مبيت الزوج عندها في بعض الليالي أو في جميعها، وقد يعرض عليها زيادة النفقة مقابل حق المبيت، فإن لم تقبل إلا بحقها في المبيت والنفقة فهذا لها، ولا يبقى أمام الزوج إلا أن يطلقها أو أن يصبر عليها.

الشرع أباح لهما هذا الصلح، وقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، قالت: «هُوَ الرَّجُلُ يَرَى مِنْ امْرَأَتِهِ مَا لَا يُعْجِبُهُ، كِبَرًا أَوْ غَيْرَهُ، فَيُرِيدُ فِرَاقَهَا»، فتقول: أُمِسْكَنِي وَاقْسِمْ لِي مَا شِئْتَ، قالت: «فَلَا بَأْسَ إِذَا تَرَضَّيَا».

وأخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن أمنا عائشة رضي الله عنها، أنها قالت في الآية هنا: «هِيَ الْمَرْأَةُ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ لَا يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا (يعني: لا يكثر من معاشرتها وملازمتها ومحبتها)، فَيُرِيدُ طَلَاقَهَا وَيَتَزَوَّجُ غَيْرَهَا، تَقُولُ لَهُ: أُمِسْكَنِي وَلَا تُطَلِّقْنِي، ثُمَّ تَزَوَّجُ غَيْرِي، فَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيَّ وَالْقِسْمَةِ لِي، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾».

وقد حصل ذلك مع إحدى أمهات المؤمنين، وهي سودة بنت زمعة رضي الله عنها التي خشيت أن يطلقها النبي ﷺ، فعرضت عليه أن تتنازل عن ليلتها لأمنا عائشة رضي الله عنها مقابل أن تكون معه في الدنيا وفي الآخرة.

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَفْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ (يعني: عمل قرعة)، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، تَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

وفي رواية أبي داود قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «يَا ابْنَ أُخْتِي (تقول لعروة بن الزبير): كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُفْضَلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِسْمِ مِنْ مَكْنَاهِ عِنْدَنَا، وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ (أي: جماع)، حَتَّى يَبْلُغَ إِلَيَّ الَّتِي هُوَ يَوْمَهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا» وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ حِينَ أَسْنَتْ وَفَرَّقَتْ (يعني: حين كبرت في العمر وخافت) أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، قَالَتْ: نَقُولُ: فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَفِي أَشْبَاهِهَا: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾.

٦- الصلح الذي تقوم عليه الزوجة في تعاملها مع زوجها الناشز أو المعرض، له ظروفه التي ينبغي استحضارها لفهم النص هنا، فهذا الزوج قصّر مع زوجته ولا يريد أن يظلمها، وقد تكون عنده رغبة بطلاقها وقد تكون عنده الرغبة بالبقاء معها، وهذه الزوجة أرادت أن يبقى زوجها لها فهي لا تريد فراقه، فالشرع يرشدها إلى ما ذكرنا.

أما إذا اعتدى هذا الزوج في نشوزه وإعراضه، ومارس ألواناً من الظلم على زوجته، فاليكم عددًا من التوجيهات التي أذن بها الشرع وقالها أهل العلم:

أولاً: للزوجة أن تصبر عليه مع مراعاة نصحه وتذكيره بالله وبسابق عهده معها، وتلتطف معه في كل ذلك لعله يعود إلى رشده وصلاحه المرجو.

وهذا ما نوصي به أول الأمر، ونطلب منها إجراء شيء من التغيير في نفسها وفيما تنطق به وتفعله مع الزوج، لعل ذلك يفتح له آفاقاً في التفكير أغلقت عليه.

وطول فترة صبرها أو قصرها لا بد أن يكون مناسباً لسبب نشوز الزوج، ومناسباً للأسرة التي تختلف ظروفها من حال إلى حال، فالأسرة التي فيها أولاد ليست كغيرها، والأولاد إن كانوا صغاراً ليس كحال كبرهم واستقلالهم، والزوج الذي يُقبل على الطاعة ليس كغيره، وهكذا.

ثانياً: هناك أحوال قد تستعين الزوجة فيها بأهل الحكمة المؤتمنين من أهلها أو من أهل الزوج أو من غيرهم، ممن يجيدون التأثير في مثل هذه المواطن ولهم خبرة في الأزواج وطرائق إرشادهم، فتُطلعهم على ما يفعله الزوج ليكونوا لها عوناً.

ثالثاً: قد يصل الحال بعد ذلك بالزوجة إلى أن ترفع أمرها للقاضي كي ينتصر لها، وينظر في أمرها وما يناسبه من إجراء قضائي، فالقاضي بعد استدعاء الزوج وثبوت ظلمه بينة أو إقرار، يأمره بالإحسان إلى زوجته وأداء حقوقها إليها، وينهاه عن إيذاؤها، ويُعزّزُه إذا رجع إلى ذلك، يعني: يقيم عليه عقوبة تعزيرية تليق بما جرى كالجلد أو السجن ونحوهما، وذلك إذا غلب على ظن القاضي نفع ذلك كما نص الشافعية والمالكية، وقد يقضي بالتفريق بينهما للضرر مع حفظ كامل حقوق الزوجة من النفقة والحضانة.

ولنعلم أن طبيعة الحياة الزوجية لا تخلوا من حصول المشاحنات والخصومات في كثير من الأحيان، فلا يصلح مع كل خصومة أن نرفع الأمر إلى القضاء، ولكن ثمة أحوال تحتاج إلى ذلك، ويُستشار في مثلها أولوا النهي والعقل الراجح، ويُحذر من استشارة تجّار الخلافات الزوجية فإن غالبهم غير مؤتمن، ويُحذر كذلك من استشارة أصحاب وصاحبات الفكر الملوّث الذين يستمدون فهمهم من شرائع الغرب والشرق لا من الإسلام.

رابعاً: قد لا تستطيع الزوجة إثبات شكواها أمام القاضي، فيمكن العدول إلى الحكّامين حال اشتداد الخصومة واختلاط الأمر وصعوبة الحل، وفي ذلك جاء قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

خامساً: قد يصل الحال بالزوجة إلى طلب الخُلْع الذي أباحه الشرع لها إذا غلب على ظنها أنها لا تستطيع طاعة الله فيه، والخلع يقوم على أن تتصلح معه على التنازل عن شيء من مهرها أو من حق الحضانة مثلاً مقابل أن يُطلقها، أو تطلب الخلع عند القاضي ويحكم به بشروطه وفقهه، وهذا ما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٧- ولا يقول قائل: ولماذا تحتل الزوجة وتتنازل عن حقها في المبيت أو النفقة، وأين تقدير زوجها لها، وأين تضحيته هو كما ضحّت هي؟ ولا يقول قائل: الطلاق خير لها من ذلك.

انتبهوا: طريقة التفكير في التعامل مع متغيرات الحياة الزوجية تحتاج إلى طرح عدد من الأسئلة للوصول إلى الأفضل والأحسن، فطول العشرة بين الزوجين لها قدرها، وحسن أخلاق الزوج في غالب أيامه له وزنه، وكثرة تضحية الزوجة وصبرها له وزنه، ثم استحضار ما يمكن أن توول إليه الأمور إذا حصل الطلاق، وما يترتب على ذلك من ضرر على النفس والأولاد، أقول: كل هذا وغيره قد يتطلب تضحية من أحد الزوجين لتحمل مفسدة أدنى خشية حصول المفسدة الأعلى.

انتبهوا: الزوج في حياة زوجته عظيم، وله قدر يصعب وصفه في قلبها، وكثير من الزوجات تصبر على أذية زوجها لأنها تحبه فقط، أو لأنها تفكر في أولادها لو عاشوا بعيداً عن أبيهم كيف يكون حالهم.

ولا يفوتني أن أشير إلى صنف من النساء الصالحات التي تعرف قدر بيتها وقيمة زوجها، وتقدم تضحيات توزن بالذهب، ولا تلتفت إلى ضغط المجتمع من حولها والذي كثرت فيه النظرة السلبية والسوداوية في التعامل مع الحياة ومشكلاتها.

أخرج أحمد والنسائي عن الحُصَيْنِ بْنِ مُحْصِنٍ، أَنَّ عَمَّةَ لَهُ أَمَّتِ النَّبِيَّ ﷺ فِي حَاجَةٍ، فَفَرَعَتْ مِنْ حَاجَتِهَا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟» قَالَتْ: مَا أَلُوهُ إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ (يعني: لا أقصر في حقوقه إلا ما عجزت عنه)، قَالَ: «فَانْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكَ وَنَارُكَ».

أنا أدعوكم لإعمال الفكر في قول الله تعالى في تمة الآية هنا لما قال سبحانه: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وسيأتيكم مزيد بيان في هذه الخيرية عند تفسيرها.

٨- هنا همسة أذكر بها الأزواج لثلاثا يقعوا في الظلم إذا رغب أحدهم عن زوجته، أقول فيها: شريعتنا لا ترضى بإيذاء الزوجة، وظلمها أمر عظيم لا يستهان به في هذا الدين.

الإسلام حرم ظلم الزوج لزوجته وإن كرهها، وحرم الانتقاص من حقوقها إذا أراد أن يتزوج من زوجة أخرى لتحسين نفسه وحفظها من الوقوع في الحرام أو لغاية أخرى. أخرج أبو داود وأحمد عن معاوية القشيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ». صحيح أن الشريعة جعلت له القوامة وأعطته حق الطلاق، ولكنها أوصته بتقوى الله في كل ذلك، أوصته بالعدل والإحسان وطيب الأخلاق.

ولا يفوتنا ذكر حال أزواج يعتمدون إيقاع زوجاتهم في ظلمهم لتتخلى الواحدة منهن عن مهرها وحقوقها مقابل أن يطلقها، وهذا من الحرام الذي ننصح بالتوبة منه وإرجاع الحقوق فيه إلى أصحابها.

وقد نص فقهاء الشافعية والحنابلة على أن الزوج إذا تزوج من ثنتين، ثم هجر زوجته الأولى مثلاً في الفراش بدون نشوز منها، فإنه يجب عليه أن يقضي لها ما فات من ليالي.

أما إذا تنازلت هي عن حقها في المبيت فلها ذلك ولا شيء عليه، ولكنها لو رجعت وطالبت بحقها في ذلك، فقد نص فقهاء الشافعية والحنابلة على جواز رجوعها، وعلى أن الزوج ملزم بأن يعطيها حقها في المبيت شرعاً، ولا يلزمه أن يقضيها ما فاتها من الليالي.

مع التنبيه على أن الشريعة أذنت للزوج بالتضييق على زوجته في حالات تسببت هي فيها، جاءت الإشارة إليها في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، وقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١]، وهذه الفاحشة هي النشوز الذي يكون منها، أو اقترافها لفاحشة الزنا التي تهدم كل شيء غالباً.

٩- قد يقول قائل: لماذا أذن الله تعالى للزوج في حال نشوز زوجته أن يعطها ويهجرها ويضربها، ولم يجعل ذلك للزوجة إذا نشز زوجها؟ والجواب عن ذلك من وجوه:

أولاً: اعلّموا أن الشريعة نزلت من عند خالقنا الذي خلق الذكر والأنثى ويعلم ما يوافق فطرتهما ويسعدهما، وقد ساوت الشريعة بينهما في أحكام وخالفت في أحكام أخرى، وهذا الاختلاف في الدنيا فقط، أما في الآخرة فإن ثوابهما على ما كان منهما من العمل سواء كما تقدم.

ثانيًا: الشريعة أعطت الرجل حق القوامة في البيت، واختصته بواجبات وحقوق تعينه على قيادة أعظم مؤسسة عرفها التاريخ، الرجل عليه واجب النفقة والقيام على شؤون العائلة وحمايتها واستيعاب أفرادها، والقائد في كل مكان يحتاج إلى شيء من الصلاحيات ليضبط المسيرة ويكون قادرًا على القيادة الرشيدة، هذا فضلًا عما اختص الله به الرجل في أصل الخلقة من قدرة على التحكم بالمشاعر والعواطف، والتأني في اتخاذ القرار، ولذلك أعطته الشريعة حق الطلاق، وحق التأديب حال الشوز، وألزمت طاعته بالمعروف، وغير ذلك.

ثالثًا: ثم إن هذه الأحكام وافقت ما فطر عليه الرجال وما فطرت عليه النساء، فالمرأة السوية لا تحب أن تكون القوامة في البيت لها، ولا يسعدها أن تنفق هي على البيت، ولا يوافقها أن يكون الطلاق بيدها، والمرأة السوية تفخر برجولة زوجها وعقله الذي يتسع للجميع.

هل تخيلتم لو كان للمرأة ولاية التأديب على الرجل أو الهجر في المضجع كيف يكون الحال، بطريقة أخرى: هل تحب المرأة ذلك ويعجبها!

ومن هنا نفهم لماذا أكثر الشريعة من وصية الأزواج بتقوى الله في الآيات التي تتكلم عن حقوقهم وحقوق أهليهم، ومن هنا نستطيع القول للرجال: نشوزكم عن زوجاتكم وأهليكم أمر لا ترضيه الشريعة إن كان فيه ظلم، ونشوزكم فيه خطر عظيم على حياة الأسرة واستقرارها، فراقبوا أنفسكم وتعاهدوها.

رابعًا: صحيح أن الإسلام أعطى الزوج ولاية التأديب على زوجته الناشز، ولكن المتبع للآية وسياقها وكلام أهل العلم فيها يجد أن الشريعة قيدت حقوقه في ذلك بأحكام وضوابط لا يستهان بها، وارجعوا إلى تفسير الآية هنا في السورة لتروا شيئًا من ذلك.

خامسًا: الإصلاح الذي أعطاه الإسلام حقًا للمرأة مع الزوج الناشز ليس هو السبيل الوحيد لها، صحيح أن الإسلام أرشد إليه واستحبه، وهو في مآله للمرأة وليس عليها، ولكن الشريعة شرعت للزوجة الخلع إن كانت لا تقدر على إقامة حدود الله مع زوجها، وشرعت لها أن ترفع أمرها للقاضي إن كان هناك ما يستدعي ذلك من تجاوز لحدوده في ولايته على بيته، أو من تقصير في واجباته كما تقدم معنا.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ الإسلام جعل الطلاق آخر الحلول لأنه صعب على الجميع، ثم أرشد الزوجين إلى جملة من الأحكام الشرعية التي تحول دون وقوعه، ومن هذه الأحكام الصلح الذي ندب الشرع إليه واستحبّه، وهو ما يعني أن تبقى المرأة مع زوجها مع تنازلها عن شيء من حقوقها لئلا يكون ثمة ظلم، هذا خير لها وله وللأولاد من الطلاق، الوفاق أحب إلى الله من الطلاق. أخرج أبو داود وابن ماجه بسند ضعيف عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَبْغَضُ الْحَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ»، وانظروا إلى جمال الخطاب القرآني ووصية الله تعالى للأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

عبارة أخرى: رابطة الزوجية في دين الله تعالى عظيمة، سمّاها القرآن ميثاقاً غليظاً، ولعل غاية ما يريده الإسلام من الأسرة أن يكون الوفاء والإحسان شعاراً بين أهلها، وأن تكون الألفة والتسامح عنواً لا تتخلى عنه وإن حصل ما حصل، وبخلاف ذلك يكون الظلم والإثم وتعرض النفس لسخط الله تعالى وعقوبته.

الصلح معناه بقاء المودة والرحمة، معناه طيب النفس والرضا بما يحصل، معناه دفع حيل شياطين الإنس والجن وطرائقهم في الإفساد.

أيها الأزواج: تنازلوا عن شيء من حقوقكم، وليعذّر بعضكم بعضاً، ولا تنتظروا الكمال التام من الطرف الآخر، واصبروا على إيذاء من هنا وتقصير من هناك، ولا تغفلوا عن المقاصد العظمى للزوجية التي جعلها الله تعالى آية من آياته في الأرض.

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ هذا ما يمنع كثيراً من الأزواج من الصلح، وهذا ما يجعل أقارب الزوجين في كثير من الأحوال إذا حصل تدخلهم يعسرون في الصلح ولا ييسرون.

يكشف القرآن عن مكنونات النفس البشرية وحقيقة ما فيها، تلك النفس التي جُبلت على الشح، وهو البخل في بذل المال وعدم إنفاقه في وجوه الخير، هذا معناه في الأصل، ولكنه استعمل هنا بما هو أعم من ذلك، فهو يدل على حرص كل من الطرفين على الحق الذي له، والتحایل بطرائق شتى لتحصيل ما استطاع من الدراهم والدنانير وغير ذلك، بل قد يحصل الامتناع عن التنازل عن القليل فيحول بينهم وبين المصالحة المرجوة والمطلوبة.

تريد الزوجة زوجها لنفسها بالكامل وإن عجزت عن أداء حقوقه التي يشق عليه الاستغناء عن بعضها، والزوج يُمسك عنها ماله ولا يبذل لها من حسن الخلق وجمال الروح إلا القليل، ولا يتلطف بقلبها في كلماته.

وكان القرآن ينادي الأزواج ويحرضهم ويقول لهم: تخلصوا من شح النفوس هذا، وجاهدوا أنفسكم في مخالفتها، واستبدلوه بالبذل والعطاء والقناعة باليسير، استبدلوه بطيب النفس وحسن الخلق والتراحم؛ هذا ما يعينكم على الصلح وعلى حفظ النفس والأهل، هذا ما يسارع في شفاء قلوبكم من صعوبة الحدث وتفصيله. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النشر: ٩].

﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إذا اجتمع الإحسان والتقوى على الزوجين طابت حياتهما وإن حصل فيها شيء مما تبغضه هي أو يبغضه هو، فإن الخصومة إذا قامت وكان النشوز، ثم حضر الإحسان فإنهما يصبران ويستقيمان فيما يقولان ويفعلان، والتقوى تضبطهما عن تجاوز ما حده الشرع لهما.

حتى وإن وصل الأمر إلى الخلع أو الطلاق، فكذلك كونوا من أهل التقوى والإحسان في ذلك ولا تعتدوا.

ولا يقتصر الأمر بالإحسان والتقوى على الزوجين، بل هو مطلوب من قرابتهما ومن كل من اطلع على ما جرى بينهما، الآية تدعو الجميع إلى أن يكونوا محاضرين خيراً وعدلاً، وتذكرهم بأن الله تعالى يطلع على ما في قلوبهم من التقوى، ويطلع على إحسان جوارحهم من لسان ويد وقدم، إنه خبير بما يعملون وسيجزئهم على ذلك أوفر الجزاء وأحسنه.

أخيراً: انظروا كيف ربطت الآية إرشادها بالدار الآخرة، هذه حقيقة دارنا التي نعيشها، دار بلاء نسير فيها إلى الآخرة، وهناك يكون الحساب والجزاء.

ولعل في هذا إشارة إلى ضرورة أن يتحرى الواحد منا في قوله وفعله مع أهله، وأن ينظر فيما أذن به الشرع وفيما منع، وأن يحسن استعداده ليوم لا رجعة فيه.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا
كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩)

تتعلق هذه الآية بالزوج الذي جمع بين زوجتين فأكثر، وهي آية تشير إلى أمر قدري جعله الله تعالى في القلوب، ألا وهو تفاوت محبة الآخرين فيها، وفي بيان المسائل الوعظية والعلمية المتعلقة بالآية هنا أقول مستعيناً بالله تعالى:

١- هنا تخفيف من الله عَزَّجَلَّ عن الأزواج الذين جمعوا بين زوجتين أو أكثر، وذلك فيما يتعلق بالميل القلبي مما لا يملكه الزوج ولا يقدر على التحكم به، وهنا رفع للحرج والإثم عن الأزواج الذين لا يعدلون في الحُبِّ بين الزوجات، ثم هو بيان لعدم وجوب العدل الكامل وسقوطه في أحوال.

هذا التخفيف من الله تعالى ينتفع به أولئك الحريصون على تقوى الله واجتناب الوقوع في الظلم، ويعينهم على فهم ما يتحقق به العدل بين الزوجات، بل وتنتفع به الزوجات في فهم ما لهنَّ وما عليهنَّ اجتناباً للخصومة وما يتبعها من أحوال.

٢- صحيح أن النص القرآني يتكلم عن العدل في الميل القلبي، ولكن أهل العلم قاسوا عليه كل ما يشق على الزوج أن يعدل فيه، كالجماع ومقدماته وحصول الشهوة والهدية ونحو ذلك، فلا يجب العدل هنا وإن كان الأكمل أن يحرص الزوج عليه ما استطاع.

٣- صحيح أن الميل القلبي لا يملكه الزوج، ولكن هذا الميل لا يجوز للزوج أن يتخذه ذريعة إلى ظلم إحدى الزوجات أو إلحاق الأذى بها، فقد يعتمد بعض الأزواج إلى مصارحة إحداهن بأنه يحب غيرها أكثر منها، وقد يعتمد إهمال واحدة منهن ليُنقص قَدْرَها، وقد يؤذيها بالقول أمام الثانية لينال رضاها، وهذا كله من الظلم الذي لا يرضاه الشرع، فليحذر الأزواج من التساهل في ذلك، وليتَّقوا الله تعالى فيما يقولون، فَرُبَّ كلمة يستهين بها تهدم الكثير.

وقد حمل كثير من أهل العلم النص الشرعي الذي أذن بالكذب على الزوجة، على مسألة إظهار ما ليس في قلبه، فقد لا يحب الزوج زوجته كما هو حال بيوت متعددة، ولكنه مطلوب منه أن يبذل لها كلمات الحب ويخبرها بذلك إذا سألته، ومطلوب منه أن يحفظها ويحرص على أحاسيسها ومشاعرها، ويقدرها لاعتبارات أخرى لا يُستهان بها كالحرص على دوام العشرة، وتقدير رابطة الزوجية، ووجود الأولاد، وتقدير أهلها، واحترام صلاحها، وغير ذلك.

وكأنني هنا بوصية تحملها الآية إلى كل من أقبل على الزواج من ثانية أو أكثر، الوصية تريد منه أن يستحضر قيمة العدل بين الزوجات في شريعة رب العالمين، وأن يحرص عليه فيما اشترطه الشرع وبينه أهل العلم وفصلوا فيه، وأن يدرك أن الميل القلبي لا يسوغ له أن يظلم واحدة من زوجاته.

٤- قد يقول قائل: ولماذا يحب إحدى زوجتيه أكثر من الأخرى؟ وهذا سؤال لا يحتاج إلى طول إجابة فإنه قد استقر في النفوس أن الزوجة التي تسارع إلى رضا زوجها ليست كالبطيئة في ذلك، وخفيفة الروح وطيبة القلب ليست كغيرها، والحافظة لمال زوجها وسيرته ليست كالمهملة، والتي تحسن تربية أبنائها على الصدق والإحسان والرحمة ليست كمن تغرس فيهم البغضاء والعداوة.

٥- هذه واحدة من الآيات التي فرح بها أهل الجهل والهوى، وظنوا أنهم وجدوا ضالتهم بمنع الأزواج من التعدد التي أذنت به أوائل سورة النساء، فإن الآية هناك اشترطت العدل في بيانها لجواز تعدد الزوجات، وذكرت هنا أن العدل مستحيل، فقالوا: نجمع بين الآيتين بمنع التعدد خشية الوقوع في الظلم.

وهذا الفهم لم يقل به أحد من أهل العلم، وتمام الآية هنا لا يعينهم فيما يقولون لأن الله تعالى نهى عن الميل الكامل لإحداهن، فدل ذلك على جواز أن يكون عنده أكثر من واحدة.

وقد أجمع أهل العلم على أن العدل المذكور في أوائل سورة النساء في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ٣]، إنما هو في العدل الظاهري المقذور عليه، والذي يكون في الطعام والشراب والملبس والمبيت والمعاملة، وليس في الميل القلبي الذي تكلمت عنه الآية التي نشرحها هنا.

ثم إن هذا الفهم لا يستقيم مع هدي نبينا ﷺ وأصحابه الذين عدّدوا في زواجهم، وهم أهل التقوى والعدل، وقد كان ﷺ يدعو بدعاء نوفق فيه بين آيتي سورة النساء، فقد أخرج أحمد وأصحاب السنن بسند فيه كلام، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمِني فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ». والمقصود: فلا تَلْمِني في الميل القلبي الذي هو بيد الله عزَّ وجلَّ.

أخيراً: معلوم لديكم أن العدل بين الأبناء مطلوب، فهل يمكن لأحدنا أن يحققه حتى في الميل القلبي، والجواب أنه لا يمكن، فهل يلزم منه أن ننادي بعدم الإنجاب خشية الوقوع في الظلم، وقيسوا على ذلك من يلزمنا أن نعدل بينهم كالعدل مع الإخوة والأخوات، وكعدل المعلم مع طلابه، والمدير مع موظفيه، وغير ذلك.

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ ﴿١﴾ أيها الأزواج: لا تبالغوا في الميل إلى إحدى زوجاتكم، فتركوا غيرها معلقة، يعني: يتركها الزوج حائرة في أمر نفسها، فلا هو يعاملها معاملة الزوجة القائمة على الاحترام والتقدير وبذل ما يسعد قلبها، ولا يطلقها لتنظر في أمر نفسها وتكمل حياتها مع غيره.

أيها الأزواج: صحيح أن الشرع أذن لكم بالجمع بين أكثر من زوجة، ولكن احذروا الظلم في ذلك ولا تستهينوا به، واحذروا التضييق على إحدى الزوجات والميل عنها، واحذروا هجرانها بالكامل وإهمال عيالها وعدم إعطائها حقها من العشرة التي تعطيها لغيرها، فإن هذا من الميل الذي لا يرضاه الله سبحانه وتعالى.

واعلموا أن هذا النوع من الظلم قد اختصه الشرع بعقوبة في أرض المحشر لا تكون لغيره، وذلك فيما أخرجه الترمذي وأبو داود واللفظ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَمْرَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشَقُّهُ مَائِلٌ».

ثم تذكروا كيف يكون حال من عاش في الظلم من الأزواج والعيال؟ واستحضروا صعوبة الأمر على الزوجات وقلوبهن مما لا يُطاق أحياناً، ألسنا نحن من يصنع العقوق وكثرة الأذى بين أبناء العائلة الواحدة إذا لم نعدل؟ ألسنا من يساهم في تشتيت الأسرة وتضييع أفرادها؟ احفظوا قلوب أزواجكم وأبنائكم، وَأَعِينُوهُمْ عَلَى طَاعَتِكُمْ وَبِرِّكُمْ.

أيها الأزواج: ليس صحيحاً أن يؤثر ما في قلوبكم على العدل المأمور به، وهذا ما نجده عند كثير من الأزواج الذين لا يعدلون في النفقة والمبيت لغلبة هواهم، وحرصهم على إرضاء واحدة من الزوجات على حساب غيرها.

نداء أخير هنا للزوجات والأبناء، أرجوهم أن يتنبهوا إليه ويفقهوه: إذا قَصَّرَ الزوج معكم وخالف شيئاً من الوصايا التي جاءت في كتاب ربنا، فلا تظنوا أن تقصيره يُبيح لكم عقوقه والاعتداء على حقوقه، أو يبيح لكم أن تذهبوا إلى طرائق الحرام لتغطية النقص الذي حصل في حياتكم.

الزوج يبقى زوجاً وله قدره ومقامه الرفيع في الشرع، ورضاه طريق من طرق الجنان لا يخفى على أمثالكن، والوالد يبقى والدًا وإن تلاعبت به الأهواء والرغبات، ورضاه مقرون بتوحيد الله تعالى في الآيات، وسخطه على الأبناء صعبٌ فلا تُهملوا شيئاً من واجباتكم، ولا تقصروا في برِّه، ذلكم خير لكم يحفظكم ربي.

﴿وَأِنْ تَصَلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الإصلاح في الأهل مطلوب، ولولاها لاضطربت أحوال كثير من البيوت، ويكون بتمام الرعاية للأهل، وبالعدل في القسمة بين الزوجات والأولاد، ويكون بمجاهدة النفس في الإحسان وحُسن المعاشرة.

ما أرقاه من إصلاح لما تكون التقوى هي التي تُسيِّره وتضبط أحواله، التقوى أن تراقب الله تعالى فيما تفعل، وأن تستحضر الموقف بين يديه، ترجو في كل ذلك الجنة وتخشى من النار.

التقوى أن لا تُقبل على الزواج من الثانية لمجرد الانتقام من الأولى وإلحاق الضرر بها وبأهلها، وأن لا تُصِفَ واحدة من زوجاتك بما ليس فيها لتُظهر أمام الناس بمظهر الضحية، التقوى أن تتوب عن ظلمك إن كان من قبل، وتُحَسِّنَ فيما تبقى من العمر والعمل.

تدعوكم الآية إلى الإصلاح في الزوجات وتقوى الله فيهن، فإنه من جمع بين الإصلاح والتقوى غفر الله له على ما كان منه من تقصير في حق نسائه، ورحمه الله برحمته الواسعة كما رحم هو أهل بيته، هذه الرحمة التي من نالها؛ ما أراد شيئاً بعدها.

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠)

خبرٌ عظيم من ربِّ عظيم نفزع إليه إذا حصلت الفارقة بين الزوجين، نفزع إليه لأن الطلاق يكسر قلب المرأة، ويُتعب قلب الرجل، ويفتح عليهما أبواباً من الهموم والغموم قد تطول وقد تقصر.

الفراق بين الزوجين حل من الحلول التي تصلح في أحوال بعينها، والشرع أذن به وجعله آخر الحلول لصعوبته التي لا تخفى.

أرشد الشرع إلى حسن اختيار الزوجين وأعطى معالم هذا الاختيار، ثم بيّن الحقوق والواجبات بينهما واستطرد في ذلك، ثم بيّن ما للزوج أن يفعله مع زوجته الناشز، وما للزوجة أن تفعله مع زوجها الناشز، ثم أرشد إلى الحكيمين للإصلاح وترتيب ما يمكن تربيته، ثم إذا أغلقت الأبواب وأصبح الشرُّ عظيمًا في اجتماعهما، أو لحق الضرر الذي لا يُحتمل بأحدهما، فالفرقة بطلاق أو خُلْع أو فُسْخ هي التي تعلق كلمتها في مثل هذا المقام، وهي التسريح الذي أراد الشرع أن يكون بإحسان.

يأتي الخبر الذي يحمل خطابًا وتوجيهًا ونداءً لصنف من الناس ابتلوا بالفارقة بينهم وبين نصفهم الآخر: يا من حيل بينكم وبين دوام العشرة الزوجية، يا من بذلتم وتنازلتم وصبرتم ثم لم يُكتب لكم أن تبقوا في بيت واحد وتحت سقف واحد، يا من غلب على ظنكم أن ضَرَرَ بقائكم مع بعضكم أعظم من ضرر الفراق: اعلموا أن فضل الله تعالى واسع وعظيم، وأن إحسانه لن ينقطع عنكما، وقد تكفَّل سبحانه لكل من سلَّم أمره إليه صادقًا أن يغنيه وأن يعوضه خيرًا، وفراقكم هذا وإن كان مُحْزَنًا لكنه يَهْوَن مع تَذَكُّر أن الدنيا دارٌ بلاء، وأن الله تعالى سيكرم الصابرين.

سيغني الله تعالى من كانوا زوجين من فضله، سيغني الزوجة بمن يفهمها ويحتويها ويكون لها خير معين، وينسجم معها ومع طريقة تفكيرها، وسيغني الزوج بامرأة هَيَّئَةٍ لَيِّنَةٍ تَقْدِرُ له قَدْرَهُ، وتعطيه بلا انقطاع ولا مَنَّة، سيغني الله كلاً منهما عن الآخر.

وإغناء الله تعالى للزوجين لا يقتصر على ذلك فإنه قد لا يحصل ما ذكرناه، ولكنه يمتد إلى الربط على قلوبهما، وإنزال السكينة والرضا عليهما، وتصبيرهما على ما كان من فراق.

قلت: ومن إغناء الله تعالى لهما الإغناء في فهم الحياة وإعادة طريقة التفكير في عدد من الأحوال والمسائل، وأعني بذلك: أن المتتبع لما يحصل بين الزوجين يجد أن عدم فهم كل منهما لطبائع الذكورة والأنوثة وما يكون عليه حال الأزواج مع بعضهما هو سبب الطلاق

الحقيقي، ويجد كذلك أن الزوج الذي طلق زوجته وتزوج من ثانية عرف أن طبائع النساء تتشابه كثيراً، وأن كثيراً من الخلل كان في إدارته ونُضجه الاجتماعي.

وكذلك الحال مع الزوجة، فإنها قد تبحث عند الرجال عن شيء لم تجده في زوجها، ولكنها تتفاجأ بعد حصول الطلاق وزواجها من آخر أن المشكلة كانت في طريقة تفكيرها.

أقول: يليق بالأزواج أن ينظروا في حقيقة الطرف الآخر وطرائق تفكيره، يجدر بهم أن يقرؤوا في آيات القرآن المتعلقة بالحياة الزوجية، وأن يعيشوا مع سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام العطرة مع أزواجه، أزعم أن كثيراً من الأشياء ستتغير، أولها وأهمها: الإمساك بمفاتيح الفهم والدراية والاستقرار في الحياة الأسرية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ لا يستغني أحد منا عن واسع فضل العظيم الكريم، ولا يسعد أحداً إلا بتسليم أمره إلى الحكيم فيما شرعه وأمر به ونهى عنه.

ما أعطانا ربنا إلا لحكمة، وما منعنا إلا لحكمة، وهذه الحكمة قد تظهر لنا قريباً، وقد تخفى في علم الله وأقداره.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣١)

تذكير للعبد بقدرة الله تعالى على إغنائه ليطمئن قلبه ويثبت اليقين فيه، تذكير يقوم على ما علمته النفوس وعاشته البصائر الطيبة، تذكير يُرجى منه أن ينتفع أهل القرآن بوصية الله لهم فيما سبق، وكذلك بوصية الله تعالى الآتية، تذكير بأن خالق السماوات والأرض ومالكهما ومدبر أمرهما، وأن الحاكم والقاضي فيهما هو الله سبحانه، لا شريك له في ملكه ولا معين، ولم يتخذ ولداً ولا صاحبة، المُلْكُ مُلْكُهُ والخَلْقُ عَيْدُهُ.

والواحد منا إذا علم ذلك ولم يغفل قلبه عنه، استجاب لوصية الله تعالى في الأولين والآخرين، وسارع فيها وإليها، وهي قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ مَا أَجْمَلَهَا مِنْ وَصِيَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، أوصى بها أصحاب القلوب الطيبة من أهل الكتب السماوية، تأملوها

كيف تربطنا بالتوحيد للرب العظيم، وتخبرنا بأنها دينُ الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، بل هي دين الخليفة منذ كانت.

الوصية تنادي علينا بأن لا نشرك بالله شيئاً، وألا نرجو أو نخاف غيره، وأن نجعل بيننا وبين الشهوات سداً وحاجزاً، وأن نعبد الله تعالى مخلصين له الدين على طريق نبيه ﷺ، وهديهِ، وأن نقيم أوامره وشريعته في الأرض على الوجه الذي يُحبُّ.

الوصية بتقوى الله تعالى عليها مدار كثير من آيات الله تعالى، بل لعلها الغاية العظمى من كل عقيدة نزلت أو حكم شرعي أتنا أو خُلِق جاء الأمر به، ولا تكاد تجد وصية أجمع منها، ولا وصية تكررت في كتاب الله مثلاً.

أخرج أحمد والترمذي بسند حسن غير واحد من أهل العلم عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

﴿وَأِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أما من اختار طريق الكفر والشرك ولم يتق الله تعالى، ولم يعظم خالق السماوات والأرض، ولم يتقاده لحكمه وأمره، فإنه الخاسر الأول والأخير ولن يضر الله شيئاً، ولن ينقص من ملكه وملكوته شيئاً. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

ربنا جل وعلا غنيٌّ عن العالمين جميعاً، وجميع ما شرعه لهم وقدره في خلقهم إنما هو لصلاحهم وفلاحهم، وهم مفتقرون إليه في كل أحوالهم.

وربنا حميد مستحق للحمد والثناء والإكرام، وهو حميد في جميع ما يقدره ويشعره، أي: محمود في ذلك، سواء حمده الحامدون وأطاعوه، أم كفروا به وعصوه.

أخرج مسلم في حديث عجيب عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ

وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَنْتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُنُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُنُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١٣٢)

لا تَغْفُلُوا عَنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ فَإِنَّهَا طَرِيقُ هِدَايَتِكُمْ وَنَجَاتِكُمْ، وَلَا تُسَلِّمُوا أَمْرَكُمْ لغير من بيده النفع والضّر، وتوكلوا عليه فإنه القائم على تدبير الأشياء على وجه الحكمة، وإنه مَنْ أَحْسَنَ التوكل عليه أَسْعَدَهُ وَكَفَاهُ حَاجَتَهُ.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٣)

واحدة من آيات الاستبدال في القرآن العظيم، وهي آيات تحمل وعيدًا يذكرنا بغاية خلقنا، وتريد منا أن نقيم دين الله تعالى في أنفسنا وفيمن حولنا وفي الأرض جميعًا، وتدعونا إلى الدفاع عن عقيدة الإسلام وإقامة العبودية والتوحيد في الناس، وإلا فلا قيمة لبقائنا على هذه الدنيا، وقد جرت سنة الله تعالى فيمن تخلفوا عن نصرة الدين أن يستبدلهم ليقوم بقائمة هذا الدين غيرهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١١) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ [إبراهيم: ١٩-٢٠]، وقال سبحانه: ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

أكثر من ألف وأربعمائة سنة والله تعالى يصطفي لهذا الدين من يقوم به ويحمّله، ومن يبذل الغالي والنفيس من أجله، من شتى بقاع الأرض وألوانها وأجناسها، قام بهذا الدين أقوام من الأحرار والعبيد، ومن العرب والعجم، ومن الكبار والصغار، ومن الرجال والنساء، ولا زالت راية الحق ماضية فينا وبيننا حتى تكون أو يأذن الله تعالى بأمره وَقَدَرِهِ.

ولقد أخبرنا ﷺ أن القيامة إنما تقوم على شرار الخلق، وأن الساعة لا تقوم حتى لا يقال في الأرض: الله الله، يعني: لا يبقى من أهل التوحيد أحد.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

الذين تركوا طريق التقوى واختاروا طريق الكفر وساروا فيه، ونصبوا راية العدا للتحديد وأهله، والذين غفلوا عن الدعوة إلى الله تعالى في الأرض وتركوا فرائض شريعتهم، والذين تسابقوا في فعل الحرام وركنوا إلى أهل الظلم، هؤلاء جميعاً أرادوا من ذلك أن يصلوا إلى الراحة والغنى والتحرر من القيود المزعومة.

وقد ظنوا أنهم حازوا الدنيا لما رأوا رزق الله يأتيهم وهم مقيمون على الكفر والفسق، وظنوا أن الله تعالى راضٍ عن أعمالهم، وما درّوا أن الله تعالى يعطيهم شيئاً من لذائذ الدنيا استدراجاً، حتى إذا أذن بعقوبتهم ساء صباحهم ومساؤهم.

يا كل هؤلاء: اجعلوا همّتكم للآخرة كيفكم الله رزق الدنيا والآخرة، ويعطيكم ثواب الدارين، ويحييكم حياة طيبة في أنفسكم وأهليكم وصحتكم وأموالكم، ثم يكرمكم بجنته التي تتزين كل يوم لكم تنتظر تشريفكم فيها. قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

يا أهل الإيمان: اصبروا على دنياكم هذه، وخذوا حظكم منها بما أحل الله، ولا تلهكم عن آخرتكم، واعلموا أن السعيد منكم من نال ثواب الدنيا بالطاعة، ونال ثواب الآخرة بالجزاء.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ الله تعالى يسمع أقوالنا ومناجاتنا، وهو بصير بجميع حالنا، الظاهر منه والباطن، وهو يعلم من يراقبه ويخشاه بالغيب ممن غفل عنه وعن ذكره وطاعته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ
الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ
أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٥)

ليس سهلاً على المرء أن يكون من أهل العدل الذين يقفون مع الحق أينما كان، ويبدلون
من أجله ما استطاعوا، أو أن يتجرد في شهادته في الحقوق والواجبات ويجعلها خالصة لله
تعالى، أو أن يخالف هواه في ذلك ولا يذهب يميناً أو شمالاً.

هنا نداء من الله تعالى لأهل الإيمان الذين يسارعون في الاستجابة لأمر الله تعالى، والذين
أيقنوا أن بعد الموت بعث وحساب وقضاء بين الخلق جميعاً، ثم جنة أو نار.

نداء فيه صلاح المجتمعات، وضمان لأمنها وقوتها، وحمايتها من الفساد والمفسدين
وتخريبهم للبلاد والعباد، نداء تدرك به أن هذا الدين حضاري لا يصلح غيره ليحكم في الأرض.

هنا أمر من الله تعالى لأهل الإيمان بأن يكونوا قوامين بالقسط، أي: بالعدل، وهو أن
نعطي الحق لصاحبه، وأن نقوم على ذلك بكلامنا وأفعالنا وشهادتنا إذا دُعينا إليها، لا تأخذنا
فيه لومة لائم ولا يصرفنا عنه صارف، حتى وإن كان ضرر الشهادة بالحق يرجع علينا أو على
والدينا أو على قرابتنا.

كونوا قوامين بالعدل في عبوديتكم فلا تصرفوها إلا لله، وكونوا قوامين بالعدل في أقوالكم
وأفعالكم مع غيركم فلا تعتدوا على الأنفس بغير حق، ولا تأخذوا مالا ليس لكم، ولا تقربوا
الأعراض، ولا تعينوا غيركم على ذلك وإن كانوا أقرب الناس إليكم.

يا أهل الإيمان: كونوا قَوَّامِينَ في ذلك لا قَائِمِينَ، والقَوَّام صيغة مبالغة تحمل تَهْيِيجًا
للمستمعين لِيَلْزَمُوا هذا الطريق في جميع أحوالهم ولا يتركوه، وَلِيَقْصِدُوا الحق ولا يعدلوا
عنه، وَلِيَكُونُوا قَوَّامِينَ على الدوام، يعدلون المرة بعد المرة، وَلِيَكُنْ ذلك طبعاً لهم، وسجيةً في
خُلُقِهِمْ وعبوديتهم؛ هذا خير لهم عند خالقهم ورازقهم ومُدَبِّرَ أمرهم.

وانظروا في قول الله: ﴿شُهَدَاءَ لِلّٰهِ﴾، أي: احرصوا على أن تكون شهادتكم خالصة لوجه
الله حتى تكون صحيحة مقبولة عنده سبحانه، وحتى تنالوا الأجر العظيم والثواب الكبير، إياكم
وطلب السُّمعة والرياء في ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلّٰهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال سبحانه:
﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣].

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ عَجِيبَ هَذَا التَّوَجِيهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَكَأَنَّهُ يُطَلَّبُ مِنْهُمْ أَنْ يَنْتَصِرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَسْتَسْلِمُوا لِرَغْبَاتِهِمْ وَمَا يَشْتَهُونَهُ، أَشْهَدُوا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَلَوْ عَادَ ضَرَرُ هَذِهِ الشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَوْ تَرْتَبَ عَلَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ التَّزَامُ بِحُقُوقٍ كَبِيرَةٍ وَكَانَ فِي ذَلِكَ ضَرَرٌ عَلَيْكُمْ، تَذَكَّرُوا أَنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَكُمْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَسَيَعُوْضُكُمْ خَيْرًا عَلَى صِدْقِكُمْ وَتَحْرِيرِكُمْ لِمَا يُرْضِيهِ.

﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ مَا أَصْعَبَهَا يَوْمَ تَكُونُ الشَّهَادَةُ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْوَالِدَيْنِ أَوْ تَكُونُ عَلَى الْقَرَابَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ تَرَبَّعَ حُبُّهُمْ فِي قُلُوبِ أَبْنَاءِ مَجْتَمَعَاتِنَا، وَيَكَادُ الْوَاحِدُ مِنَّا أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا.

وَلَعَلَّكُمْ رَأَيْتُمْ أَصْنَافًا مِنَ النَّاسِ يَشْهَدُونَ مَعَ قَرَابَتِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَيُظَنُّونَ أَنَّ الْإِمْتِنَاعَ عَنْ ذَلِكَ تَقْصِيرٌ مِنْهُمْ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ وَعَيْبٌ فِي حَقِّهِمْ.

النَّدَاءُ الرَّبَّانِي يُخَصِّمُ بِالذِّكْرِ، وَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَرَاعُوا أَمْرَ الشَّهَادَةِ وَلَا يَشْهَدُوا بِالزُّورِ وَالْبَاطِلِ مَعَ أَهْلِيهِمْ وَقَرَابَتِهِمْ إِنْ كَانُوا مُعْتَدِينَ وَظَالِمِينَ، وَأَنْ لَا تَأْخُذَتْهُمْ الْحَمِيَّةُ اتِّجَاهَ آبَائِهِمْ فَيَقْفُوا مَعَ الْبَاطِلِ وَيَنْصَرُوهُ، وَأَنْ لَا يَحْرِفُوا أَوْ يَبْدُلُوا فِي كَلَامِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ فِي حُقُوقِ النَّاسِ.

النَّدَاءُ الرَّبَّانِي يَقُولُ لَهُمْ: دُورُوا مَعَ الْحَقِّ، وَاشْهَدُوا بِمَا يُرْضِي خَالِقَكُمْ وَضَمَائِرَكُمْ وَإِنْ لِحَقِّكُمْ ضَرَرٌ بِذَلِكَ، وَإِنْ سَخَطَ قَرَابَتَكُمْ عَلَيْكُمْ؛ هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ وَلَهُمْ، وَطَاعَةُ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وَلَا تَظُنُّوا أَنَّ الْوُقُوفَ مَعَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ فِيهِ عَقُوقٌ لِلْوَالِدَيْنِ أَوْ قَطِيعَةٌ لِلرَّحِمِ، بَلْ هُوَ عَيْنُ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، فَإِنَّا نَعِينُ أَهْلِينَ ظَالِمِينَ وَمُظْلُومِينَ، فَإِنْ كَانُوا مُظْلُومِينَ وَقَفْنَا مَعَهُمْ لِنُدْفِعَ الظُّلْمَ عَنْهُمْ، وَإِنْ كَانُوا ظَالِمِينَ أَغْرَقْنَاهُمْ بِالنَّصْحِ وَالتَّذْكِيرِ حَتَّى يَرْجِعُوا عَنْ غِيَّهِمْ وَغَفَلَتِهِمْ.

وَهُنَا مَسْأَلَةٌ لَا تَفُوتُنَا: قَدْ تَأْخُذُ أَهْلِينَا وَقَرَابَتَنَا الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فِي أَوْقَاتٍ مَا، وَقَدْ يَضِيقُ أَفْقَهُمْ وَيُحَاصِرُ تَفَكُّيرُهُمْ فَيَقْبَلُونَ الْحَقَّ بَاطِلًا، وَيَعْتَدُونَ عَلَى حُقُوقِ غَيْرِهِمْ وَيُلْبَسُونَ قُبْحَ فِعْلِهِمْ ثَوْبَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَالْحَرَصِ عَلَى الْمَصْلَحَةِ، يَعْنِي: يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ وَحَرِيصُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ.

وَهُنَا يَظْهَرُ تَعَاوُذُ أَهْلِ الْخَيْرِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَيَعْلُو صَوْتُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، فَيَنْطَلِقُونَ بِالنَّصْحِ وَالْإِشَادِ وَالتَّذْكِيرِ، وَيَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ إِنْ لَزِمَ الْأَمْرُ لِيَكُونُوا عَوْنًا لِأَهْلِيهِمْ وَقَرَابَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَشَيْطَانِهِمْ، شَيْطَانِهِمُ الَّذِي سَوَّلَ لَهُمْ وَلَبَّسَ عَلَيْهِمْ وَأَغْوَاهُمْ.

ربما ينالك غضبهم أول الأمر، وربما تلقى شيئاً من الضرر والأذى، ولكنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنك أصدق الناس معهم، وأنت أحرصٌ عليهم من الغير، وأنت تسعى بشهادتك بالحق أن تقتديهم من سخط الله وعذابه، ثم ما يلبثون إلا أن يستيقظ فيهم الخير العظيم ويتوبوا من سقطتهم تلك، ويرفعوك بينهم تقديراً وتوقيراً.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلَلَهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ ﴿الغني﴾
قد نراعيه في شهادتنا طمعاً فيما عنده من المال، والغريب الفقير قد نراعيه في شهادتنا إشفافاً عليه، ومن هنا تبدأ منظومة الفساد والإفساد والظلم والعدوان، تبدأ من الشفقة التي تضر ولا تنفع، تبدأ من وضع الحرام في قالب الطاعة، وتزيين الباطل في قالب الإحسان. قال الله تعالى: ﴿أَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ۖ فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

القرآن لا يريدنا أن نكون طلاب دنيا، أو نجعل مشاعرنا وأحاسيسنا هي الحكم فيما يلزمنا من حقوق، أو أن نغترّ بالمظاهر ونتبع الهوى، ولكن القرآن هنا يُذكرنا بعقيدة نعلمها جيداً، ألا وهي أن الله تعالى أَوْلَىٰ بهما، أي: بالغني والفقير، وأنه هو الذي يتولى أمرهما ويعلم ما فيه صلاحهما، الله أَوْلَىٰ بالفقير وسيُعينه، وأَوْلَىٰ بالغني وسيُدبّر له أمره بعلمه وحكمته، ولسنا أرحم بهما من شرع الله الذي هو أَوْلَىٰ بالحكم فيهما أولاً وآخرًا.

ولذلك: لا تعدلوا عن طريق الاستقامة في الشهادة تحت أعذارٍ ظاهرها الخير، ولكنها في حقيقتها من حيل الشيطان ومكره بكم، ولا تَتَّبِعُوا أهواءكم في الشهادة بالباطل وتغيب الحق والعدل.

بطريقة أخرى: الضعيف ليس دائماً مظلوماً والقوي ليس دائماً ظالماً، والفقير ليس دائماً صاحب حق والغني ليس دائماً معتدياً، فقد يعتدي الفقير على الغني، ويظلم الضعيف القوي، وقد يحمل الفقير الضعيف من خُبث الطباع وفساد الأخلاق ما لا يحمله القوي الغني، والعبرة بتتبع البيئات وقرائن الأحوال، ثم الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ.

﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿تَلَوْتُمْ﴾ مأخوذة من اللَّيِّ، وهو التحريف وتعمُّد الكذب، والمقصود: وإن تُحرِّفوا في شهادتكم وتكذبوا من أجل أنفسكم، أو من أجل غيركم ممن تحبون، فإن الله خبير بفعلتكم هذه، ومحيط بنيتكم وشهادتكم وقضائكم، وسيحاسبكم على ذلك أشد الحساب.

وهذا الوعيد سيكون لكم كذلك إن أعرضتم عن أداء الشهادة ورفضتم أدائها وكتمت ما فيها ومأطَلْتُمْ، وهذا إنما يكون حال ضياع الحقوق بانعدام الشهادة وعدم وجود آخرين يشهدون.

كتمان شهادة الحق إصرارٌ قلبي على المعصية، وفيه خبث لا يخفى، وصاحبه عرض نفسه للإثم العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

والأصل في أداء الشهادة أنه فرض على الكفاية إلا إذا لم يكن غيره، فيلزمه ذلك، ويأثم بتركها ما لم يكن ثمة مضرّة على الشاهد في بدنه أو أهله أو ماله.

وقد أخرج مسلم عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؛ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا». وهذا يدلُّ على استحباب أن يبادر إلى الشهادة من عِلْمٍ أن شهادته يترتب عليها إرجاع الحق إلى صاحبه، وثبوته له، ولم يكن ثمة غيره، بخلاف ما لو كان شاهد زور شهد على ما لا يعلمه، أو نصب نفسه للشهادة وهو ليس من أهلها، فعليه يُحمل ما أخرجه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَخْلَفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا».

ومن أهل العلم من جمع بين الحديثين بأنَّ المحمود في الشهادة فيما إذا كانت في حقوق الله، بخلاف حقوق العباد، فتقديم الشهادة فيها قبل أن يُسألها المكلف مذمومٌ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٣٦)

صحيح أن الله تعالى هدانا للإسلام، وشرح صدورنا لتكون من أهل التقوى والصلاة والإيمان، ولكن الواحد منا يحتاج إلى ثبات على هذا الطريق، ويحتاج إلى أن يرتقي فيه ويزداد إيمانًا، وقلوبنا تريد من يتعاهدُها بالموعدة ويذكرُها وإن كانت مؤمنة.

تأملوا كيف ندعو الله تعالى في كل ركعة من ركعات الصلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، مع أننا مهتدون والحمد لله، ولكن دعوتنا بالهداية في الصلاة تعني أننا نسأل الله أن يسد لنا في أفعالنا وأقوالنا لتكون مرضية عنده، ثم يزيدنا من هداة ويوفقنا للثبات على الصراط المستقيم فلا نزل ولا نضل.

هنا في الآيات نداء من الله تعالى للذين آمنوا بأن يؤمنوا، أي: اثبتوا على إيمانكم بالله تعالى إلهًا واحدًا، واثبتوا على إيمانكم بمحمد ﷺ رسولًا من عند الله يعلمكم أمر دينكم، واثبتوا على إيمانكم بالقرآن الذي نزل على رسوله، وعلى إيمانكم بالكتب السماوية التي أخبرنا القرآن وأخبرتنا السنة أنها نزلت من عند الله تعالى على أنبيائه من قبل كالطورا والإنجيل وغيرهما.

يا أهل الإيمان: لا تختاروا طريقاً غير طريقكم هذا، واستعينوا بالله في ثباتكم عليه، ولا تُؤثروا طريق أهل الدنيا على طريق أهل الآخرة، وتغلبوا على المعوقات بالعلم والصدق والصبر حتى تلقوا ربكم وأنتم على خير. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يا خسارة من كفر بركن من أركان عقيدته ولم يؤمن به، ويا خسارة من أنكر وجود الله أو اتخذ معه شريكاً، أو أنكر أن ثمة ملائكة لها صفاتها وواجباتها، أو فرّق بين رسول ورسول، أو فرّق بين كتاب وكتاب، أو كفر باليوم الذي سيقف فيه الناس بين يدي خالقهم للحساب، فإن الذي يكفر بما ذكرت الآية ضالٌّ، وهو بعيدٌ عن طريق الإيمان والهدى، وجزاؤه عند الله عظيم.

قال الله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَآمَنَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وسيأتي معنا قول الله تعالى هنا في السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٧٧)

لا يُستغرب دخول أحدهم في الإسلام ثم رجوعه عنه، فالنفس البشرية يعتربها من الأمراض الكثير، وقد يمتنع دخول الإيمان إليها بسبب طغيانها، أو اتباعها للهوى، أو إفساد غيرها لها.

هنا وصف لأقوام من الناس يتقلبون بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، والإبصار والعمى، حتى ينتهي الحال بهم إلى أن يموتوا على الكفر والضلال والعمى بعد أن يوغلوا فيه قولاً وعملاً.

وذكرُ ازديادهم من الكفر دليل على أنهم ارتَضَوْا لأنفسهم ذلك حتى ماتوا، ولو أنهم تابوا من كفرهم ورجعوا إلى الإسلام قبل موتهم لتاب الله عليهم، وقَبِلَ منهم إيمانهم وإن تكرر خروجهم منه ودخولهم فيه فإن الله سبحانه واسع المغفرة، ويقبل التوبة من عباده ويحبُّها ويفرحُ بها، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وكما

في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي بسند حسن بعض أهل العلم، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرِغْ». أي: ما لم تبلغ روحه الحلقوم وتخرج من الجسد.

تخبرنا الآية عن عقوبة الله تعالى في الدنيا والآخرة لمن اختار هذا الطريق، عقوبته في الدنيا أن يختم الله على قلبه، وأن يحول بينه وبين الهداية، ثم يوم القيامة يحرمه من النجاة والغفران. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال سبحانه: ﴿وَنَقَلْبُ أَفْعَدَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقد ذكر لنا القرآن أن اليهود كان منهم منافقون، وأنه كانت لهم حيل في صد المسلمين عن دينهم، منها أنهم يأتون أول النهار إلى مجالس المسلمين فيطهرون إسلامهم، ثم يأتون آخر النهار يعلنون ردتهم، ويتكرر ذلك منهم ليقذفوا الوهن والضعف في قلب من يراقب حالهم ويحضره. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وكان من حيل أهل النفاق كذلك ما ذكره كتاب ربنا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

صحيح أن حالات الردة في ديننا قليلة، ولكنها تحتاج من الغيورين على أبناء الإسلام الذين آتاهم الله شيئاً من القيادة والعلم أن يقوموا بواجبهم في تحصين العقول والقلوب، وأن يأخذوا على محمل الجد قرب عدوهم منهم، فنحن نعيش في زمن احتضنت فيه قنوات الإلحاد والردة والتنصير عدداً من أبنائنا، تدعوهم إلى ترك الدين، وتبعث في قلوبهم الشك بكل ما حولهم، وقد صادف كلامهم قلوباً خاوية على عروشها من العلم والتقوى، فتأثرت بما يقولون.

ولقائل أن يقول: أين يكون الخلل في مثل هذه النفوس التي تؤمن ثم ترجع إلى الكفر، ثم تؤمن ثم ترجع إلى الكفر؟ والجواب أن صنفاً منهم أراد بإسلامه أن يحقق دمه فقط، أو يأخذ من الغنائم أو من بيت المال، أو دخل في ديننا لتحصيل منفعة دنيوية خالصة كالزواج من مسلمة أو الوصول إلى أخبار أهل الإسلام.

وصنف آخر قد يعرض له في حياته وخلطته مع الآخرين ما يفسد عليه عقله فيضل، فمن ذلك: أن يُبتلى بلاءً صعباً ولا يصبر، ثم ينسى فضل الله عليه ويُنكر، ثم ينسلخ من إيمانه وتوحيده للرب جل وعلا اعتراضاً على بلائه.

أو قد تُفتح عليه الدنيا ويطيش عقله معها، تُفتح عليه بالمال والشَّهرة، ويترك دينه وراء ظهره جاحداً له، ليصل إلى ما يطلبه منه أسياده طمعاً فيما عندهم.

أو قد يُذهله ما وصل إليه أهل الكفر من الحضارة المادية والعلم، ويظنُّ أن القصور فينا كان بسبب ديننا، فيتركه ويهجُرُه.

أو قد لا يعرف عن دينه إلا القليل، ثم تعرض له شبهات تتعلق بالخالق وبالقرآن وبالتشريع فتصادفُ فراغاً موجوداً في قلبه وتؤثر، حتى تحولَ بينه وبين إيمانه.

والمرتدون الذين يُبارزون بردتهم ويُظهرونها، لهم ضرر على قلوب غيرهم من ضعيفي الإيمان لا يخفى، وقد يُشكِّل بعضهم إذا فُسح المجال له خطراً على هيبة الإسلام وهيمته، ولذلك ألزمت الشريعة وليَّ الأمر أن يقيم عقوبة حدِّ الرِّدة على أمثال هؤلاء، يقيّمها بشروطها وضوابطها التي أبدع أهل العلم في كتب الفقه والعقيدة ببيانها.

عقوبة المرتد أن يُقطع عنقه، فإنه قد ارتكب أعظم الذنوب، واستخف بعظمة الله تعالى، واعتدى على ربوبيته وألوهيته.

والآية وإن جاءت تحمل وعيداً لمن تقلب بين الكفر والإسلام، إلا أنها تحمل موعظة لمن يكثرون من التقلب بين المعاصي وبين الطاعات، ولا يصدّقون الله تعالى في التوبة منها، فإنه يُخشى على قلوبهم أن تأنس إلى المعاصي، وتُقبض الأرواح عليها.

بل تحمل موعظة لأولئك الشباب والفتيات الذين تربوا على القرآن وحفظوه ثم لم يعتنوا به، ومنهم من تربى في المساجد ثم هجرها، ومنهم من كانت تتقرب إلى ربها بسترها وحيائها ثم تخلت عنهما.

وكأن الآية تنادي عليهم وتقول لهم: لا تأمنوا مكر الله، وسارعوا في رجوعكم إلى سابق عهدكم فإنَّ الأمر يسيرٌ على من يسره الله عليه، واعلموا أن مفتاحكم إلى ذلك الصدق مع الله.

وهنا: نستحضر أن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، وأن الهداية لا تكون إلا بإذنه، وأن العبد الموفق هو الذي يفرُّ إلى الله تعالى إذا عصف بهذا القلب أمراً، ولا يُعلِّقه بشيٍ ولا حجرٍ، ويحمدُ الله تعالى أن فتح له أبواب الهداية وأعانه فيها، وأن كرهه إليه الكفر والفسوق والعصيان.

الحمد لله الذي حفظ على صاحب القلب السليم دينه وعقيدته، وجعل الردة بعيدةً بُعدَ المشرقين عن القلب الذي يحمله، القلب الذي ذاق حلاوة آية من القرآن العظيم، أو حلاوة

سجدة بين يدي الله، أو تقياً ظلال حديث من مشكاة النبوة، أو نظر في التشريع الرباني الذي أبهر البشرية بإحكامه وارتقائه بإهله، أو صدق الله تعالى بسؤاله الثبات على دينه حتى الممات.

أخرج البخاري أن هرقلًا ملك الروم أراد أن يستفصل عن ديننا، فطلب من أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يأتيه، وكان أبو سفيان على الشرك لم يسلم بعد، فكان مما قاله هرقل: «وَسَأَلْتُكَ أَيَّرَتُّ أَحَدَ سَخَطَةٍ لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ» الحديث.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨)

وعيد قرآني لمن أظهر الإسلام وأبطن العداوة للدين، ولمن يتربصون بالمسلمين ويتبعضون عوراتهم، ويطلقون ألسنتهم فيما بينهم بالغمر واللّمز بشريعة الله وأحكامها، وبالسخرية من المؤمنين المجاهدين الباذلين الخير للناس.

بشّرهم يا محمد ﷺ بعذاب أليم، يعني: أخبرهم عما أعدّه الله لهم إذا ما وقفوا بين يديه للحساب.

ومن عجيب هذا الوعيد أنه ابتداءً بلفظة: ﴿بَشِّرِ﴾ مع أن البشّر إنما تكون غالباً في الأمر الحسن المفرح الذي يسرّ وليس في العذاب، ولكنها جاءت بهذه الصيغة على سبيل التّهكّم بهؤلاء الذين تهكّموا بالإسلام وأهله، ولتسخر منهم كما أكثروا من السخرية بالمؤمنين في دنياهم، جاءت لتقرّبهم كثيراً من عذابٍ موجهٍ شديدٍ لا يُطاق.

﴿الَّذِينَ يَخِذُّونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩)

هذه مصيبة من مصائبهم التي تنخر في جسد الأمة، وعلامة من علاماتهم التي لا يكادون ينفكّون عنها، وخصلة من الخصال التي جلبت لهم سخط الله عليهم واستحقاقهم أن يبشّروا بالنار.

حقيقتهم التي يجب عليكم أيها المؤمنون أن تعلموها وتحذروهم بسببها، أنهم يوالون عدوكم عليكم، ويذهبون سرّاً إليه ليعينوه على ما يطلبه منهم.

ويا ليتهم يكتفون بذلك، ولكنهم ينصرون أعداء الله بالرأي والسلاح والمال ليرضوا عنهم، وينالوا المنعة والغلبة والرفعة عندهم.

المنافقون في زمن النبوة اتخذوا مشركي مكة واليهود والأحزاب أولياء، يبذلون لهم ما يطلبون في سبيل كَسْرِ شوكة الإسلام وإذلالِ أهله.

والمنافقون في زماننا اعتزوا بغير الله، وأحبوا أهل الكفر كثيرًا، وتعلقت قلوبهم بهم وعظموهم، وقلدوهم في ثقافتهم وهيئاتهم وزِيَّهم، ونصروهم على المؤمنين في عدد من المواطن.

قال الله تعالى مُنْكَرًا عليهم في موالاتهم هذه: ﴿أَيَبْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، يعني: شعرتم أيها المنافقون بالضعف فركضتم في أهل الكفر ترجون النصر والقوة، لقد أخطأتم الطريق في الوصول إلى العِزَّة وجهلتم، وساء ظنكم بالله وضعفَ توكلكم عليه، فإن أعداء الله تعالى لا يملكون شيئًا من ملكوت السماوات والأرض، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، واعتزازكم بهم باطلٌ وموهوم ومردود.

اعلموا يا أهل النفاق أن العِزَّة إنما تكون لمن بيده مفاتيحُ الرزق، وتكون للعظيم القوي القاهر العزيز، وهو الله جلَّ وعلا. قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

والعزة الحقيقية تكون كذلك لمن استمد قوته وعِزَّته من الله، ولمن طلبها من الله وحده والتجأ فيها إلى العبودية والانقياد. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١٤)

قلوب المنافقين لا تُنكر منكرًا ولا تعرف معروفًا، وربما تسعد بمجالسة أهل الكفر وتطمئن إليهم، مع أنهم يتكلمون في مجالسهم عن نبينا ﷺ وعن قرآنا، ويذكرونهما في معرض الإهانة والانتقاص والتحقير والتنفير.

الآية تنهى أهل النفاق عن مجالس أهل الكفر، وتُحذِّرهم من شرور التهاون في الانبساط إليهم وعدم التمايز عنهم، وتُخبرهم أن الأنس بمثل هذه المجالس يُعرض صاحبه لأن يلحق بهم ويكون في ركبهم، وهو رَكْبٌ يوصل أهله إلى دار الشقاء والذلة والهوان.

ثم تذكروا أيها المنافقون أن الله تعالى أنزل في الكتاب من قبل آياتٍ يُرشد فيها أهل الإيمان إلى هجران مجالس أهل الشرك الذين كانوا في مكة، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وهنا فائدة تخص كل من يتساهل في مجالسة أهل الفسق والفجور الذين يأنسون بسماع الحرام، ويتكلمون به وينظرون إليه، ويعيشونه بكل جوارحهم، فهؤلاء هم أهل الغفلة الذين يسرقون الإيمان من قلب من يسعد بهم، وتراه لا يخرج من مخالطتهم إلا وقد ذهب الحياء من الله عن جوارحه، وماتت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنده، بل قد يصل الحال به إلى أن يصبح رأساً في المنكر، والأخطر: أن يراه معروفاً.

هؤلاء: نغضبُ لله ودينه ونغادرُ مجالسهم، ونجتنبُ مؤاسيتهم لأنها تفضي إلى مشاكلهم وتقليدِهم، ونوصلُ لهم كلمة الخير بالحسنى لعلهم يرشدون. أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ (وهي آلة من الجلد ينفخ بها الحداد على النار)، فَحَامِلِ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ (أي: يُعْطِيكَ مَجَانًّا)، وَإِمَّا أَنْ تَتَنَاعَ مِنْهُ (أي: تشتري)، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».

وحتى لا يبقى الكلام هنا تنظيراً غائباً عن الواقع، فإنه يجدر بنا أن ننظر في غالب ما تبته شاشاتنا، وما تزخر به مواقع تواصلنا الاجتماعي، وما نجده في كثير من أماكن عملنا، والتي تدعو صباح مساء إلى ما حذرت منه الآية هنا.

أخرج أحمد والترمذي عن عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِسَنَدٍ حَسَنٍ جَمَعَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسُ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا بِالْخَمْرِ».

ويمكن الانتفاع من الآية كذلك في التحذير من مجالسة رؤوس أهل البدع والضلال، والذين يعبثون بشرع الله ونصوص الوحي ليقدموا بذلك ضلالتهم واقتراءاتهم على هذه العقيدة وعلى هذا الدين.

ويمكن الانتفاع منها في التحذير من الركون إلى أهل الظلم الذين يأكلون حقوق الناس ويعتدون على حرّماتهم، والذين عذبوا أولياء الله وضيّقوا عليهم دعوتهم، والذين عاثوا في أرض المسلمين فساداً وإفساداً.

﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ إذا لم تنتهوا عما أمرتكم به كنتم مثلهم في الإثم والعمل والقدر والمقام، لأن الأصل هو الإنكار باليد أو باللسان، فإن لم تستطيعوا فليغادر أهل الفطرة السليمة مجالس الشياطين ولا يمكثوا فيها.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لا تفعلوا ذلك يا أهل النفاق وعودوا إلى رشدكم، وأقلعوا عن موالة الكافرين ومجالستهم، وانتبهوا: سيجمع الله أهل النفاق مع أهل الكفر في جهنم جزاءً على كفرهم بآيات الله وسخريتهم من شعائر الله ودينه الذي ارتضاه، سيجمعهم هناك جميعاً كما اجتمعوا في الدنيا، سيجمعهم الله على العقاب كما اجتمعوا على الإثم.

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَآلَهُ بِحُكْمِ بَيْنِكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

تذكر الآية مظهرًا من مظاهر معاداة المنافقين للمؤمنين وتوليهم للكافرين، وهو أنهم يربصون بالمؤمنين، أي: ينتظرون ما سيحصل بينهم وبين أهل الكفر في قادم الأيام، ويتربصون ما يحدث من كسر أو نصر، أو خير أو شر، وقد احتاطوا لأنفسهم سواء أكانت الغلبة للمؤمنين أم للكافرين.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ﴾ إذا انتصر أهل التوحيد على عدو الله وعدوهم وغلبوهم، وإذا حصلوا على الغنائم والتأييد ممن حولهم، أظهر المنافقون انكسارهم أمام المؤمنين، وزعموا أنهم كانوا معهم ظاهراً وباطناً، وقدموا مودتهم إليهم بقولهم: نحن نصرناكم بالرأي والمال، وقاتلنا من أجلكم، ودعونا لكم، يقولون ذلك ليسلموا من القُدح فيهم والطعن عليهم، وليُظهروا أنهم مستحقون للمشاركة في الغنيمة والفيء.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أما إذا كان النصر والظفر مع أعداء الله الذين يوالونهم، ذهبوا إليهم وأظهروا فرحهم بضعف قوة أهل التقوى، ونزول السوء بهم، وظهور أهل الكفر عليهم.

ثم أظهروا إعانتهم لهم واستحوادهم عليهم، أي: إحاطتهم باللذين كفروا عناية وحفظاً وتأيداً ونصراً.

ومما يقولونه لأهل الكفر إذا جاؤوهم مستبشرين بنصرهم: ﴿وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نحن من كف أيدي المؤمنين عنكم وحفظكم منهم، ونحن من بذل الحيل في إخافتهم وتخذيلهم عن جهادكم، ونحن من تجسس عليهم ونقل إليكم أخبارهم وأماكن تواجدهم وحقيقة قوتهم، فكنا صادقين في منعكم من بأسهم.

وقد بين لنا كتاب الله العظيم سبباً من أسباب ما يحمله المنافقون في قلوبهم على المؤمنين، وذلك في قول الله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَئِكَ لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَفَعُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]. أي: لما أغنى الله بيت مال المسلمين في زمن النبي ﷺ وأصحابه بعد أن كانوا فقراء، ولما أصبحوا يعتمدون على أنفسهم في تلبية حاجاتهم واستغنوا عن الغير، أثار ذلك حفيظة أهل النفاق، وعقدوا قلوبهم على التربص بالمؤمنين لعل سقوطهم يكون قريباً.

وهنا لفتة بلاغية لا نستغني عنها في فهم الآيات، وهي تنفعنا في معركتنا مع أعداء أمتنا، أقول فيها: الله ربنا يصف نصر المؤمنين بأنه فتح من الله، ويصف نصر الكافرين بإصابتهم نصيباً فقط، وهذا يدل على أن نصر الله وتأييده قريب من أهل الإيمان إذا نصروا شريعتهم وأقاموها في أنفسهم وأوطانهم، وإذا أعدوا ما استطاعوا من قوة السلاح والمال، وإذا صدقوا ربهم في الاستعانة به ولم يخالفوا أمره، فالله ربنا له سنن في هذا الكون.

ويدل كذلك على أن أهل الكفر قد ينتصرون على أهل الإسلام في زمانٍ ما لأخذهم بأسباب النصر وتخلف المسلمين عنها، ولكن هذا النصر لا يكون إلا نصيباً، أي: فوزاً في المعركة محدوداً لا يستمر، كما حصل في غزوة أحد وغيرها، بخلاف أهل الإسلام الذين إذا أدخلوا دينهم إلى بلد وفتحوه ونشروا عقيدتهم، بقي ذلك على الغالب ممتداً وباقياً، وكانت العقابة لهم. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

ولا زال المنافقون في زماننا يتربصون بالمؤمنين، ويظهرون ما أظهروه في زمن النبوة، وقد يحصل بسببهم تخذيل في الدعاة إلى الله تعالى العاملين الصادقين، وقد يعتمدون إلى التحريش بين المؤمنين وإحداث الفتنة لعلهم يظفرون بما يرجون، ويشفون صدورهم من المرابطين على حصون الأمة العقديّة والفكرية والعسكرية.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ صحيح أننا عاملنا المنافقين في الدنيا بظاهر حالهم، وحصل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم بشهادة التوحيد التي يرددونها، ولكن الله تعالى سيظهر بواطنهم الرديئة على رؤوس الأشهاد غداً بين يديه، وسيبتي الله سرائرهم وما أخفوه في صدورهم، وسيحكم بينهم وبين المؤمنين بعدله سبحانه.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ذهب عددٌ من أهل العلم كابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما وغيره، إلى أنَّ ختام الآية هنا محمول على الدار الآخرة، والمقصود أنَّ الله تعالى لن يجعل لأهل الكفر يوم القيامة حُجَّةً على المسلمين، أو طريقاً لغلبيتهم في الجدل.

وكثير من أهل العلم حمل الآية على الحياة الدنيا، وقال: هذا إخبارٌ من الله تعالى بأن الكلمة العليا في أرض المسلمين ستبقى للتوحيد وأهله، وأن الله تعالى قضى وقدر أن يردَّ كيد الكافرين إليهم كلما اقتربوا من إسقاط الدين وتغييبه، وأن الله تعالى حافظٌ دينه، وسيعين أوليائه على إحيائه في الناس من جديد لتكون الكلمة العليا لهم، وأنه لا تزال طائفة من المؤمنين ظاهرة على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۝٥١﴾ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿[غافر: ٥١-٥٢].

وأخرج مسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ (أي: جمعها وضمها) فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَتْرَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ (المُراد بِالْكَتْرَيْنِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَالْمُرَادُ كَتْرَيِ كِسْرَى وَقِصْرَ مَلِكِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ)، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ (أي: بقحطٍ يعم جميع البلاد)، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ (يعني: جماعتهم وعِزَّهُمْ ومُلْكَهُمْ)، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةً عَامَّةً، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَ أَفْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

تخاطب الآية المنافقين الذين يركضون في أهل الكفر وتقول لهم: لا تفرحوا كثيراً بغلبة من توالونهم، ولا تتأملوا كثيراً فيما ترجونه من زوال دولة المؤمنين، فالله تعالى ناصرٌ جنده.

وختام الآية يخاطب المؤمنين كذلك ويقول لهم: اثبتوا على الحق، ولا تخافوا اجتماع أهل النفاق مع أهل الكفر عليكم، ولا تخشوا مكرهم وخداعهم، واعلموا أن العاقبة لكم إذا رجعتم إلى ربكم، وسعيتم في أسباب القوة.

ولقائل أن يقول: إذا كان الله تعالى حافظاً أوليائه، ولن يجعل للكافرين تسلطاً عليهم،

فما الذي نراه في زماننا من هيمنة أهل الكفر على بلاد المسلمين؟! والجواب أن الآية أشارت إلى أن أهل الإيمان هم المحفوظون بحفظ الله تعالى من علو عدوهم عليهم، فإذا قاموا بحق إيمانهم فإن الله تعالى لا يخلف وعده، وإذا لم يقوموا بحقه جعل الله تعالى لأهل الكفر سبيلاً عليهم بقدر نقص إيمانهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ثم إن النصوص الأخرى بيّنت أن الله تعالى جعل للنصر أسباباً وجعل للخذلان أسباباً، وطلبت من المؤمنين أن يُعدوا ما استطاعوا من قوة، وأن يبذلوا أسباب النصر والتمكين، ويراعوا سنن الله تعالى في ذلك من مدافعة أهل الكفر، والقيام بحق دينهم، ونصرة شريعتهم، وأن يتحلوا بالصبر والثبات.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولا يغلب أهل الكفر أهل الإيمان من حيث هم كافرون، ولكنهم يتبعون السنن فيظفرون في زمن ما، ولعل هذا التسلط الذي يجعله الله لهم علينا إنما هو لرجع إلى ديننا، وترك مجاهرتنا بالزنا والربا وشرب الخمر وأكل الحقوق، وتُظهر شعائر عزة هذا الدين من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجاهدة النفس في كل ذلك.

ومن أهل العلم من حمل ختام الآية هنا على أنه توجيه رباني شرعي، يعني: الله حرّم أن يكون لهم علينا سبيلاً، فإن وُجد فهو على خلاف الشرع، ويجب على المسلمين بذل الوسع في رفع تسلط أهل الكفر على ديار المسلمين.

وقد استدل كثير من أهل المذاهب بهذه الآية على منع تمكين أهل الكفر في بلادنا، وقالوا: هذا خبرٌ من الله تعالى يفيد الأمر، يعني: الله يأمركم أن لا تجعلوا في تشريعكم تسلطاً لأهل الكفر من اليهود والنصارى وغيرهم على أهل الإسلام.

ولذلك منع كثيرٌ من أهل العلم بيع العبد المسلم للكافر حتى لا يكون سيّداً عليه، وأجمعوا على اشتراط الإسلام في الحاكم، ومنعوا حُكّام المسلمين وقضاتهم وأصحاب الولايات العامة من اتخاذ بطانة من غير المسلمين، وأسقطوا ولاية الأب الكافر على أولاده المسلمين في المال والزواج، ومنعوا شهادة الكافر على المسلم، وغير ذلك من الأحكام.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢)

سياق قرآني ممتد في ذكر خصال أهل النفاق القبيحة، والكشف عن حالة القلب التي يعيشونها مع عقيدة التوحيد وشعائر الله، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اجتماع أمراض متعددة في قلوبهم، كالشكّ وضعف اليقين والخوف، بل يدل على الجهل بالله العظيم، وعلى قلة عقلهم وعلمهم.

ومن عجيب حالهم ما ذكرته الآية هنا، أنهم يخادعون الله بما أظهروه من الإيمان والصلاة وذكر الله وإقامة الجهاد، وبما أبطنوه من الكفر والترصص بالدين وأهله، يظنون أن أمرهم سيخفى على العالم بما في السرائر والضمائر لا إله إلا هو، وأن حالهم في الآخرة سيكون كحالهم في الدنيا، وأنهم سيعاملون بالظاهر لا بما أضمره في نفوسهم، حتى إنهم يحلفون للربّ العظيم يوم القيامة أنهم آمنوا، كما دلّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمُ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

قال الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

يبثُّ أهل النفاق خداعهم وكذبهم وغشهم يوم يكون للإسلام كلمته العليا في بلاد المسلمين، وقد يشتدّ عود النفاق ويسعى أهله في موالاة العدو إذا ضعفت الأمة، والغريب أن كثيراً منهم يطلب الأمان عند أهل الكفر الذين ساعدتهم، فلا يجد عندهم إلا الدّلة والمهانة والصّغار، وربما قضوا عليه بأنفسهم.

وكيف يخادعُ الله تعالى وهو الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه!

الحقيقة التي جهلها هؤلاء أن الله تعالى هو خادعهم، أي: هو الذي يستدرجهم من حيث لا يعلمون، يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويصرفهم عن طريق الاستقامة، ويحول بينهم وبين قلوبهم، حتى كانت عاقبة أمرهم على خلاف ما أحبوا وأرادوا، فإنهم طلبوا بإظهار الإيمان السلامة والنجاة والفلاح، وما نالوا إلا الخزي والعذاب والخسران، فكان خداعهم عليهم لا لهم.

ولذلك وصف القرآن حال هؤلاء في أرض المحشر بتفاصيله، وكيف اغتروا بالله وظنوا الظنون التي لم تنفعهم، وكيف فُضِّح أمرهم، وحِيلَ بينهم وبين النجاة مع المؤمنين. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقَسِيصَ مِن تَوَكُّمٍ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَاَلْيَوْمَ لَا يَتُخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٣-١٥].

بل وصفت السنة تمايزهم في أرض المحشر عن أهل الصدق مع الله، في حديث مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك بعد أن انفصل المؤمنون والمنافقون عن أهل الكفر الظاهر، فيقول الله تعالى للمؤمنين والمنافقين الذين ينتظرون لقاء ربهم: «هَلْ يَبْنِيكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَن كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَن كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاءٍ» الحديث.

واعلموا أن الخداع من الناس قد يكون في الخير وقد يكون في الشر، وقد أذن به الشرع حال الحاجة إليه كما في الحرب، ولكن الخداع من الله تعالى لا يكون إلا في الخير، وهو يقع جزاء وفاقاً على خداع أهل الكفر والنفاق، ولذلك لم يصف ربنا نفسه بالخداع والمكر والكيد إلا على وجه المقابلة، فكانت من الله عدلاً وكماً لا سبحانه.

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الصلاة أفضل الأعمال وأشرفها عند الله تعالى، وهي العهد الذي بين أهل الإسلام وأهل الكفر، بل هي علامة من علامات التمايز في أحوالها بين أهل الإيمان وأهل النفاق كما ذكرت الآية.

المنافقون يُصَلُّونَ، ولكن خطواتهم إلى الصلاة ثقيلة لأنهم لا يعقلون معناها، وليست لهم نية صالحة فيها، ولا يحركهم الإيمان.

المنافقون لا رغبة لهم في القيام إلى الصلاة، ولولا حرصهم على مصلحتهم وعلى أن يدفعوا الشك عن أنفسهم لما قاموا مع المسلمين في صلاة، ولذلك أخبر الشرع أنهم يقومون إليها كسالى، وأن صلاة الفجر والعشاء أثقل صلاتين عليهم، وأنهم يحرصون على أواخر الصفوف في صلاة الجماعة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُتَأَفِّقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُمَرَ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامَ، ثُمَّ أُمِرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بَيُوتَهُمْ بِالنَّارِ».

ولعل الذي دفعهم لكثرة التخلف عن صلاتي العشاء والفجر في زمن النبوة، هو ظنهم بأن ذلك سيخفى على النبي ﷺ وعلى المؤمنين.

وأخرج أبو داود عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنْ الصَّفِّ الْأَوَّلِ حَتَّى يُؤَخَّرَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ».

أما أهل الإيمان والخشية فإنهم إذا قاموا إلى الصلاة، طارت بها قلوبهم فرحًا، وأنارت وجوههم استبشارًا، واستحضروا تلك اللذة التي لا غنى لهم عنها، واستحضروا أنهم في قيامهم وركوعهم وسجودهم سيقفون بين يدي ملك الملوك، وجبار السماوات والأرض، وسيناجون من وعدهم بغفران الذنوب بين الصلاتين.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وقال سبحانه: ﴿يَسْبِغْ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ٣٦ رِجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ تَحْرُجُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ٣٧﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

صحيح أن المؤمن قد يتكاسل عن صلاة أو أكثر، ويؤخرها ولا يعطيها حقها، ولكنه لا يلزم من تكاسله هذا أن يكون منافقًا؛ لأن فتوره ليس دائمًا ولا مستمرًا، وليست عنده كراهية للصلاة وسامة منها، بخلاف أهل النفاق الذين تكاسلوا عنها لأنهم لا يكثرثون بها ويزهدون في فعلها، ولا يرجون ثواب الدار الآخرة بأدائهم لها.

﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ يتكاسلون ظاهرًا ويرأون باطنًا، فاجتمع عندهم فساد الظاهر والباطن.

يقبلون على الصلاة مع جماعة المسلمين طلبًا لمدحهم وثنائهم، ويتصنعون لإشعار من حولهم بأنهم قرييون، وأنهم محبوبون لدينهم ومقبلون على طاعة ربهم.

يعني: هم لا يتعاملون مع الله ولا يخلصون له، ولا يبتقون دوام النظر بينهم وبينه سبحانه، ولكنهم يراقبون الناس ولا ينشطون إلا أمامهم، وتراهم يحسنون الصلاة إذا رآهم الناس، ويسيوون فيها إذا كانوا وحدهم.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس وغيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَمَعَ سَمَعَ اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ». يعني: من تكلم عن عمله أمام الناس وأظهره ليمدحوه، وحرص على إسماعهم ليرتفع شأنه عندهم ويَرْضَوْا عنه، فُضِّحَ على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

ومن عمل العمل رياءً أخبر الله الناس عن نيته وظهر فسادها أمامهم، فالتسميع المذكور في الحديث كان بقوله، والمراعاة كانت بعمله.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ السياق القرآني هنا يتكلم عن الصلاة، ويشير إلى أن المنافقين في صلاتهم لا يلهج لسانهم بالذكر والتسبيح والتعظيم والدعاء إلا قليلاً، وذلك لثقله على نفوسهم، ولعدم خشوعهم ودراية ما يقولون، فَهُم في صلاتهم ساهون، وعن الخير معرضون.

أخرج مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ عَنْ تَأْخِيرِ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَتَقَرَّهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».

واستقراء آيات الله تعالى في حديثها عن ذكر الله تعالى يعطينا فائدة نفيسة في ذلك، فالقرآن إذا تكلم عن الذكر جاء بلفظة الكثرة أو ما يشابهها في المعنى؛ لِيُعْلِمَنَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي أَطْمَأَنَّ قلبه بهذه الطاعة لا يكاد يستغني عنها في عموم حياته، وَأَنَّ مِنْ أَهَمِّ عِلَامَاتِ أَهْلِ التَّقْوَى أَنَّهُمْ يَكْثُرُونَ مِنْ تَعْظِيمِ خَالِقِهِمْ بِالسُّتُوبَةِ، وَأَنَّهُمَا تَلْهَجُ صَبَاحًا وَمَسَاءً بِتَسْبِيحِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذْكَارِ الْمَعْلُومَةِ وَالْمَعْهُودَةِ فِي السَّنَةِ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَرِهَتْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وذهب كثير من أهل العلم إلى أن الآية لا تصف صلاة المنافقين فقط، ولكنها تصف غالب أحوالهم في الصلاة وغيرها، فيكون المعنى أنهم لا يذكرون الله في حياتهم إلا على وجه النُدرة والقلَّة، وقد يتعمدون الأذكار التي يكون فيها جهراً أمام الناس لينالوا حظوظ أنفسهم. قلت: إذا كانت منظومة الذكر في صلاتهم قليلة، فكيف بغيرها.

ولا تظنوا أن الخصال المذكورة هنا محصورة في منافقي زمن النبوة، بل هي مُتَمَدَّة في كل زمن، ولكنها تزيد أو تنقص بحسب قوة الأمة وضعفها.

﴿مَذْبَدَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٣)

المنافقون لهم وجهان ولسانان، ولا ثبات عندهم في المبادئ والعقائد، ويعيشون الحيرة بتفاصيلها، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ولا هم بِمُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ، وَلَا مُشْرِكِينَ مُصَرِّحِينَ بِالشَّرْكِ، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ، ولذلك يميلون تارة إلى النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين، ويميلون تارة أخرى إلى اليهود والكافرين.

أخرج مسلم عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ (أي: الْمُتَرَدِّدَةِ الْحَاثِرَةِ)، تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبَعُ».

استعمل القرآن في التعبير عن هذه الخصلة لفظة الذبذبة، وهي تشير إلى شدة الاضطراب، وإلى ضرورة أن يحذرهـم المؤمنون وينفروا منهم ومن خصالهم.

ويغلب على الظن أن سبب هذا التقلب هو حرصهم على إرضاء الناس، مؤمنهم وكافرهم، وسعيهم لأن يكون لهم حظٌّ عند جميعهم، وشدة خوفهم من أن تدور الدوائر فلا يجدون من ينصرهم.

أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ؛ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءَ بِوَجْهِهِ، وَهَؤُلَاءَ بِوَجْهِهِ».

أخرج أبو داود عن عَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ».

وهذا بخلاف من جعل همته في إرضاء الله وحده، واتباع شريعته في التعامل مع غيره، ولم يتبع أهواء الناس لعلهم أنهم مختلفون في مقاصدهم وأحوالهم وشهواتهم، فمثله يكرمه الله تعالى بحبه ورضاه، ويرضي عنه الناس.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ نظر الله في قلوب أهل النفاق فلم يجد فيها صدقًا، فصرفهم عن الهداية، وأضلهم عن طريق الاستقامة، فمن يهديهم من بعد الله؟ ومن يعينهم على أنفسهم وينصرهم؟ فإن الله تعالى لا رادَّ لحكمه، ولا معقبَ لقضائه.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤)

تعددت نداءات ربنا لأهل الإيمان في وجوب معاداة أهل الكفر وتحريم موالاتهم، وهذا يدل على ضرورة هذه العقيدة ودورها في تحقيق الاستخلاف الذي يريده الله تعالى منا في الأرض.

تنهى الآية الكريمة عن تولي أهل الكفر من مشركي مكة ومن اليهود والنصارى وغيرهم، أي: تنهى عن محبتهم ونصرتهم وتقليدهم، وتنهى عن التقرب إليهم على حساب المؤمنين، وتطلب منا ألا نفتح أبواب الشرور علينا بذلك، وألا نستجلب سخط الله علينا وغضبه بمصاحبتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم.

يا أهل الإيمان الحق، ويا من صدقوا الله تعالى في توحيدهم وعبوديتهم: أهل الكفر أعداء للإسلام وحملته فلا تنصروهم بالقول والفعل فيما ينافي مصلحة المسلمين، ولا تُعينوهم على بلاد التوحيد وعلى القائمين بأمر الله تعالى فيها. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

وقد جاءت الآية في سياق الحديث عن المنافقين لتدلل على أن أهل الكفر يستخدمونهم كثيراً ويعتمدون عليهم، وأن المنافقين يسارعون في موالاتهم وتلبية حاجاتهم، ولا يتورعون عن ذلك، ولا يترددون فيه، ولا يكرهون أن يكون النصر والسلطان للكفار على المسلمين.

وقد جاء مزيد بيان للأحكام المتعلقة بموالاتهم في تفسير سورة المائدة عند قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿أَرْيَدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ السلطان هو الحجة، ومعلوم لديكم أن الله تعالى لا يعذب أحداً من خلقه إلا إذا قامت عليهم الحجة.

يحمل ختام الآية تعريضاً بهؤلاء المنافقين بأنهم إذا أقبلوا على ما حذرت منه الآية، فإن حجة الله تعالى الظاهرة والبينة قامت على فساد إيمانهم الذي يستجلب لهم عقوبة الله تعالى.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥)

لا تستهينوا بخطر المنافقين على الدين وحملته، فإن المستقرئ لسيرتهم مع النبي ﷺ وأصحابه، ومع الأمة الإسلامية في ماضيها وحاضرها، يجد أن ضررهم على البلاد والعباد لا يقل عن ضرر أهل الكفر المحاربين لنا، بل قد يزيد عنهم في أحوال، ولذلك أمر الله بجهادهم كما أمر بجهاد أهل الكفر، كما في قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنْفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

ومُجاهدتهم إنما تكون بالبيان واللسان، وتكون بفضحهم وإسقاط أفكارهم، وإقامة الحدود عليهم إذا جاؤوا بأسبابها.

يخبر الله تعالى في الآية عما ينتظر أهل النفاق يوم القيامة من أهوال، ينتظرهم أن يكونوا في أدلّ منازل العذاب وأسوأها، سيكونون تحت سائر الكفار في أسفل النار جزاءً على كفرهم الغليظ، وما جمعه من خُبث الخصال والتلون والخداع في الدين.

قال الله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بِضُئُفٍّ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿[التوبة: ٦٧ - ٦٨].

والدرَكَة هي المنزلة في الهبوط، فالنزول في الشيء يُسمى دركات إذا كانت له منازل وطبقات، كما نسمي الارتقاء في الشيء درجات إذا كانت له منازل وطبقات، وهذا يدل على أن النار دركات كما أن الجنة درجات، وأن أهل النار ليسوا سواء في العذاب وأهواله.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ سينقطع رجاؤهم، ولن ينقذهم ممّا هم فيه وليّ ولا ناصر، ولن يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ أَحَدٌ، ولن يُقْبَلَ منهم فداءً، ذهب أهل الكفر عنهم، وذهبت رؤوس الشر عنهم، وتبرأ الشيطان من ولايتهم.

قال الله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٦)

يظن الواحد منا وهو يعيش مع الآيات أن خطاب المنافقين انتهى بإخبارهم أنهم في الدرك الأسفل من النار، ولكن الآيات لها طريقة أخرى في خطاب أهل الكفر وأهل النفاق، فهي تُخَوِّفُهُمْ تارة وتُرْغِبُهُمْ تارة، تُرْهِبُهُمْ تارة وتُفَتِّحْ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَةِ اللَّهِ تارة أخرى.

يا أهل النفاق: لا زالت أرواحكم تجري في أبدانكم، ولا زال في العمر بقية، ورحمة الله وسعت كل شيء فتوبوا وأصلحوا يتوب الله عليكم، ويحشركم في زمرة المؤمنين، ويرضى عنكم ويرضيكم.

يا أهل النفاق: توبوا من موالاتكم لأهل الكفر وبغضكم للدين وحملته، وأصلحوا في أعمالكم ولا تخالفوا فيها أوامر الله سبحانه وتعالى، وانصحووا لله تعالى ولأئمة المسلمين وعامتهم.

واعتصموا بالله وتمسكوا بكتابه وسنة نبيه ﷺ بدلاً عن اعتزازكم بالكافرين، واجعلوا رضاه فوق كل شيء، وتذكروا أن النفع والضرر بيده وحده، وتذكروا أن النفاق شديد على القلب، وأنه يحتاج إلى اعتصام حقيقي بالخالق للتخلص منه.

ثم أخلصوا في صلاتكم وأذكاركم ونفقتكم ونصحكم للمؤمنين، واجعلوها لله وحده لا شريك له، إنكم إذا فعلتم ذلك كنتم مع المؤمنين في الدنيا والبرزخ والآخرة.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولكم أن تستحضروا حياة المؤمنين الطيبة في الدنيا، والنعيم العظيم لأرواحهم في البرزخ، ثم الأجر الكبير الذي أعد لهم من بيده مقاليد السماوات والأرض، والذي لا يدري حقيقته ولا عظمته إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧)

الله غني عن عبادته، ولا يرضى لهم الكفر، ولا يعذب عباده الموحدين الذي أطاعوه في السر والعلن، ولكن سخطه وعذابه إنما يكون على من كفر به واتخذ إلهاً غيره.

وربنا جل وعلا لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، ولكن حكمته قضت بأن يُكْرَمَ من أطاعه وآمن به وأقبل على شكره بالجزاء الحسن، ويعاقب من عصاه وكفر به بالخسران المبين.

الله تعالى يأمر المنافقين وغيرهم بأن يكونوا من الصادقين في إيمانهم، وأن يشكروه قولاً وعملاً، فإنه سبحانه ينظر إلى أعمالهم وقلوبهم، ولا يعاقبهم على ذواتهم وأشخاصهم، ولا يعاقبهم تشفياً وحُباً في تعذيبهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ الله رب العالمين يعلم ما كان من عباده من صدق وكذب، ومن إخلاص ورياء، وهو شاكر لمن شكره وآمن به بصدق وإخلاص، ثُمَّ ثَبَّتَ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يُبَدِّلْ، وسيجزيه على عمله أوفر الجزاء وأحسنه. قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨)

الجهر بالسوء هو التلفظ بما لا يليق، سواء أكان بذكر الغير بما يحزنه ويُسيءُ إليه أمام الناس، أم كان بنشر المنكرات والدعوة إلى الفحش والزيلة في المجتمع.

ومن الجهر بالسوء ما كان المنافقون يقولونه في ذبذبتهم بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ومنه أن يدعو أحد الناس على غيره بدون حق، ومنه الشتائم التي لا يكاد ينفك عنها صنف ممن حولنا، ومنه الطعن في أعراض الآخرين، والتشهير بهم، ومنه الغلظة على أهل الإيمان وكشف عوراتهم وتبّعها.

ومن ذلك نقل الكلام بين الناس للتحريش بينهم وإيقاع الخصومة والعداوة، ومن ذلك الدعوة إلى المنكرات وتذكير الناس بها وتزيينها لهم، وغير ذلك مما يؤثر على قيم المجتمع وأخلاقه، ويُشيع فيه القُرب من الفواحش واعتيادها.

يحب الله أن يتقرب إليه عبده بما افترضه عليه، ويحب مسارعته في النوافل والقربات، ويحب أن يرى مراقبة أهل الإيمان لأستهم وما ينطقون به، ولذلك أخبر عباده في الآية أنه لا يحب إعلان الكلام القبيح في الآخرين ولا يثيب فاعله، ولكن يُغضه ويعاقب عليه.

جاءت الآية بأدبٍ من الآداب الشرعية التي تقصد إلى تحقيق التراحم بين أفراد المجتمع المسلم والتآلف بينهم، وتهدف إلى صرف البغضاء والعداوة عنهم، عن طريق إبداء محاسن الأخلاق والجهر بها، واجتناب قولِ السوء في الآخرين والإعراض عنه إلا استثناء.

يا أهل الإيمان: لا تصفوا غيركم على الملاء بشيء من صفات السوء، ولا تتكلموا عن أعراض الآخرين، ولا تطلقوا شتائم السوء في الناس فتؤذونهم وتؤذون من يستمع إليكم، ولا

تساهلوا بوصف أحدهم بأنه ظالمٌ أو بخيلٌ أو كذابٌ، ولا تتهاونوا بالدعوة إلى مشاهدة ما حرم الله، والاستماع إليه، وقراءته والكتابة فيه، فهذا ليس من أخلاق شريعتكم التي تحبون.

واعلموا أنَّ ذَكَرَ معائب الناس وذَمَّهم على المَلَأ ليس موجودًا في حياة الصالحين والصالحات، فإنهم يراعون العدل فيما يقولون ويفعلون، وإن تحرك في نفوسهم شيءٌ في حقِّ غيرهم، وإن كان هذا الغير كافرًا.

ومجيء الآية في سياق الكلام عن المنافقين، فيه دعوة للمؤمنين بأن لا يتسرعوا بالحكم على أحد بأنه منافق، فإنَّ الآيات السابقة ذكرت كثيرًا من صفاتهم فأحدثت في نفوس من تدبَّرها اشمئزازًا كبيرًا، وقد يدفع هذا أحدهم إلى إطلاق عبارات السُّوء فيمن لا يستحقها، فليحرص أهل الإيمان على اجتناب الجهر بشيءٍ من ذلك إلا فيما أذنت به نصوص الشريعة.

أخرج البخاري ومسلم أن رجلاً اجتمعوا في بيت عِبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَظَمِ لُطْعَامِ صَنَعَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ قَائِلٌ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُمِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ (يعني: يذهب عندهم ويجالسهم)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» الحديث.

والجهر بالسوء ليس محرماً في الأقوال فقط كما يؤهم ظاهر الآية، ولكنه محرمٌ في الأفعال كذلك، بل هو أولى لأنه قد يكون أشدَّ إيذاءً.

وصحيح أن النهي جاء عن الجهر بالسوء، ولكن النهي عن الإسرار به محرم كذلك وغير مأذون به في الشرع، ولعل النهي جاء عن الجهر لأنه أشدُّ ضرراً على المجتمع والأفراد، ولأنه قد يكثر في أصنافٍ من الناس.

واستثنى الشرع من المنع ما لو تعرض أحدهم للظلم كما ذكرت الآية، فأباح له أن يجهر بالسوء بضوابط سيأتي بيأنها في المسائل الآتية:

١- جاءت نصوص الشريعة ببيان عاقبة ظلم الآخرين، ودلَّت على أن جزاء الظالم لا يقتصر على الدار الدنيا، ولكنه مُمتدُّ إلى حياة البرزخ، بل إلى يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وأخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وأخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ» الحديث.

وأخرج البخاري ومسلم عن سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ».

ومن عجيب حال الظلم أن الظالم إذا مات ولم يتب من ظلمه، ولم يُرجع الحقوق إلى أصحابها، فإن محكمة العدل في أرض المحشر ستقتصص منه بالحسنات والسيئات، وتفصيل ذلك فيما أخرجه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

ولا تظنوا أن الظلم محرمٌ على المسلم مع أخيه المسلم فقط، بل هو محرم وإن كان مع غير المسلم، فقد أخرج أبو داود والبيهقي في السنن الكبرى عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَفَصَهُ، أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». والمعاهد هو من له عهد مع المسلمين بعقد جزية، أو هدنة من سلطان، أو أمان من مسلم.

٢- أذن الله تعالى للمظلوم أن يجهر بمظلمته، وإن كان في قوله كلامٌ سوء في حق من ظلمه، فلعلَّ جهره بذلك يشفي شيئًا من غلِّه، ويُهَوِّنُ عليه غضبه، ويمنِّعه من البطش الذي لا تُحمد عاقبته غالبًا، وربما يعينه في تحصيل حَقِّه ورفع الظلم عنه.

علَّمنا ديننا أَنَّ صاحب الحق له مقال يَرْضَاهُ الله ولا يَسْخَطُهُ، ومعلوم لديكم أننا لو منعنا المظلوم من أن يذكر ظالمه بسوء ويطلب حَقَّه منه، لتجرَّأ كثير من أصحاب النفوس المريضة على الظلم، وعلى أخذ ما ليس لهم، ولضاعت حقوق الناس واضطربت أحوالهم ونظامهم، ولذلك رفعت الشريعة العقوبة عمن ردَّ الإساءة على من أساء، وأذنت للمعتدى عليه أن يردَّ عن نفسه وينتصر لها. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿[الشورى: ٤١-٤٢].

وقد كانت تربية نبينا ﷺ تقوم على هذا المعنى، أقصد: أن نستمتع لصاحب الشكوى، وننظر في مقالته، ونصبر عليه فيما يقول. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَقٌّ (في الروايات أنه استدان منه إبلاً صغيرة في السن)، فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ (يعني: أرادوا أن يؤدبوه)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ لِمَصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا»، فَقَالَ لَهُمْ: «اشْتَرُوا لَهُ سِنًا (أي: ناقة أكبر سنًا وأحسن)، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ»، فَقَالُوا: إِنَّا لَا نَجِدُ إِلَّا سِنًا هُوَ خَيْرٌ مِنْ سِنِهِ، قَالَ: «فَاشْتَرَوْهُ، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً».

ومن أمثلة الجهر بالسوء ما أباحه الشرع للدائن الذي امتنع المدين عن إرجاع الحق إليه، مع أنه يملك المال وقادر على سداد الدين، فقد أذن له أن يشكو على المدين، ويذكر ما حصل معه للغير، وأن يطالب بحبسه لأنه واجدٌ للمال ولكنه يؤخر السداد لحاجة في نفسه ويعتذر بأعذار واهية.

وفيه أخرج أحمد وأبو داود والنسائي، بسند حسن جمع من أهل العلم، عن عمرو بن الشريد، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِي الْوَاجِدِ (يجد المال ولكنه يؤخر السداد) يُحِلُّ عِرْضَهُ، وَعُقُوبَتَهُ». وعبرة «يحل عرضه» أي: يبيح للدائن أن يجهر بالسوء في حقه من الشكوى والحديث عن سوء خصاله.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» الحديث. أي: ماطلة القادر على سداد الدين حرام، وظلم، واعتداء على ملك الغير.

وهذا بخلاف من لا يجد مالا يسد به دينه، فمثله نصبر عليه امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

٣- أستطرد في بيان انتصار المظلوم لنفسه والجهر في ذلك إذا كان الظلم قد وقع عليه من جاره، وهو ظلم عسير على النفس كما هو الحال في ظلم القرابة، وقد يتهاون في ذلك كثير من الناس. وسبب استطرادي في هذا الشكل من الظلم أن كثيراً من المفسرين ذكره، وبين ما يتعلق به من أحكام في كلامهم عن الآية هنا.

أخرج البخاري في الأدب المفرد وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي جَارًا يُؤْذِينِي، فَقَالَ: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ»، فَانْطَلَقَ فَأَخْرِجَ مَتَاعَهُ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَالُوا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: لِي جَارٌ يُؤْذِينِي. فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إِلَى الطَّرِيقِ». فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ الْعَنِ اللَّهُمَّ أَخْزِهِ فَبَلَغَهُ فَأَتَاهُ فَقَالَ: ارجع الى منزلك فوالله لا أؤذيك.

وفي رواية في الأدب المفرد عن أبي جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن الرجل الظالم المؤذي لجاره جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ، وذكر له ما لقيه من الناس، فقال له ﷺ: «إِنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ فَوْقَ لَعْنَتِهِمْ»، ثُمَّ قَالَ للذي شكَا: «كُفَيْتَ».

وعند ابن حبان بلفظ: «جاء رجل إلى النَّبِيِّ ﷺ فشكا إليه جارا له، فقال النَّبِيُّ ﷺ ثلاث مرَّاتٍ: اصْبِرْ. ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي الرَّابِعَةِ أَوْ الثَّالِثَةِ: اطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ فَفَعَلَ. قَالَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يَمْرُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: آذَاهُ جَارُهُ. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: لَعْنَةُ اللَّهِ. فَجَاءَهُ جَارُهُ فَقَالَ: رُدِّ مَتَاعَكَ، لَا وَاللَّهِ لَا أُوذِيكَ أَبَدًا».

٤ - هنا مسألة يكثر سؤال الناس عنها، وهي: هل يجوز الدعاء على من ظلمني؟ والجواب أنه يجوز ذلك، والدعاء عليه يعني أن المظلوم رفع شكواه إلى من لا يضيع عنده حق. أخرج البخاري عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»، وأخرج أحمد وغير واحد من أصحاب السنن عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ أَنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: بَعْزَتِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يدعو على من ظلمه من أهل الكفر، ويذكرهم في صلاته، وَيَقْنَتُ بعد الركوع من الركعة الرابعة يشكوهم إلى من لا يرضى بالظلم ولا يحب أهله، أو قد يدعو عليهم في السجود. أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ (أي: اجعلها صعبة عليهم وفيها فحطٌ وغلاء)». ومُضَرٌّ: قبائل كثيرة كقريش وهذيل وأسد وتميم ومزينة وغيرهم، والمراد: الكفار منهم.

قال أهل العلم: وخير ما دعا به المظلوم على الظالم ما أخرجه أحمد وأصحاب السنن، عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى إِلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ» الحديث.

وأخرج الترمذي والنسائي عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ يَدْعُو وَيَقُولُ: «وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَأَنْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا» الحديث

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَصْلَحْ لِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَيْنِ مِنِّي، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي، وَأَرِنِي مِنْهُ ثَأْرِي».

والتأمل هنا فيما كان يدعوهُ ﷺ يجد فيه استعانةً بالله تعالى على الظالم، وطلباً للحق من القوي القادر، ورجاءً لاتباع الصواب في أخذ الثأر منه، دون اعتداء في هذا الدعاء على غير من ظلم، ولا سؤال لما لا ينبغي من الإثم وقطيعة الرحم.

ومما يجدر بالداعي أن يفقهه في دعائه على من ظلمه، أن دعوته هذه فيها استعجال لأخذ الحق من الظالم، وفيها تخفيف عنه، فقد أخرج أحمد وأبو داود وغيرهما بسند ضعيف، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُرِّقَتْ مِخْنَقَتِي (أي: قلادتي) فَدَعَوْتُ عَلَى صَاحِبِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُسَبِّحِي عَلَيْهِ، دَعِيهِ بِذَنْبِهِ».

والمقصود: إذا دعوت عليه فإنك ستخففين عنه عقوبة ذنبه، وتُنْقِصِي أجرك في الآخرة، وهذا يدل على أن الدعوة على الظالم قد تُستجاب في الدنيا، وتكون سبباً لسقوط العقوبة عنه في الآخرة أو تخفيفها.

٥- ومن مقامات التعامل مع الظالم ما أسماه أهل العلم مقام العدل، وقصدوا به أن يسيء المظلوم إلى الظالم بنفسه كما أساء إليه، أي: بنفس اللفظ أو الفعل، فإذا اعتدى أحدهم بسباب أو شتيمة فللمعتدى عليه أن يرد عليه كما قال، ومن آذى غيره في بدنه متعمداً فالقصاص مشروع إن أمكنت المماثلة.

ومن أمثلة ذلك: أن يلعن من لعنه، أو يقول: قَبَّحَكَ اللهُ فيقول: قَبَّحَكَ اللهُ، أو أخزأك الله فيقول: أخزأك الله، أو يقول: يا كلب يا خنزير، فيقول: يا كلب يا خنزير، وهكذا.

ومن أمثلة ذلك أن يتعمد قطع يد أو كسر سنٍّ فتقطع يده ويكسر سنُّه.

قال الله تعالى: ﴿وَلِإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

ويتبع هذا الحكم إباحة أن يسعى المظلوم في استرجاع حقه في الدنيا برفع شكواه إلى القضاء، أو إلى من يقدر على إعانته.

ومقام العدل الذي أذنت به الشريعة موافق للعقل والفطرة، فإن المظلوم له حقٌّ، وقد يكون دوام سكوته عن حقه سبباً في تعريض نفسه وأهله لما هو أسوأ وأصعب.

ثم إن الشرع يحب أن يكون الواحد منّا عزيزاً، ولا يحب أن يكون ذليلاً. قَالَ أحد التابعين: «كَأَنَّا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَذَلُّوا فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا».

وقد ذكر أهل العلم أنَّ اختيارَ المظلوم لمقام العدل، وسَعِيَه في ردِّ الإساءة بنفسه على من ظلمه، له أحكام وفقه يجدر به أن يقف معها، فمنها: أن يأمن حصول فتنة أكبر إذا أخذ الحق بنفسه، ومنها أن يعلم أنه استعجل أخذ حقه في الدنيا، ومنها أن يرد الإساءة كما هي بدون تجاوز منه أو اعتداء أو افتراء، فلا يجوز قتل غير القاتل إذا كان القتل عمداً، وليس للمظلوم أن يتبع هواه ويسترسل في قول السوء ويتمادى في فعله، ولكنه يراقب نفسه ليكون صادقاً، ويبدل ما أذن به الشرع لتحقيق حقه، ولعل هذا من عدل الإسلام الذي قامت عليه أحكامه، ومن رُقِي الشريعة التي تربعت بسببه في قلوب أهلها.

أخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا فَعَلَا الْبَادِي، مَا لَمْ يَعْتِدِ الْمَظْلُومُ». أي: إن إثم السبب الواقع من اثنين يكون على البادئ فقط، إلا أن يتجاوز الذي سُتِم في رده ويقول أكثر مما يجوز له، فيكون الإثم عليهما.

ومن أحكام رد الإساءة ألا يعتدي المظلوم على غير من ظلمه، كأن يسب والد من ظلمه ووالدته وأهله وعرضه.

فإن قال قائل: ماذا لو اعتدى هو عليّ وشتم والديّ وأهليّ؟ فالجواب أنه لا يباح لك أن تفعل مثله لأن أباه أو أمه لم يشتموك، ولكن لك أن تشتمه هو، وأن تطلب حَقك منه وفقاً للقوانين والأنظمة، أو وفقاً لأعراف الناس في ذلك.

ومن أحكام مقام العدل ألا يكون القصاص بفاحشة أو أمر محرم في ذاته ولا يباح بحال، كالزنا والقذف، فمن اعتدى بالزنا على أحد فليس للمظلوم أن يزني بعرض المعتدي وأهله، وكذلك حال القذف الذي هو اتهام بالزنا.

٦- ومن مقامات التعامل مع الظالم ما أسماه أهل العلم مقامَ الفضل، أي: أن تصبر على إساءته وتعفو عنه.

وقد جاءت آيات وأحاديث متعددة في دعوة المظلوم للعفو عن ظالمه وبيان فضل ذلك في ميزان الشرع. قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْطِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال ربنا سبحانه وتعالى بعد آية سورة النحل التي ذكرت مقام العدل: ﴿وَأَنِ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٦١) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٦٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿[النحل: ١٢٦-١٢٨].

وقال سبحانه في آية سورة الشورى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

والشرع يعلم أن هذا العفو قد يكون ثقیلاً على النفس، وقد يكون صعباً أمام الغير، ولذلك بينت نصوص القرآن أن هذا الأمر لا يطبقه إلا الذين صبروا، وهم أصحاب الحظ العظيم عند الله تعالى. قال ربنا جل وعلا: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٥) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤-٣٥].

وفي مقام الفضل جاءت كلمات النبي ﷺ لذلك الذي طلب الفتوى في ردِّ الإساءة إلى قرابته التي تؤذيه، فندبه إلى الصبر مُبيناً فضله وما ينتظر صاحبه. أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ (يعني: يتعمدون الإيذاء)، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفَهُمُ الْمَلَّ (أي: تلقي في وجوههم الرماد الحار كناية عن إثمهم وأجرك عند الله)، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ» أي: ناصر ومعين.

وهنا مسألة: هل الأفضل أن أعفو أو أردد الإساءة؟ والجواب أن العفو أفضل وأحسن، وهو أعلى مقاماً وقدرًا وأجرًا، فإنه يؤدي إلى أثر جميل، وانتصار على النفس وشرورها، وإغلاق لأبواب لا تُحمد عاقبتها.

ولكن ثمة أحوال لا يصح العفو فيها ولا نسكت فيها عن الظلم، كمن يسرق أموال الناس في مؤسسة ما، أو كمن يعطي عدونا أسرارنا.

وقد يكون الأولى ترك العفو كمن يغلب على ظنه أن عفوه عن المجرم الظالم سيعينه على ارتكاب مزيد من الجرائم.

٧- والمظلوم له أن يمسك عن مقام العدل ومقام الفضل ليلقى الظالم جزاءه عند ربه، في يوم يكون القصاص فيه بالحسنات والسيئات، ويود المجرم لو يفتدي من سوء ما ينتظره بأحب الناس إليه، يعني: يود لو أنه يقدم والديه وأولاده وجميع أهله ليأخذوا العذاب عنه وينال الرضا.

٨- ولقائل أن يقول: وماذا أفعل إذا وقعت في ظلم الغير؟ والجواب أن تبادر إلى التوبة بصدق، وأن تتحلل من المظلمة في الدنيا قبل أن يفجأك الموت.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ».

٩- فائدة يعلمها من خالط الناس واستمع إلى مظالمهم، فإنهم ليسوا جميعاً على الحق في دعواهم، فقد يدخل الوهم إلى أفهامهم بأنهم أصحاب حق وليسوا كذلك، أو قد يقودهم الحقد أو الحسد إلى أن يطلبوا ما ليس لهم، ثم يزعموا وقوعهم في الظلم، أو قد يكون أحدهم هو البادئ في الظلم ولم يحتمل انتصار المظلوم لنفسه، أو قد تصنع حكايات آبائهم وأمهاتهم المنقوصة آلاماً وأحزاناً وشعوراً بالظلم والاضطهاد في مُخَيَّلَاتِهِمْ، أو قد يقودهم جهلهم بأحكام الشريعة والتفريق بين الواجب والمندوب فيها إلى ما قالوه وما زعموه.

ومثل هذا الصنف من الناس له حقٌّ علينا، يقضي بأن نمنعه من الظلم، ونحول بينه وبين أمراض نفسه ونعيته عليها.

١٠- ومن المسائل النفيسة في الباب أن الجهر بالسوء مآذون به للمظلوم فقط وللمن لحقه شيء من ضرر الظلم، أما غيرهم من القرابة والأصحاب فليس لهم أن يؤذوا ويتجاوزوا الحد إلا إذا كان ذلك في معرض الشهادة، أو كانت لهم سلطة تنفع في ردع الظالم وإيقافه عن ظلمه، ولذلك قالوا: الدعاء من غير المظلوم ظلم.

١١- ولا يفوتني أن أذكر أن ثمة صنفاً من ألوان الظلمة، اعتدوا على ديننا وأبنائنا وعقولنا وأعراضنا، وسعوا في تفكيك أسرنا وتدمير تربيتنا عن طريق ما يبثونه من سموم الأغاني والمناظر القبيحة حال عرض أغانيهم، وعن طريق المشاهد التمثيلية التي لا تحتكم للشرع وتحمل مخالفات كثيرة، وعن طريق سعيهم في تغيير القوانين التي انطلقت من شريعة رب العالمين، وغير ذلك من قبيح فعالهم.

هؤلاء: مجاهدتهم باللسان وبالقلم واجب شرعيٌّ على كل غيور على هذا الدين، والتشهير بهم وفضحهم ليس من ظلمهم ولا من الغيبة المحرمة، إذا كان ذلك بالضوابط الشرعية المعتبرة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ختام الآية يقول لمن تدبرها: تَذَكَّرْ أن الله تعالى يسمع ما يصدر عنك من أقوال، واستحضر أنك مسؤول عنها بين يديه، وراقبه في خلوتك وجلوتك، واعتن بشأن لسانك، وجاهد نفسك، وجدِّد التوبة كلما زللت، وتَحَلَّلْ من أي مَظْلَمَةٍ قبل فوات الأوان.

ثم اعلم أن الله عليم بمقاصد الأقوال والأعمال، وعليم بمن بدأ بالظلم ممن كان مظلوماً في ذلك ومعذوراً، وعليم بحال من لَحَنَ في حجته وعمل على تحريفها ليأخذ حقَّ غيره.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾

ثلاثة أحوال ينال أصحابها عفو الله تعالى عنهم، ثلاث طرائق للخير وللقرّب من الرّبّ جلّ وعلا، ولتحصيل الثواب العظيم مما لا يليق بأهل التقوى أن يغفلوا عنها أو يجهلواها:

١- إبداء الخير وإظهاره: هذا هو الحال الأول، وهو الذي يُظهر فيه صاحبه ما يفعله من خير واجب ومستحب إذا أَمِنَ على نفسه من الرّياء، ولم يكن في إظهار هذا الخير إيذاءً للغير.

وكذلك يندب إظهار كل خير من قول أو عمل إذا غلبَ على الظن انتفاع الآخرين بذلك، بحيث يدفعهم إلى البذل والعطاء وفعل الخيرات كما فعل هو، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلمٌ في قصة دعوة النبي ﷺ للصدقة على قوم فقراء جاؤوه، إذ جاء في الحديث: «فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصُرَةً كَأَدَتْ كَفَّهُ تَعَجُّزَ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ» الحديث.

وقد ثبت إبداء الصدقة والخيرات وإظهارها في عددٍ من الأحاديث والآثار عن الصحابة والصالحين، كما الحال في إسرارها.

٢- إخفاء الخير: وهو الذي يحرص عليه فاعل الخير، وهو أقرب للتقوى والقبول، وأبعد عن شرور الرّياء وحبّ الظهور والعجب.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» الحديث.

٣- العفو عن السوء: دعوة إلى العفو وقول الخير وترك الانتقام، دعوة غير ملزمة فيها أجر عظيم لمن اختارها، وهذا العفو هو مقام الفضل الذي جاء بيانه في الآية السابقة. أخرج مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ العفو عند القدرة على أخذ الحق يحتاج إلى قوة في النفس، وصبر على رغبتها في الانتقام من الظالم، ولكن التأمل في ثواب من يفعل ذلك يعين في مخالفة ما تأمر به النفس وتشتهي.

الثواب هنا يتعلق بما يرجوه أهل الإيمان من خالقهم، وهو السَّتر عليهم، والعفو عنهم مع علمهم بأنه قادر على عقوبتهم، فمن أظهر الخير أو أخفاه أو عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

تعددت أدلة كفر اليهود والنصارى في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو مما أجمع عليه علماء الأمة وفقهاؤها، وهو معلوم من ديننا بالضرورة، والآية التي معنا واحد من هذه الأدلة.

تذكر الآية حال اليهود والنصارى وإن كانت بعمومها تكلمت عن فريقين من الناس: فريق لم يؤمن بالله ولا بركن من أركان الإيمان ولا بالوحي الذي نزل من السماء، وفريق آمن بالله تعالى ولكنه فرّق في إيمانه بين رسول ورسول، وكتاب وكتاب، كما فعل اليهود والنصارى.

آمن اليهود بموسى عليه الصلاة والسلام وبالتوراة ولم يؤمنوا بيسى ولا بمحمد عليهما الصلاة والسلام، ولا بالإنجيل والقرآن، وآمن النصارى بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا بنبينا ﷺ ولا بالقرآن، وآمنت أُمَّتُنَا بموسى وعيسى ومحمد وجميع أنبياء الله تعالى ورسله دون تفريق بين أحد منهم، وآمنت بالكتب السماوية التي نزلت من عند الله جميعاً. قال الله تعالى: ﴿أَمَنْ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ أَمَنْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أهل الإيمان يؤمنون بالكتب السماوية وبمن أنزلت عليهم من الرُّسل، ويُدرِكون ويعلمون أنه لا يسعهم ولا يسع العالمين بعد بعثة مُحَمَّدٍ ﷺ إلا أن يؤمنوا به وبما جاء به، وأنه لا يقبل منهم غير ذلك.

وهذا يعني أن من عادى واحداً من الرسل فقد عادى الآخر، بل عادى جميع الرُّسل والملائكة؛ فإن مشكاة الإيمان بهم واحدة، ويعني كذلك أن من كفر بواحد منهم كان كافراً بالله العظيم ودينه الحق، ويعني أنه من كذب نبياً واحداً وكفر به، كان كافراً بالله العظيم، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

والمصيبة أن إنكارهم لصدق بعض الرسل وتصديقهم لآخرين لم يكن عن دليل وعلم وعقل، بل كان عن هوى وحسد واتباع لحظ النفس، وتعصب لما كان عليه آبائهم، لأنه لا مسوغ لهذا التفريق بين الرسل، فالجميع مرسل من عند الله، والجميع جاء بالمعجزات والتشريع.

ثم هم يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً كما ذكرت الآية، أي: يريدون أن يتخذوا بعقيدتهم الفاسدة طريقاً إلى النجاة من سوء المنقلب في الآخرة، وكيف ينجون والباطل أحاط بعقيدتهم وعبوديتهم.

هم لا يريدون فقط، ولكنهم يفعلون ويعتقدون، ولكن الآية عبّرت بلفظ الإرادة لتدل على أن غايتهم هذه صعبة ولن تكون، وسيبقى الحق ظاهراً وله أهله الذين ينشرونه ويحمونه بالعلم والقوة.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (١٥١)

هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم في عقائدهم، وفرّقوا بين رسل الله تعالى في إيمانهم، ولم يستقيموا كما أمر الله، هم أهل الكفر المتحقق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا وهم.

هؤلاء أوردوا شُبُهًا متعددة في جحودهم وإنكارهم للوحي الذي نزل على محمد ﷺ، ولكن المتأمل فيها يجد مثلها فيمن آمنوا به من الأنبياء، بل يجد سقوطها عقلاً وشرعاً، فلم يبق في طريقتهم للإيمان إلا أنهم يؤمنون بما يشتهون ويكفرون بما لا يشتهون.

قال الله تعالى في بيان كفرهم الثابت والراسخ: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

ولا يقولن قائل: ولماذا نطق القرآن بكفرهم وهم مؤمنون بالله؟ والجواب أن الله الذي يؤمنون به أنزل عليهم كتباً، وأرسل إليهم رسلاً ليدلهم عليه، ويُعرفهم كيف يعبدوه، فإذا كفروا بما أُرسل فكيف يهتدون إليه، وكيف يُقبلون على ما يحب ويجتنبون ما لا يحب، وكيف تقوم أركان دينهم من صلاة وصوم وزكاة وأعمال خير وإحسان!

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ الكافرون الذين بلغتهم دعوة الإسلام، ثم استهانوا بها وتكبروا عليها وأعرضوا عنها، ولربما قاتلوا أهلها وحالوا دون وصول دعوتهم للعالمين، هؤلاء أعد الله لهم عذاباً فيه الإهانة والذلة والصغار والخزي جزاء بما كانوا يكسبون.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (١٥٢)

هذه هي أمة محمد ﷺ التي سارعت للاستجابة لأمر الله تعالى، وتميزت بين الأمم بصدق إيمانها وصحتها، فإنها تتبعت أدلة هذه الشريعة وعلمت أنها الحق عن علم وفهم ودراية، ثم عقدت قلبها على ما فيها من عقائد وأحكام، ثم تسابقت في نشرها في العالمين.

ومن الذين يدخلون في عموم الآية، من كان في أمة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ممن لم يفرق بين رسل الله تعالى ومات قبل بعثة نبينا ﷺ، أو شهد بعثة نبينا عليه والسلام وآمن به وصدق. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَمَةٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٩]

قال الله تعالى في حق اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿[البقرة: ١٣٥-١٣٦]، وقال ربنا جل وعلا مخاطباً نبيه ﷺ وأمته: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

هؤلاء هم المؤمنون حقًا، وهم الذين سيعطيهم ربنا من فضله، وسيجزئهم عن ذلك أوفر الجزاء وأحسنه، وسيرضيهم في جنته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ مع العقيدة الصحيحة يأتي غفران الذنوب التي تاب صاحبها منها، ويكون معها أقرب إلى أن يستر الله عليه ويتجاوز عنه. أخرج مسلم عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّجَلْ: وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً (قُرَابَ يَعْنِي: مَلءٌ) لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيْتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْنَتْ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (١٥٣)

يعلمُ كبراء اليهود والنصارى أن محمدًا ﷺ على الحق، وأنه رسول من رسل الله، وأنه خاتم النبيين، والآية جاءت تصف عنادَ اليهود في طبعهم، وتعتتهم في الكفر والإلحاد، وكيف منعهم ذلك من الإيمان والانقياد، وكيف طلبوا من نبينا عليه الصلاة والسلام بأن ينزل عليهم كتابًا من السماء دفعة واحدة كما نزلت التوراة مكتوبة على سيدنا موسى عليه السلام، أو أنهم يريدون أن ينزل عليه كتابٌ يخصهم أو يخص سادتهم بالذكر والخطاب.

يذكر الله تعالى أن هذا الأمر ليس غريبًا عليهم، فقد سأل أجدادهم وأسلافهم نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يروا ربهم جهرة، وذلك لما اختار موسى سبعين رجلًا من قومه، وذهبوا ليسألوا ربنا أن يتوب على بني إسرائيل من عبادتهم للعجل، فقد كان موسى عليه السلام يُناجي ربه، والذين معه طمعوا في رؤية الله تعالى، فطلبوا من نبيهم رؤية الله ليؤمنوا به ويصدقوه، طلبوا ذلك مع أن المعجزات التي رأوها من قبل وعاشوها تتابعت عليهم وكثرت فيهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

والأمر لم يقتصر على طلبهم إنزال كتاب من السماء عليهم، بل جاء السياق القرآني في الآيات الآتية يبين عددًا من خصالهم التي تدل على أن العناد طبع فيهم وإن جاءهم من الآيات ما جاءهم.

الخطاب الرباني لنبية عليه الصلاة والسلام في الآية يقول: لا تعجب مما طلبوه، ولا تحزن على ما تجده من غرائب أحوالهم في الجُرْأَةِ على الله تعالى ودينه، فهذه طريقة أسلافهم وأجدادهم في التعامل مع الأنبياء، وهذه علامة من اختار طريق الكفر والمعاداة ولو جاءت المعجزة أمام عينيه.

وليست المشكلة في أنهم طلبوا رؤية الله تعالى، ولكن لأنهم اشترطوها ليؤمنوا، فكأنهم يقولون: كل الآيات التي جاءتنا من قبل، وكل المعجزات التي عشناها لم تُدْخِلْ الإيمانَ إلى قلوبنا.

أقول ذلك لأن عددًا من أنبياء الله تعالى طلبوا من خالقهم وسيدهم ومولاهم ما يزداد به يقينهم ويفرحون به، كما طلب سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من ربه أن يُريَه كيف يحيي الموتى، وكما طلب سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله أن يراه. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ولا تظنوا أن هذا التَّعَنُّتُ والتَّكَلُّفَ بطلب المعجزات مقتصرٌ على اليهود، بل هو خَصْلَةٌ معلومة ومعهودة في كل من أحاطت به خطيئة الكفر، وعمي بصره، وضلَّ وأضلَّ، كما فعل كفار مكة ومشركو العرب وصناديدها في عتوهم واستكبارهم، وقد ذكر القرآن شيئًا مما اشترطوه ليؤمنوا ويُسَلِّمُوا، وكيف أنهم قصدوا بما طلبوه التعجيز والاعتذار عن عدم الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۙ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۙ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرؤهٗ ۖ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

ولعل الذي دفعهم إلى مثل هذه المقترحات ظنهم أن المعجزات تأتي بحسب ما يطلبون لا بحسب حكمة الله تعالى وعلمه وإرادته. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ ﴿ظلموا أنفسهم بامتناعهم من الإيمان إلا برؤية الله تعالى، وبكثرة سؤالهم واعتدائهم فيه، فأما أنهم ربنا بصاعقة من عنده بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم. والصاعقة: نارٌ محرقةٌ كالتي تكون مع السحب والأمطار والرعود، سببت رجفتهم وخوفهم ثم موتهم.﴾

قال الله تعالى عنهم بعد أن أخذتهم الصاعقة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] أي: إن الله تعالى أحياهم بعد طلب موسى عليه الصلاة والسلام ودعائه بذلك، أحياهم ليستوفوا آجالهم المكتوبة عند الله؛ معجزةً أخرى لنبيه عليه الصلاة والسلام.

قال الله تعالى عن دعاء موسى لهم بعد الصاعقة: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَبْعِينَ نَجَاةً أَسْفَلَ مِنِّي﴾ ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائِي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَعْتَدْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ﴿تبين الآية مشهداً جديداً من مشاهد سرعة ضلال بني إسرائيل وعدم ثبات الإيمان في قلوبهم، لثلاث نعجب كثيراً مما نراه منهم في جميع الأزمان، ولثلاث يدخل الحزن واليأس إلى قلوبنا من عداوتهم ومكرهم.﴾

تشير الآية إلى ما حصل معهم بعد أن وصلوا طور سيناء في طريق توجههم إلى الأرض المقدسة، وبعد أن نجاهم الله ممن كان يدعي الربوبية والألوهية في الأرض وأغرقه وقومه، وبعد أن رأوا معجزات سيدنا موسى عليه السلام، أقول بعد كل هذا: ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ليناجيه وليلتقي منه الألواح التي فيها التوراة والشرعة، ومكث هناك أربعين ليلة، وهي التي ذكرت في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١-٥٢]، وقول الله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فلما ذهب وغاب عنهم، واستخلف عليهم أخاه هارون عليهما السلام، استضعفوه وظنوا أن موسى هلك، فاتخذوا العجل إلهًا ومعبودًا من دُون الله، وهذا العجل أغراهم به السامري كما في سورة طه، وصنعه لهم من ذهب وفضة من حليهم، فظلموا أنفسهم بشركهم ظلمًا كثيرًا. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ مُوسَى بَيْعَتَهُمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وقال سبحانه: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٧﴾ فأخرج لهم عجلًا جسدًا له، خوارًا فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿[طه: ٨٧-٨٨].﴾

الآية تذكر أن الله تعالى عفا عنهم بعد ذلك، وغفر لهم جُرمهم العظيم بما أشركوا، وأمهّلهم ليكونوا على الجادة ويستقيموا، ويحسنوا شكر النعم.

ومغفرة الله لهم كانت بعد أن رجع إليهم نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه التوراة التي أنزلها الله عليه، ثم وجدهم قائمين على عبادة العجل الذي صنعوه وأشربت قلوبهم حُبّه وتعظيمه، فذكرهم بالله العظيم، وأحرق العجل ونثره في اليمِّ، وأمرهم بالتَّوبَةِ إِلَى مَنْ بَرَّاهُمْ وَخَلَقَهُمْ، فَرَجِعُوا إِلَى التَّوْحِيدِ الْحَقِّ وَتَابُوا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

وكانت صِفَةُ توبَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَلَدٍ وَوَالِدٍ وَغَيْرِهِمَا، وَلَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، ففَعَلُوا مَا أَمَرُوا بِهِ، فَغَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّا كُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

والمُتَأَمِّلُ لِمَا جَرَى مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَلْحَظُ شِدَّةَ مَا أَمَرُوا بِهِ، يَعْنِي: لَيْسَ سَهْلًا أَنْ يُؤْمَرَ التَّائِبُ بِقَتْلِ غَيْرِهِ، لَكِنْ تَأَمَّلُوا جُرْمَهُمُ الْعَظِيمَ، كَيْفَ يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ تَبْدِيلُ دِينِهِمْ، وَكَيْفَ يَعْدِلُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ وَصَرَفِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ لِأَبْسَطِ مَا يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ، هُمْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ مَا أَمَرُوا بِهِ كَفَّارَةً لِدِينِهِمْ وَجَابِرًا لِمَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْإِثْمِ، فَسَقَطَتِ الْعُقُوبَةُ الْأُخْرَوِيَّةُ عَنْهُمْ، وَهِيَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ جَوْدَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنَبِيَّهُمْ حَزَنُوا عَلَى مَنْ قُتِلَ، فَأَوْحَى اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِلَى مُوسَى: مَا يَحْزُنُكَ؟ أَمَّا مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَحَيِّ عِنْدِي يُرْزَقُونَ، وَأَمَّا مَنْ بَقِيَ فَقَدْ قَبِلَتْ تَوْبَتُهُ؛ فَسَرَّ بِذَلِكَ مُوسَى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ.

ثم ذهب عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَبْعِينَ رَجُلًا إِلَى الْمِيقَاتِ الْمَوْعُودِ مَعَ رَبِّهِ لِيُعْلِنُوا بَرَاءَتَهُمْ مِمَّا فَعَلُوا، وَيُجَدِّدُوا الْعَهْدَ مَعَ خَالِقِهِمْ كَمَا بَيَّنَّتْ آيَةُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ آفَةَ الذِّكْرِ.

وانتبهوا هنا إلى أَنَّ اتِّخَاذَهُمُ الْعِجْلَ كَانَ قَبْلَ طَلِبِهِمْ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّ الْآيَةَ ذَكَرَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ فِي أَوَّلِهَا جَاءَتْ فِي مَعْرُضِ بَيَانِ مَا فَعَلُوهُ مِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ هُوَ أَكْبَرُ مِمَّا فَعَلَهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ مَعَ رَسُولِنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ طَلِبُهُمْ رُؤْيَا اللَّهِ وَاشْتِرَاطُهُمْ ذَلِكَ لِإِيمَانِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ الْآيَةَ عَطَفَتْ عَلَى هَذَا الْجُرْمِ أَمْرًا آخَرَ فَعَلُوهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَهُوَ اتِّخَاذُهُمُ الْعِجْلَ إِلَهًا.

وهذا وارد في لغتنا إذا أردنا معاتبة أحدهم على أمر فعله الآن، فنعاتبه ثم نعمل على تذكيره بأخطاء سابقة قائلين له: ثم إنك فعلت كذا وكذا، نقصد في الماضي.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة ظاهرة وبيّنة على تَمَرُدِهِمْ وفسادهم، وآتيناه التوراة التي فَرَّقَ الله بها بين الحق والباطل، والضلالة والهدى، وجعلناها حُجَّةً قوية عليهم لعلهم يهتدون. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُنْفِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

الله تَعَالَى أَخَذَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِيقَ، بَأَن يُؤْمِنُوا بِهِ وَحَدَّهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَن يَعْمَلُوا بِالتَّوْرَةِ وَيُبَلِّغُوهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ هُنَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُوَفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ وَمِيثَاقِهِ، وَلَمْ يُطِيعُوا فِي تَبْلِيغِ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ بِقُوَّةٍ وَعَزِيمَةٍ وَحَزْمٍ وَهَمَّةٍ وَامْتِثَالٍ وَإِتْقَانٍ، فَأَرَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَرَفَعَ الْجَبَلَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ لِيَمْتِثُوا أَمْرَ اللَّهِ وَعَهْدَهُ، فَالْتَزَمُوا وَسَجَدُوا، وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَعْلَى خَشْيَةً أَن يَسْقُطَ عَلَيْهِمُ الطُّورُ، وَهُوَ الْجَبَلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا فِيهِمُ النَّفْثَ الْأَعْلَى وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]، أَي: لَعَلَّكُمْ تُحَقِّقُونَ تَقْوَى اللَّهِ وَمَخَافَتَهُ كَمَا أَمَرَ.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مخالفة أخرى من مخالقاتهم التي لا تنتهي، والتي يزول بمعرفتها العجب من حالهم والحزن على فعالهم، وذلك يوم أمرهم الله تعالى بدخول بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْأَكْلِ مِنْ خَيْرَاتِهِ، وَأَمْرَهُمْ أَن يُقَاتِلُوا وَيُجَاهِدُوا مَنْ فِيهِ مِنَ الْعَمَالِقَةِ الْكَنْعَانِيِّينَ الْجَبَّارِينَ، وَوَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُطِيعُوا وَضَعُفُوا، وَخَافُوا الْقَوْمَ الْجَبَّارِينَ فِيهَا، وَامْتَنَعُوا مِنَ الدُّخُولِ وَرَدُّوا قَائِلِينَ: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَعَاقَبَهُمُ بِالتَّشْرِيدِ وَالضِّيَاعِ، وَحَرَمَهُمُ مِنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وَبَعْدَ مُرُورِ فِتْرَةِ الْعَذَابِ وَخُرُوجِهِمْ مِنَ النَّارِ الَّذِي تَوَفَّى اللَّهُ فِيهِ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ يُوْسُفَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاسْتِنَافِ الْقِتَالِ لِفَتْحِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَهَزِيمَةِ أَهْلِهَا، فَجَمَعَ يُوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ تَبَقَّى مِنْ قَوْمِهِ وَقَاتَلَ بِهِمْ، حَتَّى تَحَقَّقَ لَهُمُ النَّصْرُ، وَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْفَتْحِ.

وَبَعْدَ أَنْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْ بَابِهَا دُخُولَ الْخَاشِعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْفَتْحِ بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ، الْخَاضِعِينَ لَهُ فِي سَاعَةِ النَّصْرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ، وَأَنْ يَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوا لِمَتَنَاعِهِمْ مِنَ الْقِتَالِ فِي الْمَعْرَكَةِ الْأُولَى فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ أَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَيُّ: خَاضِعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى، رَاكِعِينَ مُنْحَنِينَ تَعْظِيمًا لَهُ وَشُكْرًا، وَلَكِنَّهُمْ كَمَا أَخْبَرَتِ الْآيَاتُ اسْتَخَفُّوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ وَخَالَفُوهُ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ (أَي: أَدْبَارِهِمْ)، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ». يَعْنِي: بَدَّلُوا فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ سُخْرِيَةً وَتَلَاُعًا؛ أَمَّا الْفِعْلُ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لَهُمْ ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فَلَمْ يَدْخُلُوا خَاضِعِينَ، وَإِنَّمَا دَخَلُوا مُسْتَهْزِئِينَ مُسْتَكْبِرِينَ رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ، يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، أَيُّ: عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَفِي رَوَايَةٍ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ قَالُوا: «حِطَّةٌ»، فَأَيُّ كُفْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى وَاسْتَهْزَاءٍ هَذَا.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ تَذَكِيرٌ بِعَصْيَانِهِمْ فِي تَعْظِيمِ يَوْمِ السَّبْتِ، وَذَلِكَ لِمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصْطَادُوا فِيهِ لِيَتَفَرَّغُوا لِلْعِبَادَةِ، وَأَحَلَّ لَهُمْ ذَلِكَ بَاقِيَ الْأَيَّامِ، فَاسْتَخَفُّوا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَاحْتَالُوا عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَصَارُوا يَحْبِسُونَ الْحَيَاتَانَ الَّتِي ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِكَثْرَتِهَا يَوْمَ السَّبْتِ، يَحْبِسُونَهَا بِطَرَائِقَ خَاصَّةٍ، ثُمَّ يَأْخُذُونَهَا بَعْدَ يَوْمِ السَّبْتِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْفَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، وَقَدْ أَنْكَرَتْ عَلَيْهِمْ طَائِفَةٌ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: إِنَّمَا صِدَّنَاهُ يَوْمَ الْأَحَدِ حِينَ أَخَذْنَاهُ، وَفِي ذَلِكَ نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فَكَانَ مِنْ سُوءِ مُتَقَلِّبِهِمْ وَجَرَائِهِمْ أَنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَمَسَحَهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ خَاسِئِينَ، أَيْ: ذَلِيلِينَ مُهَانِينَ، بِسَبَبِ اعْتِدَائِهِمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا فَرَدْدَهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝﴾ [النساء: ٤٧].

وأخرج مسلمٌ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ سُئِلَ ﷺ عَنْ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ الَّتِي كَانَتْ بَعْدَهُمْ، هَلْ هِيَ مِنْ نَسْلِ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ الَّتِي مُسِخٌ إِلَيْهَا الْيَهُودُ؟ فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَمَسِّحْ قَوْمًا فَيَجْعَلْ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقَبًا، وَإِنَّ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ».

فَالْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ لَيْسَتْ مِنْ نَسْلِهِمْ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ نَسْلِ الْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ الَّتِي أَوْجَدَهَا اللَّهُ قَبْلَهُمْ، أَمَا هُمْ فَقَدْ مُسِخُوا عَلَىٰ هَيْئَتِهَا ثُمَّ أَمَاتَهُمُ اللَّهُ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَوْلُهُ: «فَمَسَحَهُمُ اللَّهُ قِرْدَةً بِمَعْصِيَتِهِمْ، يَقُولُ: إِذْ لَا يَحْيَوْنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، قَالَ: وَلَمْ يَعِشْ مَسِخٌ قَطُّ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ وَلَمْ يَنْسَلْ». قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝﴾ [البقرة: ٦٥].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِيثَاقًا شَدِيدًا وَقَوِيًّا بِأَنْ لَا يَشْرَكُوا وَلَا يَعْبُوهَا، وَأَنْ يَقُومُوا بِقَائِمَةِ دِينِهِمْ، وَيَحْفَظُوا تَوَارِثَهُمْ مِنَ الضِّيَاعِ وَالتَّحْرِيفِ، وَلَكِنْهُمْ ضِيعُوا مَا اسْتَحْفَظُوا عَلَيْهِ، وَخَالَفُوا مِيثَاقَهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَكَفَرُوا.

﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْظَمَ مَا اقْتَرَفَتْهُ أَيْدِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ تَذْكُرِ الْآيَةَ هُنَا عِقُوبَةُ اللَّهِ لَهُمْ إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِقُلُوبِهِمْ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: تَرَكْتَ الْآيَةَ بَيَانِ ذَلِكَ لِتَنْطَلِقَ أَذْهَانُنَا بِالتَّفَكِيرِ بِعَظَمِ مَا حَلَّ بِهِمْ وَمَا ذَاقُوا، وَعَظَمَ مَا يَنْتَظِرُ الْمَكْذِبِينَ مِنْهُمْ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ.

وَمَعْلُومٌ لَدَيْكُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَعَنَهُمْ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَأَزَالَ مَلِكَهُمْ، وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ وَشَتَّتَهُمْ، وَضَرَبَ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكِنَةَ عَلَيْهِمْ أَيْنَمَا كَانُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ النَّاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عِقُوبَاتِ الدُّنْيَا، وَهَكَذَا يَفْعَلُ الْكُفْرَ بِأَهْلِهِ، وَهَكَذَا تَفْعَلُ كِبَائِرُ الذُّنُوبِ بِأَصْحَابِهَا.

نَقَضَ بنو إسرائيل المَوَاقِيقَ، وخالفوا العهود التي أخذها عليهم أنبياءهم من الإيمان بما أمرهم به الله تعالى، ومن الاستقامة على الشريعة التي ارتضاها لهم.

كثير من بني إسرائيل اعتدوا على مقام الربوبية والألوهية، وكفروا بالمعجزات التي كثرت فيهم وتنوعت، ثم تناولوا أنبياء الله وتتابع أذيتهم لهم حتى وصل الحال بهم إلى قتل غير واحد منهم.

ومما زعموه في سبب امتناعهم عن اتباع النبيين، أن قلوبهم غلف، أي: مُغْلَفَةٌ وعليها غطاء يمنع دخول الهداية إليها، ولا تستطيع أن تدرك شيئاً مما جاء به النبي ﷺ، كانوا يقولون ذلك لتيسير نبينا من دعوتهم، ولقطع طمعه في إسلامهم، ولإدخال الحزن عليه وعلى صحابته.

قالوا ذلك كما قال مشركو مكة الذين صدوا عن دعوة محمد ﷺ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مَّا نَدْعُوْنَ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٠].

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذه حقيقة قلوبهم التي حُجِبَ عنها نور الهداية بما كسبت أيديهم، وبما اختاروه من طريق الكفر والشرك والعداء والإصرار على الذنوب، وإنكار المعجزات والبراهين التي عاشوها، وبما ذكرته الآية من نقضهم المواقيع وقتلهم الأنبياء.

ختم الله على قلوبهم وطبع عليها، وأغلقها فلم تعي رسالة الأنبياء، ولم تسارع في الاستجابة إليها، ولم تنظر في آيات الله الكونية والشرعية، وبقي الحال هذا فيهم حتى أصبح الكفر بآيات الله تعالى لهم طبعاً وحياة، واختفى نور الإيمان في معيشتهم إلا عند قليل منهم، أو أن إيمانهم يظهر في أحوال دون أحوال، ويؤمنون ببعض الكتاب ويتركون بعضاً وفقاً لأهوائهم.

﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيماً﴾ (١٥٦)

تكرر وصف الآيات لهم بالكفر لبيان شدة عداوتهم لدين الله وأنبيائه، أو للإشارة إلى كفرهم بنبي الله عيسى عليه السلام على وجه الخصوص، وكفرهم بسبب ما قالوه عن الطاهرة المُطَهَّرَةِ أُمَّتًا مَرْيَمَ عليها السلام ونسبوه إليها.

أطلق اليهود ألستهم في مريم عليها السلام، واتهموها باقتراف الفحش والرذيلة مع رجل اسمه يوسف النجار، وقد أخذوا مقالة قومها لها لما جاءت بعيسى، وقالوا: إنها جاءت بولد من الزنا، كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا لِمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) يَتَّخِذَتِ هُنَّ مَكَانَ آبَائِكُنَّ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كُنْتَ بِغَيًّا ﴿ [مريم: ٢٧-٢٨].

وصفت الآية كلامهم عنها بأنه بهتان، والبهتان هو الكلام الذي يَبْهَتُ سامِعَه لغرابته وبعده عن الصدق والحقيقة، وهو الكذب البواح بعينه.

ووصفت الآية هذا البهتان بأنه عظيم، أي: فيه كذب شديد على الله وأوليائه، وهو عظيم في الميزان، وله وقع شديد على الغيورين على أئمة الهدى من نساء العالمين.

تأملوا معي كيف دافع القرآن ودافعت السنة عن مريمَ بنتِ عمرانَ عليها سلام ربي، وكيف جاءت العناية برفع قدرها، فهي العفيفة الصالحة المصطفاة من عند الله تعالى، وقد نزلت سورة كاملة باسمها، واصطفاه الله من ذرية الرجل الصالح عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جاءت تسمية سورة بأكملها في القرآن باسمه واسم أهله، وهي سورة آل عمران.

وهي التي نَذَرْتُهَا أُمُّهَا لخدمة بيت الله المُقَدَّس، والتي استجاب الله دعاءَ أُمِّهَا فيها لما أعادتها من الشيطان الرجيم، وهي أُمُّ نَبِيِّ الله عيسى عليه الصلاة والسلام، وهي صِدِّيقَةُ آمَنَتْ بخالقها إِلَهًا واحدًا، وصدّقت برسله وكتبه واليوم الآخر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ نِعَمٌ كَثِيرٌ﴾ [سورة التحريم: ١٢].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمْسُهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرِيَمَ وَابْنِهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وسيدتنا مريمَ بنتُ عمرانَ هي التي أنبتها الله نباتًا حسنًا فجعلها بالتقوى، وأكرمها بحسن الخلق، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين، كما دلَّ على ذلك قول الله: «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا»، أي: كان هو القائم عليها رعاية وتعليمًا وإنفاقًا.

وهي التي جاء في حقها ما أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَّ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَذَرُونَ لِمَ خَطَّطْتُ هَذِهِ الْخُطُوطُ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ الْجَنَّةِ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ ابْنَةُ مُزَاحِمٍ».

وأخرج البخاري ومسلم عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ». أي: خير نساء زمانها مريم عليها من الله السلام، وخير نساء زمانها خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرِيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». والثريد هو نوع من الطعام يحوي خبزًا ولحمًا كانت العرب تعدّه أفضل أنواع الأكل.

أما يوسف النجار الذي اتهموها به، فليس له ذكر في النصوص الشرعية عندنا، وغاية ما ذكره المفسرون عنه أنه رجل من الأخيار الصالحين، وأنه كان مِمَّنْ صدَّقَ مريمَ في قولها، وَمِمَّنْ أعانها وولدها عليهما السلام إلى أن ظهر الأمر بين الناس.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧)

وهذا من أسباب غضب الله على اليهود ولعنهم وتحريم الطيبات عليهم، فقد بلغ الحال بهم بعد خوضهم في عرض أُمَّتِنا مريم عليها السلام، أَنْ تَفَاخَرُوا بدعوى قتل نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجأهروا بذلك على الملأ.

ومن معالم انتقاصهم من قدر نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واستهزائهم به، وتهاونهم بما فعلوا، أنهم وصفوه بأنه رسول الله كما في الآية، فلم يقولوا ذلك إيمانًا به أو ندماً على ما فعلوا، ولكنه تَهَكُّمٌ منهم عليه وعلى من يُعَظِّمُونَهُ وَيُقَدِّرُونَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، أَيُّ جرأة على الباطل هذه!

ومن غرائب ما حصل مع دعواهم بأنهم قتلوه وصلبوه، أَنْ صَدَّقَتْهُمْ أَكْثَرُ طَوَائِفِ النِّصَارَى، وتبعتهم في اعتقاد صلب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصنعت من مقولتهم عقيدة يوالون فيها ويعادون.

ومن الغرائب كذلك أنه في القرن الميلادي العشرين وهو القرن المنصرم، أصدر المجمع الفاتيكاني الثاني قرارًا بتأكيد ما ذهب إليه البابا بولس السادس من تبرئة اليهود من دم المسيح، وهذا ما يراه كثير من النصارى في زماننا، مع أن رواياتهم في الأنجيل المعتمدة تقول خلاف ذلك.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ هذا كلام أحكم الحاكمين، وأصدق القائلين، الْمُطَّلَعُ على ما كان وما سيكون، العالم بالضمائر والظواهر والغيب والشهادة، الذي قَدَّرَ دعوى اليهود هذه بأنهم قتلوا المسيح ليبتلي ما في صدور الناس، وليُمَحِّصَ صدقهم في قبول ما أخبر به الشرع، ويختبر سَعْيَهم لرضاه.

الله ربنا وربهم يبين ما حصل مع سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتابه العزيز الذي هَمَّن على جميع الكتب، والذي بقي معجزة خالدة لا تناله أيدي التحريف ولا لعب النُسخ والنُكُت.

بعث الله سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بني إسرائيل، ودعاهم بدعوة سيدنا موسى والأنبياء جميعاً من قبله، وجاءهم بمعجزة إبراء الأعمى والأبرص والأخرس، وإحياء الموتى بإذن الله، وشكّل الطين على هيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طيراً بإذن الله، كل ذلك دلالة على أنه رسول من عند الله، وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَسَعَوْا فِي إِيْذَانِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ أَرَادُوا التَّخْلُصَ مِنْهُ لِمُخَالَفَتِهِ بَعْضُ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَذَهَبُوا إِلَى مَلِكٍ ذَلِكَ الزَّمَانِ وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ هُنَاكَ رَجُلًا يَفْتِنُ النَّاسَ وَيُضِلُّهُمْ، وَأَنَّهُ يَفْسِدُ الرِّعَايَا عَلَى الْمَلِكِ، يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ سَيِّدَنَا عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

كتب هذا الملك إلى نائبه في القدس وطلب منه أن يقتل سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويصلبهُ ويريحَ الناس منه، فامتلأ إلى أمر الملك، وذهب هو واليهود إلى المنزل الذي فيه سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَلْقَى اللَّهُ شَبْهَهُ عَلَى رَجُلٍ آخَرَ غَيْرِهِ، فَأَخَذُوهُ وَصَلَبُوهُ، كَمَا نَقَلَ ذَلِكَ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، وَلَعَلَّهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

واليهود لم تقتصر دعواهم على قتله، ولكنها امتدت إلى زعمهم بأنهم صلبوه، والصلب هو أن يُرْبَطَ الشَّخْصُ عَلَى خَشَبَةٍ، وَتَمُدُّ يَدَاهُ جَانِبًا، وَهَذَا الصَّلْبُ قَدْ يَكُونُ قَبْلَ الْقَتْلِ أَوْ بَعْدَهُ. لم يُقْتَلَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم يصلب، ولكن صورته وقعت على غيره فظنوه هو، فكان كلامهم في ذلك كلامَ كذبٍ وافتراءٍ وزورٍ وبهتانٍ.

لم يكن الجنود الذين جاؤوا لأخذه يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية، ولذلك استعانوا بغيرهم ليدلهم عليه.

والروايات التاريخية عندنا في كتب التفسير والتاريخ في بيان تفاصيل ما حصل معه تدور حول ثلاث روايات، لعلهم أخذوها ممن أسلم من أهل الكتاب:

الأولى: أن أحد تلاميذ عيسى عليه الصلاة والسلام هو الذي أخبر اليهود عن مكان وجوده ليقتلوه، وهو يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ، وهو الذي ألقى الله عليه شبه عيسى، وهو الذي عاقبه الله على فعلته بتمكين اليهود من قتله وصلبه بدل نبي الله عيسى.

الثانية: أن شَبْهَهُ أُلْقِيَ عَلَى جَمِيعٍ مِنْ كَانُوا، وَهَذَا الَّذِي أَوْقَعَ الْجُنُودَ وَمِنْ مَعَهُمْ فِي حَيْرَةٍ كَبِيرَةٍ وَشَكٍّ فِي شَخْصِ النَّبِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثالثة: جاءت فيما أخرجه النسائي في السنن الكبرى، وابن أبي شيبة في المصنف، وغير واحد من أهل التفسير بأسانيدهم، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قال: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ -وَفِي الْبَيْتِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ- يَعْنِي: فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي. ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَيَقْتُلُ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي؟ فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ ذَلِكَ الشَّابُّ، فَقَالَ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا. فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ ذَاكَ. فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ عِيسَى وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ رُوزَنَةِ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ. قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا السَّبَّةَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَبُوهُ وَكَفَرُ بِهِ بَعْضُهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: كَانَ اللَّهُ فِيْنَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ. وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. وَهَؤُلَاءِ النُّسْطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَتَطَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ، فَقَتَلُوهَا، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

واستطرادًا في بيان مسألة الصلب عند النصارى وموقفنا منها، أقول مستعينًا بالله:

إن دين النصارى قائم على عقيدة الفداء وعقيدة التثليث بالجملة، ولا ينجو أحد من عذاب الله ولا يكون من أهل الدين الصحيح إلا بهما، وكل من أنكر واحدة منهما فهو كافر خارج من ملتهم.

أما عقيدة التثليث فهي من العقائد التي يصعب فهمها على النصارى أنفسهم، فهم يزعمون أن الإله واحد ولكنه إله حَلَّ في ثلاثة أقانيم، لكل واحد منها صفة الكمال والقُدَم والقدرة، والآلهة الثلاثة هي: الآب وهو لفظ يطلقونه على الله، والابن وهو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وروح القدس وهو منبثق من الآب عند بعض طوائفهم، ومنبثق من الآب والابن عند طوائف أخرى.

والمسيحيون يؤمنون أن روح القدس هي روح الله الذي يرشد البشر ويكون دليلًا لهم، فهم يقولون: هذه ثلاثة آلهة وكلها إله واحد، ولهم في ذلك فلسفات وتفسيرات لا أظن أن عقيدة العبودية للرب تكون على هذا النحو من التعقيد، بل لا يكون فيها هذا التناقض الذي يخالف العقل، ويزعم أن الواحد ثلاثة وأن الثلاثة واحد، ولعل هذا أكثر ما يُتعب النصارى في فهمهم لعقيدتهم، وقد يأتي بهم إلى دين التوحيد الخالص الموافق في عقيدته للعقل وكذا الفطرة.

وأما عقيدة الفداء فهي عقيدة تقوم على أن الله تعالى خلق سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه عصى ربه بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، فصار هو وجميع أفراد ذريته ممن خُلِقَ بعده مخطئين مستحقين للعقاب في الآخرة والهلاك الأبدي، وَلَكَمَا كَانَ اللَّهُ مُتَّصِفًا بِالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ جَمِيعًا، فإنه أراد أن يدبر لهم أمرهم لِيُخَلِّصَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ، وكان ذلك بأن اتحد الإله بولده عيسى في بطن مريم عليهما السلام ليولد منها، ويعيش مع الناس حياة الإنسان الطبيعية، ويكون بذات الوقت ابنًا للإله، ويكون كذلك إلهًا له صفات الكمال.

ثم بعد أن يعيشَ زمنًا مع الناس، يُسَخَّرُ أعداءه لقتله، ويُمَكَّنُهُمْ مِنْ صَلْبِهِ، ويَحْتَمِلُ آلامَ ذلك ليَحْمِلَ خطايا البشرِ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، ويَخْلَصَهُمْ مِنْ خَطِيئَةِ أَبِيهِمْ آدم.

وهذه العقيدة تَرُدُّ عليها أسئلة علمية تُظْهِرُ غرابتها عن العقل والشرع، بل تُظْهِرُ استحالة أن يقع ذلك، منها: ما ذنب البشر في خطيئة أبيهم آدم التي تاب منها؟ ولماذا يحملونها بعده؟ وهل عجز الإله عن أن يغفر لهم ذنوبهم بدون تسليم ولده إليهم ليقتلوه؟ ثم لماذا يحمل ابنُ الإله كل هذه الخطايا، أليس هذا من الظلم؟!

ومن الأسئلة التي ترد على ذلك ولعله أعظمُها: كيف تنسبون للإله عقيدة البداء، وهي عقيدة تقوم على جهل الإله بما سيكون في قادم الأيام، وبيان ذلك أن الإله بعد أن خَلَقَ الخَلْقَ وانتشرت فيهم الذنوب، وبعد أن حملوا خطيئة أبيهم آدم، لم يكن يعلم أن ذلك سيقع منهم، فأراد برحمته وعدله أن يجدَ لهم مخرجًا، فعمل على تسليم ولده إليهم ليقتلوه ويصلبوه فيغفر لهم ويسامحهم. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وحتى نفهم عقيدتهم جيدًا، تخيلوا أن معلمًا أتعبه طلابه، ومارسوا معه ألوانًا من العقوق والفسل، وسارعوا في إيذائه ومخالفة أوامره، ولم يستجيبوا لشيء مما طلبه منهم، فكان الرسوب هو الذي ينتظرهم، فأراد هذا المعلم الذي حمل الرحمة في قلبه أن يخلصهم من الرسوب في العلامات، فقام بتسليم ولده إليهم ليقتلوه ويعذبوه فيسامحهم وينجح الجميع. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

جاء في سفر التكوين، وهو من العهد القديم الذي يؤمن به النصارى: (فَدِمَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ). جَلَّ رَبِّي وَعَلَا، وتعالى عما يقولون سبحانه.

ثم كيف يحل الإله في بطن مخلوق؟ وكيف يولد كما يولد المخلوق؟ وكيف اتحدت الآلهة بالإنسان؟ وكيف كان إلهًا وهو ابن إله؟! وما هو حال من مات قبل ولادة عيسى وقبل أن يحل الإله بالمخلوق ويُقَتَّلَ وَيُصَلَّبَ؟! والمصيبة الكبرى أن كثيرًا من عوام النصارى لا يعلمون عقيدتهم هذه بتفاصيلها، وإنما هم يقلدون قساوستهم وكُبارَهم ويتبعونهم عن جهل وضلال.

والحديث في عقيدتهم هذه يحتاج إلى وقفات أخرى، كالوقوف مع نصوصهم التي تثبت ذلك في أناجيلهم المعتمدة، وبيان ما فيها من تناقضات واختلافات في تفاصيل القصة، وإثبات تشابهها مع عقائد الهنود الوثنيين القدامى وخرافاتهم، وكذا البراهمة والبوذيين، كما أثبت علماء أوروبا أنفسهم.

وتحتاج كذلك إلى الوقوف مع صحة نصوصهم في هذه العقيدة، ومعرفة أسانيدها، والنظر في بلوغها مبلغ التواتر.

قارنوا ذلك بعقيدتنا التي تثبت لله صفات الكمال، والتي لا يقبل فيها إلا أن نؤمن بأن الله تعالى يعلم ما كان وما سيكون، وأنه إله واحد، ليس كمثله شيء، وأنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وله في ذلك الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وأن مدار الفلاح والنجاح في الآخرة على صحة الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ الذين اختلفوا في سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام هم اليهود الذين جاؤوا لقتله وطائفة من النصارى الذين أعانوه في ذلك، فإنه لما ألقى الله تعالى شبهه على غيره، اختلفوا فيمن صُلب، أكان عيسى عليه الصلاة والسلام أم غيره؟

وهم كذلك مختلفون في حصول قتله، وفي قلبهم شكٌّ من ذلك وحيرة، وسبب هذا الشك تعدد روايات كتبهم واختلافها، فإنجيل برنابا مثلاً يرى أن الذي قُتل هو يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ، وبرنابا هذا من كبار تلاميذ عيسى عليه الصلاة والسلام وله مكانة في عقيدتهم، ولكن إنجيله غير معترف فيه عندهم، وقد استبعدوه في مجامعهم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ تأكيد قرآني لنجاة نبي الله عيسى من أيديهم، وتكذيب لما زعموه من قتله، وإخبار للمؤمنين بحقيقة ما جرى.

العلم اليقيني الذي نستمدّه من كلام ربنا فيما حصل مع سيدنا عيسى أنه لم يقتل، هذا هو اليقين وليس الظن والشك والوهم.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

أبطل الله مقولة اليهود والنصارى، وأخبرنا بأنهم لم يظفروا بسيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن الله سبحانه ألقى النوم عليه على قول جمهور المفسرين، ثم أبعده عن عالم الدنيا ورفعاه إلى السماء بروحه وجسده، فهو حَيٌّ في السماء لم يمِت حتى الآن.

والنوم الذي ألقاه الله على عيسى قبل رفعه إلى السماء، هو المقصود بالوفاة على قول جمهور المفسرين في قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٥].

وقد رآه ﷺ في رحلة المعراج، والتقى به في السماء الثانية مع ولد خالته نبي الله يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم في حديث المعراج، واللفظ لمسلم، أنه ﷺ قال: «فَإِذَا أَنَا بِأَبْنَيْ خَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ».

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ سبحانه، له العزة الكاملة التي يَنْفُذُ بها قَدْرَهُ كما يشاء، فلا رَادَّ لَأَمْرِهِ، ولا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ.

وله الحكمة البالغة فيما قَدَّرَهُ في هذه الخليقة، وله الحُجَّةُ الدامغة والفضل والمنة فيما يَسَّرَ وأَمَرَ، وفيما أَرَادَهُ في إنقاذ عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود، وفيمن ألقى شَبَهَهُ عليه.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ

شَهِيدًا﴾

لأهل العلم في تفسير هذه الآية طريقتان:

الأولى: ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية تُذَكِّرُ علامة من علامات الساعة الكبرى، وهي نزول سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان، وأنه إذا نزل آمن به جميع من كان موجوداً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، آمنوا به نبياً ورسولاً وداعيةً إلى دين الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعاً، ولن يتخلف عن الإيمان به أحد، وسيرجع اليهود عن تكذيبهم بنبوته وزعمهم بأنه كاذب، وسيعلم النصارى أنه ليس إلهاً ولا هو ابنُ إله.

وعلى هذا التفسير يكون المقصود من قول الله تعالى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ ❀ أي: قبل موت سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام الميته الطبيعية التي يموتها كل البشر، وذلك بعد نزوله من السماء. قال الله تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١]. أي: إن نزوله في آخر الزمان علامة على قرب الساعة، على قول عند أهل التفسير.

دَلَّتْ النصوص الشرعية الصحيحة على أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام سينزل في آخر الزمان، وأن مكان نزوله يكون في دمشق، فيكسر الصليب لإبطال عقيدة النصارى فيه، ويقتل الخنزير الذي هو شعار من شعاراتهم، وأنه يَضَعُ الْجِزْيَةَ، يَعْنِي: لَا يَقْبَلُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وإنما يخبرهم بين الإسلام أو القتال، وأن المال يفيض في زمانه، وأنه يقتل الدجال عند باب اللد (مدينة في فلسطين)، وأنه يَنْزِلُ الرُّوحَاءَ (مكان بين مكة والمدينة) فَيَحْجُّ مِنْهَا وَيَعْتَمِرُ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ فِي أَيَّامِهِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَيُهْلِكُهُمُ اللَّهُ بِبَرَكَتِهِ دُعَائِهِ.

وقد اخترت لكم عددًا من النصوص في ذلك:

منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا (يعني: أَنَّ النَّاسَ تَكْثُرُ رَغْبَتُهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ لِقَصْرِ آمَالِهِمْ، وَعِلْمِهِمْ بِقُرْبِ الْقِيَامَةِ، وَقَلَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا) ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ❀ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ. وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ❀» (١٥٩).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيُهْلَنَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرُّوحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمَرَةِ أَوْ لَيُشْنِنَهُمَا جَمِيعًا (أي: يقرن بينهما في النية)».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَإِمَائُكُمْ مِنْكُمْ؟».

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يَقَاتُلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَى صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تُكْرِمُهُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ».

وأخرج مسلم: «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ (أي: المسيح الدجال) إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ،

فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ (أي: ثَوْبَيْنِ مَصْبُوعَيْنِ بِالْأَصْفَرِ)، وَاضِعًا كَفِّهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بَبَابٍ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ (أي: يقتل الدجال)» الحديث.

الثانية: ذهب عدد من المفسرين إلى أن الآية تتكلم عن حالة نزاع الروح، وهي الحال التي يعاين المرء فيها ما كان غائباً عنه، وينكشف له ما كان مستوراً من أمر الدار الآخرة، وهي الحال التي لا تقبل فيها التوبة ولا الإنابة ولا الإيمان.

والمقصود: أنه إذا حضرت الوفاة كل يهودي أو نصراني وانكشف الغطاء، فإنه سيؤمّن في تلك اللحظات بنبوّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ورسالته، ولكن حين لا ينفع الندم، فالمقصود بقول الله تعالى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ ❦ أي: قبل موت الكافر نفسه.

ومن أهل العلم من جعل إيمان الكافر عند نزاع الروح بمحمد وليس بعيسى عليهما الصلاة والسلام. وقد استأنسوا في تفسيرهم هذا بعدد من النصوص التي تدل على أن الميت تحضره ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب حين قبض الروح وخروجها، وأنه في تلك اللحظات يود لو أنه آمن أو ازداد من صالح الأعمال، كقول الله تعالى: ﴿حَقِّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (١١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ❦ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ❦ [غافر: ٨٤-٨٥].

واستأنسوا بما أخرجه البخاري ومسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنُكَرُّهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرُضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

وعلى كلا التفسيرين: الآية تقرر عقيدتنا في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتدعو أهل الكتاب إلى الإيمان الذي أراده الله منهم، لا الإيمان الذي زينه له أبحارهم ورهبانهم، وتحاول أن تقللهم من الشكوك التي دخلت قلوبهم حول صلبه وقتله إلى اليقين بأنه لم يمت ولم يُصلب، وأنه نبي من عند الله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ سيشهد نبي الله عيسى يوم القيامة على قومه بأنه أذى أمانة التبليغ إليهم كما أمره الله، وأنه ما دعاهم إلا إلى التوحيد وصرف العبودية لله وحده، وأنه شاهد على أعمال الذين كان بين أظهرهم من أهل الدنيا، سواء أكانوا قبل رفعه إلى السماء أو بعد نزوله إلى الأرض. قال الله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

﴿فِظْلِمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾

الذين هادوا هم اليهود الذين استطردت الآيات في بيان عقائدهم وخصالهم، والتي تدل على أنهم ارتكبوا ذنوباً عظيمة عاقبهم ربهم عليها بأن حرّم عليهم طيبات كانت لهم حلالاً.

كان الطعام حلالاً على بني إسرائيل، ثم حرم سيدنا يعقوب على نفسه ألواناً منها كما جاء في قول الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ثم عاقب الله بني إسرائيل على أفعالهم التي ظلموا أنفسهم بها، فحرم عليهم أنواعاً من الطعام جاء ذكر بعضها في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ظلموا أنفسهم بطرائق الشرك والكفر التي اتبعوها، ثم صدوا عن الصراط المستقيم وحالوا بين الناس وبين إقبالهم على دين الله تعالى، فقتلوا الأنبياء وعاندوهم، وكتموا عدداً من أوامر شريعتهم وحرّفوها، وجعلوا يَبْثُونَ الشبهات حول الدين، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وسيغفر لنا.

وصدودهم هذا وصفه القرآن بأنه كثير، أي: لا تُحصى طرائقه وأسبابه، ولا يتوقف في زمان، ولعلكم تستحضرون ما بذلوه مع الناس لصدهم عن اتباع خير البشر ﷺ، ولعلكم تقفون مع ما يبثون في عالمنا المعاصر من الشهوات والشبهات التي فتنت كثيراً من الناس في دينهم، وصرفتهم عن طريق الجادة.

﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوْا وَقَدْ مُنَّوْا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

ومن أسباب عقوبة الله لهم إقبالهم على أكل الربا، والتهاون في أخذه والتعامل فيه مع الغير، مع أن الله تعالى أخذ عليهم الموائيق بألا يفعلوا ذلك، وألا يقتربوا من أموال الناس إلا بما أحل لهم من طرائق، ومع أن التوراة حرّمت عليهم أخذ الربا من شعبهم وإخوتهم ممن هم على دينهم.

ومما فعلوه أنهم أكلوا أموال الناس بالباطل، فتعاملوا بالرشوة والخيانة والغش والخداع والكذب، مع كثرة من يفعلون ذلك منهم وقلة المنكرين فيهم.

وتدل الآية على أن انتشار الربا وأكل أموال الآخرين بالباطل يحول بيننا وبين كثير من نعم الله تعالى، وأن الذنوب لها شؤم على البلاد والعباد. أخرج الطبراني والحاكم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ظَهَرَ الزُّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ».

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تهديد ووعد لمن تبلغه الآيات منهم لعله يرجع عن ضلاله، وإخبار من الله للمؤمنين عن مآل اليهود وما ينتظرهم؛ لئلا يغتروا بامهال الله لهم مع إقامتهم على الكفر وكبائر الآثام.

يا أهل الإيمان: لا يغرنكم تقلبوا الذين كفروا في البلاد، فقد أعد الله لهم عذاباً مؤلماً موجعاً.

﴿لَكِنَّ الرَّاْسِحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

احفظوا عن كتاب الله تعالى كيف يتقلب قارئه بين الترهيب والترغيب، وبين الرجاء والخوف، وبين الرغبة والرغبة، فكما أن ثمة صنفاً من أهل الكفر من اليهود وغيرهم يسارع في تكذيب الرسل والأنبياء وقتلهم وصد الناس عن الدين، فكذلك يتسابق صنف منهم في تسليمهم للرب جل وعلا، ويقولون سمعنا وأطعنا، وآمنا بكل ما أمرنا الله تعالى أن نؤمن به، كما فعل من اليهود أفراد في زمن نبينا ﷺ، كعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد وغيرهم، وكما نسمع في زماننا عمن أسلم وجهه لله، وسارع في دين التوحيد حباً وانقياداً. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَى أَمَّهُ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

المؤمنون آمنوا بما ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن العظيم، ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: التوراة والإنجيل وجميع الكتب السماوية، وهم يُقبلون على صلاتهم وزكاتهم كما علمهم القرآن وعلمتهم السنة النبوية المطهرة، ويجعلون ذلك طريقاً لهم، وعُدّة للنجاة في أرض المحشر التي آمنوا بها، وبما فيها من أهوال، وبما بعدها من نعيم أو جحيم.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ عبارة تشير إلى صنف من الناس، ثبتت أقدامهم في الدين ولم يشترخوا به ثمناً قليلاً، ورسخوا في العلم الصحيح الذي قادهم إلى تعظيم الله تعالى تعظيماً عاشوه في حركاتهم وسكناتهم وخلواتهم، وكان حاضراً في سجودهم وركوعهم وصدقاتهم ودعوتهم وجميع طاعتهم. قال الله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

﴿أُولَئِكَ سَنُوْتُهُمْ أَجْرًا عَظِيماً﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة.

الجنة دارهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾

تَبْنِي الآيات في قلب من يعيش معها حُبَّ أنبياء الله جميعاً، وتربط أجيال الأمة بقامات لا نظير لها في العلم والدعوة، وتملاً عقولنا وأفندتنا بسيرتهم لئلا يعبث بعبادتنا وعقائدنا أهل الضلال والفسق والفجور والهوى. قال الله تعالى مخاطباً نبيه بعد ذكر رسله وأنبيائه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠]

تردُّ الآية على من زعم أن الله تعالى لم يوح إلى أنبيائه شيئاً، وأن ما جاؤوا به إنما هو من عند أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وهي تجيب كذلك على من زعم أن الله تعالى أوحى إلى أنبياء من قبل، ولكنه لم يوح إلى محمد ﷺ، أو بطريقة أخرى: فرقوا بين الله ورسله، أو فرقوا بين نبي ونبي.

يا من تنكرون نبوة محمد ﷺ مع إيمانكم بالأنبياء من قبله: إن الله تعالى قد أوحى إلى محمد ﷺ بأنه نبي، وجاءه جبريل عليه السلام رسول الله إلى أنبيائه جميعاً، وأنزل عليه القرآن معجزة تعلمون صدقها تماماً، وجاءكم بأحاديث ترسم منهاج حياة تملؤها السعادة.

الله ربنا وربكم أوحى إليه كما أوحى التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم والزرور، فكان المصدرُ واحدًا، والغاية واحدةً، والدين واحدًا.

إليكم عددًا من أنبياء الله تعالى ورسله الذين أوحينا إليهم ممن آمنتم به أو كفرتهم، لعل عقولكم تفقه أن التفريق بينهم ضَرْبٌ من ضروب الكفر واتباع الهوى، ولعلكم ترجعون.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول رسل الله سبحانه وتعالى، أرسله الله ليدعو قومه إلى التوحيد بعد أن أشربت قلوبهم حُبَّ الأصنام وعبادتها، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفيه جاءت سورة كاملة في كتاب الله تعالى تذكر عطاءه الذي لم ينقطع في إرجاع قومه إلى عبودية الرب جل وعلا، وتذكر استغراغه لوسعه في بذل أسباب الدعوة وأساليبها فيهم لعلهم يهتدون.

كَفَّرَ قوم سيدنا نوح بالله العظيم، ولم يستجب لدعوة نبيهم إلا قليلٌ منهم، ولمَّا أيس من دعوتهم بعد أن هدَّدوه بالقتل دعا عليهم، فأغرقهم الله تعالى بالطوفان، وأغرق معهم زوجته وولده اللذين سارعا في الكفر وماتا عليه، وما أعظمه من بلاء.

أخرج ابن حبان عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْبِئْ كَانِ أَدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ مَكْلَمٌ». قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشْرَةُ قُرُونٍ».

وأخرج الحاكم في مستدرِّكه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَأَدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا؛ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ».

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ جعل الله تعالى النبوة في ذرية نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما جعلها في ذرية سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبله، فكما أن جميع الأنبياء قبل سيدنا إبراهيم كانوا من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذا كان جميع الأنبياء بعد سيدنا إبراهيم من ذريته عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وقد أجمع على فضله وإمامته جميع أهل الكتب السماوية بعده.

وَصَفَّه الله تعالى في كتابه بأنه أُمَّةٌ بأكملها، وأنه قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ، وَوَفَّى كُلَّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَشْغَلُهُ أَمْرٌ عَنِ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي نَيْتِهِ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ، حَتَّى وَصَلَ الْحَالُ بِهِ مِنْ قُوَّتِهِ فِي الدِّينِ أَنْ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُ.

هو الذي فَارَقَ قَوْمَهُ حِينَ أُمِرَ بِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ إِلَى تَرْكِ خِرَافَةِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَعْظِيمِهَا، وَهُوَ الَّذِي حَاجَّ النَّمْرُودَ فِي وَجُودِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَصَبَرَ عَلَى إِلْقَائِهِ فِي النَّارِ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ، وَتَرَكَ زَوْجَهُ وَوَلَدَهُ فِي الصَّحْرَاءِ اسْتِجَابَةً لِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَضْجَعَ وَلَدَهُ الْوَحِيدَ إِسْمَاعِيلَ لِيَذْبَحَهُ لَمَّا أَوْحِيَ إِلَيْهِ فِي رُؤْيَاةٍ، فَجَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِمَامًا مِنْ أُمَّةِ الْهَدْيِ وَالْخَيْرِ فِي الْأَرْضِ.

ويكفيه أن الله تعالى اتخذهُ خليلاً ورفعهُ إلى أعلى درجات المحبة كما اتخذ نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام خليلاً.

وقد تقدم معنا شيء مما ذكرنا وغيره في فضل هذا النبي العظيم عند الآية الخامسة والعشرين بعد المائة في هذه السورة.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ نبيُّ الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الرضيع الذي كان مع أمه هاجر في مكة يوم بحث له عن ماء، وهو الذي كبر وأصبح شاباً ورفع قواعد الكعبة مع أبيه سيدنا إبراهيم عليهما السلام لما أمرهما الله بذلك.

ابتلاه ربنا ببلاء عجيب إذ أمر والده أن يذبحه بسكين، فلما أخبره والده بالرؤيا التي رأى فيها أنه يذبحه طلب إلى والده أن يبادر بالاستجابة لأمر الخالق المنان الكريم، فأكرمه الله وحفظه من القتل، وفداه بكبشٍ عظيم.

مدحه كتاب ربنا بأنه غلام حليم، وأنه كان صديقاً في عقيدته ودينه، وصادقاً في وعده، وجاء الثناء عليه بأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وأن الله تعالى رضي عنه، ولم يكن من ذريته أنبياء إلا نبياً واحداً هو محمد ﷺ.

وجاء وصفه في القرآن كذلك بأنه رسول ونبي، كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِي آلِ كِنَبِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

قال أهل العلم: كان داعية إلى قبائل جُرهم التي أقامت في مكة، وكذا إلى قبائل العماليق وأهل اليمن.

﴿وَإِسْحَاقَ﴾ هذا نبي الله الذي كان الأنبياء جميعاً بعده من ذريته إلا محمداً عليه الصلاة والسلام، وهو ولد سيدنا إبراهيم الثاني الذي أنجبه من زوجته الأولى بعد أن كبرت في العمر عليهم سلام ربي، وفيه جاءت بشرى الملائكة لإبراهيم وزوجه يوم كانت الملائكة في طريقها إلى مدائن قوم لوط ليُقبلوها على رؤوسهم.

وصفه القرآن العظيم بأنه غلام عليم، وأنه من المصطفين الأخيار، وأنه من أولي الأيدي والأبصار، أي: كان قوياً في عبادته وطاعته، صاحب عقل راجح بصيرٍ بأحكام الله وشريعته.

وهو والد سيدنا يعقوب وجَدُّ سيدنا يوسف عليهم جميعاً صلوات ربي وسلامه. أخرج البخاري عن ابنِ عمرَ رضيَ اللهَ عنهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْكُرَيْمُ، ابْنُ الْكُرَيْمِ، ابْنُ الْكُرَيْمِ،

ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

﴿وَيَعْقُوبُ﴾ سيدنا يعقوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو إسرائيل الذي خاطب القرآن ذريته في القرآن ونسبهم إليه في عدد من الآيات بقوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وهو الذي جاء فيه قول الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وسيدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي جاء ذكر صبره في سورة يوسف، صبره الذي ظهر فيه تعلقه بالواحد الأحد الذي لا ييث شكواه ولا حزنه إلا إليه، والذي طال فيه لقاءه بأحب ولده إليه، وعَظُمَ فيه شوقه حتى عمي بصره.

نقرأ في قصته وكلامه معاني التوكل على الله وحُسنِ الظن به، وإليك شيئا مما قاله لأولاده مُرَبِّيًا ومُعَلِّمًا: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ٦٤]، ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مَوْلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة يوسف: ٦٧]، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة يوسف: ٨٣]، ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة يوسف: ٨٧].

﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ الأسباطُ جمع سبط، وَالسَّبْطُ: الْجَمَاعَةُ وَالْقَبِيلَةُ، الرَّاجِعُونَ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ. قال أهل العلم: الْأَسْبَاطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَالْقَبَائِلِ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ. وبعض أهل العلم قال: إنهم من أولادِ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال الله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

والمقصود: أن الله تعالى بعث أنبياء كثيرين من ذرية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ونسله، وأن كل من اصطفاه الله منهم للنبوّة أو للرسالة نؤمن به، ونؤمن بالكتب التي نزلت عليهم.

﴿وَعِيسَى﴾ هو نبي الله ورسوله الذي أرسله إلى بني إسرائيل، وقد جاءهم بالإنجيل الذي نسخ بعض أحكام التوراة، ثم انقطع من بعده إرسال الرسل والأنبياء حتى جاء الرحمة المهداة نبي هذه الأمة ﷺ.

ونبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي استطردت الآيات السابقة في بيان مكانته بين إخوانه من الأنبياء، وقد دَامَتْ دَعْوَتُهُ فِي قَوْمِهِ ثَلَاثَ سِنِينَ.

﴿وَأَيُّوبَ﴾ هذا النبي قدوة عظيمة في الصبر على المرض، فقد ابتلاه الله به ثمانية عشر عامًا ليرفع قدره وينال بتسليمه الدرجات العلا، وليكون قدوة لغيره من العالمين.

وكان من عجيب بلائه أنه ابتلي في نفسه وأهله وماله، ولم يدعُ الله تعالى إلا بعد كل هذه الأعوام، وكان دعاؤه تعظيمًا لله وتوحيدًا ولم يقل: يا رب، ارفع عني البلاء، وإنما قال: ﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَتَىٰ مَسْفًى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

نادى نبيُّ الله أيوبُ رَبَّهُ متوسلاً برحمته أن يعافيه مما هو فيه، فاستجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يضرب الأرض برجله ففعل، فنبعت عينٌ من الأرض بأمر الله، وأمره أن يغتسل منها فَاغْتَسَلَ، فَرَأَى كُلَّ مَا بَظَاهِرِ بَدَنِهِ مِنَ الضُّرِّ.

ثم إن الله تعالى أبقي له أهله ولم يُصَب فيهم بمكروه، وزاده بعد ذلك بنين وحفدة على قول عند أهل العلم في التفسير.

﴿وَيُوسُفَ﴾ نبي الله يونس بن متى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي سُمِّيَتْ سورةٌ كاملة باسمه في القرآن العظيم، وهو النبي الذي بعثه الله تعالى في أهل نَيْنَوَى في العراق، فأعرضوا في أول أمرهم عن دعوته ولبثوا عاكفين على أصنامهم، فغضب منهم وخرج من ديارهم بعد أن استفرغ وسعه في دعوتهم وتذكيرهم، خرج قبل أن يأذن الله له في ذلك، فركب في سفينة ثقلت بأهلها فكانت القرعة بينهم لِيُخَفَّفُوا الْحِمْلَ بِإِلْقَاءِ أَحَدِهِمْ فِي الْبَحْرِ، فوقعت القرعة عليه، فابتلعه الحوت وأحياه الله في بطنه، ثم دعا دعوته التي تطير بها قلوب المحبين وتلهج بها ألسنة الذاكرين، قال سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

أخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ».

أكرم الله نبيه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصلح له قومه وهداهم، وأخرجه من بطن الحوت، وأنبت له شجرة من يقطين يستعين بها على صعوبة الحال، ثم أرجعه إليهم ليعيش بينهم معلمًا وهاديًا، فتأملوا كيف كان تسبيحه مفتاحًا لنجاته، وتأملوا جمال التعقيب القرآني لكل المؤمنين في قوله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

﴿وَهَارُونَ﴾ هو الأخ الذي رحم الله به نبيُّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كما في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، تميَّز بالرفق، وكان يتحلَّى بالحكمة والصبر.

عاش مع أخيه نبي الله موسى عليهما السلام في مصر، وجاء ذكره في القرآن أكثر من عشرين مرة، يشد على يد أخيه في الدعوة إلى الله أمام أكبر طاغية عرفته الأرض، ويتكلم بلسان فصيح يبين عظمة الخالق ووحدانيته وحقه على العباد.

جاء الثناء عليه في كتاب الله لإنكاره على بني إسرائيل الذين سارعوا في الكفر والردة بعد أن أشربت قلوبهم حب العجل، وذلك لما ذهب موسى لميقات ربنا يكلمه وترك معهم أخاه هارون.

لَقِيَهِ نَبِينَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي رَحْلَةِ الْمِعْرَاجِ فِي السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، كَمَا أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ، وَجَاءَ فِي ذَلِكَ: «حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ (أَي: جبريل): هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ».

﴿وَسُلِّمَنَّ﴾ نبي الله الذي كان بلاؤه بالنعيم، فقد كان نبياً وملكاً من ملوك مملكة بني إسرائيل، وسخر الله له الجنَّ والريح لخدمته وطاعته، وكان يفهم لغة الطير والنمل، وآتاه من المال والخيول الكثير الكثير، وهو الذي سأل الله تعالى أن يكون قضاؤه وحكمه بين المتخاصمين صائباً، وأن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب الله له الدعوتين.

نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ابن نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي برأه الله في كتابه ممّا نسبته إليه اليهود من الكفر واتباع السحر، وهو الذي كتب الله على يديه هداية ملكة سبأ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

﴿وَعَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ نبي الله داود هو الذي قتل جباراً من جبابرة الأرض، فقد قتل جالوت يوم كان عَلَيْهِ السَّلَامُ جندياً في جيش طالوت.

وصفه القرآن الكريم بأنه أواب، أي: كثير الرجوع إلى الله كثير التوبة والإنابة والخشية، وأرشد نبينا عليه الصلاة والسلام إلى الاقتداء به في الصبر على إيذاء أعدائه وكلامهم، كما في قوله سبحانه: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. وعبارة: «ذا الأيد» تدل على القوة والشدة في العلم والعمل، وفيما فيه طاعة لله تعالى.

أخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ». وفي رواية: «وَلَا يَمُرُّ إِذَا لَاقَى».

سَخَّرَ اللهُ معه الجبال يُسَبِّحْنَ، وكذا الطيرَ تَسْبِيحًا وطاعة، وألان الله له الحديد، وعلمه صنعة الدروع واللباس، وجعل له هَيْبَةً في بني إسرائيل ومُلْكًا قويًّا سالمًا من غلبة الأعداء، وآتاه الفهم والفتنة والحكمة، والإصابة في القول والرأي. خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ختم الله الآية هنا بذكر فضله عليه بأن آتاه الزبور، والزبور بمعنى المزبور، أي: المكتوب، وهو لفظ يدل على كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤)

خمسة وعشرون نبيًّا جاء ذكرهم في كتاب الله تعالى، وهُمْ: آدَمُ وَإِدْرِيسُ، وَنُوحٌ، وَهُودٌ، وَصَالِحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَلُوطٌ، وَإِسْمَاعِيلُ، وَإِسْحَاقُ، وَيَعْقُوبُ، وَيُوسُفُ، وَيُوسُفُ، وَشُعَيْبٌ، وَمُوسَى، وَهَارُونَ، وَيُونُسُ، وَدَاوُدُ، وَسُلَيْمَانُ، وَإِلْيَاسُ، وَالْيَسَعَ، وَزَكَرِيَّا، وَيَحْيَى، وَعِيسَى عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَكَذَا ذُو الْكِفْلِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَسَيِّدُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وقد انتفع بِقَصَصِهِم التي جاءت في القرآن خلق كبير وعظيم، والمتأمل لِقَصَصِهِم وتنوعها وكثرة فوائدها يجد أنها ترسم معالم الحياة حتى في أدق تفاصيلها، وتعطي متدبرها مفاتيح الفلاح والنجاح، وتضبط سير العقل والروح في هذه الحياة الدنيا، وتأخذ بيد من عاش معها إلى بناء عقدي ومعرفي يعينه على التعامل مع جميع ظروف الحياة بحلوها ومُرها، وهذا المعنى أشار إليه قول ربنا: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فَوَدَّكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

أجابت الآية هنا عن سؤال لا يغيب عن الفهم: هل جاء ذكر الأنبياء في القرآن حصراً فلم يرسل الله غيرهم، أم أرسل الله أنبياء ورسلًا آخرين؟ والجواب أن ثمة خلْقًا من الرسل لم نوح إليك بذكرهم ولا بحكايتهم مع أقوامهم، وأن الله تعالى أرسل إلى الناس من بدء الخليقة من يدعوهم ويذكرهم، ويعينهم في عبادتهم وطاعتهم، في مشارق الأرض وفي مغاربها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

أرسل الله تعالى رسلاً كثيرين وأنبياء كثيرين، فالرسل أوحى إليهم بشرع وأمروا بتبليغه، والأنبياء أوحى الله إليهم ونبأهم بتبليغ دينه وإن لم يأتوا بشريعة جديدة، ولكنهم يدعون بشريعة من قبلهم من الرسل، وهذا التفريق على قول أهل العلم.

أخرج أحمد وابن حبان وغيرهما بأسانيد ضعفتها كثير من أهل العلم ومال إلى تحسينها آخرون، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «آدَمُ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَنَبِيُّ كَانَ؟ قَالَ: «نَعَمْ نَبِيُّ مُكَلَّمٍ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ الْمُرْسَلُونَ؟ قَالَ: «ثَلَاثُمِائَةٍ وَبُضْعَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا».

وفي رواية: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ وَفَاءَ عِدَّةِ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرَّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا».

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ تشریف عظیم لنبي عظیم من أنبياء الله سبحانه، واصطفاه له من بين كثير من إخوانه الأنبياء بتكليم الله له، حتى إن سيدنا إبراهيم وصفه بأنه كليم الله كما جاء في حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري ومسلم، وهو حديث يصف ذهاب الناس إلى الأنبياء ليشفعوا عند الله في بدء الحساب والتخلص من أهوال وقوفهم في أرض المحشر، وقد جاء فيه: «فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ» الحديث.

وجاء في رواية ابن حبان: «فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ نَبِيُّ اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَكَلَّمَكَ تَكْلِيمًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الشَّرِّ؟».

ومعلوم لديكم أن الأدلة الشرعية جاءت بإثبات التفاضل بين الأنبياء، وأن بعضهم أعلى مقامًا من بعض وإن كانوا جميعًا أعلى الناس قدرًا ومقامًا، وأن من أوجه هذا التفاضل حصول التكليم كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وتكليم الله لأنبيائه لم يكن لسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط، بل ثبت في كتاب الله تعالى أن الله كلم نبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وثبت في الصحيحين أن الله تعالى كلم نبيينا عليه الصلاة والسلام في رحلة المعراج لما سأل أن يخفف على أمته من الصلاة، فخفف عنها في الأداء، وأبقى الأجر كما هو والحمد لله.

ولقائل أن يقول: إذا كان التكليم ثابتًا لغير سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلماذا كان هو كليم الله وليس غيره؟ والجواب أن تكليم الله لغيره من الأنبياء كان في السماء ولم يتكرر كثيرًا، بخلاف تكليم نبي الله موسى الذي تعدد في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال سبحانه: وَقَالَ لِمُوسَى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال: ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُوَدِيَ يَمُوسَى ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَالْحَلْعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [١٢] وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١١-١٤].

ولا تظنوا أن تكليم الله تعالى مقصور على من ذكرنا من النبيين، بل إن الله تعالى كلم الملائكة ويكلمهم، وقد ذكر القرآن ما حصل في كلامه سبحانه مع الشيطان في قصة الأمر بالسجود لآدم عليه السلام.

ومن كرم الله تعالى على عباده المؤمنين أنه كلم أحدهم في حياة البرزخ بعد قبض روحه، وكذلك يكلمهم في أرض المحشر، وقد دلَّ على ذلك ما أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، قال: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي (أي: في غزوة أحد)، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا (أي: مواجهة بدون حجاب، وهذا لأنه خرج من دار الدنيا). فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عَزَّجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ» قَالَ: وَأَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

ودلَّ على تكليمه لهم في أرض المحشر ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتَرْهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكٌ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

بل ومن روعة حياة أهل الجنة في الجنة أن الله يكلمهم فيها ليكون كلامه معهم أعظم نعمة لهم في دار الكرامة على الإطلاق. أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَكِنَّكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وقد صحَّ في كلام ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام أن ثمة أصنافاً يحرمها الله تعالى لذة كلامه معهم، كما في الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، وكالفقير المستكبر، وكالكبير في العمر الذي يقترف الزنا، وكالذي يحلف كذباً، وغير ذلك من الأصناف.

واعلموا أن تكليم العبد لخالقه إنما يكون على الوجه الذي يليق بعظمته وجلاله، وأن كلام الله الذي يسمعه عباده يكون على الوجه الذي يليق بعظمته وجلاله وليس ككلام البشر. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال جَلَّ وعلا: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

واعلموا كذلك أن تكليم الله لأنبيائه وملائكته إنما هو من وراء حجاب، بخلاف تكليمهم له في الآخرة فإنهم يرونه كما يرون الشمس في واضحة النهار، وكما يرون القمر وسط سماء صافية. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه ليُعلموا الناس طرائق الخير والشر، ولينيروا للحائرين دروبهم ويبشروهم بالرضوان والنعيم المقيم إذا أطاعوا واستقاموا، ولينذروهم عذاب الله وعقابه إذا خالفوا وأمره واتبعوا طرائق شياطين الإنس والجن.

وهذا من تمام عدل الله ورحمته بالخلق، لئلا تبقى لهم حجة إذا وقفوا للحساب والجزاء في أرض المحشر، ولئلا يعتذروا بالجهل عن فظائع كفرهم وأعمالهم فيقولوا: يا رب، لماذا تعذبنا ولم ترسل إلينا رسولاً ولم تدلنا عليك، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

ومن تمام عدله سبحانه أنه لا يعذب أحداً من خلقه إلا بعد إقامة الحجة عليه، ومصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وهذه الآية سنذكر عند تفسيرها كلام أهل العلم في الناس الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام وماتوا ولم يعلموا شيئاً عنه،

وكذا حكم مَنْ مات مِنَ الأطفال قبل البلوغ، ومن لم تبلغه الدعوة والمجانين ونحوهم، وكذا أهل الفترة الذين كانوا بين زمن سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام.

ومن عجيب كلام الله تعالى وروعته أنه خاطب أهل الكتاب الذين شهدوا مبعث نبينا عليه الصلاة والسلام، والذين جاؤوا من بعدهم وبلغتهم دعوته، أقول: خاطبهم ربنا وأعلمهم أنه أقام الحجة عليهم بمبعث هذا النبي، وأنه لا يسعهم إلا أن يتبعوا دينه الذي هو دين عيسى وموسى والأنبياء جميعاً. قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ
وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

لا تحزن يا رسول الله على تكذيب قومك لك ومكابرتهم وعنادهم، ولا تغتم كثيراً لما يكره اليهود بك، وكيفيك أن الله تعالى أوحى إليك وشهد بأنك نبي، وشهد بأن القرآن الذي أنزله عليك حق، وما أجملها من شهادة، بل إنه سبحانه تكرم وتفضل وتكفل بنفسه أن يحفظه ويحفظك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

واعلم يا رسول الله أن الملائكة تشهد كذلك على صدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عَليكَ، وكفى بمثل هذه الشهادة شهادةً.

وأنتم أيها الدعاة إلى الله من حَمَلَةِ الْحَقِّ والعدل: تسلحوا بحسن التوكل على الله واليقين به، وارفعوا رؤوسكم بما أعطاكم وعلمكم، وامضوا في طريقكم، واعلموا أن الله تعالى حافظكم وناصركم، فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تتوقفوا مع تكذيب من كذب إلا بقدر الحاجة، وسيروا حتى يكون اللقاء في الجنات.

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزل الله القرآن العظيم مشتملاً على علمه، وجعل فيه ما أراد أن يُطلع عباده عليه من علوم العقائد والشرائع والأخلاق، ومن أخبار من مضى وما سيكون، وما أحل وما حرم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ومن أهل العلم من فسّر قول الله تعالى بأن وحيه نزل بعلمه سبحانه بما سيكون منهم من عدا وصدود، وبعلمه بأن هذا الدين سيبلى الدنيا كلها، وستعلو كلمته على كلمتهم، وستنتفع منه البشرية جمعاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٦٧)

وصف الله تعالى كتابه بأنه مثاني: ومن معاني ذلك أنه يُثني الفكرة ويكررها حتى لا يبتعد عنها متدبرو كلام الله، وحتى ترسخ العقيدة في قلوبهم ولا يزعزحها لصوص العقول والأفئدة.

الذين أنكروا وجود الله، أو كفروا بركن من أركان الإيمان الستة، ثم بذلوا أوقاتهم وأموالهم وقوتهم ليصرفوا الناس عن دين الإسلام، وليثبتوا الشبهات والشهوات في الناس، هؤلاء هم أهل الضلال الذي ليس بعده ضلال، وأهل الخسران الذي ليس بعده خسران، هؤلاء هم أهل جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨)

ظلموا أنفسهم بجحودهم وإنكارهم وحربهم على الدين والحق والعدل، وحربهم على النبي والقرآن وحملته والدعاة إليه، وظلموا غيرهم بتبليس الدين عليهم وحصارهم بأكاذيبهم وضلالاتهم، فمنعهم الله فضله، وأبعدهم عن مغفرته، وحال بينهم وبين قلوبهم فلم تهتد إلى الخير؛ كل ذلك بما كسبت أيديهم.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٩)

استدرجهم في غيهم وغفلتهم حتى كانت عاقبتهم نارًا تلتظي على من أمضوا حياتهم في إيذاء الدين وأهله، وتفننوا في ذلك وأبدعوا، وفرحوا في دنياهم بالباطل واستبشروا؛ حقيقة أمرهم أنهم خابوا وخسروا، والعبرة بالخواتيم.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ سبحانه لا يعجزه شيء، ولا يُسأل عما يفعل، وله في ذلك العلم الكامل والحكمة البالغة والقضاء الحسن.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧٠)

نداء من ملك الملوك وجبار السماوات والأرض لأهل الأرض، نداء جاءنا بعد بيان شبه أهل الكفر وردّها، وبعد تثبيت العقيدة في قلوب أصحابها.

يا أهل الأرض: قد جاءكم الهدى والنور المبين، جاءكم محمد ﷺ بالدين العظيم الذي تواترت أدلة صحته وعظمته، وبالصرات المستقيم الذي لا يقبل الله منكم غيره، ولا يسعدكم سواه، وهو حجة الله على خلقه فآمنوا به وسارعوا فيه، واحفظوه واحملوه وانشروه، ولا تأخذكم فيه لومة لائم، ولا يصدنكم عنه صاّد.

آمنوا خيرًا لكم في دنياكم، فالإيمان فيه حياة الروح والبدن، واعلموا أن جنة الله تتزين لكم كل يوم في أفعالكم، وقد أعد الله لكم فيها ما لا يخطر لكم على بال، وتذكروا رؤيتكم لخالقكم فيها، وأن فيها محمدًا ﷺ وصحبه، وفيها إخوانه من الأنبياء والمرسلين، اللهم أكرمنا بها.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿الله غَنِيٌّ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَعَنْ إِيْمَانِهِمْ، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِكُفْرَانِهِمْ، وَقَدْ بُسِطَ الْقَوْلُ فِي عِظْمَةِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ عِنْدَ آيَةٍ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣٠].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ سبحانه، عليم بحال خلقه وبما يصلحهم ويسعدهم، وبمن يستحق الهداية والغواية، وهو حكيم يضع كل حكم في موضعه اللائق به، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ
إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ

الْغُلُوُّ فِي أَمْرٍ مَا يَعْنِي تَجَاوُزَ الْحَدِّ فِيهِ، سَوَاءَ أَكَانَ ذَلِكَ بِمَدْحِهِ أَوْ ذَمِّهِ، أَوْ كَانَ بِالتَّشَدُّدِ فِيهِ أَوْ التَّسَاهُلِ، وَيَكُونُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ بِأَنْ يَتَجَاوَزَ صَاحِبُهُ الْحَدَّ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالطَّاعَةِ.

وأهم أسبابه الجهلُ بأحكام الشريعة وفقه التعامل مع أدلتها، وكذلك التعصبُ الأعمى لفكرة أو فرقة أو شخص، وكذلك شيوع المنكرات والظلم في المجتمع المسلم، والذي يُحدثُ عند الغيورين على دينهم غلوًّا في التعامل مع ذلك، وهناك أسباب أخرى.

الغلو علامة من علامات انحراف أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولعل أخطر ما فيه على الإطلاق أنهم يُلبسون غلوهم ثوب الدين والعمل الصالح، فَمِنْ غُلُوِّ اليهود في دينهم أنهم حرفوا التوراة وتمسكوا بها بعد مبعث عيسى ومحمد عليهما صلوات ربي وسلامه، بل وصل المقام بهم إلى التكذيب بآخر رسولَيْن إلى البشرية عليهما الصلاة والسلام، ونُصِبَ العداوة لهما وبغضهما، كما فعلوا ذلك مع كثير من الأنبياء والرسل، وقالوا في مريم قولاً عظيماً، وزعموا أنهم شعب الله المختار، وغير ذلك من أنواع الغلو وأشكاله.

ومن غلو النصارى أنهم رفعوا نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها وجعلوه إلهًا، وصاروا يعبدونه كما يعبدون الله، وجعلوا أمّه ممن تُرجى وتُدعى من دون الله، وأدّعوا تثليث الآلهة.

وكذلك زعموا أن الرهبان معصومون من الخطأ، وكذا كبار تلاميذ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن لهم أن يغيروا في الدين ويبدلوا كما شاؤوا وإن حَرَّموا ما أحلَّ الله أو أحلَّوا ما حَرَّمَ الله. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣١].

تناديهم الآية وتقول لهم: يا أيها اليهود والنصارى: إياكم أن تبْقُوا على ما أنتم عليه من الضلال، ومن الكفر بالله العظيم، ومن اتباع أهوائكم فيما تَدِينُونَ وتعتقدون، ولا تُحرفوا دين الله ولا تظلموا أنفسكم بما ابتدعتم في دينكم، وبما اعتديتم فيه على الشرع، ثم نسبتم ذلك لله العظيم ولأنبيائه وكتبه زورًا وبهتانًا.

صحيح أن الخطاب هنا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولكنه يحمل تربية لنا نحن معاصر أهل هذه الملة الحنيفة السمحة، ويحذّرنا من السير على خطاهم في هذا الغلو. أخرج أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسولِ الله ﷺ، قَالَ: «وَيَاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ».

تأملوا نداء نبيكم ﷺ في إغلاق أبواب الغلو والحرص على التوحيد الخالص، تأملوه فيما أخرجه البخاري عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال وهو عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، (أي: لا توصلوني في اعتقادكم وثنائكم) فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

وأخرج أحمد والنسائي في السنن الكبرى وغيرهما، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ (يأخذكم في هواه وما يريد)، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ».

وقد خَرَجَتْ علينا أقوام فتحت أبواب الغلو على المسلمين وسَعَوْا في نشرها، ولَبَّسُوهَا ثوب التدين، واستدلوا عليها بالمتشابه من الكتاب والسنة، فتارة تأتي كلماتهم تحوي دعاء للرسول ﷺ بأن يستجيب لهم مع أنه مات، وتارة يعتقدون في قبره ما لا ينبغي، أو يعتقدون في أولياء الناس وصالحهم ما لا يليق إلا بالرب جل وعلا، وتارة تخرج فرقة تقول بتكفير مرتكب الكبيرة وأنه خالد مخلد في النار، وآخرون حملوا فكرة الإقصاء للجميع إلا من ذهب إلى قولهم وحزبهم ومذهبهم ولم يخالفهم في شيء، وغير ذلك من المظاهر وإلى الله المشتكى.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^{*} تذكر الآية أن الله تعالى خلق سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بكلمة كُنْ من غير أب، وأن الله أرسله إلى بني إسرائيل، وآتاه الإنجيل مُصَدِّقًا برسالة موسى عليه الصلاة والسلام، ومُبَشِّرًا بنبيِّ العالمين محمد ﷺ، وأجرى على يديه معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ثم خاطبنا ببيان بشريته لينفي عنه وعن أمه ما نسبته إليهما اليهود والنصارى.

يستدل عدد من النصارى علينا نحن المسلمين بهذه الآية، ويقولون: إن القرآن وصف نبي الله عيسى بأنه كلمة من الله وروح منه كما وصف الإنجيل، وهذا يدل على أنه ثالث ثلاثة، وعلى أنه إله أو ابن الله.

والمسلمون يقولون في عقيدتهم عن سيدنا عيسى بأنه كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحُهُ، أَلْقَاهَا إِلَى الْعَذْرَاءِ الْبُتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ، كما دلت الآية، وكما جاء في حديث الشفاعة المتفق عليه، أن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول للناس: «اتُّوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَهُ» الحديث.

وبيان ذلك يأتيكم في ضبط معنى أمرين اثنين ذَكَرْتُهُمَا الآية الكريمة:

الأول: قول الله تعالى: ﴿وَكَالِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾^{*} هذا الوصف يقول به النصارى في حق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنهم جعلوا عيسى هو الكلمة التي اتحدت مع الخالق في بطن مريم عليها السلام فكان عيسى إلهًا، وكانت مريم صاحبةً للإله تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

أما في عقيدتنا فَنَبِيُّ الله عيسى أثر لكلمة الله التي تكلم بها، وهي قوله (كن)، وذلك لما أرسل الله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الطاهرة المطهرة العفيفة الطيبة مريم عليها السلام، فنفخ في جيب درعها (أي: لباسها)، ثم نزلت هذه النفخة بأمر الله تعالى إلى موطن لقاح الأب والأم، ثم قال الله تعالى لها كوني فكانت نطفة في رحمها، وعاشت هذه النطفة كما تعيش غيرها حتى كانت جنيناً أَذِنَ الله تعالى بولادته، وهو نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]. أي: في جيب درعها.

وهذه الكلمة هي التي بشر الله بها مريم عليها السلام كما في الآية: ﴿إِذْ قَالَتِ أَلْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكُمْ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٤٥]، وهي التي أخبر الله تعالى بها أمنا مريم لما تعجبت من ميلاد ابن لها بدون وجود زوج، جاءها الجواب عن ذلك في قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٤٧].

يا أيها النصارى، لا تتعجبوا من قصة ميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بدون أب، ولا تغلوا بسببها في دينكم؛ فإن الله تعالى خلق من قبله نبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بدون أب، بل بدون أم كذلك، وإنما خلقه وسواه وصوره من تراب، ثم قال له: ﴿كُنْ﴾، فكان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٩].

فإن ظننتم أن طريقة خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دليل على ألوهيته؛ فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أولى بأن يكون إلهاً من عيسى على طريقتكم، ونحن وإياكم متفقون على كيفية خلق نبي الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وإن تمسكنم بالآيات المتشابهة من القرآن لنصرة باطلكم، فإليكُم آيات محكمات تدل على وحدانية ربنا، وأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بشرٌ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدُ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزُّحُرْف: ٥٩]، وقال جل وعلا: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كُنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المَائِدَة: ٧٥].

والمطلوب: أن تؤمنوا بقدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته، وأنه يخلق ما يشاء سبحانه، وأن آدم وعيسى عبيد لله، وأن عيسى آية من آيات الله تعالى في خلقه، كما هي آياته الماثلة في السماوات والأرض والخلق جميعاً.

الثاني: قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هذا لا يدل على أن الروح جزء من الله وبعض منه كما يقول النصارى ويزعمون، ولكن المعنى أن الله تعالى هو الذي خلق الروح، وهو الذي

أَمَرَ وَقَدَّرَ أَنْ تَجْرِيَ فِي بَدَنِ عِيسَى كَمَا خُلِقَ غَيْرَهَا، فَهِيَ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الْبَاقِيَةُ: ١٣]، فَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَجُزْءٌ مِنْهُ، وَلَكِنْ إِضَافَةُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا هِيَ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ كَمَا نَقُولُ: نَاقَةُ اللَّهِ وَبَيْتُ اللَّهِ، وَهَكَذَا.

وَسَبَبُ تَخْصِيصِ رُوحِ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالذِّكْرِ، وَإِضَافَتِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكْرِيمِهَا عَنْ غَيْرِهَا هُوَ أَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَى أَمْنَا مَرْيَمَ بِدُونِ وَجُودِ زَوْجٍ كَمَا هُوَ حَالُ الْخَلِيقَةِ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَلِيُظْهِرَ لَنَا شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِ وَمَلَكُوتِهِ وَعَظَمَتِهِ.

أَقُولُ مَزِيدًا فِي الْبَيَانِ: الرُّوحُ خُلِقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، وَأُضِيفَتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي بَعْضِ النُّصُوصِ إِضَافَةٌ مُلْكٌ وَتَشْرِيفٌ، فَاللَّهُ خَالِقُهَا وَمَالِكُهَا، يَقْبِضُهَا مَتَى شَاءَ، وَيُرْسِلُهَا مَتَى شَاءَ، كَمَا فِي الْآيَةِ هُنَا وَكَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١].

وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَعْنَى هُنَا هُوَ أَنَّ عِيسَى عَلِي السَّلَامُ خُلِقَ بِنَفْخِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَرُوحُ اللَّهِ هُنَا هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي نَفَخَ فِي دَرْعِهَا، وَقَالَ اللَّهُ لَهُ ﴿كُنْ﴾، فَكَانَ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٩١].

وَجَاءَ تَسْمِيَةُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالرُّوحِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مَرْيَم: ١٧].

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: هَذِهِ عَقِيدَتُنَا الَّتِي لَا يَنْجُو مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ أَحَدٌ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ أَنْ تَعْتَقِدُوا أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وَأَنْ تَصْرَفُوا كُلَّ عِبَادَتِكُمْ إِلَيْهِ، وَأَلَّا تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا أَوْ مِثْلًا أَوْ نِدًّا، وَأَلَّا تَنْسُبُوا إِلَيْهِ أَنَّهُ اتَّخَذَ أَوْ حَلَّ بِغَيْرِهِ.

وَالْمَطْلُوبُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ أَنْ تَوْفَّقُوا بِرُسُلِهِ جَمِيعًا دُونَ تَفْرِيقِ بَيْنِهِمْ.

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ جَمِيعَ فِرْقِ النَّصَارَى مِنَ الْكَاثُولِيكِ وَالْأَرْتُوذُكْسِ وَالْبَرْوَتَسْتَانِ وَغَيْرِهِمْ، جَعَلُوا لِنَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِطًّا مِنَ الْإِلَوهِيَّةِ، وَكَذَلِكَ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ هَذَا الْحِطَّ لِأُمِّهِ مَرْيَمَ، وَزَعَمُوا جَمِيعًا أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي تَفْسِيرِ ذَلِكَ وَفِلَسَفَتِهِ، وَاخْتِلَافِهِمْ هَذَا جَعَلَهُمْ يَكْفُرُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَقَاتِلُونَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ.

هؤلاء، لم يَصْدَقُوا في توحيد ربنا بل أشركوا معه. قال الله تعالى عن سوء مقاتلهم وعظمتها عنده: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿[مريم ٨٨-٩١].

تحذرهم الآية من بقائهم على هذه العقيدة الباطلة، وتفتح لهم أبواب الخير ليتوبوا ويصدقوا في توحيد الله تعالى، وتبشرهم بالخير العظيم الذي ينتظرهم إن استقاموا، تبشرهم بالحياة الطيبة والعافية واطمئنان القلب في الدنيا، ثم الفلاح والنجاح حال موقفهم بين يدي الرب جل وعلا.

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ عقائد النصراني مليئة بالأعاجيب، فتارة يزعمون أن عيسى ابن الله، وهم أنفسهم يقولون بأنه إله، ولهم في ذلك بناء علمي يعجز أكثرهم عن فهمه حتى نفهمه منهم، ولذلك أثبت القرآن كفرهم البواح صراحة، وتعددت آيات كتاب الله في بيان ذلك وتجليته. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ۚ وَمَنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

تنزه ربنا عن الصاحبة والولد، وتقدس في عليائه عن حاجته لأحد، وتعالى عما وصفوه به، إله عظيم له صفات الكمال والجلال، لا شريك له في ملكه وخلقه وتدبيره.

قال الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ۚ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ۝٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿[الإخلاص: ١-٤].

حتى إن الإنجيل الذي اعتراه ما اعتراه من التحريف ناطق بتوحيد الله تعالى، مثبت أن عيسى عليه السلام بشر، ومما جاء عن المسيح عليه السلام قوله: «وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك؛ أنت الإله الحقيقي وحدك. ويسوع: المسيح الذي أرسلته». يوحنا: ١٧ - ٣٠، وقال: «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله». يوحنا: ٨ - ٤٠، وقال: «لرب إلهك تسجد، وإياه وحده نعبد». متى: ٤ - ١٠، وقال: «ليس لأعمل لمشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني». يوحنا: ٦ - ٣٨.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ الله ربنا ورب العالمين جميعاً له ملك السماوات والأرض، والخلق جميعاً عبيده، وهم فقراء إليه، وهم تحت تدبيره ومشيئته، وليس لأحد منهم حظ من الألوهية والربوبية، ولكن كثيراً من الناس لا يعلمون.

وهو سبحانه وحده من تتوكل عليه، ونكل أمرنا إليه، ونعلم أنه القادر على كل شيء والمحيط بكل شيء، ولا حول ولا قوة إلا به.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢)

الاستنكاف هو الامتناع عن فعل الشيء لأنفة وكبرياء في النفس ورغبة عنه.

يخبر الله تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام أنه لا يمتنع عن الخضوع لخالقه وعبادته على الوجه الذي يليق به، فإنه نبي ورسول، وقد علم عن الله ما لم يعلم باقي البشر، وعظمة الرب في قلبه ليست كغيره.

أما الملائكة المقربون فإنهم خلق عظيم من خلق الله، يسبحون ربهم ليلهم ونهارهم لا يفترون، ولا يسأمون ولا يتبرؤون من حبه وطاعته، ولا يُحجمون عن عبادته وذكره وتوحيده.

وجاء ذكر الملائكة هنا للإشارة إلى وجه الشبه بين ما زعمه النصارى من بنوة عيسى، وما زعمه المشركون في مكة من أن الملائكة بنات الله.

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا﴾ من نازع الرب العظيم في وحدانيته وألوهيته، وامتنع عن الانقياد لأمره، فإن مردّه إلى الله، وهو موقوف بين يديه.

وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ هنا تشير إلى أن الله سيجمع أهل التوحيد من المسلمين مع أهل الشرك الذين تكبروا على توحيد الله واتخذوا مع الله آلهة أخرى، وسيقضي بينهم بعدله لا إله إلا هو، وإليك البيان:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧٣)

أبشروا يا من التزمت طريق الملائكة والنيين والصالحين، وسرتم على عقيدة التوحيد الخالص الذي اجتمعت دعوة الأنبياء عليها، ثم سارعتم في عمل الصالحات مما افترضه الله تعالى عليكم وندبكم إليه، أبشروا، فإن الله تعالى يعطيكم أجوركم على ذلك وزيادة، وستجدون ما تقرُّ به أعينكم عند من بيده خزائن السماوات والأرض.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

مساكين أهل الزيف والضلال، فإنهم في أرض المحشر لا خلاق لهم، وقد أعدَّ الله لهم دارًا يتألمون فيها في العذاب الأبدي المقيم بما كسبت أيديهم، وبما اختاروه من التألّي على الله والاعتداء على كبريائه وعظمته. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين حقيرين ذليلين.

ومن أعظم مصائبهم في أرض المحشر انقطاع أنواع الولاية التي كانت بينهم في الدنيا، يوم كانوا يتناصرون في حربهم على التوحيد وأهله، ففي يوم الحساب لن ينصرهم من دون الله أحد، وليس لهم عند الله شفيع.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤)

تتوالى خطابات القرآن ونداءاته للعالمين جميعاً، وغالب ندائه للناس إنما يقصد به أهل الشرك، يرجو بذلك أن يفتح لهم عقولهم، ويحيي في ضمائرهم الخير الذي ينفعهم حقيقة لا وهماً.

ختم للسورة في آياتها الأخيرة، يحمل توجيهاً للذين خلَقهم الله وأكرمهم وكرَّمهم، يوجههم بعد كل حوارات الآيات السابقة مع المشركين واليهود والنصارى والمنافقين، يريد منهم أن ينتبهوا لأنفسهم قبل فوات الأوان، وأن يستيقظوا من سباتهم وغفلتهم التي طالت، وأن يعلنوها على الملأ: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

يا أهل الشرك: تابعت فيكم الدلائل والحجج والبيّنات على أن الله تعالى حقٌّ، وعلى أنه واحد لا شريك له، وأنزل الله إليكم القرآن نورًا مبينًا مزيلاً لظلمات الجهل والشك، ودافعًا لكل شبهة في قلوبكم، وقاطعًا لجال شياطين الإنس والجن فتعالوا إلى الإيمان، وإلى حياة القلوب التي تفتقدونها. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥)

هنيئًا لمن جمع بين إيمانه بالخالق الرازق المحيي المميت، وبين اعتصامه به ودوام لجوئه إليه، وحسن التوكل عليه؛ هؤلاء هم سُكّان جنّته ودار رضوانه، وهم الذين يزيدهم في دار الكرامة من فضله من أنواع المناجح والمشارب والمآكل والمساكن، وهم الذين يتولاهم برحمته، ويشرح صدورهم لطاعته والثبات على صراطه المستقيم، ويعينهم في سيرهم إليه، إنهم صدقوا الله فصدقهم الله.

وتأملوا كيف اقتضت الآية على هذا الصنف ولم تذكر الصنف الآخر، وهو من كذب ولم يعتصم بالله، ولعل هذا الترك إنما هو لتقدّم ذكرهم فيما سبق، أو لينطلق العقل في تقدير فظاعة ما ينتظرهم، أو إهمالاً لهم فكأنهم كالعدم.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ إِن مَّرْءًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۚ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦)

ذكر أهل العلم وجه العودة لآيات المواريث بعد كل هذا الاستطراد مع أهل الكتاب، وبينوا أن هذا أسلوب من أساليب العرب في لغتها، فإنها تباعد بين الأحكام والأخبار لتنشيط الذهن وتذكيره بما سبق، ثم لتدفعه إلى أعمال التفكير في الجمع بينها، ولتعلم المتدبر والمستمع الإحاطة بجميع المعطيات قبل معرفة الحكم الصحيح أو القول المناسب.

هذه الآية من أواخر ما نزل من آيات كتاب الله، وهي آخر آية نزلت في المواريث، وفيها أن الناس طلبوا من نبينا ﷺ بيان حكم الله تعالى في الكلالة، وهي لفظة لها تعلق بعلم الموارث الذي بينت الآيات في أوائل السورة عددًا من أحكامه، وقد سبقت معنا في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢]، وتأملوا كيف بيّنت الآية في أوائل السورة نصيب الإخوة والأخوات من الأم حال الكلالة دون أن تذكر معناها، ولكنها في الآية التي معنا في آخر السورة ذكرت ذلك، وبيّنت أحكام الإخوة والأخوات الأشقاء، والأخوة والأخوات من الأب.

والكاللة لفظة تُطْلَقُ في علم الموارث على من مات وليس له والد ولا ولد، والمقصود: ليس له والد أو والدة أو جد أو جدة على قيد الحياة، وكذلك ليس له أولاد ولا بنات، وليس له أحفاد يرثون.

وهذا يعني أنه قد يكون للميت زوج أو إخوة أشقاء من الأب والأم، أو إخوة لأب فقط، أو لأم فقط، وقد يكون له أعمام وعمات وغير ذلك من القرابة.

ولقائل أن يقول: لماذا قلتم في تعريف الكلالة بأنه ليس له والد، مع أن الآية قالت فقط: ليس له ولد؟ والجواب أن الوالد فهمناه من إعطاء الأخت النصف إذا انفردت، ومعلوم لديكم أن الأخت لا ترث شيئاً مع وجود الأب لأنه يحجبها بإجماع أهل العلم، فدل ذلك على أن الآية تبين ميراث الإخوة والأخوات حال عدم وجود الولد وحال عدم وجود الوالد، وأنه المقصود بالكاللة في مصطلح الشرع.

ومسائل الكلالة من المسائل التي اشتهر سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالسؤال عنها، فقد كان يراجع النبي ﷺ فيها على الدوام، حتى أغلظ له رسول الله في ذلك، كما أخرج الإمام مسلم.

ويظهر من كثرة مراجعة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنبينا عليه الصلاة والسلام في مسائل الكلالة، أنه كان يحمل في جنبات صدره تعظيماً لا تكاد تجد مثله لأحكام الشريعة، وأنه حريص على فهمها بتفاصيلها ليحفظها على الناس، ولئلا يضل فيها أو يزل.

وقبل أن أشرع ببيان تمام الآية، أقدم بين أيديكم مقدمة سريعة فيما يخص الآية من مسائل، فتأملوها:

أقول مستعيناً بالله: الجمع بين الأدلة في علم المواريث يجعلنا نفقه أن الإخوة والأخوات الأشقاء، والإخوة والأخوات لأب لا يرثون مع وجود الأب ولا مع وجود الابن الذكر بإجماع أهل العلم، وأنهم لا يرثون كذلك مع وجود الجد عند أئمة الأحناف، بخلاف جمهور الفقهاء الذين ذهبوا إلى أنهم يرثون جميعاً.

أما مع وجود الفرع الوارث من الإناث دون وجود الأبناء الذكور، فالأخوات لهن حالات يرثن فيها وحالات لا يرثن، بخلاف الإخوة الذكور الذين يرثون بالتعصيب بعد أن يأخذ البنات حصتهن من الميراث.

ووجود الزوج والأم والجدة الوارثة في مسائل الميراث لا يحجب الإخوة والأخوات من نصيبهم، وإن كان النقص يدخل على الأم في حصتها إذا تعدد الإخوة والأخوات كما تقدم معنا في أول السورة.

﴿إِنْ أُمُرُّهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ إذا مات أحدهم ولم يكن عنده فرع وارث ذكر، وله أخت واحدة فقط، فإنه ترث نصف ماله الذي تركه.

والأخت هذه سواء أكانت من أبيه وأمه أم كانت من أبيه فقط، فإنها ترث النصف.

وانتبهوا هنا إلى أنها منفردة، وليس لها أخوات ولا إخوة، وكذلك ليس هناك من يحجبها ويمنعها من الميراث ممن تقدم ذكرهم.

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ إذا كان المتوفى أنثى ولم يكن لها ولد ولا والد، فيرثها أخوها ويأخذ جميع ماله، وإن كانوا ذكوراً متعددين فإنهم يشتركون فيما تركته بالتساوي.

مع التذكير هنا بأن الإخوة الأشقاء يحجبون الإخوة لأب من الميراث لأنهم يدلون للميت من أب وأم وليس من أب فقط.

﴿فَإِنْ كَانَتْ أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ إذا كان هناك أختان شقيقتان أو أختان من أب، أو كانوا أكثر من ذلك، وليس معهن أخ ذكر يعصبن، وليس للميت ولد ولا والد يحجبهن، فإن الأخوات يشتركن في الثلثين.

وانتبهوا هنا إلى أن الأخوات لأب لا يرثن إذا تعددت الأخوات الشقيقات، بخلاف ما لو انفردت أخت شقيقة وكان لها أخت أو أخوات لأب، فإن الشقيقة تأخذ النصف، وتأخذ الأخوات لأب السدس تكملة الثلثين.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ﴿١﴾ هنا يأتي بيان حكم من مات كلاله وقد اجتمع له إخوة وأخوات ذكورًا وإناثًا، فالحكم الشرعي أن نعطي الذكر سهمين، ونعطي الأنثى سهمًا واحدًا، وقد بينا حالات تفضيل الذكر على الأنثى ووجه ذلك في فلسفة التشريع في الآية الحادية عشرة من السورة بفضل الله وكرمه.

مع التذكير بأن اجتماع الإخوة والأخوات الأشقاء يمنع الإخوة والأخوات لأب من الميراث.

﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ ﴿٢﴾ هذه أحكام شرع ربكم لتكونوا على هداية من أمركم، ولتنقطع الخصومات فيما بينكم، وليأخذ كل واحد منكم حقه في مال المتوفى على حسب علم الله وحكمته.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٣﴾ سبحانه، يعلم عواقب الأمور، ويعلم الأصلح لنا في شؤون حياتنا فإنه خالقنا ومالكنا ومدبر أمرنا.

ولا يحضرني في ختام تفسير السورة هنا إلا قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فله الحمد أولاً وآخرًا، وله الفضل والمنّة، وأسأله سبحانه أن يعينني وإياكم على حمل أمانة تبليغ الدين الذي تعلمناه، والدّب عن حياضه، وشكره على ما أنعم به وأكرم، والحمد لله رب العالمين، وصلّ اللهم وبارك على نبي الرحمة والهدى محمد، وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن حمل رايتهم وسار على هداهم إلى يوم الدين.

التفسير الوعظي
لسورة النساء